

محمّد عبد الله عثمان

دولة الإسلام فى الأندلس

عصر الموحدين



الجزء الخامس



الهيئة المصرية
للكتاب

دولة الإسلام فى الأندلس

عصر الموحدين

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : قاعة من الطراز العربى

الصورة المنشورة على الغلاف هى قاعة من الطراز العربى داخل مسجد قوطية، وهو من ضمن بهو ملهى بالأعمدة المصنوعة من الرخام الثمين، وقواعدها مزينة بالقاشانى، كما تقوم عليها عقود تجعلها كبيرة الشبه بالمساجد التى شيدت فى عصر الموحدين، وتمتاز بطلائها الجصى ذو الزخارف التى تجمع بين الرسوم والعناصر الإسلامية والقوطية. فضلاً عن الوحدات الشريطية التى اشتهرت فى الزخارف العربية بشكل عام، وتغطى الزخارف أغلب المساحات التى بلغت من الغنى والدقة والتنوع ما لا يتخيله عقل، وعلى الأخص ما حفر فى الجص، أو ما صنع منه، وللمقرنصات فى هذا الطراز شأن عظيم، بالإضافة إلى استخدام الكتابات والزخارف بالخط الكوفى ذى الحروف المتشابكة والمعقودة.

محمود الهندى

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ مصطفى الصاوى الجوينى
الاسكندرية

دولة الإسلام في الأندلس

عبد الموحدين

الجزء الخامس

محمد عبد الله عنان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

في إطار الأنشطة الثقافية

دولة الإسلام في الأندلس
الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

عصر المرحدين

(الجزء الخامس)

محمد عبدالله عنان

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليصبح نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثناء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرخان

طبعة خاصة من مكتبة الخانجي
لمكتبة الأسرة
بالإشراف مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

تناولنا في القسم الأول من هذا الكتاب، تاريخ الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس ، منذ وفاة عاهلها ومؤسسها يوسف بن تاشفين في سنة ٥٥٠ هـ (١١٠٦ م) ، حتى سقوطها بعد ذلك بنحو أربعين عاما ، وقيام الدولة الموحدية ، على يد داعيتها وإمامها المهدي ابن تومرت ، واستكمال فتوحها ، وتوطد دعائمها بالمغرب والأندلس ، على يد أول خلفائه ، عبد المؤمن بن علي ، مؤسس الدولة الموحدية الكبرى .

وفي هذا القسم الثاني من الكتاب ، نتناول عصر الموحدين في المغرب والأندلس ، ونعرض تاريخ الدولة الموحدية الكبرى ، منذ بداية عهد ثاني خلفائها ، أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) ، حتى انحلالها وسقوطها في عهد آخر خلفائها إدريس الملقب بأبي دبوس ، وذلك في سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، وهي حقبة تزيد على قرن من الزمان ، وهي حقبة حافلة بعظائم الحوادث والتطورات ، سواء في المغرب أو الأندلس .

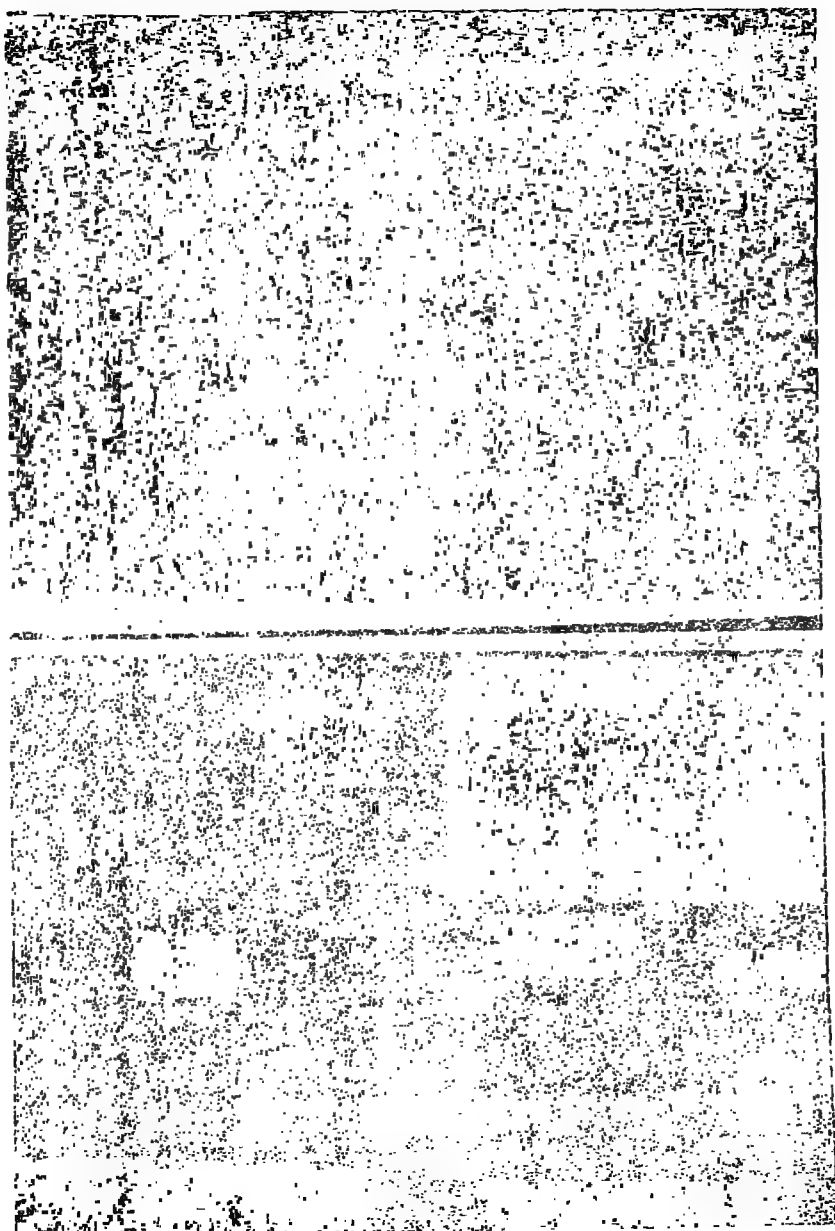
وبالرغم من أن الأندلس لم تكن في ظل الدولة الموحدية ، سوى قطر من أقطارها العديدة ، يتبع المغرب وحكومة مراكش ، حاضرة الدولة الرئيسية ، فإنها لبثت محتفظة بأهميتها السياسية والعسكرية ، واستقلالها المعنوي والحضاري ، ومن ثم فقد خصصنا تاريخ الأندلس ، وتاريخ صراعاتها مع الدول النصرانية الإسبانية ، في هذه المرحلة الطويلة من تاريخ الموحدين ، بما يستحقه من العناية والإفاضة ، ومضيفنا في استعراضه في ظل الحكم الموحدى ، حتى قيام الدولة الهودية المتوكلية ، في شرق الأندلس وأواسطها ، ثم قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، على يد مؤسسها العبقري محمد بن الأحمر النصرى ، وأفضلنا القول ، بنوع خاص ، فيما نزل بالأندلس ، في هذه الفترة المدهمة من تاريخها ، من النوائب والمحن ، بسقوط قواعدها الكبرى ، التي أذكت لوعة الشعر الأندلسى ، وأملت على أبي الطيب الرندى مرثيته الشهيرة التي مطلعها :

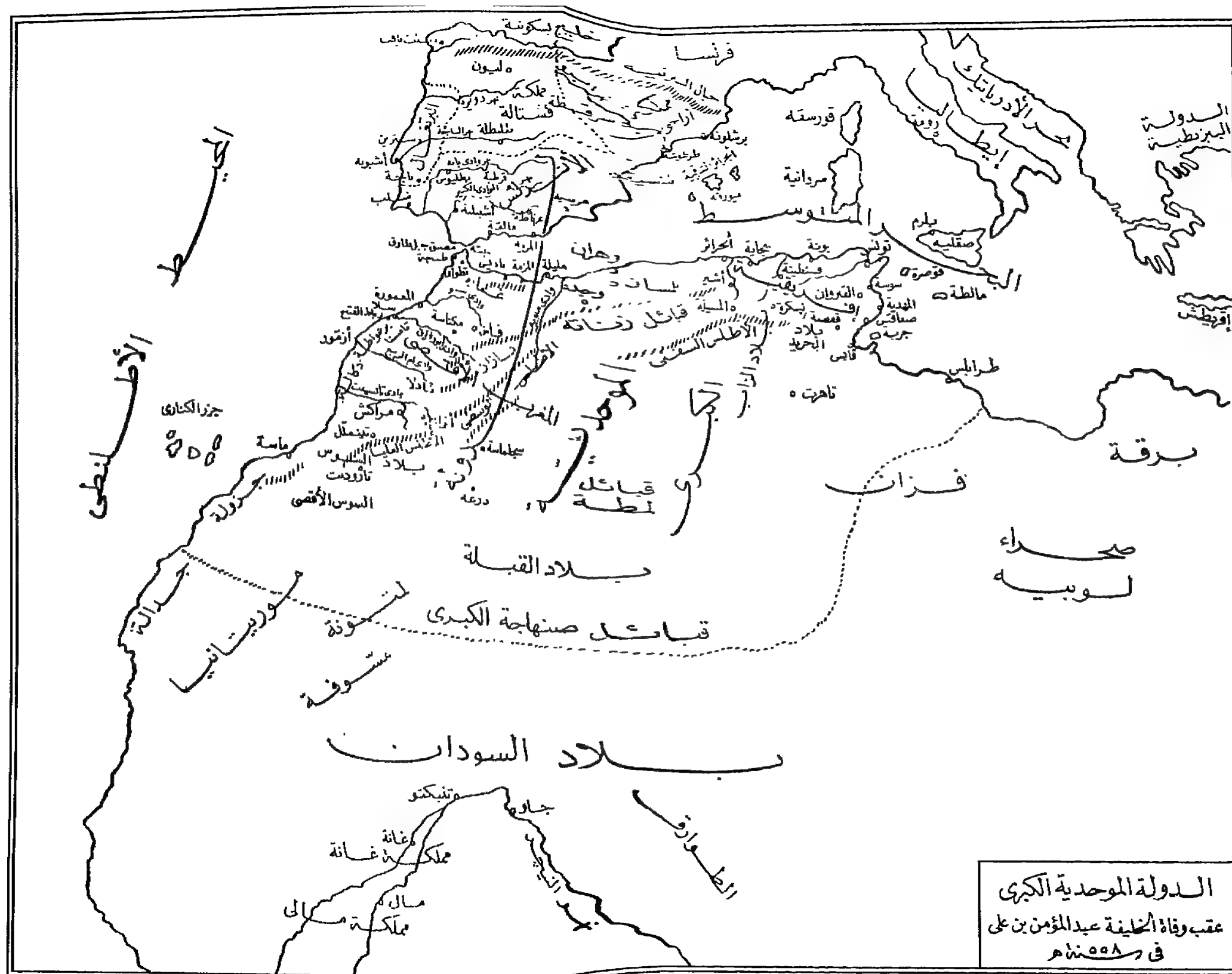
لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يغربطيب العيش إنسان
وراعينا في سرد أدوار هذه المأساة المشجية ، من تاريخ دولة الإسلام في
الأندلس ، أن تبرز تفاصيل المأساة الأندلسية كاملة ، على ضوء مصادر هالغربية
والقشتالية ، وأن نصل بها إلى حيث بدأنا تاريخ مملكة غرناطة في كتابنا « نهاية
الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » ، وهو خاتمة هذه السلسلة الطويلة من عصور
التاريخ الأندلسي ، التي استغرقت من حياة مؤلفها أكثر من ربع قرن من الزمان .
وقد عنيّا في كل من عصرى المرابطين والموحدين حسباً نوهنا في مقدمة
الكتاب ، أن نتحدث في نهاية كل عصر ، عن طبيعة نظم هذا العصر وخصائصه ،
وعن الحركة الفكرية الأندلسية خلاله . وقد تحدثنا في القسم الأول من هذا
الكتاب ، عما يخص العصر المرابطي من ذلك ، وسوف نحاول أن نتحدث في خاتمة
هذا القسم ، عن نظم العصر الموحدى ، وعن سير الحركة الفكرية الأندلسية خلاله
وان لم يكن ذلك بما كنا نبغى من التفصيل والإفاضة . ذلك أن الميدان شاسع ،
يستوعب المجلدات ، وهو ليس في الواقع إلا تاريخ الحضارة الأندلسية ، التي يقتضى
استعراض مراحلها العظيمة الوضاعة ، جهوداً شاقة ، لم يسعفنا الوقت والجهد بينها .
وعنيّا في هذا القسم أيضاً - عصر الموحدين - بتقديم طائفة من الخرائط
والصور الأثرية ، والرسوم الهامة ، منها رسوم لميادين بعض المواقع التاريخية التي
شهدناها بأنفسنا ، ودرسناها على الطبيعة حسباً أشرنا إل ذلك في مقدمة الكتاب
وفها صور لعدد من الآثار الموحدية الأندلسية التي مازالت قائمة حتى يومنا ،
وأشهرها وأروعها جميعاً صومعة جامع المنصور (لاخير الدا) لؤلؤة إشبيلية الأثرية .
ونحن نرجو ، وقد من الله علينا آخر الأمر ، وبعد أن قضينا هذه الأعوام
الطويلة في ارتياد المعاهد والديار بالأندلس والمغرب ، وذرفنا الدمع غير مرة
على أطلال الإسلام بالأندلس ، وقمنا بعديد الرحلات في طلب المصادر الأصلية
واستقصائها ، وجمعنا من ذلك أغزر مادة يمكن الظفر بها - نرجو الله بعد ذلك
كاه ، أن نكون قد وفقنا إلى أداء هذه الرسالة العلمية الخلية التي اتخذناها شعاراً
لحياتنا منذ خمسة وعشرين عاماً ، على وجه يرضى العلم والتاريخ ؛ ومثل هذا
التوفيق ، أن تحقق الرجاء ، يكون لنا خير جزاء لما بذلناه خلال هذه الحقبة
الطويلة من الزمن ، من جهود مضية في سبيل تحقيق هذه الغاية الكبرى .

محمد عبد عيّن

القاهرة في : جمادى الأولى سنة ١٣٨٤
الموافق : سبتمبر سنة ١٩٦٤

صفحتان من الجزء الخامس من مخطوط « كتاب النيل والكنة » لابن عبد الملك الرازي المخطوط بالمتحف البريطاني برقم ٧٩٤٠ ، وما تهمايان وبداية
نص المشرق للرحماني الذي صدر عن المطبعة بمصر ضد التفسير ابن رشد





نفس المصور الموحدي الذي صدر عن الخليفة يعقوب المصور ضد الفيلسوف ابن رشد

الدولة الموحدة الكبرى
عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن بن علي
في ٥٥٨ هـ

الكتاب السادس

عَصْرُ الْخَلِيفَةِ أَبِي يَعْقُوبَ يَوْمُوف

الفصل الأول

عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة . تخلف بعض إخوته عن بيعته . موقف السيد أبي سعيد والى قرطبة والتوجس منه . سير السيد أبي حفص إليه . اللقاء بين الأخوين في جبل الفتح . عود التفاهم والصفا . رواية أخرى عن بيعة أبي يعقوب يوسف . ولاية السيد أبي حفص للوزارة . الثورة في غارة وإخادها . حلة لإمداد الأندلس . عبور قوات موحدة جديدة إلى الأندلس بقيادة السيد أبي حفص . سيرها لمقاتلة ابن مردنيش . استيلاؤها على أندو جر . زحفها على بسطة ثم لورقة . استيلاؤها على حصن بلج . خروج ابن مردنيش لقتال الموحدين . سير الموحدين إلى مرسية . نزولهم في حصن الجلاب . قدوم ابن مردنيش في قواته . الاشتباك بين الفريقين . عنف المعركة واضطرامها . هزيمة ابن مردنيش وفراره إلى مرسية . سير الموحدين في أثره . تحريضهم لأحوار مرسية . إدريس بن جامع يتولى الوزارة للخليفة أبي يعقوب . عود الثورة إلى منطقة غارة وإخادها . احتلال الموحدين للأماكن المفتوحة في ولاية مرسية . عود القوات الموحدة إلى الأندلس . عود السيد أبي حفص إلى مراكش . خروج الخليفة لاستقبال أخيه . وصف للاحتفالات التي نظمت لذلك . المآدب والصلوات . تعيين ولاية الأندلس . اتخاذ الخليفة للعلامة . رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبي سعيد والى قرطبة . الحث فيها على وجوب التدقيق في أحكام الإعدام وإراقة الدماء . عود الثورة إلى غارة واستنحالها . سير القوات الموحدة لإخادها وفشلها في ذلك . سير الخليفة بنفسه لمقاتلة الثوار . منازلة الثوار في جبال غارة . تمزيقهم ومقتل زعيمهم ، عود الخليفة إلى مراكش . رسالة الفتح . الثورة في جبل تاسررت وإخادها . غزو والى غرناطة لحصن لبة واقتحامه . خطر البرتغال على قواعد الغرب . ملكها ألفونسو هنريكز وأطاعه . تحالفه مع القوات الصليبية ومسيره لمحاصرة أشبونة . مناعها وتغافى المسلمين في الدفاع عنها . ضغط الحصار وثلم الأسوار . المعركة الأخيرة . اقتحام النصارى للمدينة . الفتك بأهلها المسلمين واسترقاقهم . استيلاء البرتغاليين على شترين . استيلاؤهم على قصر الفتح . غزوهم لباجة وتمزيقها . جبرالدو سبافور وغاراته على قطاع بطليوس . وصف ابن صاحب الصلاة له ولأعماله . غزوه لمدينة ترجاله . استيلاؤه على قاصرش وحصون متنانجش وشربه وجليانية . انشغال الموحدين بقتال ابن مردنيش وبفتنة غارة . تجديد بيعة الخليفة وتعليله . أقوال ابن صاحب الصلاة . كتاب الخليفة في ذلك . إنعام الخليفة واعطاؤه . تعيين السيد أبي إسحق لولاية قرطبة . إغارة جند ابن مردنيش النصارى على وادى شليل . سير والى قرطبة لقتالهم ونجاحه في تمزيقهم . افتتاح الموحدين لثغر طليعة . مقدم فرناندو رديجس إلى إشبيلية وطلبه مخالفة الموحدين . سفره إلى مراكش وتعاوده مع الخليفة على الإخلاص في مخالفته . الصلح بين فرناندو ملك ليون والموحدين . المناقشة بينه وبين ألفونسو هنريكز . تعريف الرواية الإسلامية به . معاونة الموحدين له في مقاتلة صاحب طليطة .

لما توفي الخليفة عبد المؤمن بن علي بمحلته بئر سلا في ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) خلفه على الأثر ، ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، وعقدت له البيعة بمحلة أبيه في يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة ، وتولى تنظيمها أخوه شقيقه السيد أبو حفص عمر ، والشيخ أبو حفص عمر الهنتائي كبير أشياخ الموحدين ، تنفيذاً لوصية الخليفة الراحل ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم^(١) . وكان الخليفة الجديد عند ولايته فتي في الخامسة والعشرين من عمره ، وكان مولده يتنمّل في الثالث من شهر رجب سنة ٥٣٣ هـ ، وأمه حرة هي زينب بنت الفقيه القاضي موسى بن سليمان الضرير التينمالي^(٢) من أصحاب خمسين . ولما كملت البيعة سار الخليفة الجديد من سلا إلى مراكش ، ونزل قصر الخلافة ، وتولى الشيخ أبو حفص وعظ الموحدين على اختلاف مراتبهم ، وحشم على التزام فروض الطاعة . ثم أعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وحمل جثمانه إلى تينمّل ، حيث ووري إلى جانب إمامه المهدي ابن تومرت .

ولم يتخلف عن بيعة أبي يعقوب يوسف ، سوى بعض أشياخ الموحدين وثلاثة من الإخوة ، هم السيد أبو الحسن علي ، والسيد أبو محمد والي بجاية ، والسيد أبو سعيد والي قرطبة . فأما السيد أبو الحسن فقد كان حاضراً ليلة وفاة أبيه ، وعقد البيعة لأخيه ، ولما عاد من تينمّل بعد مواراة الخليفة الراحل ، لزم العزلة ، وبرّحت به عوامل الغيرة والحقد ، حتى مرض وتوفي غير بعيد وذلك في أواخر سنة ٥٥٨ هـ . وأما السيد أبو محمد عبد الله والي بجاية ، فقد لزم عاصمة إمارته ، وكتب الخليفة ترداد إليه بالاستعطاف والاستدعاء ، وهو يتمهل ، ويرد بالاعتذار والاستعداد للرحيل ، واستمر في هذا التردد والتسويف نحو عام ونصف ، وأخيراً اعتزم أمره ، وغادر بجاية في جاشيته ، قاصداً إلى مراكش ، فأدركه

(١) وذلك في الفصل الرابع من الكتاب الثالث (ص ٣٩٤) .

(٢) المراكشي . في المبحث ص ١٣٢ . ورواها في التوسل ص ١٣٤ ، ويسمى والدته أبي يعقوب عاتقة ، والجلال الموشية ص ١٢٩ ، وابن الخطيب في الإحاطة ، (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ القبري ، لوجية ٣٩٨) . عرفت أيضاً في تاريخ ابن خلدون ، (ص ١٢٩) .

المنية في الطريق (سنة ٥٦٠ هـ) فأسف أخوه الخليفة لفقده ، وشمل أهله وبنيه بعطفه ورعايته . ونظر فيما يجب لضبط شئون بجاية حتى يعين لها وال جديد .

وكان تحلف السيد أبي سعيد مثار التوجس ، ومختلف الأقاويل ، لأنه كان بوجوده في رئاسة الأندلس ، الشطر الثاني من الإمبراطورية الموحدية ، وبما يسيطر عليه من الموارد والقوى ، حرياً بأن تحدثه نفسه بالخروج والعصيان . ومن ثم فقد بعث أخوه الخليفة لاستدعائه ثلاثة من الحفاظ الموحدين هم أبو عبد الله ابن أبي إبراهيم ، وأبو يحيى بن أبي حفص ، وأبو الربيع سليمان بن داود ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، تمارص السيد أبو سعيد ، ولم يستطيعوا مقابلته إلا بصعوبة ، ولم يحصلوا منه إلا على وعود غامضة . ولما عاد هذا الوفد إلى مراکش ، ولم يتحقق ما وعد به السيد أبو سعيد من القلوم ، وكثر التوجس والإرجاف من موقفه ، اعزم السيد أبو حفص عمر أن يسير بنفسه إلى استدعاء أخيه ولقائه في جبل الفتح (جبل طارق) . فغادر مراکش في فاتحة ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ في جملة من أشياخ الموحدين ، منهم أبو يحيى بن أبي حفص ، وأبو يعقوب بن ينجيت ، وأبو يحيى بن جامع ، ويوسف بن واتودين ، وجماعة من زعماء ثوار الأندلس منهم سيدراى بن وزير ، وابن الصغار صاحب للة ، وجماعة من أشياخ لمونة ومسوفة ، ومعه قوة من نحو أربعة آلاف فارس ، خصصت لإمداد قوات الأندلس وتعزيزها . ولما وصل الركب إلى سلا ، تقدم الجند للعبور إلى الأندلس ، وأقام بها السيد أبو حفص شهراً ، بعث خلاله إلى أخيه السيد أبي سعيد بقرطبة يحظره بمسيره إلى رؤيته ، وبأن يكون اللقاء بينهما في جبل الفتح . ولما وصل ركب السيد إلى طنجة ، استقل منها سفينة أقلته مع كاتبه عبد الملك بن عيَّاش وبعض خاصته إلى سبتة ، وسارت بتمية الركب إلى سبتة ، بطريق البر . وفي اليوم التالي لوصول السيد أبي حفص إلى سبتة ، وصلت من الجزيرة الخضراء سفينة ، أعلن من فيها وصول السيد أبي سعيد في خاصته وأشياخه إلى جبل الفتح في انتظار أخيه ، فعبر السيد أبو حفص وصحبه البحر في نفس اليوم إلى جبل الفتح . ويقول لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذا الحفل ، ومن جملة المرافقين ، أولاً وآخرها ، إن اجتماع الأميرين قد تم على خير ما يرجى ، بين قرع الطبول ونشر البناد ، والسرور بالولود . وجاءت وفود قرطبة ، وغرناطة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس ، وكان على رأس وفد إشبيلية الفقيه الحفاظ ابن الجند ، والقاضي أبو بكر

الغافقي ، وصاحب الخزن محمد بن المعلم . وجلس السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد في قصر الجبل لاستقبال الوفود ، فتعاقبت في السلام ، وإلقاء الخطب ، وأنشد الشعراء قصائدهم ، على نحو ما حدث أيام مقدم الخليفة عبد المؤمن ، ودامت إقامة الأميرين بالجبل خمسة عشر يوما ، أغدقت فيها الأعطيات والبركات والكسب . وصفا الجو ، وارتفع الإرجاف ، ثم انصرفت الوفود ، وعبر السيدان أبو حفص وأبو سعيد كل في صحبه ، البحر إلى سبتة ، وأقاما بها ثلاثة أيام ريثما عبرت بقية الركب من الجبل ومن الجزيرة الخضراء ، ثم سار السيدان إلى مراكش ، فغلقاها أخوهما الخليفة أبو يعقوب يوسف خارج الحضرة ، وكان اجتماعا بهجاء ، سادته البشر والحبور ، وكان وصول السيد أبي حفص وأخيه السيد أبي سعيد إلى مراكش في أول شهر رجب سنة ٥٦٠ هـ ، فاستقبل الجميع بالحضرة أروع استقبال ، وأنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم . وهكذا تم التفاهم والتعاطف بين الخليفة وأخيه ، وأسبل الستار بذلك على ما كان يحيط بموقف السيد أبي سعيد من التوجس والإرجاف (١) :

هذا وقد اعتمدنا فيما تقدم ذكره عن تولية الخليفة أبي يعقوب يوسف وبيعته ، وما حدث عن تخلف بعض إخوته عن بيعته ، على ما ذكره مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيهقي وابن صاحب الصلاة ، باعتباره أوثق ما يمكن الاعتماد عليه في هذا الشأن (٢) . بيد أنه توجد إلى جانب ذلك رواية أخرى مفادها أن البيعة التي عقدت لأبي يعقوب عقب وفاة أبيه الخليفة عبد المؤمن ، لم تكن بيعة تامة ، إذ تخلف عنها بعض أشيخ الموحدين ، وبعض إخوته ، وأنه لذلك اكتفى باتخاذ لقب الأمير حتى تكمل بيعته ، وصرفت الجيوش التي كانت مجتمعة للجهاد ، وعاد إلى مراكش ، فأقام بها ، وكتب إلى جميع عمالاته بالمغرب وإفريقية والأندلس في طلب البيعة ، فوردت إليه من سائر النواحي ، ما عدا قرطبة التي كانت لطر

(١) نخلصا ما تقدم عن رواية ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة على المستصمين » (مخطوط أكسفورد السالف ذكره) لوائح ٤٨ إلى ٥٧ ، وفي المطوع ص ٢٦٨ - ٢٥٠ وأسرها عن نقل ما أورده ابن صاحب الصلاة من مختلف قصائد المديح والتهنئة . وراجع في ذلك أيضا « البيان المغرب » القسم الثالث ، وهو يخلص كذلك عن ابن صاحب الصلاة (ص ٥٩ - ٦٢) .

(٢) الأول في كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٤ ، ويبيح في كتاب « المن بالإمامة »

أخيه السيد أبي سعيد عثمان بن وهب الجبالي الذي كانت ينظر إليه أخيه السيد أبي محمد عبد الله بن أبي
وفي سنة ٥٩٠ هـ ، وقد عليه أخوة السيد أبي سعيد بن أبي عبد الله ، وكل في
أشياخ إمارته ، طائعين تائبين ، وقلنا إليه البيعة ، وبذلك كملت بيعته . وذكر
القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر ، وهو من قضاة عبد المؤمن ومن مؤرخي
الموحدين ، أن أبا يعقوب يوسف بويع بيعة الجماعة وانفقت الأمة على بيعته
في اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ ، وذلك بعد وفاة أبيه بعامين ، وبعد
أن بايعه أخوه السيد أبو سعيد والى قرطبة ، وتسمى من ذلك الوقت بأمر
المؤمنين ، بعد أن كان يسمى بالأمير (١) .

وتولى السيد أبو حمص منذ البداية شئون الحجابة لأخيه السيد أبي يعقوب
« على معنى الوزارة والإمارة » بتفويض الأوامر السلطانية باسمه وعن أمره ،
على نحو ما كان عليه عند أبيه الخليفة عبد المؤمن من تولى شئون وراثة . والظاهر
مما تؤكد لنا الرواية من أن السيد أبا حمص كان يزاول سلطته عن رضى من
أخيه السيد أبي يعقوب ، وأن علاقتهم الأخوين كان يسودها الصفاء والمحبة ، أن
السيد أبا حمص ، كان في منصبه يزاول سلطة مطلقة ، وأنه كان هو الخليفة
الفعلي ، وأنه لم يترك لأخيه السيد أبي يعقوب سوى مظاهر الإمارة الشكلية . وكان
الوزير لإدريس بن إبراهيم بن جامع وهو من قرابة المهدي ، يمثل بين أيديهما
لرفع المسائل ، وتوصيل رغبات الوافدين والسائلين ، وكان يؤدي دوره في
تنظيم الصلة بين الأمرين ، وفي التوسط بينهما ، ببراعة وكياسة (٢) . بيد أن
السيد أبا حمص لم يملك في منصبه هذا سوى فترة قصيرة لم تطل سوى عامين ،
وافرد بشئون الحجابة والوزارة من بعده الوزير ابن جامع (٣) .

وفي بداية عهد أبي يعقوب في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) وقعت ثورة محلية
في منطقة غمارة ، بزعماء مريزدآخ الغماري الصنهاجي من صنهاجة مفتاح ،
فتغلب على تلك المنطقة ، والتفت حوله جموع غفيرة من غمارة ، وصنهاجة .

(١) راجع دوس القرطاس من ١٣٧ .

(٢) ابن مبريد ، الصلاة في كتابه المسمى بالإمامة (المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٨ ب
في المطوع ص ٢٣٧ و ٢٣٨) وكذلك البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٥٩ .

(٣) ابن مبريد الصلاة في « إلى بالإمامة » لوحة ٧١ ، والمعجم في المطوع ص ٢٨٥
ص ١٣٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٦٥ .

وأورية ، وضرب السكة باسمه ، ثم سار إلى أراضي تاودا ، على مقربة من فاس ، وعاش فيها وقتل كثيراً من أهلها ، فسير الخليفة أبو يعقوب لقتاله جيشاً موحدياً بقيادة يوسف بن سليمان . وفي رواية البيهقي أن الموحدین قاتلوا مزید دغ ، حتى بددت قواته ، وأذعن للتوحيد ، ثم سمح له بأن يجوز إلى الأندلس ، وهناك نزل بقرطبة . لكن صاحب روض القرطاس ، يقول لنا بالعكس إن الثائر قتل وحمل رأسه إلى مراکش^(١) .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى الحملة التي جهزها السيد أبو حفص لإمداد قوات الأندلس ، وذلك حين سيره لمقابلة أخيه أبي سعيد بجبل الفتح . وقد عبرت هذه الحملة ، وقوامها نحو أربعة آلاف فارس ، معظمهم من العرب ، البحر بقيادة الشيخين أبي سعيد بن الحسن ، وأبي عبد الله بن يوسف ، وسارت توا إلى إشبيلية . وأرسل منها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز حاميتها ، وتصادف أن كانت ثمة قوة من النصاري من أهل شترين تغير على تلك المنطقة ، فقاتلها الفرسان الموحدون ومزقوا شملها ، وأفروا معظمها . وسار الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله ببقية العسكر من إشبيلية إلى قرطبة لتعزيز جبهتها الدفاعية ، إزاء هجمات ابن مردنيش . وماكاد الموحدون يستريحون قليلاً ، حتى خرجوا إلى أحواز قرطبة ، وهناك التقوا في وادي « لك » القريب منها بجمع من عسكر ابن مردنيش ، وهم الذين يتبعهم مؤرخ الموحدين « بالأشقياء » ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، أبلت فيها الموحدون أحسن البلاء واستمر القتال بينهما طوال اليوم على شرب الماء ، وافتراقاً دون جسم ، وكان ذلك في شعبان سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) . وبعث الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله بأنباء المعركة إلى مراکش ، ووصفا ما لقيناه في القتال من هول ومشقة ، وطلبا العون والإنجاد ، فاهتم لذلك السيد أبو حفص وجهز في الجبال جيشاً من الموحدين والعرب ، وخرج من مراکش في قواته ووجهه بأخوم السيد أبو سعيد عثمان وإلى قرطبة ، في أوائل شهر رمضان ، وأسرع في السير وعبر البحر ، ووصل إلى مجموعته إلى إشبيلية ، وهناك اجتمع بزعماء الموحدين ، وقر الرأي على محاربة ابن مردنيش في عقر أراضيه قبل أن يبادرهم بمهاجمة قرطبة^(٢) .

(١) راجع أخبار المهدي ابن تومرت من ١١٢٤ هـ وروض القرطاس من ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة في كتاب « الملل والألحاف » لرسالة ٧٧ و ٧٨ في المطبوع ض ٢٧٠ .

وخرجت القوات الموحدية من إشبيلية في أول شهر ذي القعدة سنة ٨٥٦٠ ، وسارت نحو الشمال الشرقي معرجة على قرطبة ، حتى وصلت إلى أندوچر ، وهي من معاقل ابن مردنيش التي تهدد سلامة قرطبة . فهاجمتها واستولت عليها في الحال عنوة ، وبأمر أهل الحصون المجاورة إلى إعلان الطاعة وطلب الأمان ، وأغار الموحدون على أنوار أندوچر واستولوا على كثير من السبي والغنائم . ثم حشد السيد أبو حمص صفوة جده من الموحدين والعرب وسار من أندوچر جنوباً ، قاصداً إلى مرسية ، من طريق السهل ، فوصل إلى مشارف مدينة بسطة ، دون أية مقاومة ، وجده تبيت في تلك المنطقة ، وتبرز القوات وتشتاق الماشية ، وهالك على مقربة من بسطة وإفنه حثود عن ناطة ومنهم فرقة من الرماة ، وسار الجيش الموحدى بعد ذلك صوب لورقة ، ماراً بحصن باجر أو بلش (١) وهو من أهم معاقل ابن مردنيش في تلك المنطقة ، فسلم قائده العزفي وأصحابه بالأمان ، ووضعت به جامية موحدية (٢)

وكان أحمد بن سعد بن مردنيش أثم ذلك قبله حشد قواته ، وجمع جمع كبير من النصاري ، وخرج من مرسية يرمي مع العراض الموحدين عند لورقة ، ويحول عدون سطوهم بها إلى مرسية ، فلما رأى الموحدون صعوبة احتراق هذا الطريق الحبلى الوعر تحولوا إلى عرت لورقة ، وانحدروا إلى السهل المسمى « بالفتيدون » وهو السهل الواقع بين لورقة وقرطاجنة ، وهو من أحص بقاع هذه المنطقة ، ثم احترقوا السهل نحو مرسية . وهذا ما ورد في خطاب الفتح الذي أرسل فيما بعد إلى مراکش ولكن البيدق يقول لنا بالعكس إن الموحدين علواً على لورقة ، وقرطاجنة وبلش ، وأولاد أهلها ، وأن ابن مردنيش أحيا قديم إلى لورقة كابن بها الموحدون (٣)

وكان ابن مردنيش في تلك الأثناء قد ارتد بحنده نحو مرسية من الطريق الحبلى ، فلما كان يوم الجمعة السابع من ذي الحجة سنة ٨٥٦ (١٥ أكتوبر سنة ١١٦٤ م) ، أشرف الموحدون عند الظهر على فحص مرسية ، على بصعة أميال منها ، ونزلوا

(١) هو المسمى بالإسبانية Vélez Rubio .

(٢) وردت تفاصيل سير الحملة الموحدية في خطاب الفتح الذي أرسل إلى مراکش بعد موقعة فحم الحلاب ونقله إليها ابن صاحب الصلاة وسائق على دكرم .

(٣) كتاب أحوال المهدي ابن تومرت ص ١٢٦ .

بموضع فيه يعرف « بفحص الجلاب » . وهناك أشرف ابن مردنیش بقواته قبائلهم ، فنظم الموحدون قواتهم من أهل هرغة وتينملل وهتتاة وجدميوه وباقي القبائل الموحدية ، كما نظم الجند العرب من بني هلال ورياح والحشميين والرعيين وحرس الأمير الأسود : ويدو من خطاب الفتح السالف الذكر أن جيش الموحدين كان يضم عندئذ زهاء اثني عشر ألف مقاتل غير حامية غرناطة ، من ذلك نحو أربعة آلاف هي التي كانت تحت إمرة الشيخين أبي سعيد وأبي عبد الله ، وثمانية آلاف هي جملة الحملة التي عبر بها السيد أبو حفص وأخوه : وأما جيش ابن مردنیش فلم تذكر لنا الرواية جملة ، ولكنها تذكر من كان به من النصاري المرتقة بثلاثة عشر ألف مقاتل^(١) .

وتعاهد الموحدون على الصدق والثبات والصبر ، والاستشهاد في سبيل الله . وبدأ ابن مردنیش الهجوم فانقضت قواته أولاً على الجند العرب ، ثم تحول إلى مهاجمة الموحدين ، فهاجمهم مرتين متواليتين ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، قاتل فيها الموحدون والعرب أشد قتال وأروع ، واستمرت حتى مغيب الشمس ، ورجحت كفة الموحدين في النهاية ، ففتكوا بجيش مردنیش ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسقط في الموقعة شيوخ العرب السبعة فيمن سقط من الموحدين ، وارتد ابن مردنیش في فلول قواته إلى تل قريب إلى أن دخل الليل فخر مسرعاً إلى مرسية ، وامتنع بداخلها . وفي صباح اليوم التالي الثامن من شهر ذي الحجة (١٦ أكتوبر) ، سار الموحدون إلى مرسية ، حتى اقتربوا منها ، ونزلوا بساحتها ، وأمضوا بها عيد الأضحى ، وخرجت سرياتهم تدمر أحواضها وغياضها ، ومنها بساتين ابن مردنیش البانعة ، مدى أيام ، حتى امتلأت أيديهم بالغنائم والأقوات ، ووصلت طلائعهم إلى أوريولة وألش . وبعث السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى أخيهما الخليفة أبي يعقوب بمراكش بكتاب الفتح والبشرى ، من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش ، فوصل إلى الحضرة في الثالث والعشرين من ذي الحجة ، وقرئ على سائر الحاضرين من الأشياخ ، والطلبة ، ثم قرئ بعد ذلك بالمسجد الجامع على كافة الناس^(٢) .

(١) نشرنا في الفصل الثاني خريطة مملكة الشرق ومواقع غزوات الموحدين لها
(٢) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تفاصيل الفزوة الموحدية لأندوجر ، وسير الموحدين إلى مرسية ، وموقعة فحص الجلاب في كتاب « المر بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوجه ٥٨ إلى لوجه ٦٠ ب . كما أورد لنا نص الخطاب الذي أرسل بالفتح إلى مراكش (لوجه ٦٠ ب إلى لوجه ٦٣) =

وكانت هزيمة فحص الجلاب من أقسى الضربات التي أصابت ابن مردنيش، وكانت بداية انحلال ثورته ، وانهيار سلطانه في شرق الأندلس .

وحدث في مراكش خلال ذلك أعنى في عام ٥٦٠ ، وفي أثناء غياب السيد أبي فحص بالأندلس ، حدث هام ، هو تولى الخليفة أبي يعقوب يوسف لسلطانه المباشر ، واختصاصه للوزير أبي العلاء إدريس بن جامع بتدبير الشؤون وتقريبه إياه ، واختار ابن جامع لمعاونته صفوة من رجاله المخلصين ، في مقدمتهم الخطيب أبو الحسن الإشيلي ، وأبدى في منصبه كفاية وغيرة ونزاهة ، وبذل في تصريف الأمور وإقامة العدل ، وتوطيد السكينة والأمن ، جهوداً مشكورة ، حتى كان الراكب وفقاً لقول المؤرخ « يسير حيث شاء من بلاد العدو في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله » . وأحسن لمن وفد عليه واستغاث به ، من أجناد الأندلس المضامين أو المأسورين ، يفتديهم بماله ، ويهبهم الخيل وآلات الحرب والكساء ، وأسبغ رعايته على الموحدين المقيمين ، وعلى طلبة الحضرة الوافدين إلى العاصمة ، وفرض الزكاة على حكم الكتاب والسنة ، وأنفقها في وجوهها المشروعة^(١) .

وحدث في هذا العام أيضاً أن عادت الفتنة إلى منطقة غمارة ، وعادت بعض بطون صنهاجة إلى نقض الطاعة بقيادة سبع بن منعقاد . فخرج إليهم الشيخ أبو فحص عمر بن يحيى ، في حملة من الموحدين ، سارت إلى جبال غمارة ، وضيق على الثوار ، حتى أذعنوا إلى طلب الأمان تائبين ضارعين ، معلنين للطاعة والخضوع^(٢) . بيد أنه كان ، كما اسرى ، خضوعاً خادعاً مؤقتاً .

على أثر انتصار الموحدين في موقعة فحص الجلاب ، قام السيدان أبو فحص وأبو سعيد ، بوضع حاميات موحدية في الأماكن المفتوحة ، وتنظيم حكمها ،

= وتراجع أخبار موقعة فحص الجلاب أيضاً في روص القرناس من ١٣٧ ، والبيان المغرب - القسم الثالث - ص ٦٤ و ٦٥ ، وكذلك في Haici Miranda : Imperio Almohade, V.I. p. 226 & 227 M. Q. Remiro : Murcia Musulmana, p. 219- A P Iba.s : Valencia Arabe, p. 641 (١) كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ أو في المطبوع ص ٢٨٥ و ٢٨٦ وب ، وكذلك البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٦٥ ، و ٦٦ وهو ملخص من كتاب « المن بالإمامة » . (٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٤ ، و « المن بالإمامة » لوحة ٧٢ .

وضبط الأمور فيها ، ثم انصرفا من ظاهر مرسية ، في القوات الموحدية ، عائدين إلى الأندلس . ولما وصلا إلى قرطبة . تخلف بها السيد أبوسعيد بموافقة سابقة من أخيه الخليفة ، ليستأنف بها مهام منصبه في الولاية عليها ، وسار السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، ثم عبر البحر إلى العدو ، عائداً إلى حضرة مراکش ، فوصل إليها في ضحى اليوم العاشر من ربيع الأول سنة ٥٦١ هـ .

ويقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفا ضافياً لاحتفال الخليفة أبي يعقوب باستقبال أخيه في ظاهر مراکش ، وما تلا ذلك من الحفلات والمآدب وتوزيع الصلات . ولابد لنا أن ننقل هنا موجزاً لهذا الوصف ، أولاً كنموذج لحفلات الابتهاج الموحدية ، وثانياً كنموذج لبعض نواحي الحياة الاجتماعية الرسمية ، التي يصفها لنا ابن صاحب الصلاة خلال روايته من آن لآخر .

يقول ابن صاحب الصلاة ، إن الأمير الإمام أبا يعقوب ، خرج بنفسه لاستقبال أخيه ، بعد أن كتب كتابه المنصورة الحاضرين معه بحضرة مراکش ، وكسا حرسه الأسود بالثياب الزاهية ، واصطف الفرسان المدرعة من الموحدين وغيرهم ، والرجال بالدورق والرماح ، وجعل الرايات خلف ركابه ، وحلة الطبول مع خاصة أصحابه ، وهو راكب جواده ، ووزيره أبو العلاء لإدريس ابن جامع راجل لصق ركابه ، وهو يحدته ، ويصدر الأمير أوامره ، فينفذها الوزير ، ثم يرجع إليه ، وعلى عاتق الأمير رمح طويل . والتقى الأمير بأخيه في الساحة التي كانت قائمة عندئذ تجاه باب الشريعة ، فلما التقى الأميران ، تجاوبت الخيل بالحمولات والحرايب والطبول . ثم نزل الأخوان كل عن فرسه ، والتقىا وتصافحا ، ثم سلم الناس الواصلون على الأمير وعلى من حضر ، ثم ركبوا إلى القصر العتيق في أعظم أبهة فوصلا إليه بعد العصر ، واجتمعا به . وفي اليوم التالي ، أقيمت المآدب الحافلة بالأطعمة والأشربة للموحدين والعرب الواصلين ، ولجميع المقيمين ، واستمر ذلك خمسة عشر يوماً . ثم وزعت الكسي من العمام والبرانس والآكسية . وتسلم كل فارس طبقاً كاملاً من الكساء يتكون من غفارة وعمامة وكساء وقسطية وشقة ، وأنعم على جميع الناس من الغازين والقاطنين وطلبة الحضر ، ووزعت عليهم الأعطية المالية ، من الذهب والدرهم ، فخص الفارس سواء من الموحدين أو العرب ، عشرون ديناراً ، ولكل من أعيان الموحدين وأشياخهم وكذلك أشياخ العرب ، مائة دينار ، وعم بذلك البشر والحبور ، واستمرت

الطبول في قرعها خمسة عشر يوماً ، ثم انصرف الغازون إلى قبائلهم ^(١) .
 وكان أول ما عني به الخليفة أبو يعقوب بعد الانتهاء من هذه الحفلات ،
 هو النظر في تعيين الولاية . وكانت بجاية وإشبيلية في مقدمة الولايات التي خلت
 رياستها ، فقرر الخليفة بعد مشاورة أخيه السيد أبي حفص ، أن يعين لولاية
 بجاية وأقطارها أخاه السيد أبا زكريا يحيى بن عبد المؤمن . فسار إليها من الحضرة
 في فاتحة جمادى الأولى سنة ٥٦١ هـ ، ومعه جملة من أبناء الجماعة والحفاظ . وعين
 لولاية إشبيلية الشيخ أبا عبد الله بن أبي إبراهيم إسماعيل ، أحد أصحاب المهدي
 العشرة ، وعين له وزيراً لمعاونته هو أبو زكريا بن سنان ، وهو من أكابر علماء
 الدعوة المهدية ، فغادر مراكش في صحبة من الحفاظ إلى مقر ولايته ، في
 الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ، ووصل إلى إشبيلية في أول شهر رجب .
 وماكاد يصل إليها ، حتى كانت جماعة من نصارى شنترين ، قد اخترقت ولاية
 الغرب ، ووصلت في غارتها إلى بلدة طلياطة ، الواقعة جنوبي شرقي لبلة .
 فجهز الشيخ أبو عبد الله حملة لردهم من الحفاظ والعرب وجند إشبيلية ، بقيادة
 أبي العلاء بن عزون ، فأدركتهم وهزمهم ، واستنقذت منهم الغنائم والأسرى ،
 وأسرت جملة منهم . وبعث الوالى الجديد بنجر هذه الموقعة إلى الخليفة فسر به ،
 وبعث إليه بشكره .

ولم يمض على انفراد الشيخ أبي عبد الله بولاية إشبيلية سوى أشهر قلائل ،
 حتى عين الخليفة أخاه السيد أبا إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن والياً لإشبيلية ،
 فوصل إليها في أول شهر ذى الحجة سنة ٥٦١ هـ ، وتقرر أن يبقى معه الشيخ
 أبو عبد الله ، على ما كان عليه ، وأن يتولى الشؤون العسكرية ، وتوثقت أواصر
 المودة والتعاون بين الرجلين ، واستمررا معاً في النظر في شئون إشبيلية ، حتى
 وصل أمر الخليفة بنديب الشيخ أبي عبد الله للقيام بولاية غرناطة وذلك في أواخر
 شعبان سنة ٥٦٢ هـ ، فغادر إشبيلية في صحبة من الحفاظ وغيرهم في أوائل شهر
 رمضان إلى غرناطة ، واستقر في ولايتها ، واستدعى الخليفة في نفس الوقت
 أخاه السيد أبا سعيد ، وإلى قرطبة للقدوم إلى الحضرة ، فغادرها في أوائل
 ذى القعدة سنة ٥٦١ هـ .

وفي نفس هذا العام أعني سنة ٥٦١ هـ قرر الخليفة أبو يعقوب بالاتفاق

(١) كتاب المن بالإمامة ، لوحة ١٧٣ و ب ولوحة ١٧٤ وفي المطوع ص ٢٨٩-٢٩٢

مع أشياخ الموحدين ، أن يتخذ العلامة الخلافة ونصها « والحمد لله وحده » وأن يكتبها بخط يده على المراسيم والأوامر ، فتتخذ بمقتضاها . وصدرت أول رسالة ممهورة بالعلامة الخلافة في الثالث من شهر رمضان مدبجة بقلم الوزير الكاتب أبي الحسن بن عياش ، وموجهة إلى أخى الخليفة السيد أبي سعيد وأصحابه الطلبة بقرطبة ، على أن تنفذ منها نسخ إلى مختلف البلاد ، وفيها بعد الدعاية الموحدية المعتادة ، يوصى الخليفة بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وأن تُرفع إليه أحكام الإعدام ، فلا يقضى الموحدون في الدماء من تلقاء أنفسهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وتشرح وتفيد بالشهود والعدول « وتكتب أقوال المظلومين وحججهم . وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين في مقالاتهم واستظهارهم في بياناتهم معطى كل ذى حق حقه ، موفى كل قائل قوله » ، وأن يدقق في الجرائم التي دون القتل ، من ضرب أو جرح أو سرقة أو قتل خطأ ، وكذلك في سائر المعاملات والأموال واستحقاقها وفي الرقاب وعتقها أو استرقاقها ، وفي المناكحات فلا يبت في أمرها إلا بعد المطالعة ، وتعرف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة ، وأنه يجب التوقف ومراعاة أنه لا يقدم على إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات ، إلا بوجه صحيح . ويختتم الخليفة رسالته بحث الموحدين على العمل بما جاء فيها ، وأنه يجب عليهم في جميع الأحوال ، تقوى الله في السر والظهر ، وخيفته في الباطن والظاهر ، والجرى على سنته ، وأنه يجب إذاعة هذا الكتاب ، والتشهير به ، وجمع الناس لقراءته ، وتعريف الحاضر والغائب بما فيه ، وأن ترسل منه نسخ إلى سائر الجهات ليعمل الناس بما جاء « في هذا الأمر العزيز من إقامة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله على وجهه المتعين وسنته الواضح البين »^(١).

وإنه لما يلفت النظر في هذه الرسالة بنوع خاص ، اهتمام الخليفة البين بمسألة أحكام الإعدام ، وإراقة الدماء ، وتشدده في المطالبة برفعها إليه ، وفي

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة النفس الكامل لهذه الرسالة في كتاب « المن بالإمامة » لحوحة ١٧٩ إلى لحوحة ١٨٢ ونقلها العلامة جولدمير في بحثه الذي سبقته الإشارة إليه *Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung* (Z. der Mog. Gesellsch., 1887 p. 134-188) وقد شرناها نحن في باب الوثائق الموحدية في نهاية الكتاب .

وجوب تحرى الدقة فى ترحيها ، وتقيدها بالشهود والعدول ، وإثبات أقوال المظلومين وحججهم ، وأقوال الظالمين ، أغنى المدعين وحججهم ، فهذا الاهتمام البالغ من أبى يعقوب ، بالحرص على صون الدماء ، والتكيب عن إراقها إلا بوجه الحق ، ومنتهى الدقة والحذر ، يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الخليفة العالم ، والفقيه البار ، قد تأثر بما تأثر به أجداده الموحدون منذ عهد المهدي ، من خفة فى سفك الدماء ، ومن إسراف فى إراقها ، وما اتسم به عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن من سيطرة هذه الظاهرة الدموية المروعة ، وأنه أراد برسائه أن يحمل زعماء الموحدين من أمراء وأشياخ وحكام ، على التزام نوع من الحرص والاعتدال فى إراقة الدماء ، وفى تقرير أحكام الإعدام .

ولما وصلت رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبى سعيد بقرطبة ، وجهت منها نسخ إلى سائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، وقرئت على الناس فى الجوامع ، وغادر السيد أبو سعيد قرطبة بعد ذلك بقليل ، عائداً إلى حضرة مراكش نزولاً على رغبة الخليفة حسبما تقدم .

وفى أوائل سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) عادت الفتنة إلى جبال غمارة بن قبائل صنهاجة ، وعاد زعيمها سبع بن منعاف إلى الخروج والعصيان ، وبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالاً حتى سبتة ، وأخذ يغيث فساداً فى تلك المنطقة ، ويقطع الطرق ، ويعتدى على السكان الآمنين قتلاً وسيماً ونهراً . ووصل عيته وعدوانه غرباً حتى منطقة القصر الكبير . وكان قيام الثورة فى تلك المنطقة الحساسة ، التى هى شريان المواصلات بين المغرب والأندلس من أخطر الأمور ، التى يجب حسمها بقوة وبسرعة . ومن ثم فقد سير الخليفة جيشاً موحدياً بقيادة أبى سعيد خلف بن حسين إلى بلاد صنهاجة من جهة القاعة ، وكان الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، قد تقدم فى عسكره إلى ناحية أخرى من منطقة الثورة ، فقاوم الثوار أشد مقاومة ، وامتنع سبع بن منعاف بفواته فى جبل الكواكب ، ولم تزل القوات الموحدية من الثوار مأرباً . وعندئذ رأى الخليفة أن يسير بنفسه إلى مقاتلة الثوار ، فخرج فى جيش كثيف ، ومعه أخواه السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، وسار إلى جبال غمارة ، ونازلت القوات الموحدية الرعيم الثائر فى أعماق معاقله ، وأحاطت به وبسائر صحبه من كل ناحية ، وأمعنت فيهم قتلاً وأسراً ، ومزقوهم تمزيقاً ، واحتلوا

أراضهم ، وقتل زعيم الثورة سبع بن منعقاد ، وصلبت جثته ، وأذعنت سائر
صنهاجة في تلك المنطقة ، وتضرعت إلى الصفح والأمان ، فأجيب إلى ما طلبت .
وتم قمع ثورة غمارة في أوائل شوال سنة ٥٦٢ هـ (أغسطس سنة ١١٦٧ م) .
واستولى الموحدون على غنائم هائلة من الماشية ودواب الحمل ، وأسروا من
الثوار نحو أربعة آلاف . وعاد الخليفة أبو يعقوب في عساكره المظفرة إلى حضرة
مراكش ، وصدرت عن هذا الفتح رسالة مطولة بقلم الكاتب أبي الحسن بن
عباش مؤرخة في الرابع عشر من شوال ، ووجهت إلى سائر الموحدين والأشياخ
والطلبة بالمغرب والأندلس^(١) ، وعين الخليفة أخاه السيد أبا الحسن على والياً
على سبتة وسائر منطقة الريف وغمارة .

وما هو جدير بالذكر أنه لم تمض على إخماد فتنة غمارة بضعة أشهر ، حتى
حدثت فتنة جديدة ، وثار بعض البطون البربرية بجبل تاسررت ، وأعلنوا خلع
الطاعة ، فسار إليهم السيد أبو حفص أخو الخليفة في عسكر وافر من الموحدين
واشتد في قتالهم ، حتى مزقهم واستأصل شأقهم^(٢) .

أشرنا فيما تقدم إلى ندب الخليفة أبي يعقوب للحافظ الشيخ أبي عبد الله بن أبي إبراهيم
لولاية غرناطة وذلك في شعبان سنة ٥٦٢ هـ . وكان أول ما عني به الوالي الجديد ،
أن يطهر أحواز غرناطة من عدوان المرتزقة النصارى من أحلاف ابن مردنيش ،
وكانت قوة منهم تحتل حصن « لبه » الواقع فيما بين غرناطة ووادي آش ، وتعيث
باستمرار في تلك المنطقة ، وتبث فيها الخراب والروع ، وتصل أحياناً إلى أسوار
غرناطة ، وتهدد أمنها وسلامتها ، فحشد الحافظ أبو عبد الله قواته وسار إلى حصن
لبه المذكور ، وهاجمه بشدة ، واقتحمه عنوة ، ومزق حاميته من النصارى ،
وقضى بذلك على عيها وشرها ، وعاد ظافراً إلى غرناطة ، وبعث إلى الخليفة
ينبئه بسعيه ، فبعث إليه الخليفة برسالة يعرب فيها عن شكره ورضاه .

على أن أهم حوادث الأندلس التي وقعت في تلك الفترة ، كان مسرحها

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٨٢ أوب ، وكذلك لوحة ٩٦ . والبيان
المغرب القسم الثالث ص ٦٩ ، و ٧٠ و ٧١ . وينقل إلينا ابن صاحب الصلاة رسالة الفتح بأكملها
وهي تشغل اللوحات من ٨٤ إلى ٩١ .

(٢) ابن صاحب الصلاة لوحة ١١٣ ب .

ولاية الغرب الأندلسية ، وكان قيام مملكة البرتغال الناشئة ، واشتداد ساعدها في عهد ملكها ألفونسو هنريكز ، يمثل الخطر الجديد على قواعد الأندلس الغربية المتاخمة لهذه المملكة الجديدة ، وكان ألفونسو هنريكز حينما اضطربت شئون الأندلس ، وعمت الفتنة قواعد الغرب ، قد انتهر هذه الفرصة للإغارة على القواعد الإسلامية المجاورة ، وكان يتوق بالأخص إلى الاستيلاء على أشبونة لموقعها الفذ عند مصب نهر التاجه ، ولحصانتها ، ولكونها كانت معقل المسلمين المنيع في قلب الأراضي البرتغالية . ولما لم يكن لديه قوى كافية لتنفيذ مشروعه فقد اتجه إلى الاستعانة بالقوات الصليبية المتجهة إلى المشرق من الإنجليز والألمان والفلمنك (الهولنديين) ، واستطاع بالفعل أن يجذب منهم لمعونته طوائف كبيرة . وفي أوائل سنة ١١٤٧م (أواخر ١١٤١هـ) سار في قواته لمحاصرة أشبونة ، ورابطت القوات الصليبية في البحر ، في مدخل الميناء لتحول دون وصول أية إمداد إلى المدينة المحصورة . واستمر الحصار بضعة أشهر ، وكانت أشبونة الإسلامية مدينة منيعة ، تحميها من ناحية البر أسوار منيعة ضخمة ، ولها عدة أبواب عظيمة ، وبابها الغربي هو أعظم أبوابها ، وقد عقدت عليه حنايا فوق حنايا ، على عمد من الرخام ، مثبتة على حجارة من رخام ، ولها باب قبلي يسمى باب البحر ، وباب شرقي يسمى باب الحمة^(١) . ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عديدة ، ودافع المسلمون عن ثغرهم أشد دفاع ، ولكن الحصار كان شديداً مرهقاً ، وقد نضبت موارد المدينة المحصورة تباعاً ، وثلمت الأسوار في عدة مواضع . ثم استعد البرتغاليون للضربة الحاسمة . وخطب فيهم ملكهم ألفونسو ، يحثهم على مضاعفة الجهود في القتال ، وليقول لهم إن المدينة غنية بالأموال ، التي تمكنهم من متابعة الحرب ، وإنها معقل الأعداء وكنزهم ، ومستودعهم الذي يزخر بالحلى والنفائس ، فعليهم أن يقتحموا هذه الأسوار المثلومة ، وأن يأخذوا المدينة .

وكانت المعركة الأخيرة قصيرة ، ولكن دموية هائلة ، ودافع المسلمون ، بالرغم مما عانوا من أهوال الحصار ، عن مدينتهم ، دفاعاً مريراً . ولكن هذا الدفاع البائس لم يغن شيئاً ، واقتحم النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة من بابها الشرقي - باب الحمة - وقتل من المسلمين مقتلة عظيمة ، وأسر الأحياء منهم ، وجعلوا رقيقاً ؛ ونهب النصارى المدينة نهباً ذريعاً ، وكان فيها من الأموال والنعم

أعظم ما يتصور . وفي الحال حول مُستحذاها الجامع إلى كيسة ، وعين لها أسقف هو الأسقف حلبوتو ، وكان استيلاء البرتغاليين على أشونة في اليوم الخامس والعشرين ، وقيل في الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ١١٤٧ م (جمادى الأولى سنة ٥٤٢١ هـ)^(١) .

والمتولى ألفونسو هريكيزا في نفس الوقت على مدينة شترين الواقعة شمال شرق أشونة ، ثم استولى على سائر الأراضي الإسلامية المتاحة لتلك المنطقة ، والتي تكون القسم العزالي من الولاية « استرلماوره » . ولم يكن من الميسور يومئذ على الموحدين ، وقد تبلغهم حواديتهم العرب ، واصطراهم الفتنة بالأندلس ، أن يبادروا إلى إنجاد هذه القواعد الإسلامية النائية .

والمتولى ألفونسو هريكيزا أعواماً يغير على أراضي ولاية الغرب من آن لآخر ، ويتربص المرص بالساحة ، وقد أشيرنا من قبل إلى ما كان من محاولة ابن قيلي زعيم فتنة المرينيين ، إلى محالفة ، وأن يستعين به على مقاومة الموحدين ، وما ترتب على هذه المحاولة من سقوط ابن قسي وهلاكه (سنة ٥٤٦ هـ) ولما تعاقب عدوان ملك البرتغال على قواعد العرب ، عبر ابن ورير صاحب باجة وبابزة البحر إلى المغرب مستغيثاً بالخليفة عبد المؤمن (سنة ٥٤٩ هـ) ، ولكن عبد المؤمن اكتفى عندئذ ببذل وعونه في الإنجاد والعون

وفي سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٨ م) استولى البرتغاليون بقيادة ألفونسو هريكيزا على الثغر الصغير المنيع المسمى بقصر الفتح أو قصر أبي دانس^(٢) ، الواقع على مصب نهر سادو (شطوبر) على المحيط جنوبي شرق أشونة ، بعد أن حاصروه مدي شهرين من الر والبحر ، وكان سقوطه في ٢٤ يولي من العام المذكور^(٣) .

وفي أواخر سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر ١١٦٢) قبيل وفاة عبد المؤمن بقليل ، قامت حملة قوية من نصاري شترين بغزو مدينة باجة والاستيلاء عليها ، وليثوا فيها أربعة أشهر ، ولم يغادروها إلا بعد أن حاربوا ربوعها ، وهدموا أسوارها^(٤) .

(١) Mariana : Historia General de Espana : Lib. Decimo Cap XIX

(٢) وهو لمارتالية Alcacer do Sal

(٣) ابن الأبار في الحلة الديار ص ٢٣٩ وكذلك HI : Miranda : Imperio Almohade

Vol. I p. 266

(٤) كتاب « المي نالإمامة » لوحة ١١٨ وفي المطوح ص ٣٧٣

هذا وسوف نرى فيما بعد أن استيلاء البرتغاليين على باجة قد وقع وفق رواية أخرى بعد ذلك بعشرة أعوام .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى بدأ نصارى البرتغال سلسلة جديدة من الاعتداءات على القواعد والأراضي الإسلامية . وكان منظم هذا العدوان وقائده معامر يدعى جبرالدو ، ويبحث في التواريخ النصرانية « بالباسل » *Geraldo sem Pavor* ، وكان هذا المعامر الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بالعلاج جراندة الخليق » قاطع طريق أورئيس عصابة ناهبة ، ألقى مجالا طياً لنشاطه في الظروف التى كانت سائدة يومئذ في بلاد الغرب الأندلسية ، وكان يغير بالأخص على المحلات والأراضي الإسلامية الواقعة في قطاع بطليوس ما بين نهري التاجه ووادى يانه ، ويعيث فيها قتلا وتخريباً ونهبا ، وكان يقوم بهذه الغارات والعروات لحساب نفسه ، وفي أصحابه وعصبته ، على نحو ما كان يفعل السيد الكسيطور (الكبيادور) في شرقي الأندلس أيام الطوائف . نبيد أنه لم يكن يبلغ من حيث شخصيته ، ولا من حيث عصبته أو مكانته ، مبلغ السيد ، وإن كان بعض البرتغاليين يعتبره قرين السيد ، ويسميه « بالسيد البرتغالى » . وكان ملك البرتغال ألفونسو هنريكز يؤارره ، ويعاونه بالمال والرجال ، لما يترتب على نجاح حملاته وغاراته من إضعاف المسلمين ، والتمهيد لمشاريعه الصخمة في افتتاح قواعدهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة - وهو الراوية المعاصر - أعمال جبرالدو ومعامراته في الفقرة الآتية :

« وكان أدفونش بن الرنك العاذر الخليق ، صاحبة قلمرية ، قد عاين من مجدة هذا الكلب حراودة ، وتيقظة لغدر البلاد والحصون ، ما أعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين في الثعور بأرجاله ، فكان الكلب يتسلل في الليالي المطرة الخالكة المظلمة ، الشديدة الريح والثلج ، إلى البلاد ، وقد أعد آلات من السلام من أطول العيدان ، بعلو سور المدينة التي يؤم ويروم ، فإذا نام السامر المسلم في برج المدينة ، ألقى تلك السلام إلى جانب البرج ، ورقى عليها بنفسه أولا إلى البرج ، ويقص على السامر ، ويقول له ، تكلم على ما كانت عادتك ليلا يشعر الناس بنا ، فإذا استوفى طلوع حملته ، الدميعة في أعلى سور المدينة ، صاحوا بلعائهم صيحة عظيمة منكرة ، ودخلوا المدينة ، وقتلوا من وجدوه

واستلبوه ، وأخذوا كل من فيها سبياً وفيئاً^(١) .

وكانت أول قاعدة إسلامية غزاها جيران الدو في ذلك القطع من ولاية الغرب ، هي مدينة ترجاله^(٢) الواقعة شمالي ماردة على مقربة من نهر التاجه ، فدهمها في شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٠ هـ (مايو سنة ١١٦٥ م) ، ثم انقض على مدينة يابرة في شهر ذي القعدة من نفس العام (سبتمبر ١١٦٥) ، وباعها مع ترجاله إلى النصرى . ثم سار إلى مدينة قاصرش^(٣) الواقعة غرب ترجاله ، واستولى عليها في صفر سنة ٥٦١ هـ (ديسمبر ١١٦٥) ، وتبعها بالاستيلاء على حصن متناجش الواقع في جنوبها الشرقي في جمادى الآخرة من نفس العام . واستولى أخيراً على حصن شرية ، ثم حصن جلمانية^(٤) الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، واتخذها قاعدة للإغارة عليها ، والتضييق على أهلها . وكانت هذه الغزوات المتوالية التي وقعت بولاية الغرب في نفس الوقت الذي شغل فيه الموحدون بمقاتلة ابن مردنيش في شرقي الأندلس ، مقدمة لغزو بطليوس وسقوطها ، وتحريك الموحدين بذلك إلى المبادرة إلى خوض الصراع مع النصرى ، لاسترداد بطليوس ، وحماية ولاية الغرب الأندلسية من السقوط .

وشغل الخليفة أبو يعقوب في العام التالي - سنة ٥٦٢ هـ - حسباً رأينا بقمع فتنة غمارة . وفي أوائل سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) اتفق رأى الموحدين على تجديد البيعة للخليفة . وليس في أقوال الرواية ما يوضح سبب هذا الإجراء في تجديد بيعة سبق عقدها عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن ، واستكمالها في سنة ٥٦٠ هـ ، حينما تمت بيعة السيد أبي سعيد والسيد أبي عبد الله لأخيها الخليفة ، وتسمى أبو يعقوب عقب ذلك بأمر المؤمنين ، اللهم إلا أن يكون ذلك عنواناً لإجماع سائر البلاد والقبائل على الطاعة بعد إخماد ثورة غمارة التي شملت منطقة كبيرة حساسة في شمالي المغرب ، والتي اقتضى أخادها أن يسر إليها الخليفة بنفسه . ويزف ابن صاحب الصلاة إلينا هذا الإجراء كمعادته في ألفاظ منمقة ،

(١) في كتاب المن بالإمامة لوجه ١١٨ . وراجع أيضاً البيان (المطوع ص ٣٧٣) ، المغرب

القسم الثالث ص ٧٨ ، وكذلك ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) هي بالإسبانية « Trujillo »

(٣) هي بالإسبانية « Cáceres »

(٤) متناجش بالإسبانية Montanchez ، وشرية Serpa ، وحلمانية Jurumena

ويقول لنا في حوادث سنة ٥٦٣ هـ ، « في أول هذه السنة جمع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والبشائر ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة بتجديد البيعة ، والتسريح بالإسمية المستحقة لسيدنا ، فكل ذلك بإجماع الموحدين ، أعزهم الله . ثم يقول لنا . إن هذا الأمر العزيز ، قد نفذ بكتاب كريم ، أرسل إلى أخى الخليفة السيد أبى إبراهيم إسماعيل وإلى إشبيلية ، منبئاً له « بما اتفق من اجتماع الرأى السعيد ، والفعل السديد ، الذى اجتمعت عليه آراء الموحدين . . من تجديد البيعة الرضوانية والإسمية الإمامية للإمام أبى يعقوب » . وفى هذا الكتاب يأمر الخليفة بأن يأخذ الناس بما جاء فيه ، وجميع الموحدين بإشبيلية ، وسائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، مثل قرطبة وغرناطة ومالقة وغرب الأندلس ، وذلك بعقد البيعة على أوفى شروطها . فوجه السيد أبو إبراهيم نسخة الكتاب إلى زميله الحافظ أبى عبد الله وإلى غرناطة ، فاحتفل بقراءته من فوق المنابر ، وهرع الناس إلى إعطاء بيعتهم ، وسجلوها فى كتاب أرسل إلى الخليفة . وكتب أهل إشبيلية كذلك بيعتهم ، ووقعوها بخطوطهم ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إلى الخليفة . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة نص الوثيقتين المذكورتين ، وقد أرخت كلتاهما فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسة^(١) ، وأرسلت فى نفس الوقت بيعات سائر القواعد الأخرى ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، إلى حضرة مراکش .

ولما كملت البيعة الجديدة على هذا النحو تسمى الخليفة أبو يعقوب بأمر المؤمنين ، وساد الأمن والبشر ، وأصدر الخليفة عقوه عن المسجونين ، وأمر برفع البقايا عن العمال الخائفين ، وتأمينهم من المخاوف ، فيما تقيدهم عليهم فى الدواوين ، وأغدق الصلات والأعطية ، وأمر بأن يجرى « الإنعام والبركات » فى سائر بلاد المغرب والأندلس ، فكثرت النعم ، وعم الرخاء ونمت الجبايات والحراج ، وانتعشت حركة العمران فى العاصمة الموحدية ، وشرع الناس فى إنشاء الدور القصبة ، والرياض الياض ، وكثرت هذه المناسحة مدائح الشعراء وتهانيهم . فمن ذلك قصيدة نظمها أبو عمر بن حربون شاعر الدولة الموحدية هذا مطلعها :

جاءتاك تسحب ذيلها للموعد رهراء طالعة بسعد الأسعد

(١) كتاب « المن بالإمامة » ، لوحة ١٠٠ إلى ١٠٤ . وفى المطوع ٣٣٨ - ٩٤٤ وقد رأينا أن نقل نص يمة إشبيلية فى باب الوثائق ، فلترجع هناك .

— ٢٩ —

فاصدع أمير المؤمنين بدعوة لم تترك صمما لسمع الجاهل
 بنى الخلافة ان ليست رداءها وقعدت منها اليوم أشرف مقعد^(١)
 وفي أواخر هذا العام - سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) - ندب أبو يعقوب أخاه
 السيد أبا إسحاق إبراهيم والياً لقرطبة، وكانت بلا وال مذ غادرها والياً السابق السيد
 أبو سعيد عائداً إلى مراكش نزولاً على رغبة أخيه الخليفة ، وذلك في شهر
 ذى القعدة سنة ٥٦١ هـ . وعبر السيد أبو إسحاق إلى الأندلس في عسكر ضخم من
 الموحدين وسار إلى قرطبة ليتقلد ولايتها . وكان عبوره فاتحة الحركة التي كانت
 تجتمع أسبابها منذ حين ، لعبور الموحدين إلى شبه الجزيرة ، للاضطلاع بمحاربة
 النصارى ، وافتتاح عهد جديد من الجهاد ، توهمن فيه الأندلس ، ويقمع
 عدوان المعتدين عليها .

— ٤ —

والواقع أن الموحدين كانت قد انعقدت نيهم على الاضطلاع بهذه الخطوة،
 التي برهنت حوادث الأندلس على ضرورتها ، وذلك سواء في الشرق أو الغرب .
 وقد أبلغ الخليفة أمر هذه النية ، وما اتفق عليه رأى الموحدين بشأنها ، إلى
 الشيخ الحافظ أبي عبد الله والى غرناطة ، في رسالة خاصة وجهها إليه ، مؤرخة
 في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ هـ ، وفيها يشير إلى ما تقرر
 من إرسال السيد أبي إبراهيم في عسكر من الموحدين والعرب إلى قرطبة ، وأنه
 سوف يتعاون بعسكره مع إخوانه الذين بإشبيلية ، ويضطلع الجميع بالجهاد
 وحماية البلاد ، وأن يستمر النظر للحافظ أبي عبد الله في شئون الآلات والأسلحة
 التي تحتاج إليها القوات الموحدية^(٢) :

وحدث في نفس الوقت الذي وصلت فيه هذه الرسالة إلى غرناطة ، أن
 أغارت قوة من النصارى المرتزقة من جند ابن مردنيش على وادي شتيل غربي
 غرناطة ، واندفعت جنوباً حتى وصلت إلى أحواز رُنْدَة ، وعائت في تلك
 المنطقة ، وانتهبت أموالها وماشيتها ، فبادر السيد أبو عبد الله بتجهيز عسكر قوى

(١) أوردها ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٠٧ أ ب ، وفي المطوع ص ٢٤٨ -

٣٥١ ووردت كذلك في البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٧٤ .

(٢) أوردها لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٠ أ ب

و في المطوع ص ٣٥٤ - ٣٥٦

لردها وردعها ، فالتفت بهم حين عودتهم على مقربة من وادى آش ، فحاول
النصارى الامتناع بجبل قريب ، ولكن الموحدون دهمهم في أعلى الجبل ،
وقاتلوهم بشدة ، حتى مزقت صفوفهم ، وتساقطوا من حافات الجبل ، وقد
فنى معظمهم قتلاً وأسراً ، واستاق الموحدون الغنائم والأسلاب ، ومعها
ثلاثة وخمسين أسيراً من النصارى ضربت أعناقهم عند وصولهم إلى غرناطة
(مارس سنة ١١٦٨ م) ، وبعث السيد أبو عبد الله ، نبأ ذلك النصر إلى الخليفة ،
فرد عليه برسالة يزجى فيها الشكر ، ويحمد الله على توفيقه^(١) .

وفى أواخر هذا العام استولى الموحدون على ثغر طبيرة ، الواقع في جنوبي
البرتغال غربى مصب نهر وادى يانه ، وكانت طبيرة من القواعد التى ثارت
بالغرب أيام أن اضطربت شئونه ، وذلك في سنة ٥٤٨ هـ ، وكان الخليفة أبو يوسف ،
أيام أن كان والياً لإشبيلية ، فى أواخر عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن ، قد نازل
طبيرة مرتين ، فلم يظفر بفتحها ، وكان صاحب طبيرة ، عندئذ الثائر بها عبد الله
ابن عبد الله ، قد تفاقم شره وعدوانه ، وكثر عيشه في تلك المنطقة ، يعتدى على
السكان الآمنين والسابلة ، والتجار ، بعصبته من أهل الشر وقطاع الطريق ،
سواء فى البر أو البحر ، فعندئذ عول الموحدون على أخذ طبيرة ، وحسم دأبها .
فساروا إليها في حملة قوية ، واحتلوا حصن قسطة القريب منها ، وحاصروها
براً وبحراً ، حتى أذعن إلى التسليم ، وذلك في شهر ذى القعدة سنة ٥٦٣ هـ
(سبتمبر سنة ١١٦٨ م)^(٢) .

وفى أواخر هذا العام أيضاً وقع حادث ذو مغزى خاص ، هو قدوم الزعيم
القشتالى فرناندو ردرىجيس صهر فرناندو الثانى ملك ليون وزوج أخته ابنة
القيصر ألفونسو ريمونديس ، مع أخويه إلى إشبيلية ، والإعراب عن رغبته لأشياخ
الموحدين بها ، فى أن يكون صديقاً وحليفاً لأمير المؤمنين ، ومنايذاً لشيعة
النصارى ، فبعث الموحدون برغبته إلى الخليفة ، فأذن له بالقدوم إلى مراكش ،
فقدم إليها ، واستقبله الخليفة أبو يعقوب بترحاب بالغ ، وأنزله ومن معه خير
منزل ، وأقام بالعاصمة الموحدية خمسة أشهر ، معزراً مكرماً ، حتى كاد أن

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٢ أ وب .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٦ ب وفى المطوع ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ،

والبيان المغرب القسم الثالث ص ٧٧ و ٧٨ .

يُسلم» ، وقد عاهد الخليفة أن يكون حليفه وحليف المسلمين المخلص ، لا يشهر عليه عدواناً قط . ثم عاد إلى بلاده وقد أمر الخليفة بأن يشملهُ الموحدون بأتم الرعاية . ويقدم لنا ابن صاحب الصلاة هذا الزعيم القشتالي باسم « فرناندو ريس النصراني » ويلقبه بصاحب ترجاله ، ويصفه « بالشهير النسب والشهامة عند النصراري »^(١) .

وتلا ذلك عقد الصلح والتحالف بين فرناندو الثاني ملك ليون وبين الموحدين . وكانت الحصومة تضطرم بين فرناندو وملك البرتغال ألفونسو هنريكز ، بالرغم مما كان بينهما من أواصر المصاهرة ، إذ كان فرناندو متزوجاً بالأميرة أورাকা ابنة ملك البرتغال ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها أن فرناندو لم يستطع أن يزاوِل حق السيادة على البرتغال الذي ورثه عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس . وكان فرناندو مذ فرغ من مشاغله وحروبه في قشتالة ، يتجه بأطاعه نحو مملكة البرتغال ، وينظر بعين الحسد والتوجس إلى ما كان يحرزه ألفونسو هنريكز من انتصارات متوالية على المسلمين ، ويخشى بنوع خاص أن تمتد فتوح ملك البرتغال إلى بعض القواعد والأراضي الإسلامية التي يرى فرناندو أنها من خاصة قشتالة وليون . وكان فرناندو قد عمد إلى تحصين مدينة ردريجو ، (ثوداد ردريجو)^(٢) الواقعة على حدود البرتغال ، واتخذها قاعدة للإغارة على أراضي البرتغال القريبة ، وأنشأ في نفس الوقت عدة قلاع وحصون منيعة على حدود البرتغال . كل ذلك استعداداً لأن يخوض مع ملك البرتغال صراعاً حاسماً . ثم رأى أخيراً أن يقوى جانبه بعقد التحالف مع الموحدين . وتسمى الرواية الإسلامية فرناندو ، « بالبيوج » ، و« بصاحب السبطاط » وتسميه أحياناً صاحب « السبطاط وآبلة وليون وسمورة » . فأما « البيوج » أو « البيوج » فهو تحريف للكلمة القشتالية El-Baboso ، ومعناها الكثير اللعاب ، وكذلك الأبله . وهذا ما لم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إليه^(٣) . وأما « صاحب السبطاط » فمعناه « صاحب ثوداد ردريجو » وقد كانت وقتئذ

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ وفي المطوع ص ٣٦٨ - ٣٧٠ - واليا المغرب القسم الثالث ص ٧٨ .
(٢) وهي بالإسبانية Ciudad Rodrigo والقشتالية القديعة Cībdad ومنها حُرِفَت التسمية العربية « سبطاط » .
(٣) راجع المعجب ص ١٨٢ .

مقره وقاعدة تحركاته . وكانت أول ثمرات محالفة فرناندو للموحدين هو أنهم أمدوه بعسكر لمعاونته على قتال الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة ، والمسيطر على ابن أخيه الملك الصبي ألفونسو النليل ملك قشتالة . وكانت هذه الحملة الموحدية التي حشدت في إشبيلية بقيادة أبي العلاء بن عزون والحافظ أبو علي عمر بن تمصلت ، والحافظ موسى بن حمو . ودخل الموحدون مع قوات فرناندو أراضي قشتالة ، وحاربوا معه ضد خصومه ، ثم ساروا معه حتى حدود الأسترياس (أشتريش) ، وأقاموا في هذه الغزوة خمسة أشهر ، ثم عادوا سالمين ، وقد اغتبط ملك ليون بمؤازرتهم ونجدهم ، وقطع على نفسه العهد الوثيق ، بأن يبادر إلى القتال مع أمير المؤمنين ضد النصارى ، الذين يعتدون على أراضيه ، وألا يتوانى في ذلك قط ، وأقسم على ذلك في بيعة بلده . وقد أوفى بهذا العهد كما سنراه في حوادث بطليوس أتم وفاء (١) .

(١) اس صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » اوحة ١١٧ و ١١٨ ، وفي المطوع ص ٣٧٠ - ٣٧ واليان المغرب ، التسم الثالث ص ٧٨

الفصل الثاني

حوادث الأندلس

وسقوط مملكة الشرق

اهل الموحدين بحوادث الأندلس . عزمهم على استئناف الغزو . رسالة الخليفة أبي يعقوب في ذلك . خطة ألفونسو هنريكينز ملك البرتغال وجيرالدو سيمافور لافتتاح بطليوس . سقوط المدينة وامتناع الموحدين بالقصبة . تدخل فرناندو ملك ليون لإنجاد الموحدين . بواعث خصومة ملك البرتغال . القتال داخل المدينة بين الفريقين . هزيمة ملك البرتغال وأسره ، ثم إطلاقه . فرناندو يسلم المدينة للموحدين . تدعيم الدفاع عن قرطبة . الشقاق بين ابن مردنيش وابن هشك . توحيد ابن هشك وانضمامه للموحدين . بعث ابن مردنيش قواته لقتاله . تعيين الحافظ أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص والياً لبطليوس . مهاجمة جيرالدو سيمافور لبطليوس . القتال بينه وبين الموحدين . هزيمة الموحدين وأسر أكابرهم . استدعاء ولاة قرطبة وإشبيلية وغرناطة إلى الحضرة ثم عودهم . غزو القشتاليين للأندلس . تقاعد الموحدين عن ردهم . بعض الأحداث الطبيعية . غارات جيرالدو على بطليوس . سعى الموحدين لإمدادها . معركة بين الموحدين وجيرالدو . هزيمة الموحدين ومقتل الحافظ أبي يحيى . مرض الخليفة وتأخر حركة الغزو . ترجيع اليده بمحاربة ابن مردنيش والتفاه على حركته . عبور السيد أبي حفص في القوات الموحدية . مسير السيد أبي سعيد في قواته لإنجاد بطليوس . مسير ملك ليون إليها لافتتاحها . لقاء السيد والملك النصراني . تفاههما على استبقاء التحالف والصلح . افتتاح السيد أبي سعيد لحصن جلفانية . ابن مردنيش وانحلال قواه . عوامل هذا الانحلال . مصادقة ابن مردنيش للنصارى . خروج قادته ووزرائه عليه . مسير الموحدين بقيادة السيد أبي حفص لقتال ابن مردنيش . استيلائهم على قيجاطة . زحفهم على مرسية . دخول لورقة في طاعتهم ، ثم سقوطها في أيديهم . دخول أئس والجزيرة ثم بسطة في طاعتهم . مدافعة ابن مردنيش للموحدين . موقف أخيه يوسف والى بلنسية . محاولة النصارى غزو بلنسية . قيام محمد بن مردنيش ومحمد بن هلال بالمرية ودعوتهم للموحدين . اضطراب ابن مردنيش وتخاذله . وفاته وما قيل حولها . انهيار دولته . ثورة ابن مردنيش وصفتها الأندلسية القومية . شخصية ابن مردنيش ومعانيها . مقدرة وشجاعة . إعلان ولده هلال وقادته الطاعة للموحدين . رواية عن وصية ابن مردنيش بالتسليم . دخول السيد أبي حفص والموحدين مرسية . مسير هلال وأكابر الترق إلى إشبيلية . مبايعتهم للخليفة أبي يعقوب . رواج الخليفة من ابنة ابن مردنيش . ابن هشك ونهايته .

لم يكن الخليفة أبو يعقوب وأعوانه من أشياخ الموحدين ، بغافلين عن خطورة الحوادث التي وقعت في غربي الأندلس ، وما اقترن بها من سقوط قواعد إسلامية جديدة في أيدي النصارى . وكان قد مضى على سقوط أشبونة وشنترين في يد الملك

ألفونسو هنريكيز نحو عشرين عاماً ، وقد غلب النسيان نوعاً على فقد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد الغرب لموقعهما النائي ، ولكن تقدم البرتغاليين نحو بطليوس وماردة ، بسقوط ترجاله وقاصرش ويابرة وجلتانية ، وتهديدهم لسائر الأراضي الواقعة على ضفتي نهر وادي يانه ، زاد من خطورة الموقف ، ونبه الموحدين إلى وجوب البدار إلى إنجاد الأندلس ، والعمل على حمايتها .

وقد حالت الأحداث والفتن التي وقعت بالمغرب ، والتي فصلناها فيما تقدم ، دون تنفيذ هذا العزم حيناً . فلما حلت سنة ٥٦٤ هـ ، هدأت تلك الفتن ، واستتببت السكينة والسلام بالمغرب ، لاح للخليفة ومعاونه ، أن الفرصة قد أزفت للعمل بالأندلس ، فجهز أبو يعقوب جيشاً من الموحدين وغيرهم تحت إمرة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى كبير أشياخ الموحدين ، وعبر هذا الجيش البحر إلى إشبيلية ، ليكون مقدمة لحركة الجهاد العامة ، التي اعتزم الموحدون القيام بها في الأندلس . ويبدو مما يقوله لنا ابن صاحب الصلاة ، نقلاً عن أبي محمد سيدرأى بن وزير ، أن التعجيل بإرسال هذا الجيش ، كان بسبب وصول الخبر بمهاجمة البرتغاليين لبطليوس ، ومحاصرتهم للموحدين الممتنعين بقصبتها ، وقد وقع الهجوم على بطليوس في شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ (أبريل سنة ١١٦٩ م) . على أنه يبدو من نص الرسالة التي وجهها الخليفة بهذه المناسبة إلى الموحدين بالأندلس والتي أرخت في اليوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، أن هذا الجيش الموحدى ، قد جهز وأرسل إلى الأندلس ، قبل حوادث بطليوس بنحو شهرين أو ثلاثة ، ليكون طليعة لحركة الجهاد الكبرى ، وليطمئن أهل الأندلس بوصوله وأنه فوجئ بحوادث بطليوس أثناء وجوده بإشبيلية .

وهذه الرسالة التي وجهها الخليفة أبو يعقوب « إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس » هي من إنشاء كاتبه أبي الحسن بن عياش ، وهي تردد وتؤكد نفس الوعود التي قطعها الخلافة الموحدية على نفسها غير مرة ، منذ أواخر عهد عبد المؤمن بالعمل على حماية الأندلس وغوثها ونصرتها^(١) ، وقد ورد فيها ما يلي بخصوص هذا الشأن :

« ومازلنا وفقكم الله على أتم العناية بتاكم الجزيرة مهدها الله ، والحرص

(١) أشرنا من قبل إلى رسالة بهذا المعنى وجهها الخليفة عبد المؤمن إلى ولده السيد أبي يعقوب أيام أن كان والياً لإشبيلية وذلك في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (القسم الأول من ٢٧٩) .

على غوثها ، والانتواء انصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة ، والمشاهدة ،
إشفافاً على ما استضم منها جبرتها الأعداء ، وأبناؤها الأعقاء ، مجسمين وروما ،
وما كادوها به من التكلف والتحيف والتنقص ، وفقر الأفواه ، وكسر الثيوب
والأرصاء ، لغيض مافاض فيها من نور التوحيد ، وخفض ما نصب من أعلام
هذا الأمر ، والمناسبة للمنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستنمين بذمته ، ممن
صح ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السبك ، ونصح على السير ،
ونجعل لها من الفكر حظاً يستحق الصدر على ما سواه من الأفكار ، ويأخذ
السبق على غيره من معنيات الأمور .

ثم تقول الرسالة إيضاحاً لحركة الشيخ أبي حفص ، وتأكيذاً لنيات الخليفة
في الاضطلاع بأعباء الجهاد :

« ورأينا في أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميمنة المباشر ، أن نقدم
بين أيدينا عسكرياً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبي حفص
أعزه الله ، ليكون مقدمة لجواز جمهور الموحدين ، ومؤذناً بما عزمنا عليه .
والله المستعان من التحرك بجملته أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ،
الذي جعلناه نصب العين ونجاء الخاطر ، فتعاونون مع إخوانكم الواصلين على
بركة الله إليكم ، على جهاد أعدائكم ، إلى أن يوافيكم إنشاء الله هذا العزم ،
ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحمكة أسبابها ، المبرمة أمراسها ،
التي انعقدت بها النية ، واحتدمت لها في ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله
في تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والروية ، وإنا نرجو من المبلغ لآمال
القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون ما يتم
مبدأها ، ويكمل منشأها ، وتشقى به صدور أوليائه بالنقمة في أعدائه ، وإن
فضله تعالى يسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وقنية ،
فما ذلك على الله بعزير »^(١).

وفي خلال ذلك كان ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، قد وضع خطته
للاستيلاء على مدينة بطليوس بالتعاون مع جبر الدو « سبافور » أو « جيرانده الحليقي »
حسب تسميه الرواية الإسلامية . وكان ملك البرتغال قد قام في سنة ١١٦١ م

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة في « المر بالإمامة » لوحات ١٢٠ - ١٢٢

(٥٥٦ هـ) بمحاولة أولى لمهاجمة بطليوس ، انتقاماً لما قام به الموحدون قبل ذلك بأعوام قلائل من غزو أراضيه . ولكنه رد على الأثر . وليس من الواضح ما إذا كانت بطليوس عندئذ ما تزال تحت حكم صاحبها ابن الحجام ، أحد ثوار الغرب المواليين للموحدين ، أم أنها كانت قد خلصت للموحدين ، وهم الذين قاموا بالدفاع عنها . وكان جبر اللوسمبا فور قد استولى ، حسبما ذكرنا فيما تقدم ، على حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، وحصن متناجش على مقربة من شمالها الشرقي . ففي شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ (أبريل سنة ١١٦٩ م) ، زحف جبر اللوسمبا فور في جموعه على مدينة بطليوس ، وهاجمها ، ورأى إليها أبو علي عمر بن تيمصلت أنه لا يستطيع بحاميته الضعيفة أن يدفع المهاجمين ، فامتنع بالقصبة ، وبعث بصريحه إلى الموحدين بإشبيلية . وما كاد جبر اللوسمبا يستولى على المدينة حتى أقبل ملك البرتغال ألفونسو هنريكي في قواته ، ودخل بطليوس ، وحاصر الموحدين في القصبة ، وحدد لهم مهلة للتسليم . وكانت قصبة بطليوس من أعظم القصبات الأندلسية وأمنعها^(١) ، ومن ثم فإن ابن تيمصلت كان على يقين من أنه سوف يستطيع الصمود مع حاميته حتى تصل الأمداد الموحدية من إشبيلية . بيد أن التجارة جاءت لأهل بطليوس ، وللموحدين المحصورين بقصبتها ، من طريق آخر لم يكن في الحسبان . جاءت على يد ملك ليون فرناندو الثاني .

ويجب لكي نفهم هذا الموقف الذي ترتب عليه اشتباك الملكين النصرانيين ألفونسو هنريكي ملك البرتغال ، وفرناندو الثاني ملك ليون ، داخل مدينة بطليوس ، ونحت أسوار قصبتها ، أن نرتد قليلاً إلى الوراء ، لنلقى بعض الضوء على علائق هذين الملكين المتنافسين ، في هذه الفترة الدقيقة من حياة الحاضرة الأندلسية الثالثة - بطليوس . وقد سبق أن شرحنا بإيجاز سبب الحصومة الرئيسي بينهما ، وهو ما يتمسك به فرناندو الثاني من دعوى السيادة على البرتغال التي ورثها عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس ، ورفض ملك البرتغال أن يعترف بظل من هذه السيادة ، وما اقترن بذلك من إنشاء فرناندو الثاني للمدينة رديجو الحصينة على مقربة من حدود البرتغال ، لكي يتخذها قاعدة للإغارة على أراضى

(١) أتج ل أن أزور مدينة بطليوس وأن أشاهد بقايا قصبتها العظيمة الوامعة فوق البروة الصخرية المشرفة على نهر وادي يانه ، والتي مارلت تدل على ما كانت عليه هذه العصبة من الضخامة والمنعة .

البرتغال . كل ذلك بالرغم مما كان يربط هذين الملكين من وشائج المصاهرة الوثيقة ، إذ كان ملك ليون متزوجاً من ابنة خصيمه ملك البرتغال . وكان ألفونسو هنريكيث قد بعث ولده سانشو في جيش ليهاجم مدينة ردرينجو ويخربها ، فبادر إليها فرناندو في قواته ، ورد البرتغاليين عنها ، وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر عدداً وافراً منهم ، بيد أنه أطلق في الحال سراحهم سعياً إلى استرضاء ملك البرتغال ، وتهديئة خصومته . ولكن الأمر كان بالعكس ، فقد عول ألفونسو هنريكيث على الانتقام لتلك الهزيمة ، وخرج في أواخر سنة ١١٦٧ م من شمال البرتغال في جيش قوى ، وهاجم جليقية من أراضي مملكة ليون واستولى على مدينة توى ، ثم على مدينتي لميا وترونيو وما حولها من الأراضي ، ووضع فيها حاميات برتغالية قوية ، وذلك بحجة أن هذه المدن والأراضي كانت من أملاك أمه الملكة تيريسا ، تلقتها عن أبيها ألفونسو السادس مهراً لزوجها .

وفي العام التالي ، سنة ١١٦٨ م ، وضع ألفونسو هنريكيث خطته لمحاربة المسلمين ، والبدء بغزو مدينة بطليوس ، أهم وأقرب القواعد الإسلامية إليه . ونفذ خطته بالفعل بالتعاون مع جيرالدو سيمافور في أبريل سنة ١١٦٩ م . وكان فرناندو ملك ليون ، يرقب مشاريع ملك البرتغال وحركاته بمنتهى العناية ، ويحرص بالأخص على ألا تمتد فتوحه إلى تلك المنطقة التي كان ملوك قشتالة وليون يعتبرونها منطقة لنشاطهم وفتوحهم . وكان سانشو الثالث ملك قشتالة ، قد عقد مع أخيه فرناندو على أثر موت أبيهما القيصر ألفونسو ريمونديس ، معاهدة لتقسيم أراضي اسبانيا المسلمة ، إلى منطقتي نفوذ ، يختص كل منهما بواحدة منهما ، فيختص ملك ليون بالغزو والفتح في المنطقة التي تمتد من بلبة حتى أشبونة ومتناجش وماردة وبطليوس ويابرة وشلب وكذلك نصف مدينة إشبيلية ، وسائر الحصون الواقعة في تلك المنطقة ، ويختص ملك قشتالة بالغزو والفتح في سائر ما تبقى من أراضي اسبانيا المسلمة ، ولاسيما المنطقة الواقعة فيما بين الوادي الكبير وغرناطة ، ومن ثم فإنه لما سار ألفونسو هنريكيث إلى غزو بطليوس ، اعتبر فرناندو هذه الحركة اعتداء على حقوقه ومنطقة نفوذه ، وماكاد ملك البرتغال يدخل بطليوس ، حتى كان فرناندو قد سار بقواته في أثره ، يحاول رده عن القاعدة الإسلامية . فلما اقترب من بطليوس بعث رسوله خفية إلى واليها ابن تيمصلب المحصور بالقصبة ، وإلى أهل المدينة من الأندلسيين ، ينبئهم بمقدم

ملك ليون لإنجادهم ، وبطلب إلى ابن تيمصلت أن يده له على الطريق الذي يمكن أن يسلكه لدخول المدينة . فبعث ابن تيمصلت بعض رجاله إلى مكان خفي من بعض أسوار القصبه ، لم يقطن إليه البرتغاليون ، فلما تحقروا من وصول القوات الليونية . نقبوا السور فخرج منه الموحدون إلى أقرب أبواب المدينة وفتحوه ، وأدخلوا منه جند ليون ، واجتمع الموحدون وجند ليون على قتال القوات البرتغالية داخل المدينة ، وحى القتال بين الفريقين ، وأبدى الموحدون وحلفاؤهم الليونيون منتهى الإقدام والبسالة ، في مقاتلة البرتغاليين ، حتى مزقت صفوفهم . واضطر ملكهم ألفونسو ، هنريكز إلى الفرار ، ولكنه عندما أراد أن يقتحم باب المدينة وهو في منتهى السرعة والذعر ، اصطدمت ساقه اليمنى بعمود الباب بشدة أو علق برتاج الباب على قول آخر ، فسقط من فرسه ، وقد كسرت ساقه ، وأنغمى عليه ، فحمله أصحابه وهو فاقد الوعي ، إلى بليدة ، « قاية » الواقعة على مقربة من شمال المدينة فطاردتهم قوات فرناندو ، وأسرت الملك الجريح ، وعدة من أكابر أصحابه . وعامل فرناندو خصمه الملك بمنتهى الكرم والشهامة ، فعهد إلى أطبائه بمعالجته ، ثم أطلق سراحه ، بعد أن تعهد له برد سائر الأماكن التي انتزعاها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها . وعاد ألفونسو هنريكز إلى قلمرية ، وقد فتت الهزيمة في عضده ، وشلت ساقه ، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك اليوم أن يركب فرساً^(١) .

أما جبريلو سيمافور فقد فر على أثر الموقعة ، حسبما يذكر لنا ابن صاحب الصلاة . وفي رواية أخرى أنه أسر مع مديكه ، ثم أطلق فرناندو سراحه بعد أن تعهد بالتنازل عن الأماكن والحصون التي استولى عليها شمالي بطليوس مثل ترجائه ، وقاصرش ومتانجش ، وقد استولى الموحدون على قاصرش وحصن شربة فيما بعد .

ووقعت هزيمة البرتغاليين وإخراجهم من بطليوس في اليوم الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٦٤ هـ (٢١ مايو سنة ١١٦٩ م) . وفي الحال سلم فرناندو المدينة إلى واليها ابن تيمصلت ، وأوفى فرناندو في هذه المناسبة بعهوده للخليفة الموحدى آثم وفاء ، وأبدى للموحدين إخلاصه وعرفانه لسابق عونهم وإنجادهم . واستولى

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٢٢ ب و ١٢٣ ا في المطوع - ص ٣٨

٣٨٢ ، واليان المغرب القسم الثالث ص ٨٠ و ٨١ وكذلك . M. Lafuente : Hist- General .

T. III, p. 329 & 330. de España.

الموحدون على سائر ما تركه البرتغاليون وراءهم من العتاد والمتاع والمئون ، وكانت مقادير وفيرة . وعاد فرناندو في قواته ظافراً إلى ليون . ووصلت أنباء النصر إلى إشبيلية ، على عجل ، وتلغها الشيخ أبو حفص عمر ، بينما هو يستعد للسير في قواته إلى بطليوس لإنجاده . فكتب في الحال إلى الخليفة أبي يعقوب ، رسالة بالفتح ، فسر الخليفة بذلك أمما سرور ، ورفع إليه الشعراء مدائحهم وتهانيمهم . ومنها قصيدة لشاعر الدولة الموحدية أبي عمر بن حربون هذا مطلعها :

بسعدك أضحي الدين جذلان باسمها وباسمك أمسى الشرك للشرك هادما
إلا أنها فيما وعدت لآية يدين بها من كان بالله عالماً^(١)

لما انتهت معركة بطليوس بهزيمة البرتغاليين ، وتوكيد سيادة الموحدين على المدينة ، غادر الشيخ أبو حفص عمر إشبيلية في قواته وسار إلى قرطبة ، لمعاونة واليها السيد أبي إسحاق إبراهيم ، على تقوية جبهتها الدفاعية . وكان يخشى دائماً أن تهددها قوات ابن مردنيش من ناحية الشرق ، عن طريق جيان قاعدة حليفه وصهره إبراهيم بن همشك ، وتهدها القوات القشتالية من الشمال . بيد أن الخطر من ناحية الشرق تضاعف منذ موقعة فحوص الجلاب ، التي هزم فيها ابن مردنيش وحطمت قواته . ومن جهة أخرى فقد وقع الشقاق بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك ، وذلك بسبب طلاق ابن مردنيش لزوجته صبيحة ابنة إبراهيم ، بعد أن بالغ في إهانتها وإيلامها ، فغادرته إلى كنف أبيها ، وأسلمت إليه ابنها منه ، وما يروى أنها سئلت عن ولدها ، وكيف تصبر عنه ، فأجابت « جرو كلب ، جرو سوء ، من كلب سوء لا حاجة لي به » فأرسلت كلمتها في نساء الأندلس مثلاً^(٢) . وكانت الوحشة قد سادت قبل ذلك بين ابن مردنيش وصهره ، وخشى ابن همشك على نفسه من غدر صهره ، وراعه ماشهده بنفسه من إقدام ابن مردنيش على قتل وزيريه أبي الخدع وبنائهما في الحائط ، وغير ذلك من الأعمال المروعة ، فاشتدت بينهما الوحشة ، وانقلبا إلى خصمين لدودين ، والظاهر من أقوال ابن الخطيب أنه قد وقعت بين ابن مردنيش وابن همشك على

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكملها في « المن بالإمامة » وتشغل

الوحات من ١٢٤ إلى ١٢٦ . وفي المطوع ٣٨٤ - ٣٨٧

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٣٠٢ .

أثر ذلك ، معارك ومناوشات هلك فيها جماعة من أنصار الفريقين . وكان ابن همشك يسيطر على قطاع جبان وبباسة وأبدة ، نائبا عن صهره ابن مردنیش . فلما اضطرم العداء بينهما ، أخذ ابن مردنیش يرهقه بغاراته ، ويؤلب عليه قواده وجنوده ، وابن همشك يقاوم ما استطاع .

على أن ابن همشك لم يلبث أن جنح إلى قرار حاسم ، فكتب إلى الشيخ أبي حفص بقرطبة رسالة يعلن فيها توبته واعتناقه للمذهب التوحيد ، ويعرض تمكين الموحدین من بلاده ، وهو ما يصفه ابن صاحب الصلاة « بتوحيد ابن همشك » وفي هذا التعبير ذاته ما يدل بأن « التوحيد » لم يكن يقتصر على الناحية الدينية ، ولكنه كان يعنى بالأخص الخضوع السياسي لسلطان الدولة الموحدية . ثم شفع ابن همشك رسالته بالسفر إلى قرطبة ، وذلك في رمضان سنة ٥٦٤ هـ (يونيه ١١٦٩ م) ، فاستقبل من واليها السيد أبي إسحق ومن الشيخ أبي حفص ، وأكابر الموحدین بترحاب ومودة . وأعلن ابن همشك أنه « قد عاهد الله تعالى بالآزام الأمر العزيز المطاع ، والدخول في حكم التوحيد » . ثم كتب إلى الخليفة أبي يعقوب يسجل توبته ودخوله في الطاعة ، ويلتمس العفو ، وحسن المثاب . فرد الخليفة بحسن القبول ، وأمر بتقريبه ، وإكرامه ، واتصلت القواعد والأراضي التي كانت بيد ابن همشك بأراضي الموحدین في أواسط الأندلس . وكان انضمام ابن همشك إلى الموحدین على هذا النحو ، ضربة أصابت ابن مردنیش في الصميم ، إذ كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قواده وأشدهم وطأة على أعدائه ، ومن ثم فقد عول ابن مردنیش على الانتقام من صهره ونائبه السابق ، ومعاقبته على خيانتة ، فدفع سائر قواته المجاورة لأراضيه إلى قتاله ، وهاجمت هذه القوات جبان واستمرت في مقاتلة ابن همشك وإرهاقه مدى عام ، وهو يستصرخ الموحدین لإنجاده . ولكن الموحدین لم يروا أن يتدخلوا في تلك المعركة ، إذ كانت لديهم خطة أخرى لمقاتلة ابن مردنیش في عقر بلاده^(١) .

وفي أثناء ذلك ورد أمر الخليفة بتعيين الحافظ أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر والياً لمدينة بطليوس مكان ابن تيمصلت . وكان أبو يحيى من أنجب الحفاظ وأوفرهم فروسة وعلماً . وكان عندئذ مع أبيه بقرطبة . فسار إلى بطليوس في جملة

(١) ابن صاحب الصلاة في «المن بالإمامة» لوحة ١٢٦ و ب و في المطوع ٣٨٨ - ٣٩٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٢ .

كبيرة من الموحدين والهند الأندلسيين ، وتقلد ولايتها وأخذ في تأمينها وتحصين أطرافها . وقام بحفر بئر كبيرة داخل القصة تنفيذاً لأمر الخليفة ، يسرى إليها ماء نهر وادى يانه ، وذلك تحوطاً واستعداداً لما قد يقع من حصار أو غيره من الطوارئ ، وعرفت هذه البئر باسم « القيوراجة » . وكانت من خير ما عمل لتأمين القصة الشهيرة وتحصينها . وكان المغامر البرتغالى جبرالدو سمافور ما يزال مرابطاً بقواته في حصن جلثمانية القريب من بطليوس ، فانهز فرصة انشغال الوالى الجديد بأعمال الحفر والتحصينات ، وأخذ يرهق المدينة بغاراته المتوالية ، والحافظ أبو يحيى يبذل جهده في مدافعتة ورده بقواته . وأخيراً نظم جبرالدو حملة قوية ، اشتركت فيها قوة كبيرة من نصارى شنترين ، ورتب من جنده كائن في مواضع مستورة ثم هاجم أحواز بطليوس القريبة ، فخرج إلى لقاءه الحافظ أبو يحيى في قواته ، وماكاد الموحدون يحملون عليه ، حتى تظاهر بالهزيمة والفرار ، فقبه الموحدون حتى وصل إلى مقر الكائن ، وعندئذ أطبق النصارى على الموحدين ، وقتلوه بشفة ، فانهزم الموحدون وأسر النصارى منهم جملة بينهم عدة من الأكابر ، اقتدى معظمهم فيما بعد ، وكان ذلك في أواخر سنة ٥٦٤ هـ (أواخر ١١٦٨ م)^(١).

وفى هذه السنة أيضاً - سنة ٥٦٤ هـ - استدعى الخليفة أخويه السيد أبا إبراهيم لإسماعيل والى إشبيلية ، والسيد أبا إسحق لإبراهيم والى قرطبة ، والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبي إبراهيم والى غرناطة ، إلى الحضرة فغادروا الأندلس في أوائل جمادى الأولى من هذا العام (فبراير ١١٦٩ م) . والظاهر أن الغرض من هذا الاستدعاء ، كان يدور حول الاستعداد للحملة الكبرى التى يزعم الخليفة تسيرها لمقاتلة ابن مردنيش . وأقام هؤلاء الولاة فى الحضرة حتى أوائل سنة ٥٦٥ هـ ثم انصرف السيدان أبو إبراهيم ، وأبو إسحق إلى الأندلس ، وصحبهما أخوهما السيد أبو على الحسن الذى ندب والياً لسبتة ، ومنطقة جبال غمارة ، ليتقلد ولايته . وبقي الحافظ أبو عبد الله بالحضرة حيناً آخر ، وسار السيد أبو إبراهيم إلى إشبيلية والسيد أبو إسحق إلى قرطبة . وكان معهما وال جديد عينه الخليفة ، هو الحافظ أبو يحيى زكريا بن يحيى بن شيبان أحد أبناء أشياخ خمسين ، وقد عين والياً لطبيرة وشنتمرية الغرب ، من أعمال ولاية الغرب الأندلسية ، وكانت هذه المنطقة التى تقع فى جنوب البرتغال ، تضطرم بالفتنة من آن لآخر ، فضبطها الحافظ

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٢٨ اوب ١٢٩ ، والبيان المغرب ص ٨٣ .

أبو يحيى بجزم وقرة . وقمع بذور الفتنة ، واستمر في حكمها أعواماً طويلة ،
وقد ساد بها السلام والأمن .

وكان من أهم الأحداث في هذه السنة — سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) — إغارة
القيصريين على الأندلس . وكان عدوان القشتاليين على الأراضي الإسلامية قد
انقطع حيناً منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، واضطراب الحرب الأهلية
بين الملك الإسباني النصرانية ، وانشغال قشتالة بنوع خاص بالصراع بين أسرتي
لارا وكاسترو القويتين . فلما انتهى هذا الصراع الذي اشترك فيه فرناندو ملك
ليون إلى جانب آل كاسترو ، بانتصار آل لارا وهزيمة آل كاسترو ، بسط
آل لارا سيادتهم على طليطلة عاصمة قشتالة ، ووضعوا الملك الصبي ألفونسو
الثامن تحت حمايتهم ، وقام بالوصاية عليه كبير الأسيرة الكونت نونيو دي لارا (سنة
١١٦٦ م) . ولم يمض قليل على ذلك . حتى اعتزم الكونت نونيو — وبسميه
ابن صاحب الصلاة ، القمط نونه ، ويصفه « بظئر أدفونش الصغير » — أن يقوم
بغزوة للأراضي الإسلامية ، يكون فيها تقوية سلطانه ، وتعزيز هيئته . فخرج
في قواته من طليطلة ، واخترق مملكة الأندلس ، وسار جنوباً ، وهو يشحن
أينما حل ، دون أن تعترضه أية قوة معارضة . ثم عبر الوادي الكبير ، وشنيل ،
وانتهى في غزوته إلى فحص رُنْدَة ، وفحص الجزيرة الخضراء ، وأنه استطاع
بعبارة أخرى ، أن يخرق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها دون أن يلقى أية مقاومة
على نحو ما فعل ألفونسو المحارب قبل ذلك بنحو نصف قرن . ويقول ابن صاحب
الصلاة ، إنه وصل في سيره إلى البحر ، وقتل المسلمين في تلك الأراضي ،
واستولى على كثير من السبي والغنائم والماشية ، ونحن لانستطيع أن نفسر جمود
الموحدين إزاء مثل هذا العدوان الجريء خصوصاً وقد كانت لديهم في قرطبة
قوات كبيرة بقيادة الشيخ أبي حفص عمر ، اللهم إلا حرصهم على قواتهم ،
وادخارها لمحاربة ابن مردنيش (١) .

ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة طائفة من الأحداث الطبيعية التي حدثت في
تلك الفترة . منها تغير الهواء بمراكش أو بعبارة أخرى ظهور وباء مرض منه
معظم السادات وكثير من الناس ، وذلك في أواخر سنة ٥٦٤ هـ . ومنها توقف
المطر وحدوث الشَّرْق بالأندلس حتى شهر ديسمبر سنة ١١٦٩ ، ثم سقوط

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٢٠ أول المطبوع ٣٩٧

الأمطار بعد ذلك . وفي شهر جمادى الأولى من سنة ٥٦٥ هـ ، حدث زلزال عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها في عدة من مدن الأندلس ، وتوالت بالأخص في مدينة أندوجر مدة أيام حتى كادت أن تغوص منها الأرض ، ووقعت كذلك بقرطبة وغرناطة وإشبيلية . يقول ابن صاحب الصلاة ، وكان من سكان إشبيلية « فكان الرأى يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى الأرض ، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى . وتهدمت من ذلك ديار كثيرة في البلاد المذكورة وصوامع مساجدها »^(١) .

وفي شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ (أبريل سنة ١١٧٠ م) ، كثرت غارات جبرالدو سمبافور على مدينة بطليوس ، واشتد في إرهابها ، وقطع المؤن عنها ، حتى شعرت المدينة بالضيق ، فلما علم بذلك الموحدون في إشبيلية ، قرروا أن يرسلوا إليها مدداً وافرأ من المؤن ، فجهزت إليها قافلة من نحو خمسة آلاف دابة تحمل الطعام والسلاح والعلوفات ، وقدم لحراسها الحافظ أبو يحيى زكريا بن على في قوة من الجند الموحدون بإشبيلية ، ولما اقتربت هذه الحملة من مدينة بطليوس ، خرج إليها جبرالدو في قواته وأهل شنترين ، ونشبت بين الفريقين معركة حامية استمرت عدة ساعات وهزم فيها الموحدون أشنع هزيمة ، وأيدت صفوفهم ، وسقط قائدهم الحافظ أبو يحيى ضمن القتلى ، واستولى النصارى على قافلة المؤن كلها . وكان ذلك في يوم ٢٦ شعبان سنة ٥٦٥ هـ (١٤ مايو سنة ١١٧٠ م) . ووقعت أنباء هذه النكبة لدى الموحدون بإشبيلية وقرطبة أسوأ وقع ، وبعثوا بجبرها إلى الخليفة في مراكش^(٢) .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف مريضاً في ذلك الوقت ، وقد بدأ مرضه منذ أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، واستمر أكثر من عام . ونحن نذكر أن الخليفة كان منذ أوائل سنة ٥٦٤ هـ يزعم تنظيم حركة الجهاد بالأندلس ، وأنه وجه رسالته بذلك إلى الموحدون بها في ربيع الآخر من هذا العام ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أمر بهذه المناسبة بضرب الطبول والخروج ، وركب بنفسه في هيئة الغزو ، وخرج من مراكش ، ونزل بوادي تانسيفت على مقربة منها ، معلناً

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٣٠ ب . وفي المطوع ص ٣٩٧

(٢) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٣١ ، وفي المطوع ص ٣٩٨ والبيان

المغرب القسم الثالث ، ص ٨٤ .

عزمه على الجهاد بالأندلس ، وأقام به ثلاثة أيام ، وانتهى رأى الموحدين عندئذ إلى أن يتقدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى بعسكر ضخم من الموحدين . وقد عبر الشيخ البحر إلى الأندلس بعسكره ، ونزل في إشبيلية في نفس الوقت الذي كانت قد أنقذت فيه بطليوس من خطر السقوط في أيدي البرتغاليين ، بمعاونة ملك ليون ، وذلك كله حسبما فصلناه في موضعه .

ثم جاء مرض الخليفة ، فعاقه عن الاستمرار في تنفيذ حركة الغزو التي وعد بها الموحدين بالأندلس . بيد أنه استمر بالرغم من مرضه في استدعاء جموع العرب من إفريقية ، وجموع الموحدين من كافة الأنحاء ، وتزويدهم بالأعطية والكسب . وكان تطور الحوادث في الأندلس ، يؤذن بضرورة القيام باستعدادات عسكرية عاجلة توجه إلى شبه الجزيرة ، وذلك قبل أن تتم الأهبة لتنفيذ الغزوة الكبيرة التي يزمع الخليفة القيام بها . وكان موطن الصراع يبدو في ناحيتين ، الأولى في شرقي الأندلس ، حيث كان ابن همشك منذ دخوله في طاعة الموحدين ، يتلقى ضربات صهره القديم ابن مردنيش باستمرار ، ويفقد معاقلة تباعاً ، ويلج في طلب النجدة من حلفائه الجدد ، الموحدين ، ويبعث بصريحه المتوالى إلى الخليفة وإلى الشيخ أبي حفص بقرطبة ، وقد أوفد إلى مراكش لهذا الغرض وزيره القدير أبا جعفر الوقتشي ، وكان قد جنح مثله إلى طاعة الموحدين . ثم عبر ابن همشك بنفسه البحر إلى العدو ، وقصد إلى الخليفة بمراكش (٥٦٥ هـ) مؤكداً طاعته ومكرراً صريحه . وكانت الناحية الثانية من مواطن الصراع ، في غربي الأندلس ، حيث تطورت الحوادث تطوراً سيئاً ، وغدت مدينة بطليوس مرة أخرى ، عرضة لتهديد النصارى المستمر . وكان يلوح أن حوادث شرقي الأندلس تتطلب تدخلاً عاجلاً ، يكفل حماية ابن همشك وأراضيه التي غدت جزءاً من أراضي الموحدين ، والقضاء نهائياً على حركة ابن مردنيش والاستيلاء على بلاده ، حتى تخضع الأندلس بذلك من أقصاها إلى أقصاها إلى سلطان التوحيد ، وكان الشيخ أبو حفص يؤيد هذه السياسة ، ويبعث من قرطبة إلى الخليفة بالحث على اتباعها . ومن ثم فقد تقرر أن يسير السيد أبو حفص أخو الخليفة في جيش ضخم من الموحدين إلى جزيرة الأندلس لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى ، ومقاتلته في قلب بلاده ، والاستيلاء على مرسية ، قاعدته ومقر رياسته .

وخرج السيد أبو حفص في عسكره من حضرة مراكش في أول شهر

ذى القعدة سنة ٥٦٥ هـ (أغسطس سنة ١١٧٠ م) ومعه أخوه السيد عثمان أبو سعيد ، وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدين ، ومن زعماء الأندلس ، أبو محمد سيدرأى بن وزير ، وأخوه أبو الحسن على بن وزير ، وعدة من القادة الأندلسيين النازلين بمراكش ، صحبهم لينتفع بخبرتهم ومشورتهم في تدبير شئون الجزيرة ، وتنظيم الخطط العسكرية بها . فوصل في قواته إلى إشبيلية في أوائل سنة ٥٦٦ هـ . ووافاه بها من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ومعه إبراهيم بن همشك . وعقد السيد أبو حفص وصحبه من الأشياخ والزعماء مؤتمرا لبحث شئون الحرب ، تقرر فيه أن يبادر السيد أبو سعيد أولا في عسكر إلى مدينة بطليوس ، لتقوية جبهتها الدفاعية . فسار إليها في جيش من الموحدين والعرب ، ومعه من زعماء الأندلس سيدرأى ابن وزير ، وأبو العلاء بن عزون ، وقد جاءت هذه الحركة في الواقع في الوقت المناسب ، إذ كانت بطليوس في تلك الآونة بالذات عرضة لخطر غزو جديد .

ذلك أن فرناندو الثاني ملك ليون ، لما رأى نشاط البرتغاليين المتكرر في مهاجمة بطليوس ، ولإلحاق جبرالدو سيمافور في إرهابها ، وما حل بقافلة الأمداد الموحدية من هزيمة ساحقة ، خشى أن ينتهي الأمر بسقوط المدينة في أيدي البرتغاليين . وقد رأينا من قبل حرص ملوك قشتالة وليون على اعتبار بطليوس وما إليها داخلة في نطاق فتوحاتهم ، وحرصهم على ألا يفوز البرتغاليون بأية فتوح في هذه المنطقة . ومن ثم فقد خرج فرناندو في قواته قاصداً إلى بطليوس ليقوم بالاستيلاء عليها ، قبل أن تسقط في أيدي البرتغاليين ومليكيهم ألفونسو هنريكيز ، وفي الوقت الذي وصل فيه إلى سهل الزلافة الواقع شمال شرق بطليوس على مقربة من نهر وادي يانه ، اقترب الموحدون من المدينة ، ولما علم السبد أبو سعيد بالموقف ، أرسل سيدرأى بن وزير ، وأبا العلاء بن عزون ، وبعض أشياخ الموحدين إلى المعسكر النصراني ، ليتعرفوا نيات ملك ليون ، وهل هو باق على صلحه ومحالفته للموحدين أم قد نقض هذا الصلح ، فرحب بهم ملك ليون ، وأجابهم بأنه خرج لحماية بطليوس ، « وإمساكها لأمر المؤمنين » فاترح الرسل أن يجتمع الملك النصراني بالسيد أبي سعيد ، لتجديد الصداقة والصلح ، فاستجاب فرناندو لدعوتهم . وسار في نفر من خاصته إلى مقربة من بطليوس ، والتقى بالسيد أبي سعيد وكلاهما تمتطى صهوة جواده ، وتم بينهما التفاهم وتوكيد أواصر المودة والصلح ، وانصرف ملك ليون على أثر ذلك في قواته إلى بلاده .

— ٤٦ —

أما السيد أبو سعيد فقد سار في عسكره توأ إلى حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، والذي اتخذته البرتغاليون بقيادة جيرالدو سمبافور قاعدة للإغارة على المدينة وإرهاقها ، ونازله واستولى عليه عنوة ، ثم هدمه ، وانقضت بذلك غمته ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ (نوفمبر ١١٧٠ م) . وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو سعيد في صحبه وعسكره المظفر إلى إشبيلية^(١) .

— ٢ —

وما كاد السيد أبو سعيد يصل إلى إشبيلية ، حتى عقد السيد أبو حفص مؤتمراً حربياً جديداً حضره السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، واستقر فيه الرأي على القيام بمحاربة ابن مردنيش ، وتحطيم سلطانه في شرقي الأندلس . وكان محمد بن سعد بن مردنيش ، قد اضطربت شتونه خلال ذلك ، وأخذت تخبو قواه ، وموارده ، ولا سيما منذ هزيمة فحوص الجلاب الساحقة . وكان من أهم العوامل في انحلال سلطانه الشامخ الذي استمر منذ قيامه في شرقي الأندلس في سنة ٥٤٢ هـ ، نحو عشرين عاما يتحدى سلطان الموحدين ، وبتبذ سيادتهم ودعوتهم ، دون هوادة ، عاملان يتلخص أولها في مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، وانخلاعه إليهم ، واعتماده المطلق عليهم . وقد رأينا فيما تقدم كيف كان النصارى المرتزقة ، يؤلفون معظم قوات ابن مردنيش في أية موقعة يخوضها . والثاني ، فيما نشب من الشقاق بين ابن مردنيش ومعظم وزرائه وقادته .

فأما عن العامل الأول ، وهو مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، فقد كان أمراً طبيعياً ، تمليه الظروف المحيطة بابن مردنيش ، وثورته على الموحدين . وقد كانت ثورة ابن مردنيش ، تملئها فضلاً عن الأطماع السياسية ، بواعث وطنية ، هي التي دفعت سائر القواعد الأندلسية إلى الثورة على المرابطين ، وقد كان الموحدون خلفاء المرابطين في التغلب على الأندلس ، فكانت ثورة ابن مردنيش على الموحدين ، وكفاحه ضدهم ، امتداداً لنفس الثورة ، ونزولاً على نفس البواعث . وكان النصارى حلفاء طبيعيين لابن مردنيش في هذا الصراع ضد العدو المشترك ، أعنى الموحدين الوافدين على شبه الجزيرة من وراء البحر . ولم يغفل ابن مردنيش عن أهمية هذا العامل ، في اجتذاب النصارى إلى محالفته ،

(١) ابن صاحب الصلاة لوسات ١٣١ ب ١٣٢ و ١٣٣ ، وفي المطوع ص ٤٠٠ - ٤٠٢

والبيان المغرب التسم الثالث ص ٨٥ و ٨٦ .

وحشدتهم في صفوفه . وكانت تربط ابن مردنيش في البداية بسائر أمراء اسبانيا النصرانية ، روابط المودة والصداقة ، ولكنه لما توفي رامون برنجير الرابع ملك قطلونية وأراجون ، وخلفه ولده ألفونسو الثاني في حكم مملكة أراجون المتحدة ، تطورت الأمور ، وساءت العلاقات بينه وبين ابن مردنيش لإصراره على مطالبة ابن مردنيش بالجزية التي كان يدفعها لأبيه ، ورفض ابن مردنيش لأدائها . وقد وصل العداء بين الأميرين ، إلى حد أن ملك أراجون ، بعث ببعض ضباطه وجنده للاشتراك مع الموحدين ضد ابن مردنيش في معركة فحص الجلاب^(١) . ثم تحسنت العلاقات بعد ذلك بينهما حينما تدخل ملك قشتالة ، وتعهّد ابن مردنيش بأداء الجزية وتعهّد ألفونسو الثاني بالألا يساعد الموحدين أعداء ابن سعد بأية صورة . وأما علائق ابن سعد بقشتالة ، فقد كانت على خير ما يرام ، من المودة والصفاء ، وكانت تربط ابن مردنيش بألفونسو الثامن ملك قشتالة صداقة متينة العرى . وكان ابن مردنيش يحتفظ في بلنسية بحامية كبيرة من الجند القشتاليين ، يعيشون في المدينة ، وتغص بهم طرقها وأحيائها ، حتى ضاق بهم أهل المدينة المسلمين ذرعاً ، وغادرها الكثير منهم إلى الضياع والقرى القريبة ، وهم يضطرمون خطأً على أميرهم المسلم ، الذي مكن أعداءهم النصارى من دورهم وأمورهم ومرافقهم ، وشردهم بذلك عن أوطانهم . وقيل إن ابن مردنيش هو الذي أخرج أهل بلنسية منها ليوسع لحلفائه النصارى^(٢) . وقد كان لهذه السياسة في اصطفاء النصارى وما تقتضيه من إرهاب المسلمين بالمغارم والفروض ، وهي السياسة التي سبق أن أشرنا إلى طرف من عناصرها ومظاهرها ، أثرها العميق في النيل من هيبة ابن مردنيش والسخط عليه ، وتبرم أهل شرق الأندلس برياسته وتمنيهم زوالها .

وأما العامل الثاني في تضعف قوى ابن مردنيش ، فهو خروج قادته ووزرائه عليه . وقد كان انشقاق صهره إبراهيم بن همشك عليه ، وانضمامه للموحدين ، بلا ريب أعظم ضربة هزت من رياسته وسلطانه . فقد كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قادته ، وأوسعهم حيلة وأبعدهم صيتاً ، بل كان ابن همشك في الواقع بالرغم من صفاته المثيرة ، ومن قسوته ، وروعة وسائله ، واستهانة بالدماء ، من أعظم قادة اسبانيا المسلمة في هذا العصر ، ان لم يكن

A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 542 (١)

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٦

أعظمهم جميعاً . وخرج على ابن مردنیش غیر ابن همشک ، عدة من قرابته ووزرائه ، ومن هؤلاء صهره يوسف بن هلال ، وكان فارساً شجاعاً حازماً ، حظى لدى أميره فصاهره ، وندبه لرياسة حصن مطرنیش القريب من بلنسية وما حوله من الأراضي ، ثم فسد ما بينهما ، فنار ابن هلال ، ولحق بمورتله (مورادال) وتحالف مع أمير برشلونة على أن يكون تحت حمايته ، فأيده بقوة من الفرسان ، وأخذ يغير على أحواز بلنسية ، وينزع بعض حصونها . وأوقع الهزيمة بابن مردنیش . ولكن حدث لسوء طالع أن وقع ذات يوم أسيراً في يد سرية جردها صهره على مورتلة ، فأخذ إليه ، فأسرع به إلى مورتلة ، وطالبه بإخلاصها ، وإلا نزع عينه ، فأبى ، فأمر ابن مردنیش فأخرجت عينه اليمنى بعود ، ولما تمادى في رفضه نزع عينه الأخرى ، ثم أخذ إلى شاطئه ، حيث بقى بها إلى أن توفي^(١) . وكانت هذه الوسائل المثيرة في الانتقام من أبرز نزوات ابن مردنیش ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يرويه لنا ابن صاحب الصلاة ، من أنه قتل وزيره ابني الخدع وذلك بينهما في الحائط .

كان ابن مردنیش يعاني من هذه الظروف العصبية والمتاعب المضنية ، حيناً وضع الموحدون خطتهم لإتزال ضربتهم الأخيرة به .

ففي شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ (مارس سنة ١١٧١ م) خرج السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص في جموع الموحدين من إشبيلية ، ومعهم إبراهيم بن همشك ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، أقاموا بها أياماً ، يضعون خططهم النهائية . ثم خرجت القوات الموحدية من قرطبة ، وسارت شرقاً قاصدة إلى مرسية ، وكانت أول قاعدة غزوها من قواعد ابن مردنیش مدينة قيجاطة^(٢) الواقعة شرق جيان ، بينها وبين لورقة . فافتحموها بعد مقاومة قصيرة ، وقبض على قائدها الشرق وأعدم بإشارة ابن همشك ، ثم اخترق الموحدون بعد ذلك بسائط الشرق في طريقهم إلى مرسية حتى وصلوا إلى فححصها ، فنارلوا لاختبار قدرتها الدفاعية ، وتخللوا على حصن الفرج في ظاهرها ، وقد كان منزله ابن مردنیش ، ومنزل لوه وأنسه ، واستباحوا الرياض والبساتين ، وسائر القرى والبساتين الخضراء في تلك المنطقة ، وابن همشك ينفذ الموحدين ويدلهم

(١) ابن الخطيب و أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦٢

(٢) وهي بالإسبانية Quesada

على خير الطرق والمسالك . وكان ابن مردنیش خلال ذلك يستجمع قواته الأخيرة ، ويستصرخ حلفاء النصارى لإمداده ، فلم يلب منهم دعوته سوى أربعائة فارس ، بعث بهم إلى لورقة ، وهى حصن مرسية الأمانى ، لتأمين الدفاع عن قصبته ، وقد كانت بقيادة قائده الأثير وموضع ثقته أبى عثمان سعيد ابن عيسى ، فضبطها أبو عثمان ، وحصنها أمنع تحصين . ولكن الأمر طال عليه ، وهو فى عزله . وذاع بين الناس ما يعانیه ابن مردنیش من اضطراب الأحوال والقلق ، وشعروا أن عاقبته قد دنت ، فعندئذ ثار أهل لورقة ، ودعوا للموحدين ، وهاجموا النصارى وأنصار ابن مردنیش ، فالتجأ هؤلاء جميعاً إلى القصة وامتنعوا بها . واتجه أهل لورقة إلى الموحدين فى طلب الإنجاد ، وبعثوا بصريخهم إلى السيد أبى حفص بمحلته بفحص مرسية ، يعلنون دخولهم فى دعوة التوحيد ، ويستنصرون به على عدوهم ، فسار السيد أبو حفص فى بعض قواته صوب لورقة ، ودخلها واحتلها ، وبقيت حاميتها بقيادة أبى عثمان على حالها من الامتناع . وحدث أن خرجت سرية موحدية تجول فى الأنحاء المجاورة ، فوقع فى يدها ولد القائد ، محمد بن أبى عثمان ، فأمر السيد أبو حفص أن يحمل إلى مقربة من القصة بمرأى من أبيه عسى أن يحمله ذلك على التسليم ، فأبى القائد واستمر فى امتناعه ، حتى كادت الأقوات والماء أن تنفذ ، فعندئذ ألح عليه حلفاؤه النصارى فى التسليم ، وتوسط ابن همشك لأبى عثمان فى النزول من القصة مع جنده بالأمان ، وهكذا سلمت القصة ، وانصرف القائد أبو عثمان مع صحبه إلى مرسية ، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم ، وتم بذلك فتح لورقة وخلوصها للموحدين .

وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو حفص فى قواته إلى مرسية ، ليمضى فى حصارها ، وفى أثناء ذلك أعلن أهل الشطاعتهم ودخولهم فى دعوة التوحيد ، وتبعهم فى ذلك أهل معظم الحصون المجاورة ، فنهضوا جميعاً الأمان ، ثم جهز السيد أبو حفص حملة من الموحدين والعرب تحت إمرة الشيخ الحافظ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم ، سارت إلى مدينة بسطة فافتتحتها ودخلت فى طاعة الموحدين . وأعقبها الجزيرة - جزيرة شفر - الواقعة على مقربة من جنوبى بلنسية فأعان أهلها التوحيد برعامة عميدهم أبى بكر أحمد بن محمد بن سفيان الخزومى ، وطرردوا النصارى الذين كانوا بها . وكان أبو بكر زعيماً ناهياً من بيت عرين ، وراهداً محسناً . وأديباً شاعراً ،

فلما رأى اختلال أمر ابن مردنیش وضغط الموحدین على قواعده ، دعا للموحدین وانضم إليه جيرانه ، فندب ابن مردنیش لقتاله ، أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد نائبه في بلنسية ، وبعث أبو الحجاج قوة من الفرسان قامت بمنازلة الجزيرة ، ومحاصرتها والتضييق عليها ، في منتصف شوال سنة ٥٦٦ هـ ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، وابن سفيان يقاوم ما استطاع ، وابن سعد يوالى لإرسال الخند لتشدید الحصار ، ووصلت رسل الجزيرة إلى السيد أبي حفص بمحلته بمرسية في طلب الإنجاد ، فوجه معهم قائدهم السابق أبا أيوب بن هلال الشرقي والياً عليهم ، وكان قد دخل في دعوتهم للتوحيد واستطاع أبو أيوب أن يقتحم الجزيرة ، وأن يقوم بضبطها وحمايتها أشهراً ، حتى مرض ابن مردنیش ولحق بمرسية عليلاً ، وتنفس مخرج الجزيرة^(١) .

وكان ابن مردنیش أثناء ذلك ، والموحدون قبالة مرسية ، يخرج بقواته من آن إلى آخر ، ويشترك مع المحاصرين في معارك طاحنة ، وكان أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد ، يتولى الدفاع عن بلنسية ، وأحوازاها . وقد اختلف في موقف يوسف من أخيه في هذا المأزق العصيب ، ففي رواية أنه خرج على أخيه ، وفر عنه إلى الموحدین^(٢) ، ودخل في دعوتهم قبيل وفاة أخيه بنحو عام . وفي رواية أخرى ، أنه لما رأى تهمهم الحوادث دعا في بلنسية لبنى العباس ، وكاتب الخليفة المستنجد بالله ، فكتب له بالعهد والولاية ، ثم بايع للموحدین (سنة ٥٦٦ هـ)^(٣) . بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن هذه الرواية غير صحيحة ، وأن أبا الحجاج يوسف ، استمر يعمل إلى جانب أخيه بإخلاص ، وأنه اختص بالدفاع عن قطاع بلنسية ، بينما تفرغ أخوه محمد (ابن مردنیش) للدفاع الموحدین في مرسية . والواقع أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن مردنیش يكتنفها شيء من الغموض ، وفي بعض الروايات القشتالية ، أن ألفونسو الثاني ملك أراجون انتهز فرصة ضغط الموحدین على ابن مردنیش ، وغزا أراضي بلنسية ، المتاخمة لحدود قطلونية ، واستول منها على عدة مواقع وحصون ، وأنه أرسل حملة برية وبحرية لغزو بلنسية ذاتها ، فتولى الرئيس أبو الحجاج مدافعة

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٢٧

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٧١

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦

القوات البرية ، وتولى ابن قاسم قائد أسطول ابن مردنيش مدافعة السفن النصرانية فهزمها وأحرق عدداً منها^(١).

وجاءت حوادث ألمرية ضربة أخرى لابن مردنيش . وكان ابن مردنيش قد انتزع ألمرية من الموحيدين ، وندب لولايتها قائده ابن مقدم . فلما اجتاحت الموحدون منطقة الأندلس الشرقية ، واستولوا على لورقة وبسطة ، واقتربوا من ألمرية ، قام بألمرية ابن عم وصهر لابن مردنيش على أخته ، هو محمد ابن مردنيش المعروف بصاحب البسيط ، وتعاون معه محمد بن هلال أحد القادة الخوارج على ابن مردنيش ، وأعلنوا بطاعة الموحيدين ، وبعثا إلى السيد أبي حفص في طلب العون والإنجاد ، فوجه إليهم قوة من الحند الموحيدين ، فقبض على الوالي ابن مقدم وأعدم . فلما علم ابن مردنيش بما حدث ، أمر بقتل أخته زوجة ابن عمه وكانت بجرسية ، وقتل ابنته منها ، فقتلا إغراقاً ، فجاء هذا الحادث البشع ، دليلاً جديداً على ما كان يتسم به ابن مردنيش من بالغ القسوة ، والاستهتار بسفك الدماء ، لاتعوقه في ذلك صلة رحم أو أية عاطفة إنسانية . يقول ابن صاحب الصلاة : « واختل ذهن ابن مردنيش في أثر ذلك ، وقل عونه من الله ومن الناس هنالك ، وعاد صبحه كالليل الخالك ، وفرغ من أذيته أهله وقرباته وشيعته وخاصته ، واختلت حياته وحالته »^(٢).

والواقع أن ابن مردنيش بما توالى عليه ، في تلك الآونة العصيبة ، من الضربات الأليمة ، ومن انشقاق معظم قادته ووزرائه وقرباته ، ومن استيلاء الموحيدين على معظم قواعده ، وتشددهم في حصاره وإرهاقه ، قد بلغ ذروة اليأس والألم . وكانت الضربة الأخيرة والقاضية ، ما بلغه من عبور الخليفة الموحيدي أبي يعقوب يوسف نفسه إلى الأندلس في جموع جرارة من الموحيدين والعرب ، ونزوله بإشبيلية ، وذلك في شوال سنة ٥٦٦ هـ ، فأيقن عندئذ بأنه لم تبق مندوحة عن الهزيمة المطبقة والسقوط النهائي . وكان يستشف خلال يأسه وألمه ، نذرا لخاتمة المحتومة المروعة ، بيد أنه لم يهن ولم يفكر في أن يختم ثورته العتيدة وسلطانه العريض ، الذي استطال زهاء ربع قرن ، بالتسليم المهين ، لمن كان يعتبرهم أعداء رأمته وبلاده ، على أنه لم يلبث أن انهارت بنيته المتينة ، وحطمه الغم واليأس . ويبدو

(١) A. P. Ibars: Valencia Arabe, p. 532

(٢) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٣٦ و ١٣٧ . وفي المطبوع ص ٤٠٦ و ٤٠٧

من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن ابن مردنیش قد انتهى به اليأس إلى نوع من الذهول والخلل ، وزاد من ذهوله ماعمد إليه أخوه الرئيس أبوالحجاج يوسف من المبادرة إلى التوحيد . ثم جاء الموت فألقاه من المصير المروع الذي كان ينتظره . وكانت وفاته حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة ، في العاشر من شهر رجب سنة ٥٦٧ هـ (٦ مارس سنة ١١٧٢ م) في الثامنة والأربعين من عمره ، وهو تاريخ يحمل طابع الرجحان لأنه قول المؤرخ المعاصر^(١).

وفي رواية أن ابن مردنیش لم يمت موتاً طبيعياً ، وأنه انتحر بتناول السم^(٢) ، أو أنه توفي مسموماً بيد والدته . ذلك أنه لما اشتد على أهله وكبراء دولته ، وأساء إليهم ، نصحته أمه ، وأغلظت له القول ، فزهرها وخافت بطشه ، لما تعلمه من وحشية طباعه ، فدبرت قتله بالسم^(٣) . على أن هذه الرواية ، لاتستند إلى أساس قوى ، فإن ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، وشاهد العيان ، لم يقل لنا شيئاً عنها . ومن جهة أخرى فإن ابن الأبار ، وهو قريب من العصر ، وقد عاش في بلنسية في عهد حفيد يوسف بن مردنیش ، يذكر لنا أن ابن مردنیش ، مرض خلال محاصرته ، لجزيرة شقر ، فغادرها عليلًا إلى مرسية^(٤) . ويقول لنا المراكشي أيضاً إن ابن مردنیش توفي « حتف أنفه » خلال حصار مرسية^(٥).

وهكذا هلك محمد بن سعد بن مردنیش . وكان موته نذيراً بانهايار دولته الشاعخة ، التي استطاع بعزمه وجراته وشجاعته وبراعته ، أن ينشئها في شرقي الأندلس ، ما بين طرطوشة شمالاً والمرية جنوباً ، وما بين شاطئ البحر شرقاً وجيان غرباً ، والتي لبثت زهاء ربع قرن تمثل سلطان الأندلس واستقلالها القومي ، وتتحدى سلطان الموحدین وجيوشهم المتدفقة من وراء البحر ، بل لقد لاح مدى حين أن ابن مردنیش يكاد يسطر سلطانه على الأندلس كلها ، وذلك حينما استولى على جيان وبياسة وأبدّة ووادي آش ، واخترق أواسط الأندلس حتى

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة (لوحة ١٦٥) . ويأخذ ابن الخطيب بهذه الرواية (الإحاطة ج ٢ ص ٩٠) . ولكن ابن خلكان يقول لنا إن ابن مردنیش توفي في التاسع والعشرين من رجب سنة ٥٦٧ هـ (٢٧ مارس سنة ١١٧٢ م) . راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) M. Gaspar Remiro : *Marcia Musulmana* p. 228

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٤) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٧

(٥) المعجب ص ١٤٠

إشبيلية ، وحينما اجتاحت نائبه ومعاونه ابن همشك وادى قرطبة ، وهدد قرطبة ذاتها ، واستولى على قرمونة ، ثم هزم الموحدون في مرج الرقاد واستولى على غرناطة . ولولم تضع موقعة السيكة حداً لتقدمه ، لكان سلطان الموحدون في الأندلس عرضة للانهيار ، ولكالت ثورة ابن مردنيش بالظفر التام . ولقد كان ابن مردنيش في الواقع يمثل بثورته ضد الموحدون ، كل ما كانت تبطنه الأندلس القديمة من الآلام والآمال القومية ، التي لبثت تخبئ بها منذ استولى المرابطون على قواعدها ، وفرضوا سيادتهم عليها . ولم تغير سيادة الموحدون بعد المرابطين لشبه الجزيرة الأندلسية شيئاً من هذا الاتجاه القوي ، فقد كان الموحدون كالمرابطين بالنسبة للأندلس ، أجنب ، وكانوا مثلهم من القبائل البربرية ، التي لم تستطع منذ مثولها القوى في شتو الأندلس منذ أيام الحاجب المنصور ، أن تخرز من الأمة الأندلسية كثيراً من العطف والتقدير . ولم تكن فكرة الجهاد التي كان يحمل لواءها المرابطون ثم الموحدون ، وما كانت الجيوش المرابطية ، ثم الموحدية ، تبذله في سبيل حماية الأندلس ، ومحاربة إسبانيا النصرانية ، لتقضى تمام القضاء على الفكرة القومية الأندلسية ، وإن كانت تطف من آن لآخر من جذوتها واضطرامها . على أن ابن مردنيش لم يكن بالرغم من حصافته وجراته وشجاعته ، هو الشخصية المثلى لحمل لواء القومية الأندلسية ، فقد كانت ثورته على الموحدون ، تفقد كثيراً من قيمها المعنوية ، بما كان ينجح إليه من الإفراط في مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم في حروبه ، وتمكينهم من قواعده ، وتشبههم في زيه ، وفي حياته الخاصة والعامة . وإلى جانب ذلك كان ابن مردنيش يقسم بطائفة من الخلال الذميمة ، فقد كان مسرفاً في الشراب ، واتخاذ الجوارى ، حتى « كان يراقد منهم جملة تحت لحاف واحد » ، منهمكاً في حب القيان والزمر والرقص^(١) ، ثم كان بعد ذلك طاغية ظلوماً ، بالغ القسوة ، مسرفاً في الانتقام ، مستهتراً بالدماء ، وكان عماله على شاكلته من الظلم والجور^(٢) . وتضع الرواية الإسلامية ابن مردنيش في سلك ثوار الأندلس ، وتنوه بكائه وشجاعته ، وقد وصفه بعضهم بأنه « كان بعيد الغور ، قوى الساعد ، أصيل الرأي ، شديد العزم ، بعيد العفو ، مؤثراً الانتقام ، مرهوب العقوبة » .

(١) ابن الخطيب في الإحاطة (المطبوع) ج ٢ ص ٨٦ ، وفي أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

(٢) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ و ٨٨ .

وبالرغم من أن ابن صاحب الصلاة يقدمه لنا في كتابه « المن بالإمامة » في صور قائمة ، ويصف أصحابه دائماً بالأشقياء ، فإنه في كتابه « ثورة المريدين » الذي يفصل فيه سير الأندلس ، يصف ابن مردنيش بقوله « كانت له فروسية وشجاعة وشهامة ورياسة »^(١) .

أما ما حدث عقب وفاة ابن مردنيش ، فتختلف الرواية في تصويره . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أنه على أثر وفاته ، يادر قواده وأشيائه ، بإعلان الطاعة للموحدين ، وأقنعوا ولده أبا القمر هلالاً بذلك ، فصدع برأيهم ، ويادر إلى إعلان توحيدهم ، وطاعته ، وسار إلى إشبيلية ، ليؤكد ذلك لأمر المؤمنين أبي يعقوب . وقد سبق أن أشرنا إلى ما يذكره ابن صاحب الصلاة من أن أبا الحجاج يوسف أخا ابن مردنيش ، قد أعلن توحيدهم ، قبيل وفاة أخيه^(٢) .

ويذكر لنا عبد الواحد المراكشي ، أنه لما توفي ابن مردنيش ، خلال الحصار ، كتبت وفاته حتى قدم أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف من بلنسية ، وتباحث مع أكبر أبناء أخيه ، واتفق رأى الجميع على أن يدينوا بالطاعة لأمر المؤمنين أبي يعقوب ، وأن يسلموا إليه البلاد . ويقرن ذلك برواية أخرى خلاصتها أن محمداً بن سعد حين شعر يدينو أجله جمع بني ، وكان له من الولد المذكور ثمانية ، هم هلال أبو القمر وهو أكبرهم ، وإليه أوصى ، وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبلر ، وأرقم ، وعسكر ، وقال لهم أني أرى أمر هؤلاء القوم ، من الموحدين ، في صعود ، وقد كثر أتباعهم ، ودخلت معظم البلاد في طاعتهم ، وأنه يظن أنه لاطاقة لهم بمقاومتهم ، وأنه لذلك يحسن التسليم لهم طوعاً واختياراً فيحفظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بهم ما أنزل بغيرهم من أهل البلاد التي دخلوها عنوة ، على أن عبد الواحد لا يجزم بصحة أي الروايتين^(٣) .

وعلى أي حال فإنه يبدو من المقطوع به ، أنه على أثر وفاة ابن مردنيش ، يادر ولده أبو القمر هلال ، بإعلان إذعانه وطاعته لأمر المؤمنين أبي يعقوب ، وبالتخلي له عن مدينته مرسية قاعدة الإمارة . فوجه الخليفة أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية ليتقبل طاعته وليتسلم المدينة ، فسار إليها في عسكر منازل من الموحدين

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٦٥ . وفي المطبوع ص ٤٧١

(٣) المعجب ص ١٤٠ .

فبادر أهلها بالخروج إليه ، ثم دخل المدينة وآنس أهلها ، ووعظهم وحثهم على طاعة الخليفة ، ووعدهم بالخير ورفع المظالم عنهم . ثم سار هلال بنفسه إلى إشبيلية في مستهل شهر رمضان (٥٦٧ هـ) ومعه أكابر دولة الشرق وقادتها وأعيانها ، فاستقبله وصحبه خارج إشبيلية ، أخو الخليفة أبو زكريا يحيى صاحب بجاية ، وأبو إبراهيم إسماعيل وعلية أشياخ الموحدين ، ثم استقبلهم الخليفة بالقصبة العتيقة أجل استقبال ، وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بحضور السادة الإخوة وأشياخ الموحدين . ثم أنزلوا بقصر ابن عباد والدور المتصلة به ، وقد غمرهم الخليفة بوافر عطفه وإكرامه . وفي اليوم التالي قدم قادة الشرق وأجناده ، وفي مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، بيعتهم وطاعتهم ، وأبدوا رغبتهم إلى الخليفة أن يقوم بغزو من جاورهم من بلاد النصارى ، وعينوا مدينة وبنة بالذات هدفاً لهذا الغزو ، نظراً لضعف تحصيناتها وأسوارها ، فوعد الخليفة بتحقيق هذه الرغبة^(١) .

ويتنقل إلينا ابن الخطيب بهذه المناسبة رواية خلاصتها أن الأمير محمداً بن سعد ، لما أدركه اليأس ، وأيقن بتصوير ملكه إلى الموحدين ، أشهد على نفسه إقامة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن - علوه - وصياً على ولده وأهله ، ورغب إليه قبول هذه الوصية ، فلما نقل ذلك إلى الخليفة رقى لهذا القصد ، وتأثر بهذه الوسيلة ، وتزوج زائدة ابنة ابن مردنيش وحفيدة ابن همشك . وكانت شقراء زرقاء العينين ، رائحة الجلال ، وتم زفافها إليه في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فحظيت لديه ، وغدت أحب نساته إليه ، وأكثرهن نفوذاً لديه « حتى كان الناس على قول ابن الخطيب يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء « المردنيشية » . وتزوج أختها صفية فيما بعد ولده ، وولى عهده الأمير أبو يوسف يعقوب^(٢) ، وأغلق الخليفة عطفه على آل مردنيش ، واستبقى لهم سلطانهم بشرقي الأندلس ، فعين أباً الحجاج يوسف بن سعد والياً لبليسية وجهاًتها ، وعين غانم بن محمد ابن مردنيش قائداً لأساطيل العدو بسبتة ، واستبقى هلالاً لديه ، فعاش في كنفه ، أثيراً ، رفيع الرتبة^(٣) .

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٦٥ ب و ١٦٦ أ . وفي المطبوع ص ٤٧٢ - ٤٧٤

(٢) المراكشي في المعبج ص ١٤٠ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٧١

- ٥٧ -

وأما إبراهيم بن همشك ، وهو الذى كان خروجه على صهره وحليفه ابن مردنيش ، نذيراً بانهيار مملكة الشرق ، فقد لبث مستقراً على ما كان عليه فى جيان وأراضها ، وأقره الخليفة على ولايته ، وذلك حتى أوائل سنة ٥٧١ هـ ، (١١٧٥ م) ، ثم طلب إليه الخليفة أن ينصرف إلى العدو ، فعبر إليها بأهله وولده ، وأسكن مدينة مكناسة وأقطع بها إقطاعات يعيش منها ، ولم يمض قليل على ذلك حتى أصيب بفالج غريب ، شديد الأعراض ، لم يلبث أن حمله إلى القبر ، بعد أن قاسى أهوالاً من آلامه المروعة^(١).

(١) الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٣٠٣ .

الفصل الثالث

حركة الجهاد بالأندلس

والإخفاق في غزوة وبدة

مرض الخليفة أبي يعقوب يوسف . عنايته باستدعاء العرب وحشدهم لمؤازرته . قصيدة ابن طفيل في حثهم على الجهاد . قصيدة ابن عياش في ذلك . استجابة العرب لنداء . سير بعض طوائفهم إلى مراكش . شفاء الخليفة وجلوسه لاستقبال الوفود . خروج الخليفة وجيشه لاستقبال حشود العرب . المباريات الرياضية بين الفريقين . مبايعة العرب للخليفة . مآدب الطعام . تمييز حسكر العرب والتوسعة في أجورهم . تمييز الموحدين . توزيع الخيل والملاح على الفريقين . الإنعام والبركة . خروج الخليفة في قواته من مراكش . وصف المركب الخلابي . رباط الفتح . اتخاذها مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية . تجديد منشآتها . تمييز جديد للجيش . استئناف السير إلى قصر مصمودة . العبور إلى الأنندلس . السير إلى إشبيلية ثم قرطبة . جلوس الخليفة للسلام والتبته . سير الخليفة إلى إشبيلية . عزل ابن المعلم ومحاسبته . إنشاء قطرة طريانة . إمداد بطليوس بالمؤن . إنشاء قصور البحيرة . إنشاء القلستان . إجراء الماء إلى المدينة . إنشاء الجامع الأعظم . وصف ابن صاحب الصلاة لمراحل بناء الجامع وصنع منبره . تطور طراز المنشآت الموحدية . اقتراح أكابر الشرق غزو مدينة وبدة . موافقة الخليفة . خروجه في قواته من إشبيلية إلى قرطبة . سيره صوب القصر فأقنوجر . استيلائه على حصن بلنج . تسليم حصن الكرس . السير إلى وادي شقر . سير السيد أبي سعيد في جيش إلى وبدة . معركة بين الموحدين والنصارى . وصول الخليفة في قواته إلى وبدة . هجوم الجيش الموحدى على وبدة . التفاهة بالمدينة . انسحاب القشتاليين إلى الداخل وامتناعهم بالقصبة . فشل الهجوم الموحدى . محاصرة الموحدين للمدينة . عصف الرياح والأمطار . مقدم جنود الشرق . استئناف الموحدين للهجوم . فشلهم للمرة الثانية . حث الشيخ أبي محمد لناس على الجهاد . محاولة الموحدين إقناع القشتاليين بالتسليم . فشل هذا المسمى . قرار الخليفة بالرحيل . مهاجمة القشتاليين للجيش المنسحب . ارتداد الموحدين نحو قونقة . عطاء الخليفة لأهل قونقة . سير الموحدين صوب نهر شقر . ظهور طلائع القشتاليين . إحجام الموحدين عن القتال . استئناف السير نحو أراضي بلنسية . الوصول إلى ركانة . اختلال الجيش وقلة الأقوات . تسريح جنود الشرق . الوصول إلى بلنسية ثم شاطبة فأوريولة فرسية . نظر الخليفة في شئون مرسية . السير إلى إشبيلية . نزول آل مردينش بها . تكوين قوة من أهل الثغور للفرار . تأملات عن فشل الموحدين في خلة وبدة . عجز القيادة الموحدية . تفكك الجيش الموحدى . تقلب العرب وتحاذلهم . حوادث الغرب . الأحوال في مدينة إجابة . تربص النصارى بها . سير ألفونسو هريكيز وجير اللو لفتحها . حداثة النصارى لها واستيلائهم عليها . تخريبهم لها ثم منادرتها . عدم اكتراث الموحدين بسقوطها . اشتغال الخليفة في إشبيلية بآتمام الجامع والقصور . غزو القومس الأحذب لأحوار قرطبة . سير الموحدين لرد النصارى . إدراكهم عند قلعة رباح . القتال بين الفريقين . هزيمة القشتاليين ومصرع

القوس . الاحتفال بالنصر في إشبيلية . غزو الموحدين لأراضي قشتالة . وصولهم إلى طليطلة وتخريب يساتطها . سعى الصغرى إلى عقد المهادنة . عقد الهدنة بين الموحدين وبين صاحب طليطلة وملك قشتالة وملك البرتغال . دخول جيرالدو سميافور وجنده في خدمة الخليفة . بقية أخباره ومصرعه . تعمير قواعد الغرب . تعمير مدينة باجة . نكث فرناندو ملك ليون وغزو لأراضي الأندلس . سير الموحدين إلى مدينة رديجو . زواج الخليفة بابة أمير الشرق محمد بن سعد . نكبة الخليفة لابن عيسى . تعيينه لأخيه أبي علي والياً لإشبيلية وأخيه أبي الحسن والياً لقرطبة . مغادرة الخليفة لإشبيلية ومبوره إلى المغرب .

نرجع الآن قليلاً إلى الوراء ، لتتبع مراحل الغزوة الأندلسية التي وعد بها الخليفة أبو يعقوب يوسف من بدايتها . وقد سبق أن أشرنا إلى مضمون الرسالة التي بعث بها الخليفة إلى الموحدين بالأندلس في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، يؤكد فيها حرصه على إغاثة الأندلس والعمل على نصرتها ، ونياته في استئناف الجهاد ، وإلى ما قام به من إرسال جيش موحدى إلى الأندلس ، تحت إمرة الشيخ أبي حفص عمر ، ليكون تقدمه لهذا الجهاد . بيد أنه لم تأت أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، حتى مرض الخليفة ، واستطال مرضه زهاء أربعة عشر شهراً ، حتى ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ . وكان يتولى علاج الخليفة خلال تلك النازلة الخطيرة ، طيباه ، أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل^(١) . وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدة فيها ، الفيلسوف والطبيب الكبير ابن طفيل ، باعتباره طبيب الخليفة الموحدى ، وكان يتولى الاتصال به وزيره أبو العلاء إدريس بن جامع ، يعرض عليه المحادثات الواردة في مسائل الوفود ، وأخبار الشئون المطمئنة ، وتحجب عنه الأمور المكدره ، والقاضى أبو محمد عبد الله المالتى إذ كان يثق بعلمه وأمانته وحسن نصحه وتدبيره ، وبعض الثقة من أشياخ الموحدين . وكان أهم ما عني به الخليفة أثناء مرضه . هو العمل على استدعاء العرب من إفريقية وترغيبهم للمشاركة في الجهاد . وقد سبق أن أشرنا إلى طوائف أولئك العرب الذين كانوا يحتلون بعض مناطق إفريقية (تونس) الجنوبية ، وهم من بنى هلال ، وسلم ، وزغبة ، ورياح ، والأثبيج ، وإلى أسباب نزوحهم إلى إفريقية ، وما كان من موقفهم من الخليفة عبد المؤمن ، وما قام به عبد المؤمن من محاولة استمالهم إلى المشاركة في الجهاد بالأندلس . وقد لبثت السياسة الموحدية من ذلك الحين تعمل على استمالهم وحشدتهم في صفوف الجيوش الموحدية ، وذلك بالرغم مما جلبوا

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة « لوحة ١٣٨ ب . ولى المطوع ص ٤١٠

عليه من القلب وعدم الولاء . ومن ثم فقد حذا الخليفة أبو يعقوب في ذلك حذو أبيه ، وبذل بالرغم من مرضه جهوداً خاصة ، في استمالة أولئك العرب إلى موازرتهم فيما ينتويه من الجهاد ، والقيام بالغزوة العظمى في جزيرة الأندلس ، وكان مما أشار به الخليفة يومئذ ، وهو يعلم ما للشعر البليغ في نفس العربي من عميق الأثر ، أن توجه إلى العرب قصيدة حماسية ، يشاد فيها برفع أصولهم وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضي في نصرة الدين ، وقمع المارقين والكافرين . فنظم طييبه الفيلسوف ابن طفيل ، تحقيقاً لتلك الغاية ، قصيدة طويلة تفيض بلاغة ، وروعة ، وتدل على ما كان الفيلسوف في نفس الوقت ، من منزلة عالية في النظم ، تضعه في صف أكابر الشعراء . وإليك بعض ما جاء في تلك القصيدة الرائعة التي أوردناها لهذا بتمامها ابن صاحب الصلاة :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب	لغزو الأعداء واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكي العاديات على العدا	فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقنئ الآمال إلا من القسنى	ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ النسايات إلا مصمم	على الهول ركباً ظهور المصائب

ومنها في استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عريضة	تحف بأطراف القسنى والقواضب
أفرسان قيس من بنى هلال بن عامر	وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها	بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ناثرة	وفيثوا إلى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم نبتغي خلاص جميعكم	دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبغى لنفوسنا	ونوثركم زُلنى بأعلى المراتب
لكم نصر الإسلام بدءاً فنصره	عليكم وهذا عوده جد واجب
ققوموا بما قامت أوائلكم به	ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب
وقد جعل الله النبي وآله	ومهديه منكم بلا عيب عائب
وهن ذا الذي يسمو ليلبلغ شأوكم	إذا كنتم فوق النجوم الشواقب

ومنها في الختام :

وما الحزم إلا طاعة الله لإنها لا هي الحرّم المتاع من كل طالب

نعدكم السيف الذى ليس ينثى إذا ما نبا سيف برّاحة ضارب
ونجعلكم صدر القنّاة إذا غدّت تأطرّ ما بين الحصى والترائب
وليس خطيب الصدق من قال فأنبرى ولكن فعل الحرّ أصدق خاطب
وما خلق الأعراب خلاف موعد ولكن صدق الوعد خلق الأعراب
سنعلم من أوفى ومن خان عهدده ومن كان من آت إلينا وذاهب^(١)

وأمر الخليفة أن تتبع قصيدة ابن طفيل بشعر آخر يوجه إلى العرب ، استعجالاً
لهم واستنهاضاً لهمهمم ، فوجهت إليهم قصيدة ثانية من نظم ابن عيّاش هذا مطلعها :
أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل وقودوا إلى الهيّاء جرد الصوادل
وقوموا لنصر الدين قومة ناثر وشدوا على الأعداء شدة صايل
فما العز إلا ظهر أجرد مسابح يفوت الصبى فى شدة المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرنسده على الماء منسوج وليس بسائل
وأسروا بنى قيس إلى نيل غاية من المجد تجنى عند برد الأصائل
تعالوا فتدشّدت إلى الغزو نيسة عواقبها مقصورة على الأوائل^(٢)

وقد كان لهذه المخاطبة الشعرية أثرها فيما يروى ابن صاحب الصلاة ، فى
نفوس العرب فى إفريقية ، ولاسيما فى منطقى الزاب والقيروان ، فاجتمع زعمائهم ،
وحزموا أمرهم على المبادرة إلى الاستجابة لنداء الخليفة . وكان شيخ بنى رباح
وزعيمهم جبارة بن كامل بن أبى العيش ، وهو الذى كان قد فر أيام عبد المؤمن
من إفريقية ، فيمن فر من أشياخ العرب ، حين دهمتهم القوات الموحدية فى
جنوب القيروان ، قد عاد من المشرق فى هذه الآونة بالذات بعد أن تجول فى
ربوعه حيناً ، ورأى أن يقتدى بزملائه فى الاستجابة إلى « الأمر العزيز » . فجمع
قومه ، وسار إلى بجاية ، وقصد إلى أميرها السيد أبى زكريا يحيى أخى الخليفة ،
فأكرم وفادته ، ولحق به بقية الزعماء والأشياخ ، وتحرك الجميع فى صحبة السيد

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تلك القصيدة فى « المن بالإمامة » لوحات ١٣٩ أ وب ،
و ١٤٠ ، وهى تحتوى على أربعين بيتاً ، وقتل ابن عذارى معظمها فى البيان المغرب القسم الثالث
ص ٨٨ و ٨٩ . ونشرت فى العدد الأول من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمطبعة (سنة ١٩٥٣) .
(٢) أوردنا ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٤٠ ب . وورد قسم منها فى المصباح

أبي زكريا إلى حضرة مراکش ، ومعهم أموالهم وجملة كبيرة من عتاق الخليل ، ولما وصلوا إلى تلمسان سار معهم واليها السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة بمن عنده من المال والأموال والخليل . وكان الخليفة أبو يعقوب قد شفى عندئذ من مرضه الطويل ، فلما بلغت أنباء مقدم العرب ، واقترابهم من الحضرة ، سر بذلك أما سرور ، وخرج إلى المسجد الجامع يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ، في جو يسوده الجبور والبشر ، وبعد ذلك بيومين جلس الخليفة لاستقبال أشياخ الموحدين وطلبة الحضرة ، والأجناد والخاصة من أهل الوفود والقضاة ، وخطب في هذا الحفل الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر ، والقاضي أبو يوسف ، والفقيه أبو محمد المالقي ، وأمر الخليفة بإخراج الصدقات للضعفاء والمساكين والوافدين الغرباء ، ثم صدر الأمر بأن يكون وصول العرب الوافدين ، ومن معهم إلى حضرة مراکش في ضحى يوم السبت الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ .

وكانت الأوامر قد صدرت أثناء ذلك إلى جميع الجند الموحدين بالحضرة بالاستعداد واستكمال الزي والهيئة ، وفرقت عليهم بهذه المناسبة الدروع ، والبيضات والرماح والأسلحة والكسى والأعلام . وفي صبيحة يوم السبت المذكور بكر الحفاظ والطلبة من الموحدين وسائر الجند إلى باب السدة ، وانتظمت صفوفهم جملاً جملاً ، تتقدمهم الطبول العديدة . ولما كمل ترتيب الموكب ، برز الخليفة أبو يعقوب منتظماً صهوة فرسه الأشقر ، وإلى جانبه وزيره أبو العلا لإدريس ابن جامع ، سائراً على قدميه لصقاً ركابه ، وهو يراجع فيما يعين من الأمور . وفي ساقه الخليفة ، يسير سائر الإخوة الصغار والبنين ، ومن ورائهم حملة البنود ، وأكابر الموحدين يحمل كل منهم علماً ، وعليه درع سابغة لامعه تسطع تحت أشعة الشمس ، وتتبعهم سائر الأجناد من الحشم والروم والعيبد . وتقرر أن يكون اللقاء في الفحص الشاسع القريب من المدينة ، فلما وصل الموكب إلى الفحص المذكور ، والطبول تفرع بشدة ، والجيش تبدو في أكمل هيئة ، ضربت قبة الخليفة ، ونزل فيها مع إخوته وبنيه . وأقبلت عساكر العرب وأهل إفريقية ، ومعهم السيدان أبو زكريا يحيى ، وأبو عمران موسى أخوا الخليفة . ولما التقى الموكبان على هذا النحو ، أمر الخليفة أن يحمل الفريقان من العسكر كل على الآخر حملة مبارزة ورياضة ولعب ، ففعلاً ، وتجاوبا وتصالوا حتى العصر ، والطبول

تقرع ، وقد أبدع كل منهما في حركاته ومناوراته . ثم تقدم أخوا الخليفة وأشياخ الموحدين وأشياخ العرب وجميع الوافدين للسلام على الخليفة ، وانصرف الخليفة بعد ذلك في عسكر الموحدين إلى المدينة ، وضرب العرب محلهم في الفحص . وفي اليوم التالي ، الثالث من ربيع الأول ، أمر الخليفة بدخول أشياخ العرب والوفود لمبايعته ، وأخذ العهد عليهم ، فأدخلوا واستغرقت بيعتهم أسبوعاً حتى العاشر من ربيع الأول .

وفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول ، خرج الخليفة عقب الصلاة إلى البحيرة (البستان) خارج الحضرة ، ومدت المآذب العظيمة لإطعام العرب والوافدين . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذه الحفلات كلها ، هيئة الإطعام ، فيقول إن كل طائفة من ثلاثة آلاف رجل كان يقدم لها الطعام ، وكلما انتهت طائفة من الأكل ، سارت إلى موضع الخليفة وسلمت ودعا لها . واستمر حفل الإطعام أياماً ، وقد أربى ما كان يقدم فيه على ما تقدم من الإنعام المائل . ولم يعكر صفو هذا الحفل سوى مشادة حدثت بين صبيان الموحدين وأتباع العرب ، وقعت خلالها بعض الاعتداءات على النفس والمال ، وبادر العرب بالاعتذار وطلب العفو من الخليفة لما وقع من أتباعهم ، فصفح الخليفة عنهم ، وأمر بالاستمرار في إطعامهم وإكرامهم^(١).

وكانت آخر خطوة في هذه الأحداث المتعاقبة ، إجراء التمييز لعسكر العرب والموحدين ، ففي اليوم الثامن من جمادى الأولى أمر الخليفة بتمييز العرب الوافدين ومن وصل معهم ، وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره بدار الحجر ، ورتب دخولهم كل يوم بعدد معلوم من مختلف القبائل ، فاستمر تمييزهم خمسة عشر يوماً ، والخليفة جالس في مجلسه مع أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضرة وأشياخ العرب ، يحرص العرب والناس على الجهاد ، ويحث على التفاني فيه . ولما انتهى التمييز ، دعا الخليفة أشياخهم وكبراءهم ، وأحضرت زمامات التمييز الأول ، أيام الخليفة عبد المؤمن ، فوجدت في التمييز الحديد زيادة كبيرة في الأجور . وكان قصد الخليفة من التوسعة على العرب ، أن يمتنعوا عن عاداتهم الذميمة في الاعتداء على الأموال وخطف العائث والثياب والسروج وغيرها ،

(١) يقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفاً ضافياً لهذه الاستقبالات والحفلات في « المن بالإمامة »

لوحات ١٤٦ ب إلى ١٤٩ ب . وفي المطبوع ص ٤٢٨ - ٤٣٤

وأن يستميلهم إلى طاعته ومؤازرته : ثم بدئ بتمييز الموحدين من غرة جمادى الآخرة واستمر تمييزهم أيضاً خمسة عشر يوماً ، وفق منازلهم وقبائلهم ، ووزعت على أثر ذلك على الموحدين والعرب الخيل وعُدَد الحرب من الرماح والدروع والبيض والسيوف وغيرها . واختتم التمييز بما يسمى في المراسيم الموحدية « بالإنعام بالبركة » وتوزيع الأعطية . وأقيم لذلك حفل ضخم جلس فيه الخليفة في مجلسه ، ومن حوله أشياخ الموحدين وأشياخ العرب ، وأحضرت الأموال بين يديه ، أكواماً من الذهب والفضة ، من دنانير ودراهم ، وقُدِّم الموحدون في تنفيذ البركة ، فأصاب الفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، وغير الكامل ثمانية ، والراجل الكامل خمسة دنانير وغير الكامل ثلاثة . وحصل العرب على منح مضاعفة ، فأصاب الفارس الكامل منهم خمسة وعشرين ديناراً ، وغير الكامل خمسة عشر ، والراجل سبعة دنانير ، ومنح أشياخ العرب خمسون ديناراً لكل منهم ، ومنح كل رئيس قبيلة مائتا دينار ، ووزعت على الجميع الكسي من القباطي والنفابر والعلماء ، وزودوا بالسيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا ، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس وزعت على مختلف القبائل ، وحصل الموحدون كذلك على جملة كبيرة من الخيل قسمت عليهم بحسب قبائلهم ومنازلهم . وكان يوماً مشهوداً ، سادت فيه الغبطة والحفاصة بين الأشياخ والجنود ، وارتفعت قواهم المعنوية ، وأخذوا يتطلعون إلى الغزو المنشود في عزم وثقة^(١) .

وهكذا تمت أهبة الخليفة أبي يعقوب يوسف للغزوة الأندلسية التي اعزمها ، والتي عاقه المرض حيناً عن إتمامها ، وعلى هذا النمط الذي أفاض في وصفه ، ابن صاحب الصلاة ، ولخصناه فيما تقدم ، كانت تُحشد الجيوش الموحدية ، ويجري استعداد الخليفة الموحدى للغزو . وفي اليوم الرابع من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١١٧١ م غادر أبو يعقوب حضرة مراكش في حشوده من الموحدين العرب ، وكان خروجه من باب دُكَّالِه ، وقد هرعت الجموع الغفيرة لرؤيته ، فسار وأمامه العلم الأبيض ، ومن ورائه حملة الطبول ، وقد قدم أمامه مصحف عثمان محمولاً على جمل مرتفع ، وعليه قبة صغيرة حمراء ، وقد وضع في تابوته الفخم المرصع بنفائس الجواهر والياقوت والزمرد ، وأمام مصحف

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوصة ١٥٠ ب و ١٥١ اوب . وفي المطبوع

عثمان ، مصحف الإمام المهدي ، وكان يسير إلى جانب حملة الأعلام والطبول ، الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، ومعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر صاحب المهدي ، وأبو محمد عبد الله المالك شيخ طلبة الحضرة ، وقاضي الجماعة أبو موسى عيسى بن عمران ، وعدة آخرون من أشياخ الموحدين . ونزل الخليفة في وادي تانسيفت على قيد ثلاثة أميال من مراکش ، وهو أول منازل الرحلة ، وعساكره محدة به من كل صوب . ثم غادره في اليوم التالي إلى جسر الخطابة إلى توبين ، ثم إلى تودجين . واستمر في سيره على هذا النحو حتى وصل إلى وادي أم الربيع ، وهو في كل مرحلة ينزل في الدار التي أعدت لنزوله ، وجاز العسكر الوادي تباعاً فوق القنطرة التي عملت لذلك ، وقد خصص يوم لجواز كل قبيلة . ثم استأنف السير حتى وصل إلى مقربة من المهديّة ، وهي التي سُميت عندئذ برباط الفتح . وكان موضع هذه المدينة التي غدت في عصرنا عاصمة المغرب ، سهلاً براحاً به مرافق لأهل سلا ، وبعض أعيان إشبيلية ، فاشتراه الخليفة عبد المؤمن من أصحابه . ولما وفد في قواته على سلا في سنة ٥٤٥ هـ ، لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس واستدعاء شيوخها وطلبها من الموحدين ، أمر حسباً تقدم ، بأن ينشأ في ذلك الموضع قصبة حصينة على اللسان الممتد في البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب لجريان الماء من عين عبولة ، القريبة إلى محلته التي أنشأها ، فتم ذلك في بضعة أشهر ، وجرى الماء ليستقي منه الناس والدواب وتروى الأرض ، وغرست الحنات والرياح ، وأذن الخليفة للناس بالسكنى وإنشاء الديار والأسواق . وهكذا قامت مدينة رباط الفتح . وكانت الرّباط ، منذ عهد عبد المؤمن مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية سواء إلى إفريقية أو الأندلس . ولما تم فتح إفريقية غدت بالأنحص مجاز الجيوش المسيرة إلى الأندلس .

ولما وصل الخليفة أبو يعقوب إلى مقربة من الرّباط نزل في فحصبها مع الوزراء والأشياخ والكبراء ، وأمر بأن تُغرس في أركان تابوت مصحف عثمان الأربعة ، أربع رايات ، رفعت على أربع رماح صغار ، في أعلى كل منها تفاحة من الذهب يسطح بريقها الوهاج ، وللرايات ألوان أربعة ، الخلدى والأحمر ، والأصفر والأبيض . ثم اقتعد الخليفة غارب فرسه الأشقر ، وسار على النظام الذي سبق وصفه ، ومن ورائه حشود الموحدين والعرب وقد ملأت البسائط .

فلما أشرف على الرباط ، أمر بتقديم الطبول والرايات أمامه مع المصحفين تعظيماً
لشأنهما ، وتبعه الوزراء والأشياخ والكتاب والطلبة ، حتى وصل إلى باب المدينة ،
فرد وجهه للناس واستقبلهم ودعا لهم ، وأمرهم بالنزول في السهل الشاسع ،
ونزل بالدار المعدة لنزوله ، وكان وصول الخليفة إلى رباط الفتح في اليوم
العشرين من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ ، وبذا استغرقت رحلته إليها من مراكش ،
سبعة عشر يوماً^(١) .

وأمر الخليفة على أثر وصوله أن تجدد السقاية التي أنشأها والده عبد المؤمن ،
وكانت قد خربت ، وأسن ماؤها ، فجددت وأعيدت إلى حالتها الأولى ، وأنشئ
إلى جانبها صهريج عظيم يمدّها بالماء المتجمع فيه ، وكذلك أمر بأن ينشأ جسر
جديد فيما بين الرباط وسلا على نهر أبي رقراق ، إلى جانب الجسر الذي كان قد
أنشأه أبوه ، ثم خرب بفعل الزمن ، فأقيم جسر عظيم فوق القوارب ، وغطى
بالحجر والخيار الثابت . وأمر أخيراً بالبدء في بناء أسوار المدينة من جهتي
الجنوب والغرب ، وهي الأسوار التي أكملت فيما بعد في عهد ولده الخليفة يعقوب
المنصور . وفي اليوم الثامن من نزوله أمر بتحريك العساكر ، وأن يقام لهم تمييز
جديد ، وأشرف على تمييز العرب السيد أبو زكريا أخو الخليفة ، وأبو محمد
عبد الله المالقي لمعرفته بهم وبأنسابهم . ثم وزعت الكسبي على الأشياخ من كل قبيل ،
وعلى طلبة الحضرة ، والعرب ، وخص كثير منهم بأخبية وخيل عتاق ، وكذلك
وزعت الصدقات على الضعفاء والمساكين ، وقضيت حوائج الناس ، ثم اتخذت
الاهبات الأخيرة لاستئناف السير .

وفي عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان سنة ٥٦٦ هـ ، صدرت الأوامر
بالحركة ، وعبرت الجند البحر إلى سلا فوق الجسر الجديد . وفي صباح اليوم التالي
تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين حتى تم جوازهم ، ثم تلاه السيد
أبو زكريا بالعرب ، واستغرق جواز العسكر خمسة أيام ، وفي الخامس عشر من
شعبان غادر الخليفة رباط الفتح ، ومعه وزيره ابن جامع ، والأشياخ والحفاظ
والطلبة والعبيد ، بنفس النظام الذي تقدم وصفه ، ونزل بالموضع المعروف
بالحمام على مقربة من وادي سبو تجاه ثغر المعمورة ، وتلاحق سائر العسكر إلى
الوادي ، فاجتمع من عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس ، واجتمع كذلك

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٥٢ إلى ١٥٤ ب . وفي المطبوع

من العرب عشرة آلاف فارس ، وهذا غير المتطوعة والمجاهدين ، فإذا ذكرنا أن الشيخ أبا حفص بن يحيى ، كان قد تقدم الخليفة بجيش كبير إلى شبه الجزيرة في أوائل سنة ٥٦٤ هـ ، وأن السيد أبا حفص أبا الخليفة ، تلاه في جيش كبير آخر عبر إلى شبه الجزيرة في أوائل سنة ٥٦٦ هـ ، وهو الجيش الذى اضطلع بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على مملكة الشرق ، أدركنا ضخامة الجيوش الموحدية التى أعدت للغزو بالأندلس .

ووصل الخليفة في قواته الحرارة إلى قصر مصمودة غربى ثغر سبتة^(١) ، وبدأ عبور الجند إلى شبه الجزيرة ، عن طريق ثغر طريف ، في مستهل رمضان من سنة ٥٦٦ هـ (٨ مايو سنة ١١٧١ م) واستمر عبورها أكثر من أسبوعين ، وفي اليوم السابع والعشرين من رمضان عبر الخليفة في خاصته ، واستقبله في طريف زعماء الأندلس وأكابرها من سائر القواعد ، ثم تحرك إلى إشبيلية ، ودخلها في يوم الجمعة الثانى عشر من شهر شوال (١٨ يونيه) واستقبله الأشياخ والناس استقبالا حافلا ، فاستراح بها عشرة أيام ، ثم سار إلى قرطبة في الثانى والعشرين من شوال ، فوصل إليها في غرة ذى القعدة (٥ يولييه) . ونزلت القوات الموحدية في داخل قرطبة وفي خارجها على ضفتى الوادى ، مدة إقامة الخليفة بها ، وقد استطالت إلى آخر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ . وفي يوم عيد الأضحى ، خرج الخليفة للصلاة وألقيت الخطبة المعتادة ، واحتفل بالنحر ، ثم استقبل الأشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وانصرف إلى دار الإمارة . وفي اليوم التالى جلس بالقصر ، مجلس السلام والتهنئة ، وأقبل أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وطلبة الحضر ، والفقهاء والقضاة والكتاب ، وأهل الوفود ، وأعيان قرطبة ، أقبلوا جميعاً للسلام ، وأنشد الشعراء كالعادة مدائحهم وتهانيمهم ، وكان في مقدمتهم أبو بكر بن المنخل ، وقد أنشد بين يدى الخليفة قصيدة طويلة أوردتها لنا ابن صاحب الصلاة ، ومما جاء فيها :

شرف الخلافة أن ملكك زمامها وعدوت من عقب الامام إمامها

(١) قال الإدريسي في وصف قصر مصمودة « إنه يقع غرب سبتة على قيد ١٢ ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس . وهى على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس » (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٦٨) .

— ٦٨ —

طبع الإله لها حساما صارما يحمى جوانبها فكنت حسامها
ورأت عداة الله أن حمامها من قيس عيلان فكنت حمامها
فعلى رماحك أن تشق جيوبها وعلى سيفك أن تفلق هامها^(١)

وفي خلال إقامة الخليفة بقرطبة سُيرت حملة موحدية بقيادة عبد الله بن أبي حفص ابن تفرج بن وبعض أشياخ الموحدين نحو أراضي قشتالة ، وكان القصد من تسيرها أن تقوم بغارة انتقامية لما ارتكبه القشتاليون بقيادة الكونت نونيو دي لارا من العيث والتقتيل في أراضي المسلمين ، قبل ذلك بنحو عامين ، فسار الموحدون شمالا ، وعبروا نهر التاجه ، وعاثوا في منطقة كبيرة من أراضي قشتالة ، وعادوا إلى قرطبة مثقلين بالسبي والغنائم ، ونحن نذكر أن الجيوش الموحدية ، كانت قبل ذلك ببضعة أشهر ، قد سارت بقيادة السيد أبي حفص أخي الخليفة لحصار مرسية ومقاتلة ابن مردنيش في عقر أراضيه ، والقضاء على سلطانه في شرقي الأندلس ، وذلك حسب فصلناه من قبل في موضعه ، وكانت الأنباء تتوالى على الخليفة ، وهو بقرطبة ، بما أنزله الموحدون بابن مردنيش من الضربات والمهائم ، وما استولوا عليه من بلاده ، وبما يؤذن بإحرازهم النصر النهائي في تلك المعركة الحاسمة .

— ٢ —

غادر الخليفة أبو يعقوب يوسف قرطبة ، بعد أن أقام بها شهرين ، في آخر شهر ذي الحجة سنة ٥٦٦ هـ ، قاصداً إلى إشبيلية ، فوصل إليها في الثاني من محرم سنة ٥٦٧ هـ (٥ سبتمبر ١١٧١ م) ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكل ما تقدم من تنقلات الخليفة ، إن الخليفة لم يحتل من دور إشبيلية سوى ستين داراً ، وأنه اشترى بها مائة دار من ماله الخاص لتكون منزلاً للوافدين إليه ، وذلك رفقا منه بأهل المدينة^(٢) ، وكانت إشبيلية قد غدت عندئذ قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس ، وذلك بعد أن ترددت هذه الحكومة حيناً بين قرطبة وغرناطة وإشبيلية . وكانت إشبيلية بموقعها على مقربة من البحر وعلى مقربة من العدو ، أصلح من الناحية الإستراتيجية من قرطبة ، لاستقبال

(١) تشغل هذه القصيدة من « المن بالإمامة » لوحة ١٥٩ ب و ١٦٠ ا ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٥٦ ب وفي المطوع ص ٥٢٢

الجيوش الموحدية الوافدة ، واستقبال عتادها وذخائرها وموتها ، ومن جهة أخرى ، فقد أثبتت الحوادث ، منذ مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة ، أن تيار الغزو النصراني للأندلس ، قد تحول إلى ناحية الغرب ، وأن قيام مملكة البرتغال الجديدة ، واشتداد ساعدها ، قد نقل الصراع الرئيسى بين إسبانيا المسلمة ، وإسبانيا النصرانية إلى هذه الناحية من شبه الجزيرة ، وهذا ما أيدته فى الأعوام الأخيرة ، معارك بطليوس ، وغزوات ألفونسو هنريكز ، وهذا ما سوف تؤيده الحوادث فيما بعد ، وهو مما يدل على بعد نظر السياسة الموحدية فى هذا الشأن . وأخيراً فقد كانت إشبيلية ، بعد الذى أصاب قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، من ضروب التخريب والعفاء منذ أيام الفتنة ، ومختلف الحروب والثورات ، كانت أرقى عمراناً ، وأوسع رحاباً ، ولاسيما منذ أيام بنى عباد ، حيث غدت أعظم حواضر الأندلس وأجملها . ولهذا كله اختار الموحدون أن تكون إشبيلية حاضرتهم وقاعدة حكومتهم بالأندلس .

وما كاد الخليفة يصل إلى إشبيلية ، حتى أمر بعزل محمد بن سعيد المعروف بابن العلم ، وكان يتولى أعمال الخزن أو إدارة الشئون المالية بإشبيلية والأندلس ، وأمر بالسير إلى قرطبة لحسابته ، والتحقيق فى سير أعماله ، وكانت قد علقت به وبتصرفاته فى تنفيذ المنشآت والمشاريع العامة ريب كثيرة ، وندب لحسابته الفقيه أبو محمد الماتى والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز ، وانتهى الأمر باستصفاء أمواله ، ثم إعدامه فيما بعد . وقدّم الخليفة مكانه على أعمال إشبيلية ، أبا داود بلول ابن جلداسن . وقد كان للخليفة عند حلوله بإشبيلية برنامج ضخم من الأعمال الإنشائية ، سوف يضطلع بلول ، وزير المال الجديد ، فى تنفيذه بأعظم قسط . وكان أول ما أشار به الخليفة من تلك الأعمال بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادى الكبير ، تصل ما بين إشبيلية وطريق طُريانة ، صاحبها الغربية ، وتيسر سبل المواصلات فى اتجاه الغرب ، فحشد لها العرفاء والصناع ، وتم إنشاؤها فى نحو شهر ، فى السابع من صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة يوم إكمالها وافتتاحها ، فى حفل ضخم ، رفعت فيه البنود وقرعت الطبول . وينوه ابن صاحب الصلاة بما كان لإنشاء هذه القنطرة العظيمة من حسن الأثر ، وما حققته للناس من يسر ورخاء ، إذ كان المرور بها دون قبالة أو رسوم .

وفى خلال ذلك ، حضر السيد أبو حفص أخو الخليفة من حصن مرسية ،

وذلك قبل وفاة ابن مردنیش وانقضاء أمره بأشهر قلائل ، فاستقبله الخليفة خارج إشبيلية ، باحتفال بالغ . واجتمع الأخوان للبحث فيما يجب عمله لحماية الأندلس ورد عدوان النصارى عنها . وكان أول ما تقرر في ذلك أن ترسل حملة ضاربة من الموحدین تحمل الميرة والعتاد والمرافق اللازمة لمدينة بطليوس ، فخرجت هذه الحملة في الثامن من شهر صفر ، وجازت فوق القنطرة الحديدية إلى طريانة ، فكانت أول عسكر يجوز عليها ، وسارت إلى بطليوس . فلما أقربت من المدينة ، هاجمت حصن ليون الواقع على مقربة من شرق بطليوس على ضفة وادى يانه ، وكانت تحتله حامية من النصارى من جند جيرالدو سيمافور ، واقتحمته عنوة ، وأوصلت حولتها من الميرة والسلاح إلى بطليوس ، ثم عادت سالمة إلى إشبيلية . ولما كملت حملة مرسية بالنجاح ، وتوفى ابن مردنیش ، وانتهت مملكة الشرق ، قدّم هلال بن مردنیش وأكابر الشرق إلى إشبيلية ، في مسهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، وقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة ، وذلك حسبما فصلناه من قبل في موضعه .

وقد استطالت إقامة الخليفة أبى يعقوب يوسف بإشبيلية والأندلس زهاء خمسة أعوام ، وبالرغم من أنه قام خلال إقامته بغزو أراضي النصارى ، وذلك تحقيقاً لمشروعه الرئيسى في العبور إلى الأندلس ، فإن أهم ما تميزت به تلك الفترة : هو اضطراره بالأعمال الإنشائية العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهى التى بدأها ببناء القنطرة على الوادى الكبير . والظاهر أن أبى يعقوب ، كان يحب هذه المدينة العظيمة ، التى اتفق فيها أعواماً عديدة من شبابه حاكماً لها أيام أبيه المؤمن ، بكثير من الحب والإعجاب ، ومن ثم فإننا نراه يعمل بهمة عظيمة على تحصينها وتجميلها ، وتزويدها بالمنشآت الفخمة ، والمياه الحارية . وكان أول ما عنى به بعد إنشاء القنطرة ، هو إنشاء القصور الخليفية المعروفة « بالبحيرة » . وكانت إشبيلية تزدهر بعدد من القصور الملكية ، هى قصور بنى عباد السالفة ، وكانت ما تزال ، في هذا العصر ، بعد أكثر من مائة عام ، تحتفظ بكثير من رونقها وفخامتها ، ولكن الخليفة الموحدى ، لم يرق له أن يتخذ من تلك القصور مقامه ، واكتفى بتخصيصها لنزول الأمراء والكبراء الوافدين . وكان السيد أبو حفص ، أخو الخليفة ، قد ابتنى خلال زيارته لإشبيلية بعض الدور في وادى إشبيلية خارج باب الكحل ، فرأى الخليفة أن يقيم قصوره خارج باب جهور ، في أرض الحنان المنسوب

لأبي مسلمة القرطبي بعد أن عوض أصحابه جنانا في مكان آخر . وأقيمت في هذا الموضع طائفة من القصور والدور الفخمة للخليفة وحاشيته . وقام على إنشائها العريف أحمد بن ياسه عريف الأندلس ، والخير بشنون القصور ، فجاءت على أبداع طراز ، وأقيمت حولها من جميع الجهات أسوار من الجيار والرمل والحصي . وعهد الخليفة إلى أبي القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي ، وأبي بكر محمد ابن يحيى الجدي ، لما عرف عنهما من الأمانة والخبرة الهندسية والزراعية ، أن يقوموا بإنشاء بستان عظيم حول هذه القصور من أموال المخزن (الأموال العامة) تجلب إليه الغراس من الزيتون والأعناب والفواكه وسائر الأنواع النادرة الغريبة من الأشجار والغراس ، فقاما بتنفيذ أمره ، وعوض أهل الأراضي التي أدخلت في البستان عن أراضيهم تعويضاً مرضياً . وعهد بأعمال الحفر والغراس إلى أبي داود بلول بن جلداس ، متصرف إشبيلية وأعمالها وأمين الخليفة ، وجلبت إلى البستان آلاف الغراس والأشجار من مختلف الأنحاء ، وغرست فيه على أجل نسق . وحملت غراس التفاح والأجاص (الكمثرى) وغيرها من غرناطة ووادي آش ، وكان الوزير أبو العلاء بن جامع وابنه يحيى يلزمان الجلوس للإشراف على العمل من الصباح إلى المساء ، وكان الخليفة يخرج من قصره بإشبيلية مع أعيان الموحدين لمشاهدة الأعمال الحارية ومدى تقدمها . ويفيض ابن صاحب الصلاة كعاداته في وصف هذه القصور وجمالها وفخامتها^(١) .

وكانت الخطوة التالية بعد إنشاء القصور والبستان ، النظر في استجلاب الماء لتوفير السقاية والرى . وكان يوجد خارج باب قرمونة ، على الطريق المتجه إلى قرمونة ، أطلال قنطرة رومانية قديمة ، قد درست وعفت ، ولم يبق منها سوى حجارتها المتساقطة . فقام المهندس الأندلسي البارع الحاج يعيش المالحى ، وهن الذي تولى الإشراف على أعمال جبل طارق ، بالحفر حول هذا الأثر ، حتى تحقق لديه ، أنه كان قنطرة رومانية تحمل الماء من سرب قديم إلى إشبيلية ، ثم تتبع السرب بعد ذلك بالحفر حتى انتهى إلى مأخذة القديم من الوادي على مقربة من قلعة جابر^(٢) ، وتم إجراء الماء من ذلك الموضع في سربه القديم إلى البحيرة ،

(١) المن بالإمامة لوحات ١٦١ ب و ١٦٢ ا وب و ١٦٣ ا . وفي المطبوع ص ٤٦٣ - ٤٦٨

(٢) وهي تقع في جنوب شرق إشبيلية على قيد نحو عشرة كيلومترات منها ، ومكانها اليوم

البلدة الإسبانية الصغيرة التي تسمى (Acalá de Guadaira) .

والقصور والرياض الخليفة ، وأمر الخليفة بعد ذلك ، بإجراء الماء إلى داخل المدينة لسقاية الناس ، وتوفير مرافقهم ، فقام الحاج يعيش بتنفيذ هذه الرغبة على أكمل صورة ، وأنشئ داخل إشبيلية محبس للماء بحارة منور وهو نهاية جريانه ، وتم توصيل الماء إلى المدينة على هذا النحو في اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة حفل لإجرائه في جماعة كبيرة من الجند والأشياخ والفقهاء والطلبة ، وضربت الطبول ، وساد البشر واليمن بين الناس .

على أن أعظم منشآت الخليفة أبي يعقوب يوسف بإشبيلية ، هو الجامع الأعظم ، الذي مازالت تقوم منه حتى اليوم بعض البقايا الدارسة ، إلى جانب كنيسة إشبيلية العظمى ، التي أقيمت فوق أنقاضه . وكان البدء بإنشائه واختطاط موقعه في شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، فهدمت لذلك الغرض ديار كثيرة داخل القصبة تحت إشراف العريف أحمد بن باس ، واجتمع بإشبيلية للقيام بأعمال الإنشاء ، العرفاء ، والبتاؤون من أهل إشبيلية ، ومن سائر قواعد الأندلس ، ومن أهل العدو ولاسيما مراكش وفاس ، واجتمع معهم أمهر العمال من سائر الحرف المطلوبة . وكان الموحدون حينما افتتحوا إشبيلية قد أنشأوا لهم بقصبتها جامعاً صغيراً يؤدون فيه شعائرهم ، ولكنه أضحى يضيق بهم ، بعد أن تكاثروا وكثرت وفودهم ، ومن جهة أخرى ، فإن المدينة ذاتها كانت في أشد الحاجة إلى مسجد جامع يتفق مع ضخامة عمراتها ، وأهميتها كقصر للحكومة الموحدية بالأندلس . وكانت مسجد إشبيلية الجامع ، المسمى بجامع العديس أو ابن عديس وهو المنسوب للقاضي عمر ابن عديس ، والمشيد في سنة ٥١٤ هـ ، أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، قد ضاق برواده ، نظراً لنمو المدينة وتكاثر سكانها ، وكثرة الموحدين الوافدين عليها ، ولم يفكر أحد من أمراء بني عباد أيام دولتهم ، في إنشاء مثل هذا الجامع لانهما كهم في شئون الإمارة ، وإنشاء القصور ودور القصف ، وإيهالهم لشئون العبادة . يقول ابن صاحب الصلاة وقد كان من سكان إشبيلية ، وكان شاهد عيان لإقامة هذه المنشآت كلها ، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب « قد حاز الذخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس ، فأسس من الماء بالآجر والحجار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطنة تحت الأرض ، أطول مما فوق الأرض ، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدم ، وإحضار الآلات من الخشب المحلوب من سواحل العدو

مما لا يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته ، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه ، وأنفذ أمره العالى ببنيانه فى رمضان من سنة سبع وستين وخسمائة المؤرخة ، لم يرفع عنه البناء قط فى فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية ، إلى أن كمل بالتسقيف وجاء فى أبهى النظر الشريف ، أعجز فى بنيانه من تقدمه ، وبقي فى ميزانه ذخيره ورحمة له مقدمة ، قارب له جامع قرطبة فى السعة ، وليس فى الأندلس جامع على نده ، وسعته وعدد بلاطاته .

وتولى النظر على بناء الجامع وعرفائه العريف أحمد بن باسئه ، والنظر على النفقة أبو داود بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ، وكان من الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية ، أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الساقى . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مراحل إتمام الجامع على النحو الآتى : إن سرب المدينة كانت تشق بجرىها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع ، فنكبت عنه ، وصرفت إلى جهة الخوف على سرب واسع ، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض ، وعنى العرفاء ببناء القبة التى على محرابه وبنجارتها أعظم عناية ، وأقاموا عن يسار المحراب ، ساباطاً فى الحائط ، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع ، لشهود صلاة الجمعة ، وافن الصناعات فى عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب ، وفى إبداع نقوشه ، وترصيعه بالصناعات المزعج بالعاج ، وأبنوسه يتلأأ بصفائح الذهب والفضة ، وأشكال فى عمله من الذهب الإبريز ، يتألق نوراً ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدوراً . ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة . وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه فى أكثر الأيام ومعه أشباخ دولته ، ويشير للمشرفين عليه بالحد فى البناء وإتقانه ، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس ، وتكامل التسقيف ، واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً ، إلى أن حان موعد عودة الخليفة إلى حضرة مراکش فى الرابع عشر من شعبان عام ٥٧١ هـ ، وأمر بتسريح العرفاء والبائين والصناعات إلى مواطنهم . على أن هذا الجامع لم يفتتح للصلاة بصفة رسمية وتقام به الخطبة ، إلا بعد ذلك بنحو سبعة أعوام ، وأقيمت فيه الخطبة لأول مرة يوم الجمعة ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٧٧ هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢ م) وذلك على يد السيد أبى إسحاق إبراهيم ابن الخليفة أبى يعقوب ، ووالى إشبيلية عندئذ ، وأزيات الخطبة من جامع ابن عبدبسن من ذلك التاريخ^(١) .

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ ، وفى المطبوع روض ص ٤٧٤ - ٤٧٩ القرطاس ص ١٣٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٦

— ٧٤ —

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن الموحدين في بداية أمرهم لم يعنوا بزخرفة المنشآت والصروح ، ولا سيما المساجد ، معتبرين هذا الزخرف من الأمور المكروهة من الناحية الدينية ، وكان كل ما يراعى في هذه الصروح هو البساطة والمتانة . بيد أنه لما استحوطت الخلافة الدينية من بعد عبد المؤمن إلى ملك باذخ ، وبلاط يمتاز بالفخامة والروعة ، بدأ زخرف الصروح الموحدية وتجميلها بوفرة وبخاء ، فكان منبر جامع إشبيلية المرصع بصفائح الذهب والفضة ، وكان تزويد صومعته التي أنشئت فيما بعد بتفانيتها الذهبية الثقيلة (١) .

وسرى فيما بعد ، كيف أنشئت منارة هذا الجامع ، وهي المنارة الشهيرة التي مازالت قائمة حتى عصرنا في مدينة إشبيلية ، بعد أن حول جزؤها الأعلى إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أنه لما وفد هلال بن مردنيش وأكابر الشرق وقادته على إشبيلية في مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، ليقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة أبي يعقوب ، اقترح قادة الشرق ، وفي مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، على الخليفة أن يقوم بغزو أراضي النصارى من جهة بلادهم ، وعينوا له بالذات مدينة وبدة هدفا لهذا الغزو ، وذلك لضعف تحصيناتها وأسوارها ، ولأنها حسبما ينقل إلينا ابن صاحب الصلاة « حديثة البنيان قريبة الإسكان » (٢) أو بعبارة أخرى لم يتأثر عمراتها ، ولا أهباتها الدفاعية ، وأن الخليفة وعدمه في نفس هذا المجلس بتحقيق رغبتهم متى انتهى شهر الصوم (٣) . وإنه ل يبدو لنا من ذلك أن الخليفة حينما عبر إلى الأندلس بقصد الغزو والجهاد لم يكن لديه مشروع معين لهذا الغزو ، ومن ثم كان قبوله لاقتراح قادة الشرق .

وعلى أي حال ، فقد اتخذ الخليفة أهفته لتلك الغزوة ، وخرج في قواته من إشبيلية في فجر يوم الاثنين الحادي عشر من شوال سنة ٥٦٧ هـ (٦ يونيو سنة ١١٧٢ م) ، فوصل إلى قرطبة في السابع عشر منه ، وأقام محلته في جبل

(١) وقد أبدى العلامة جولديسبر مثل هذه الملاحظة في بحثه : *Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung* (Z. der Morgenl. Gesellsch. 1887; p. 106)

(٢) المن بالإمامة لوحة ١١٦٦ و١١٦٧ المطبوع ص ٤٧٣

(٣) المن بالإمامة لوحة ١١٦٦ .

فحص السراق المثل على براح أرض مدينة الزاهرة القديمة ، وفي اليوم التالي دخل قصر قرطبة القديم ، وأقام به بضعة أيام . ثم غادر قرطبة في ظهر اليوم الخامس والعشرين من شوال ، وسار في قواته صوب مدينة القصر^(١) ، فأندوجر ثم اتجه نحو الشرق حتى صار على مقربة من بياسة ، وهناك لحق به إبراهيم ابن همشك ، وكان على حصار حصن بلج^(٢) القريب من بياسة ، وكان من أعظم وأمنع حصون هذه المنطقة . وكان هذا الحصن من أملاك ابن همشك ، فلما وقع الخلاف بينه وبين صهره ابن مردنيش ، من جراء انضوائه تحت لواء الموحدين ، استولى ابن مردنيش على هذا الحصن ، ووضع به حامية من جنده المرتزقة النصراني ، وكان ابن همشك يحاصره بقواته حينما قدم الخليفة في جيشه الضخم ، فاقترح عليه ابن همشك أن يسير في الحال إلى الحصن لحصاره والاستيلاء عليه ، فاستجاب الخليفة إلى دعوته ، وسارت القوات الموحدية صوب الحصن ، ونزلت في ظاهره ، وعاین الموحدون ضخامته ومنعته : وروعت حاميت النصرانية بما شهدت من كثرة الجيوش الموحدية ، فاستدعوا ابن همشك ورجوه أن يتوسط لهم لدى الخليفة لينحهم الأمان مقابل تسليم الحصن ، فقام ابن همشك بتحقيق رغبتهم . ووافق الخليفة ، ورأى في تسليم الحصن فاتحة النجاح والنصر ، وتم تسليم الحصن في يوم السبت ٣٠ شوال ، وركب الخليفة إلى الحصن ، وراقته ضخامته ومنعته ، ورتب به حامية موحدية ، وصرف أمره إلى ابن همشك . وفي اليوم الثاني من شهر ذي القعدة سار الخليفة في قواته شمالاً نحو حصن الكرس^(٣) وكان ابن مردنيش قد فعل به ما فعل بحصن بلج ، وسلمه إلى حامية من النصراني . وكان هذا الحصن يقع فوق ربوة عالية يحيط بها الماء والبساتين الخضراء ، فلما اقترب منه الموحدون ، عرض النصراني تسليمه بالأمان ، على نحو ما تم بحصن بلج ، فأجيبوا إلى مطلبهم ، ونزلوا عن الحصن ، وذلك في اليوم السادس من ذي القعدة ، وصرف أمره كذلك إلى ابن همشك .

ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من مرافقي هذه الحملة الموحدية^(٤) ، سير الحملة وتقلاتها بإفاضة ، ويقول لنا إنه بعد الاستيلاء على هذين الحصنين ، سار

(١) وهي بالإسبانية Alcocer .

(٢) وهو بالإسبانية Vilches . (٣) وهو بالإسبانية Alcaraz .

(٤) وهو يذكر لنا ذلك في أكثر من موطن ، « المن بالإمامة » لوحة ١٧٧ ، ١٧٨ ب .

الخليفة في قواته إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف^(١) وهو المتصل بفحص جنجاله ، وقد كانت يومئذ مدينة الحدود بين الأندلس وبين قشتالة ، ثم تقدم منه إلى الموضع المعروف بالغُدُر قرب منابع نهر وادي يانه ، ونزل في سهل بلاط الصوف وقضى فيه يوماً تزود فيه العسكر والناس بالماء . ثم غادره إلى مرج البسيط ، وأقام فيه يوماً آخر ، وسار منه إلى مقربة من وادي شُقر ، حيث ارتوى الناس والدواب من ماء النهر ، وقضوا فيه يومهم للراحة . وفي يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة ، أمر الخليفة أخاه السيد أبا سعيد ، أن يسير من وادي شُقر في عسكر ضخّم من الموحدين والعرب ، يبلغ نحو اثني عشر ألف فارس ، ومعهم قوة من الرّجالة والرّماة ، إلى أراضي قشتالة ، صوب مدينة وبذة^(٢) ، فسار السيد أبو سعيد في هذا الجيش ومعه أبو العلاء بن عزون « قاضي الدولة المهدية » في جنده ، وإبراهيم بن همشك في جنده ، فوصلوا في صباح اليوم التالي إلى أول بلاد قشتالة بموضع يسمى « برج جمل » وفيه حصن يحتله النصارى ، فافتتحوه في الحال ، وأنفوا حاميته قتلاً وسبياً ، وهدموه . وفي اليوم التالي — السبت — وصلوا إلى مدينة وبذة ، والظاهر أن النصارى كانوا على أهبة لرد المغيرين ، فما كاد الموحدون يصلون إلى ظاهر المدينة ، حتى خرج إليهم القشتاليون ، ونشبت بين الفريقين معركة تمهيدية ، ظهر فيها تحاذل من بعض الجند العرب ، فقتلوا ، وأسفرت المعركة حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة عن « ظهور الإسلام » . وعلى أثر ذلك نزل السيد أبو سعيد بعسكره فوق التل المطل على المدينة^(٣) .

وفي خلال ذلك وصل الخليفة في قواته إلى وبذة في اليوم السابع عشر من ذي القعدة ، وأمر الموحدين والعرب من سائر القبائل بالتأهب للحرب ، فأنحاز كل عسكر إلى قبيله ، واجتمع تحت رايته ، وأمر الجميع بالسير ، والصعود إلى التل الذي نزل به السيد أبو سعيد بجنده ، ليتم اجتماع القوات الحاربة ، فصعد الجند على الترتيب المذكور ، وصعد بعدهم الخليفة في كتيبته ، ومعه أبناء الجماعة ، وأبناء أهل خمسين وأهل الدار والعبيد ، وخلقه السيد أبو حفص وباقي الإخوة ، ومن ورأيهم الرايات والطبول وعددها مائة ، وفي الخال بدأ انفجور تحت قرع الطبول وصيحات التكبير ، بين الموحدين والقشتاليين ، واستولى الموحدون على

(١) وهو بالإسبانية Balazote . (٢) وبذة هي بالإسبانية Huete .

(٣) تراجع . واقع عزوه وبذة في الخريطة المنشورة في ص ٤٩ .

ما كان لصق السور من مداخل أرباض المدينة، وأحرقت الدور وهدمت، وارتد القشتاليون إلى الداخل ، ونزل الموحدون بنحوهم في الجنات والكروم المتصلة بالمدينة ، وقطعوا عنها ماء الوادى . وفي مساء نفس اليوم طاف السيد أبو حفص ومعه الإخوة والأشياخ والزرعاء ، وقوة كبيرة من الموحدين بجوانب المدينة الأربعة ، وقسم جهاتها على الجند ، يختص كل عسكر بجهة ويقوده سيد من الإخوة ، ويختص العرب بجمعهم منها بجهة . وكان النصارى في أثناء ذلك قد حفروا على عجل خندقاً خارج المدينة ، ووضعوا له زرباً من الخشب ، وذلك ليعوقوا اقتحام الموحدين للمدينة . وفي صباح اليوم التالى خرج الخليفة راكبا فرسه ، ومن حوله الكتائب الحرارة ، وقد اتخذت أهبثا للقتال ، وقرعت الطبول ، وخفقت الرايات ، وإلى جانبه أخوه السيد أبو حفص وأشياخ الموحدين ، ولما وصل إلى مقربة من الخندق ، نزل فوق ربوة تشرف عليه ، واستدعى إلى قبه الفقهاء والقضاة المرافقين للحملة ، وهم الحافظ أبو بكر بن الحد ، والفقير أبو محمد الماتى ، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، والقاضى أبو الوليد ابن رشد وأقبل الإخوة والأشياخ ، وبايعه الجميع على الثبات على الجهاد ، وكانت العساكر قد احتل كل فريق مكانه المعين ، وقسمت السهام على الرماة ، وأعدت سائر الآلات ، ثم قرعت الطبول إيذاناً ببدء القتال ، فهجم الموحدون على القشتاليين واضطربت بين الفريقين معركة عنيفة ، فارتد القشتاليون حتى لصق السور ، وإلى داخل البيوت ، وامتنع معظمهم بالقصبة ، ولم يثبتوا إلا في الجهة الغربية ، حيث عجز أبو العلاء بن عزون وقواته عن ردهم . فحاول أن يستنجد بالخليفة ليمده ، فأعرض عنه لاشتغاله في قبه بالمناقشة مع الطلبة . وهدم الموحدون كنيسة المدينة ، وانتزعوا نواقيسها ، وقتل من تصدى من النصارى لاستردادها . ويقول ابن صاحب الصلاة « ودام القتال على انحلال وضعف وملال إلى بعد أذان الظهر ، وارتفع ، وما نفع الجيش الكثير عديده ، ولا النجع ، إذ كان في نحو مائة ألف بين فارس وراجل ، وانصرف أمير المؤمنين ، وانصرف الناس إلى أخبيتهم ، وقد همهم الحال »^(١) .

وهكذا فشل هجوم الموحدين الأول على وبذة ، وبالرغم مما يبدو من مبالغة ابن صاحب الصلاة في تقدير عدد الجيش المهاجم ، فإنه كان بلا ريب جيشاً وافر

(١) المن بالإمامة لوحة ١٧٨ . وفي المطوع ص ٩٧

العدد ، وقد كان من جراء هذا الفشل ، أن اتجه الخليفة إلى حصار المدينة . وفي اليوم التالي اجتمع الأشياخ والقواد ، وأمر الخليفة أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر لزرع الغلات والعلوفات وتحصيل الأقوات ، استعداداً لحصار المدينة ، فخرج الناس لذلك ، وطرق الموحدون المدينة ، ومنعوا عنها ماء الوادي ، وأمر الخليفة بصنع السلام والأبراج الخشبية لمقاتلة النصارى في جوانب المدينة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن رسولا من النصارى جاء في ذلك اليوم يعرض تسليم المدينة بالأمان ، فلم يُلْتَمَسَ إليه ، فكر مسعاه في مساء نفس اليوم ، فصرف بغير طائل .

وفي صبيحة يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة (١٤ يولييه) هبت ريح صيفية عاصفة ، فأوقعت الاضطراب بمعسكر الموحدين ، واقتلعت الأخبية ، وقاضت الغدور ، وقضى الموحدون ليلتهم في التحوط ضد عصف الريح . وفي صباح اليوم التالي قدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى من مرسية في جند أهل الشرق ، ومعه أبو الحجاج يوسف بن مردنيش وأهل بلنسية والثغر ، فخرج إليه الخليفة وسائر الإخوة والأشياخ والزعماء والطلبة ، واستقبل استقبالاً حافلاً . ثم نزل جند الشرق بالجبل المحاور لوبذة ليعاونوا في تشديد الحصار ، وشهد القشتاليون من مدينتهم مقدم هذا الجيش الحديد في توجس وفزع . وفي مساء نفس اليوم ، هبت ريح عاصفة أخرى أشد من السابقة ، فاقتلعت خيام الموحدين ، ومزقتها ، ثم تلاها مطر وابل ورعد قاصف وبرق . وكانت فرصة طيبة للنصارى أن ارتووا من مياه الأمطار . ويلاحظ ابن صاحب الصلاة أن هذه الرياح قد عصفت ، والأمطار قد هطلت في أشد ما يكون من الحر في شهر يونيو العجمي (وصحته يولييه) .

وفي صباح اليوم التالي - الاثنين الثالث والعشرين من ذى القعدة - هاجم الموحدون القشتاليين على الأسوار ، ولكنهم ما كادوا يبدأون القتال ، حتى أظلمت السماء ، وقصف الرعد والبرق ، وهطل المطر غزيراً كالسيل ، فأغرقت ثياب الموحدين وعجزوا عن القتال ، وفزع الناس من تكرار هذه الظاهرة ، واعتبروها سخطاً من الله ، ورغبوا في التوبة إليه ، وارتد الخليفة والناس ، وقد اكتسحت السيول المضربة ، وعند الظهر أشرقت السماء ، وارتفع المطر ، فعاد الموحدون إلى القتال وفق ترتيبهم السابق ، ودام القتال حتى المساء ، ولكن دون جدوى .

وفي ليلة الأربعاء ، قام القشتاليون بهجوم مفاجئ من القطاع الذي يحتله جند هسكورة ، فقررنا منه منزهين ، فلما علم الخليفة في الصباح ، أمر بضربهم

بالبساط عقاباً لهم . وفي صباح يوم الخميس ، أمرت الفرق المختلفة ، أن يخرج من كل ثلثها للبحث عن الأقوات والعلوفات ، واجتمع أولئك الجند تحت إمرة الحافظ أبي محمد عبد الله بن أبي تفرج بن إبراهيم بن هشك ، واكن هذه الحملة فشلت في مهمتها ، فلم تجمع شيئاً من المؤن والعلف ، فارتفعت الأسعار في المعسكر الموحدى ، وكاد أن ينعدم فيه القوت .

هذه الأحداث المكثرة المثبطة للهمم ، حملت الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن عمر ، أن يدعو الناس ، وأن يخطب فيهم ، تارة بالعربية ، وأخرى بالبربرية ، يعظهم ، ويستنهض همهم للجهاد ، وكان مما قاله لهم : « قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا الله واجتهدنا ، فلما حضرتم معهم ، قصرتم وجبتهم وحثمتم الله عز وجل ، ونكلمتم وما نصحتهم ، ما أنتم بمؤمنين ولا موحدين ، أن تسمعوا النواقيس تضرب ، وتعينوا الكفر ، ولا تدفعوا المنكر . إن أمير المؤمنين ليس يقلد أن يراكم لتضربكم في حق الله تعالى من الجهاد على كثرتكم من الأعداء »^(١).

وبذلت عندئذ محاولة يائسة لحمل القشتاليين على التسام بالآمان ، فوجه عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد الغرناطى ، إلى قائد وبذة وهو ولد الكونت مانريكى دى لارا^(٢) ، يقول له إنهم على استعداد لتحقيق رغبته في تسليم المدينة بالآمان ، وكرر هذا المسعى مرتين في نفس اليوم ، فرفض قائد القشتاليين هذا العرض بجفاء ، لما رآه من اختلال أحوال الموحدين ، ولما علمه من استعداد ألفونسو الثامن لإنجاده بحشوده . ولما وقف الخليفة على ذلك استدعى سائر الأشياخ من الموحدين والعرب إلى خيمته — القبة الحمراء — للبحث فيما يجب عمله ، وفي نفس الليلة — ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذى القعدة — أمر بحرق البرج المصنوع لقتال النصارى وسائر الآلات التى صنعت معه ، وبأن يقوم مقدم الدواب بشحن النواقيس التى أخذت من الكنيسة من وبذة . وفي الصباح ضرب الطبل الكبير إيداناً للناس بالرحيل ، فساد الاضطراب والهرج في المعسكر الموحدى ، فلما رأى القشتاليون ذلك ، وأيقنوا أن الموحدين قد بدأوا في الانسحاب ، خرجوا في قواتهم من الفرسان والرجالة ، ونزلوا إلى الوادى ، وهاجوا الموحدين وأشعلوا النار في البيوت والخيام ، ووصلوا إلى السوق بقرب الحلة ، وقتلوا

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٨٠ وفى المطبوع ص ٥١

(٢) ويسميه ابن صاحب الصلاة « ولد مرفو » .

الضعفاء والمرضى ، ونشب القتال بين الجيش المنسحب وبين النصارى ، وأمر الخليفة أن يتوقف سائر الجند حتى ترفع الأخبية ، فلما رفعت وقفت قوة ترد المهاجمين حتى يتم الانسحاب ، وتحرك الجيش المنسحب على قرع الطبول ، يتقدمه الخليفة ، والسيد أبو حفص في أهل تينمل ، وأشياخ الموحدين مع قبائلهم ، وزعماء الأندلس مع أصحابهم ، والعرب مع قبائلهم ، والنصارى خلال ذلك يهاجمون الجيش المنسحب ، وقد احتشدت في المؤخرة قوة كبيرة لردهم بقيادة السادة الإخوة ، ومعهم يوسف بن مردنيش وإبراهيم بن هشك وأبو العلاء بن عزون في عسكر الأندلس . وسار الجيش المنسحب متجهاً نحو كونكة (قونكة) ونزل في فحس به الماء على قيد بضعة أميال من وبدة ولحقت به قوة المؤخرة في المساء ، بعد أن ردت النصارى وقتلت منهم نحو ستين .

واستمر الجيش المنسحب في سيره ، وهو يحصد الزروع ، ويجمع الغلات في طريقه ، حتى وصل إلى كونكة بعد يومين ، في يوم الثلاثاء أول ذى الحجة . وفي عصر ذلك اليوم ركب الخليفة ومعه لإخوته السادة ، ووزيره ابن جامع ، والفقهاء والقضاة ، وسائر الأشياخ من الموحدين والعرب ، ودخل المدينة . وكان يرافقه هذا الموكب عبد الملك بن صاحب الصلاة راوية هذه الحوادث ، وهو يصف لنا قصبة كونكة ، ومنعتها ، وعلوها الشاهق ، وكيف يصل إليها الماء من بحيرة عظيمة تقع خارج السور ، وعلى قنطرة عظيمة في جانبها ، وكان إلى جانب المدينة من جهة الحوف خندق عميق قد حفر في الحجر الصلد ، وفيه أدراج حفرت تحت الأرض ، ينزل منها إلى الوادى لشرب الماء ، وتحريك الرحى التى على الوادى ، وقد غطى بستارة منيعة عليها برج عظيم من بناء الأوائل ، وفي فحس المدينة تقوم الكروم وأشجار الخوز والمراعى الخضراء .

ولما دخل الخليفة مدينة كونكة ، وقصبتها استقبله أهلها كباراً وصغاراً ، وكانوا في حالة يرثى لها من الضعف والهزال ، وكان النصارى قد حاصروا مدينتهم قبل ذلك ببضعة أشهر ، وبرح بهم الضيق والحرمان ، ولم يتركهم النصارى إلا حينما علموا باقتراب الموحدين ، فلما سلموا على الخليفة سألهم عن أحوالهم ، ووعدهم بجميل رعايته ، وأمر بأن تكتب أسماء سائر أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال ، فكان عددهم جميعاً سبعمائة ، فأمر للفارس منهم باثنى عشر مثقالاً ، وللراجل ثمانية مثاقيل ، وللمرأة أربعة وللطفل أربعة ، وأعطاهم سبعين

بقرة لم يكن في محلته سواها ، وزودهم بكثير من الرماح والقسي والسهام ،
والسلاح ، وأمر بأن يمدهم سائر الجند بالقمح والشعير صدقة لهم ، وتنافس
الأكابر والأشياخ في تزويدهم بمختلف الأعطية والصلات .

وفي اليوم التالي أمر الخليفة بحصد الزروع ، التي للنصارى في تلك المنطقة
وسوقها ، ولكنهم التقوا بعدد كبير من النصارى على مقربة من قونقة ، وسرت
الإشاعة بأنهم طلائع جيش ألفونسو الثامن والكونت نونيو دي لارا ، فلما علم
الخليفة بذلك ، أمر بالإقلاع فوراً من ذلك الموضع ، والسير إلى وادي شُقر ،
وأمر الناس بالرحيل ، فكان هرج شديد مقرون بالفزع كذلك الذي حدث يوم
الإقلاع من وبدة ، وعبر الجيش الموحدى نهر شُقر ، ونزل بالجبل المتصل
بمدينة قونقة لحصانه ، وسرعان ما وصلت قوات النصارى ، وعسكرت في
في جبل تونيس ، في الناحية المقابلة من النهر ، وصار كل من الجيشين تجاه الآخر
دون أن تتاح لأحدهما فرصة الاشتباك ، وقضى الموحدون ليلتهم على حذر ،
وفي صباح اليوم التالي ، عقد الخليفة مؤتمراً من الأشياخ واستقر الرأي على
أن يقاتل الموحدون النصارى في الغد . ولكن العرب اعترضوا « وجنبوا عن
اللقاء » واحتجوا بضيق ساحة القتال . وانضم أهل الأندلس بقيادة أبي العلاء
ابن عزون للموحدين في نية القتال ، وفي الغد خرجت قوة منازلة بقيادة أبي العلاء
واشتبكت مع النصارى في عدة مناوشات لتختبر قوتهم . وفي اليوم التالي تأهب
الموحدون لخوض المعركة ، وخرج أبو العلاء في بعض قواته ليستطلع أمر العدو ،
ولكنه عاد مع جنده ، وأعلن أن النصارى أقلعوا عن محلهم منصرفين إلى بلادهم .
فعندئذ أمر الخليفة باستئناف الرحيل ، وسار الجيش الموحدى حتى وصل إلى
جبل « الصومعة » Alminar على بعد عشرة أميال من قونقة ، وقضى به الليل ،
وفي اليوم التالي استأنف سيره حتى وصل إلى وادي تامطة ، وقد ظهر الإعياء على
الناس ، وقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ثم وصل إلى وادي برج قبالة
في طريق مدينة بلنسية ، وقد نفق كثير من الدواب ، وبرز الجوع بالناس ،
ومات الكثير منهم . وفي اليوم التاسع من ذي الحجة عبر الموحدون الربوة العالية
المسماة بعقبة الأبالس ، ووصلوا بعد جهد شاق إلى قنطرة « أغريالة »^(١) وقد
اشتد الإعياء بالناس من الضعف والجوع ، ونفق كثير من الخيل والبغال والجمال .

(١) وبالإسبانية Puente del Cabriel

وفى ظهر ذلك اليوم ، أمر الخليفة بإخراج البركة لسائر العساكر على قدر تمييزهم ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وخص الراجل الكامل مثقالين ، وذلك ابتداء من حركة الغزو لسنة سابقة .

وفى صبيحة اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الأضحى ، أمر الخليفة بصلاة العيد فى ذلك الموضع ، وألقى خطبة العيد أبو زيد بن عبدون قاضى تلمسان ، وعقب الصلاة ، سلم الإخوة والأشياخ والأكابر على الخليفة ، ووزعت عليهم الأضاحى ، وعند الظهر استؤنف السير مدى خمسة عشر ميلا ، ونزل الموحدون بمرج القبداق على مقربة من حصن ركنانة ، ووصلوا فى اليوم التالى إلى ركنانة ، وقد اشتدت المجاعة بين الناس . وبنوه ابن صاحب الصلاة خلال وصفه المستفيض لتلك الرحلة المضنية ، فى غير موضع ، بما كان يعانيه الجيش المنسحب من نقص فى المؤن ، وغلاء شديد فى أسعار القمح والشعير والدقيق . وعند مغادرة ركنانة أخطأ الأدلاء الطريق ، وافترقت العساكر فى شعب الجبال ، واشتد بالناس الجوع والألم والضعف . وسار الخليفة إلى موضع يعرف « بمجمع الأودية » وهو الذى يلتقى فيه نهر شقر ونهر أغربالة (كبريل) ولحق به سائر الناس إلى هذا الموضع . ثم استؤنف السير فى اليوم التالى ، ونزل الخليفة قريباً من حصن بيتول ، وهو من حصون بلنسية الأمامية . وهنا صدر الأمر بتسريح الحشود من أهل الشرق وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم وسارت إلى بلنسية منهم جموع كبيرة (١) .

ووصلت إلى الخليفة فى هذا اليوم دفعة كبيرة من الدقيق والشعير والفواكه بعث بها إليه وإلى بلنسية يوسف بن مردنيش . هذا بينما هرع الناس إلى حصن بنيول يطلبون القوت والعون . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان منهم ، أنهم لم يجدوا شيئاً سوى بعض التبن الأخضر ، فقصدوا إلى بلنسية . ويصف ابن صاحب الصلاة بهذه المناسبة ، مدينة بلنسية وجمالها ونصرة رياضها ، بيد أنه يلاحظ أن الضعف كان بادياً عليها ، وأن الخوف من الفتنة كان يزداد . وقضى الخليفة فى محلته ثلاثة أيام بقرب حصن بنيول ، ثم غادره فى قواته فوصل إلى مدينة شاطبة فى السابع عشر من ذى الحجة ، وقضى بقصبتها يومين ، وانتز أشياخ الموحدين هذه الفرصة ، فوعظوا أهل المدينة بالجامع عقب صلاة الجمعة ، وبشروهم بالخير فى ظل العهد الجديد .

(١) تراجع موانع غزوة وبلدة وارتداد الجيش الموحدى فى الخريطة المنشورة ص ٤٩ .

وغادر الخليفة بعد ذلك شاطبة ، ونزل بحصن بليانة^(١) على مقربة منها ، ثم سار إلى حصن آصف ، ثم إلى ألش ، ووصل إلى أوريولة في الثالث والعشرين من ذي الحجة ، وغادرها في اليوم التالي ، قاصداً إلى مرسية ، فنزل أولاً بحصن أنوط^(٢) على مقربة منها ، ثم سار منه إلى المدينة ، فخرج أهل مرسية لاستقباله ، ودخل المدينة والأعلام تحفّق والطبول تضرب ، ونزل بقصرها ، وقد احتشد أهل المدينة رجالاً ونساء خاصتهم وعامتهم ، لتحية الخليفة ، والإعراب عن سرورهم بمقدمه ، وكان الخليفة قد طلب إلى هلال بن مردنيش أن يعد الدور اللازمة لنزول الموحدين ، فقام بتحقيق هذه الرغبة ، وأنزل أشياخ الموحدين أكرم منزل ، وقدم هلال إلى الخليفة ما وسع من الهدايا السنية ، وما كان لدى أبيه من الجوارى والسراري البارعات في الحسن ، فتقبل الخليفة هديته ، وأثابه عنها بالعطايا الجزية .

ولم تمض أيام قلائل حتى ضاقت مرسية ، بمن نزل فيها ، ووفد إليها ، من الموحدين وغيرهم ، وارتفعت الأسعار ، وعم الغلاء ، ورغب كثير من الموحدين والعسكر المرتزقة في الرجوع إلى أوطانهم ، فأذن لهم الخليفة ، وارتحل كثير منهم . ولما دخل شهر صفر سنة ٥٦٨ هـ ، صدر الأمر بخروج البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقة ، الذين اشتركوا في هذه الغزوة ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وغيره أربعة مثاقيل ، وخص الراجل مثقالين ، وغيره مثقال ونصف ، وتسلم كل شيخ بركة قبيلته ، وافترق معظم الناس .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لينظم شئون مملكة الشرق القديمة ، فأمر بإصلاح معاقل مرسية ، وتحصيناتها ، وندب مختلف الولاة لجهاتها وحصونها ، وجمع هلال بن مردنيش وإخوته وعمهم أبا الحجاج يوسف في مجلسه ، وأبدى لهم منتهى العطف والرعاية ، وأنهم يكونون من جملة الموحدين والأهل ، وأمرهم بالنظر في الارتحال معه ، وأقر أبا الحجاج يوسف بن مردنيش على ولاية بلنسية وأقطارها ، لما ثبت له من حسن إخلاصه وطاعته ، وكذلك أبقى ابن عيسى القائد على ما كان بيده من حصن جنجاله وأراضيه ، وأبقى غيره من قادة الحصون والتغور ممن ثبت لإخلاصهم وصلاتهم .

وفي أول شهر ربيع الأول غادر الخليفة مرسية عائداً إلى إشبيلية ، وعرج

(١) هو بالإسبانية Villena .

(٢) هو بالإسبانية Moncagudo ، وقد بقيت أطلاله إلى اليوم .

في طريقه على مدينة غرناطة ، وترك بها أخاه السيد أبا سعيد والياً لها ، ووصل إلى إشبيلية في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٨ هـ (نوفمبر ١١٧٢ م) . ومعه الإخوة وفي مقدمتهم السيد أبو حفص ، وخاصته من أشياخ الموحدين وأكابر الدولة ، فاستقبله أهل إشبيلية وعلى رأسهم الحافظ أبو بكر بن الجند ، استقبالا حافلا ، وقدم معه بنو مردنيش في الأهل والولد ، وفقاً لما أمر ، فأنزلوا في قصر ابن عباد ، والدور المتصلة به ، واشترى لهم الخليفة ما لزم لسكنائهم وسكنى أتباعهم من الدور ، وعين منهم غانم بن مردنيش لرياسة جماعة من الجند الأندلسيين ، وأصحاب أبيه وأهل الثغور والأجناد بإشبيلية ، لتكون منهم قوة تضطلع بالغزو وحماية الأقطار من العدو وغيث البدو ، ونظم هلالا والكبار من إخوته في جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، يحضرون مجلسه العالي ، ويشتركون في مباشرة الأمور ، وإبداء الرأي تقریباً لهم وتشريفاً وتأنيساً ، وكان غانم يخرج في قواته مع الموحدين إلى غزو أراضى قشتالة ، وقد ظهر فيما بعد بشجاعته وكفايته . وكان مثلاً طيباً للغزاة من الأجناد والعرب .

* * *

والآن وقد انتهينا من استعراض مراحل هذه الغزوة الأندلسية الأولى للخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستوعبنا تفصيلها ، وفقاً لرواية مؤرخها المرافق لها ، والتي سجلها منذ بدايتها إلى نهايتها ، يوماً بعد يوم ، نحاول أن نستخلص منها ما يمكن أن تدلّ به من الحقائق والعبر .

وأول ما تكشف عنه حوادث هذه الغزوة التي لم يطل أمدّها أكثر من شهرين ما تجلّى تحت أسوار مدينة وبدة من عجز الجيوش الموحدية وتفككها . ويبدو هذا العجز في أسطح صوره متى ذكرنا أن الجيش الموحدى الذى تصدى لحصار وبدة ، كان يضم على الأقل عشرين ألفاً من الفرسان النظامية ، منهم عشرة آلاف من الموحدين وعشرة آلاف من العرب ، الذين عبروا مع الخليفة الموحدى إلى الأندلس حسب أسلفتنا في موضعه . وهذا غير المتوقعة وأجناد الأندلس ، وهؤلاء يمكن تقديرهم أيضاً بعدة آلاف . فكيف يعجز هذا الجيش الكبير عن اقتحام مدينة صغيرة غير ممتنعة مثل وبدة ، خصوصاً وقد كانت تضطلع بالدفاع عنها حامية محلية صغيرة من القشتاليين ؟ إن مثل هذا العجز المطبق يكشف أولاً وقبل كل شيء عن عجز القيادة الموحدية ، ذلك أنه لم تكن بين أولئك الإخوة والأشياخ

الذين يلتفتون حول الخليفة الموحدى، ويدبرون دفة الغزوة، هيئة قيادة مقتدرة، بل لم يكن بينهم قادة أكفاء بالمعنى الصحيح، وكان مجلس القيادة يتخذ في معظم الأحيان صورة اجتماع عائلي، تغلب فيه الآراء الفطرية، والقرارات المرتجلة، وبدلاً من أن نرى الخليفة يخرج من قبته ليقود جنده بنفسه، أو ليحشهم على الثغاني في القتال، نراه في اللحظة الحرجة التي هزم فيها أهل الأندلس، وأجلوا عن مواقعهم، يجلس داخل قبته مع الطلبة الموحدين ليناقشهم في بعض المسائل الفقهية. ويجدر بنا ونحن نتحدث في هذا الموطن عن عجز القيادة الموحدية أن نعود قليلاً إلى الوراء، لنذكر ما كانت عليه القيادة المرابطية في شبه الجزيرة من المقدرة والكفاية، وما كان يمتاز به القادة المرابطون من البراعة والدرية العسكرية العالية، وهي التي مكنتهم من أن يحرزوا بجيوشهم القليلة العدد، انتصاراتهم الباهرة في مواقع مثل إقليش وإفراغة.

هذا ومن جهة أخرى فقد كشفت غزوة وبدة، عما كان يسود الجيوش الموحدية من التفكك، وانعدام التماسك بين مختلف العناصر التي تتكون منها. وقد كان العرب الذين يرافقون الجيش الموحدى يحملون أكبر قسط من تبعه هذا التفكك، فقد رأيناهم يرضون بتعاونهم، ويحجمون عن القتال في الساعات الحرجة، وكان هذا الإحجام من جانب العرب يشل حركة الجيش الموحدى، وينال من قدرته وقواه المعنوية. أضف إلى ذلك ما كشفتته هذه الحملة من سوء تنظيم تموين الجيش الموحدى، وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوات والعلقات، وما كان يصيب الجند من جراء ذلك من الضيق والحزن وانهايار القوى المعنوية^(١)

في الوقت الذي نزل فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بمرسية، ليستريح من عثاء حملته المنكودة على وبدة، كانت تحدث في الجانب الآخر من شبه الجزيرة في غربي الأندلس، حوادث هامة، مؤسفة في نفس الوقت. وكان ملك البرتغال مذقت في عصفه نكبته في معركة بطليوس في شعبان سنة ٥٦٤ (١١٦٩ م) قد لزم السكينة حيناً، وهو يرقب الحوادث والفرص، فلما غادرت الجيوش الموحدية قواعدها في إشبيلية في غزوتها إلى وبدة، شعر بأن الفرصة قد سنحت

(١) تستغرق يوميات ابن صاحب الصلاة عن غزوة وبدة من كتاب «المن بالإمامة» نحو ستة عشرة صفحة كبيرة من لوحة ١٧٣ إلى لوحة ١٨٩ ب. وفي المطبوع ص ٤٨٧ - ٥٠٢.

للعمل ، وكان يطمح بعد فشله في افتتاح بطليوس ، إلى الاستيلاء على مدينة باجة الحصينة ، أهم قواهد ولاية الغرب في تلك المنطقة ، وكانت باجة ، مذ أقبل عن ولايتها سيدراى بن وزير ، وبسط الموحدون سيادتهم على قواعد ولاية الغرب ، قد أسندت ولايتها إلى بعض الحفاظ الموحدين ، فتولاها عمر بن تيمصت التينملى مدى حين ، ولكنه لم يفلح في تهدة ما ثار بها من الفتن بين أعيانها وبين الدهماء ، فعزل عنها ، وولى عليها طالب بربرى من الحفاظ يسمى عمر بن سحنون ، وكان عاجزاً ، يغلب عليه الطيش ، فاتصل به الدهماء والسفلة ، فقر بهم وأدناهم ، وأذكى بذلك حفيظة الخاصة ، واشتد التقاطع بين الناس ، واستوزر ابن سحنون أيضاً رجلاً بدوياً من سفلة باجة ، فاضطهد الناس ، واجترأ على سفك الدماء ، وأخذ أموال الناس بالباطل ، وضربهم بالسياط ، وعاونوه في طغيانه وعسفه قاضى البلدة عمر بن زرقاج ، وكان مغرضاً ظلوماً ، واستبد ابن سحنون بأمره ، وغلب رأى السفلة والفجار في كل شيء ، وقتل بعض الأعيان والفقهاء ظلماً وعدواناً ، واشتدت الفتنة بالمدينة ، ووصلت أخبارها إلى إشبيلية .

كانت هذه حال مدينة باجة في أواخر سنة ٥٦٧ هـ (صيف سنة ١١٧٢ م) حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يسير في جيوشه إلى غزوة وبدة ، ولم تكن هذه الأحوال بخافية على النصارى ، وهم يحتلون يابرة وقصر أبي دانس القريبتين من باجة . وكان من الواضح أن مدينة هذه حالها لا يمكن أن تثبت أمام العدو المغير . ومن ثم فقد أعد ألفونسو هنريكيز عدته لافتتاح باجة ، وسار إليها ومعه قائده ومعاونيه جيرالدو سمبافور في قواته . وكان من سوء الطالع أن الحراسة بأبراج المدينة كانت مهملة ، وكان بعض هذه الأبراج دون سمار (حراس) يلازمونها بالليل ، لأن الوالى ابن سحنون كان يحبس رواتبهم ولا يدفعها ، وكان برج القصبية المسمى « برج الحمام » قد ترك على هذا النحو دون سامر . ففي ليلة مستهل المحرم سنة ٥٦٨ هـ (٢٣ أغسطس سنة ١١٧٢ م) نفذ النصارى ضربتهم . وكانت ليلة مظلمة على النحو الذى كان يختاره جيرالدو سمبافور لانزال ضرباته . فوصل النصارى إلى السور زحفاً على أيديهم وأرجلهم ، ووضعوا السلام على برج القصبية دون أن يشعر بهم أحد من السمار ، ثم صاحوا صيحتهم المأثورة ، وما كاد الوالى عمر بن سحنون وأهل المدينة يستيقظون من سباتهم حتى كان النصارى قد ملكوا برج القصبية ، ثم احتلوا القصبية في الحال . وساد الذعر في المدينة ،

وتدلى الوالى من السور وفر إلى ميرتلة ، وماكاد يسفر الصبح حتى احتل
النصارى المدينة ، وأخذ الناس يفرون من أبوابها ، وهم يُقتلون ويأسرون من كل
جانب ، وقتل وأسر جماعة من أعيانها ، واستولى النصارى على مقادير عظيمة
من المال والمتاع .

ولكن النصارى لم يملكوا طويلا بياجة . ذلك أن ملك البرتغال رأى من ضخامة
المدينة ما يجعل الدفاع عنها مهمة شاقة ، ومن ثم فقد هدم أسوارها ، وأحرق
ربوعها ، ثم غادرها بعد أن احتلها نحو خمسة أشهر ، وتركها قاعاً صفصفاً وذلك
في أول يناير سنة ١١٧٣ ، وقد أخذ معه كثير من أهلها الأسرى . وقد أنقذ معظم
هؤلاء فيما بعد بالقداء ، وهاجر كثير منهم بعد خراب مدينتهم إلى مراكش^(١) .

ولم يتحرك الموحدون لسقوط باجة على هذا النحو ، وشغل الخليفة أبو يعقوب
منذ وصوله إلى إشبيلية بالعمل على استكمال بناء المسجد الجامع ، وكذلك باستكمال
بناء القصور والبساتين التى بدئ بإنشائها خارج باب جهور حسبما تقدم فى موضعه .
وكذلك باستقبال وفود أهل إفريقية . بيد أنه لم يمتس على ذلك أشهر قلائل ، حتى
اضطر الموحدون إلى خوض غمار حرب جديدة جاءت تلك المرة من ناحية قشتالة .

فى أوائل شهر شعبان سنة ٥٦٨ هـ (مارس ١١٧٣ م) خرجت من مدينة
آبله حملة قشتالية بقيادة حاكمها الكونت خمينو ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية
بالقومس « سان منوس » وأحياناً بشانشوا وتصفه بالأحذب عظيم النصارى بآبله —
وقد كان بالفعل أحذباً — وتسميه أحياناً « باني بردعة » إذ كان لعاهته يركب على
بردعة وثيرة من الحرير مسرجة بالذهب مرصعة بأصناف الجواهر^(٢) . وكان
الكونت خمينو قد قام قبل ذلك بعدة غارات مخربة فى ربوع الأندلس ، ووصل

(١) نقلنا هذه الرواية المفصلة عن غزو البرتغاليين لباجة عن ابن عذارى (البيان المغرب —
القسم الثالث ص ١٠٠ — ١٠٣) . وقد سبق أن أشرنا فى موضعه إلى الرواية الموحزة التى يقدمها
إلينا ابن صاحب الصلاة عن ذلك الحادث وهو ينسب وقوعه إلى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر
سنة ١١٦٢ م) أعنى إلى ما قبل التاريخ الذى يقدمه إلينا ابن عذارى بعشرة أعوام . (كتاب المن بالإمامة
لوحه ١١٨ ب) . ولم يذكر لنا صاحب البيان المغرب مصدره . ولكن يبدو من أسلوب روايته أنها
ربما نقلت عن ابن صاحب الصلاة من السفر الثالث من كتابه وهو لم يصل إلينا . وفى هذه الحالة
تكون رواية ابن صاحب الصلاة الأولى من قبيل اللبس والخلط .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحه ١٩٠ ب ، وروض القرطاس ص ١٣٩
والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٨ .

في بعض غاراته إلى طريف والجزيرة الخضراء ، وأصاب المسلمين من عدوانه وعيئه بلاء كثير . فخرج بقواته من آبله واخترق قلب الأندلس جنوباً ، حتى عبر نهر الوادي الكبير ، من المخاضة الواقعة بين حصن بلمة وحصن الجرف ، وانحدر إلى أحواز إستجة ، ثم اتجه صوب قرطبة ، وعاث في واديها ، وخرب الزروع واستاق من الماشية نحو خمسين ألفاً ومن البقر نحو مائتين . وأسر من المسلمين نيفاً ومائة وخمسين رجلاً ، ثم سار بغنائمه وأسراه غرباً صوب مخاضة بليارش على مقربة من بلدة القصير . وكان الخليفة في تلك الأثناء قد أمر بالتأهب لمحاربة القشتاليين ، وقمع غاراتهم ، فخرج من إشبيلية في الثالث عشر من شهر شعبان (٥٦٨ هـ) جيش موحدى بقيادة السيد أبي زكريا يحيى ابن الخليفة ، ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل ، وعدة من الحفاظ والأشياخ وقوة مختارة من الفرسان والرجالة العرب بقيادة أشياخهم ، وعبر هذا الجيش الموحدى نهر الوادي الكبير على عجل ، وسار صوب قرطبة ، فوصلها في السادس عشر من شعبان ، وكان القشتاليون قد وصلوا عندئذ إلى بلدة القصر . واجتمع أقطاب الموحدين بالشيخ أبي حفص عمر ، واستقر الرأي على مطاردة القشتاليين وقتالهم أينما كانوا ، ولو في أراضي قشتالة ذاتها ، وانضم الشيخ أبو حفص بقواته إلى الجيش الموحدى ، واستعد بالميرة والعلوفات ، وخرج الموحدون في أثر النصارى ، تتقدمهم قوة من الطلائع بقيادة الحافظ أبي عمران موسى بن حمو الصنهاجى صاحب يابرة ، لتخبرهم تبعاً عن تحركات النصارى ، وكان القشتاليون قد توقفوا في سهل متسع يعرف بفحص « كركوى » على مقربة من قلعة رباح . فأدرك الموحدون أنهم يريدون اللقاء في هذا المكان ، فاستعلوا للمعركة في عزم وثقة ، ولكنهم ماكادوا يقتربون من السهل ، حتى عجل النصارى بالمسير ، ولكنهم لما أيقنوا بأنه لا مفر من القتال ، لحأوا إلى جبل وعرف في نهاية السهل . فاندفع الموحدون وراءهم إلى أعلى الجبل ، واشتبكوا معهم في معركة حامية . وكان الكونت خمينو ، يراقب المعركة من خيمته في أعلى الجبل ، ويحث جنوده على الثغاني في القتال ، ولكن ماكاد ينتصف النهار ، حتى رجحت كفة الموحدين ، ومزقت صفوف القشتاليين ، وكثر القتل فيهم ، ووصل الموحدون إلى خيمة الكونت خمينو ، وقتلوه واحتزوا رأسه ، ولم يفلت من القتل من النصارى سوى نحو مائتين ، فروا في مختلف الأنحاء . وفي هذه المعركة معظم أهل آبله ، واستولى المسلمون على عتاد

النصارى ، وأسلابهم وخيولهم ، واستنفدوا الأسرى المسلمين ، واستردوا سائر الغنائم والماشية والدواب ، وأعيدت بأمر الخليفة إلى أصحابها . وجمعت رؤوس النصارى ، وحملت إلى الشيخ أبي حفص وابني الخليفة « وميزت » رأس الكونت خمينو ، وأرسلت إلى الخليفة بإشبيلية ، عن يد يحيى ابن الوزير أبي العلاء بن جامع فوصل إليها في ظرف يومين بعد رحلة مسرعة شاقة ، ووصف للخليفة تفاصيل الواقعة المظفرة ، وفي الحال قرعت الطبول إيداناً بالنصر ، وأقبل الناس للتهنئة . وفي يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ، وهو ثالث يوم بعد الواقعة ، وصل الشيخ أبو حفص وصحبه إلى إشبيلية ، واجتمع بالخليفة وأخيه السيد أبي حفص ، بقصره بالقصبة ، واصطف الموحدون من الأسيخ والطلبة والفقهاء والكتاب والخطباء ، وأدخل المهنتون وفق مراتبهم . وخطب الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر أولاً باللغة البربرية ، ثم بالعربية ، وخطب من بعده الحافظ أبو بكر بن الحد ، فالقاضي أبو موسى عيسى بن عمران ، فالفقيه أبو محمد الملقب . ثم أنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم ، ووزعت عليهم الصلوات ، وكان يوماً حافلاً^(١).

وشجع هذا النصر الذى تلا فشل حملة وبذة الموحدين على الاضطلاع بغارات جديدة فى أراضى النصارى . فجهزت حملة موحدية قوامها أربعة آلاف فارس ، وقوة من أجناد الأندلس والعرب ، بقيادة أبى يعقوب يوسف بن أبى عبد الله تيجيت وعبد الله بن إسحق بن جامع ، ومعها مقادير عظيمة من الميرة والعتاد برسم مدينة بطليوس تحملها قافلة من ثلاثة آلاف دابة ، وغادرت هذه الحملة لإشبيلية ، إلى بطليوس ، وبعد أن سامت أحمال الميرة إلى واليها أبى غالب بن أبى الحسين ، سارت نحو الشمال الشرقى حتى وصلت إلى أحواز مدينة طليطلة ، الواقعة على نهر التاجه غرب طليطلة ، فعاثت فى بساطها ، وقتلت وأسرت كثيراً من النصارى ، واستولت على أكثر من ثلاثين ألفاً من الغنم والدواب ، وعادت سالمة إلى إشبيلية . ثم خرجت من بعدها حملة أخرى ، وسارت إلى أراضى طليطلة ، وعاثت فيها واستولت على كثير من الغنائم . وأدرك النصارى أن موجة الغزو الموحدى قد تشتد ، وقد تتخذ صورة مزعجة ، فجنحوا إلى المسالمة ، وطلب المهادنة . وكان أول من سعى منهم إلى الصلح ، الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة ، ثم تلاه

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٩١ إلى ١٩٤ ب وفى الموضوع ص ٢١٨ -

ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، فبعث رسله إلى الخليفة ، وحذا ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال حذو ملك قشتالة فبعث رسله في طلب المهادنة والصلح . واستمرت المفاوضات نحو شهرين ، وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملوك النصراري ، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ (يولييه سنة ١١٧٣ م) . وكان مما حمل الخليفة على إثثار الصلح والمهادنة رغبته في التفرغ لأعمال الإنشاء ، وتعمير البلاد التي خربت أو أقفرت من جراء العلوان والغزو ، مثل باجة وغيرها^(١) .

وكان من أثر عقد المهادنة بين الخليفة وبين ملك البرتغال ، أن شعر حليفه وقائده السابق جيرالدو سمبافور أو جراند الجليقي ، أنه فقد مكانته ، وأغلقت في وجهه فرص المغامرة ، والعمل المثمر ضد الموحدين ، ولم يجد أمامه خيراً من الدخول في خدمة الخليفة ، فسار في صحبه ، وهم ثلاثمائة وخمسون جندياً ، إلى إشبيلية (سنة ٥٦٨ هـ - ١١٧٤ م) واتمس قبوله « عبداً وخدمياً » للخليفة ، فقبل الخليفة التماسه ، ووصله بالإحسان والإكرام ، واستمر الأمر على ذلك بضعة أشهر ، ولكن ألفونسو هنريكيز ، الذي لم يرقه تصرف قائده السابق لبث يرسل إليه سراً ، أن يتحيل في الارتداد والعود ، فضبطت بعض هذه المراسلات وظهر منها موقف جيرالدو المريب ، فقبض عليه وعلى أصحابه ، وأرسلوا إلى سبلماسة ، واعتقلوا هنالك تحت رقابة شديدة . ثم حاول جيرالدو الفرار من معتقله ليجوز إلى البحر ، فقبض عليه ، وقتل واحتز رأسه ، وانتهى بذلك وفي رواية أخرى أن جيرالدو لبث في خدمة الخليفة حتى غادر الخليفة لإشبيلية إلى المغرب في شعبان سنة ٥٧١ هـ (مارس ١١٧٦ م) ، فسار في ركابه ، وعينه الخليفة للخدمة في « السوس » وهنالك اتصل جيرالدو بالمكاتبه سراً بمليكه السابق ، وعرض عليه أن يجهز أسطولا لفتح هذه الناحية ، وبذلك تمتلك البرتغال بعض مراكز على ساحل المغرب ، فضبط الموحدون بعض هذه الرسائل^(٢) ، وأصدر الخليفة أوامره سراً إلى عامله بدرعة موسى بن عبد الصمد بأن يقسم جيرالدو

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٩٥ أ وب وفي الموضوع ص ٢٥٢ - ٥٢٧ . وهنا ينتهي السفر الثاني من كتاب المن بالإمامة ، وهو الذي وصل إلينا من مؤلف ابن صاحب الصلاة ، ولم يصلنا شيء من السفر الثالث الذي يبدأ بحوادث سنة ٥٦٩ هـ .

(٢) أخبار المهدي بن تومرت ص ١٢٧ ، ويقول لنا البيهقي إن مصرح جيرالدو كان في سنة ٥٦٥ هـ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٣ . وراجع H. Miranda : Imperio

وأصحابه على القبائل ، ثم يقتل جبر اللو لما ثبت من خيانه ، وبعث بجبر اللو إلى درعة فسار إليها مع أصحابه ، وهناك نفذت فيهم أوامر الخليفة . وكانت أهم الحوادث في العامين التاليين ، قبيل عودة الخليفة إلى المغرب ، تتلخص في اهتمام الخليفة بتعمير قواعد الغرب ، وفي تجدد الحرب مع ملك ليون . وقد بدأ الخليفة أعمال التعمير ، بإصلاح حصن القلعة الواقع على مقربة من جنوب شرق إشبيلية على النهر المتفرع من الوادي الكبير^(١) ، وكان قديماً حصنها الشرق ، وقد تهدم منذ أيام الفتنة الكبرى ، وبقي خراباً حتى ذلك الوقت ، فأمر الخليفة بإصلاحه وبناءه ليعود إلى الاضطلاع بمهمته الدفاعية القديمة ، وكان ذلك في صفر سنة ٥٦٩ هـ .

وفي العام التالي كانت حركة تعمير مدينة باجة ، التي خربها وهدمها ألفونسو هنريكز قبل إخلائها . ففي شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، استقبل الخليفة وفداً من أعيان أهل باجة السابقين ، ووعدهم بتعمير مدينتهم لكي يعودوا إلى سكناها ، ويسكنها معهم الموحدون ، وعين لولايتهم الحافظ أبا بكر بن وزير ، ثم سار أهل باجة إلى مدينتهم الخربة ، وكانوا يومئذ نحو مائتي شخص من مختلف الأعمار ، ونزلوا بقصبتها ، وبنوا بابها ، وأصلحوا ما تيسر من أطلالها . ثم لحق بهم عمر ابن تيمصلت وإلى شلب في نحو خمسمائة رجل من الفعلة والبنائين ، ومعهم أقواتهم وأدواتهم ، وأخذوا في بناء أسوارها فكلت في نحو شهر ، وجاءت للعمل والبناء حشود أخرى ، واستمر العمل في التعمير بهمة . وحدث خلال ذلك أن استبد وإلى باجة أبو بكر بن وزير وأساء السيرة ، ونشب بينه وبين أهلها خلاف شديد وفتنة ، فأمر الخليفة بعزله ، وتعيين عمر بن تيمصلت والياً مكانه ، فأحسن السيرة ، وأقبل الناس على البناء والتعمير ، وإنشاء الرباع والحدائق ، وراجت الأحوال ، وانتظم التعامل ، واستعادت باجة سابق عمارتها ورونقها^(٢) .

وفي أثناء ذلك كانت الحرب قد نشبت بين الموحدون وبين فرناندو الثاني ملك ليون المسمى «بالبوج» ، وكان فرناندو قد عقد الصلح والتحالف مع الخليفة الموحدى منذ سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ، وعاونه الموحدون في حربه ضد آل لارا زعماء قشتالة ، وأبدى هو ، حينما حاصر البرتغاليون مدينة بطليوس ، وكادوا يستولون

(١) وهو بالإسبانية Alcalá de Guadaira ويسمى كذلك قلعة جابر .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٧ .

عليها ، صدق ولاته ، فحارب إلى جانب الموحدين ، وعاون على صد البر تغالين وهزيمتهم . وامتنع هو عن مهاجمة بطليوس مرة أخرى ، حينما نبه الموحدون إلى الخلف المعقود ، وأبدى تمسكه بعهوده ، وهاداه الخليفة وأثنى عليه ، واستمر محافظاً على صداقته وولائه حتى أواخر سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وعندئذ ، ودون أية أسباب ظاهرة ، قام فجأة بغزو أراضي الأندلس وعاث فيها ، فاستشاط الخليفة غضباً ، وأمر بمهاجمته في عقر داره ، فجهزت حملة كبيرة من الموحدين والعرب ، وخرجت من إشبيلية بقيادة السيد أبي حفص أخى الخليفة فى الثالث من صفر سنة ٥٧٠ هـ (٣ سبتمبر ١١٧٤ م) ، وسارت تواء إلى مدينة رديجو قاعدة ملك ليون ، وهى التى تسميها الرواية الإسلامية بمدينة « السبطاط »^(١) ، ومعه الزعيم القشتالى فرناندو رديجيس صهر ملك ليون حليف الموحدين القديم فى صحبه ، وهاجم الموحدون مدينة رديجو ، فلم ينالوا منها مأرباً ، ولكنهم استولوا على حصنى القنطرة وناضوش من أماكن الحدود . ولما عاد السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، احتفل بهذا النصر الجزئى ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالعادة^(٢) . ولزم فرناندو ملك ليون السكينة مدى حين . بيد أنها كانت هدنة قصيرة ، وكانت كما سئى مقدمة لسلسلة من الغزوات الجديدة ، التى قام بها الملوك النصارى فى أراضي المسلمين .

• • •

وفى أوائل سنة ٥٧٠ هـ ، عقد الخليفة أبو يعقوب زواجه بالحسنة زائدة ابنة زعيم الشرق الراحل محمد بن سعد بن مردنيش ، وتم زفافها إليه فى اليوم الخامس من ربيع الأول فى مهرجان فخم . وكان صداقها الرسمى خمسين ديناراً ، ولكن الخليفة وجه إليها ألف دينار من الذهب العين « تأنيساً » . ولما وصلت إليه بإشبيلية مع أهلها وحشمها ، وهب لها كل ما كان أهدها إليه إخوتها عند فتح مرسية . وكان زواجاً موفقاً ، حظيت فيه العروس الأندلسية ، واستأثرت بحب الخليفة وإعجابه ، حتى كان يضرب المثل بهذا الحب للحسنة ذات العينين الزرقاوين . وحظى قومها آل مردنيش لدى الخليفة ، وأحرزوا فى كتفه رفيع

(١) سبق أن أوضحنا أن مدينة السبطاط ، هى تحريف لكلمة cibdad القشتالية ومعناها المدينة .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٠٤ .

المناصب والرتب ، حسباً أشرنا إليه في موضعه . وكان من غرائب القدر أن يحظى عقب الثائر الذي شغل الموحدين ودوخ جيوشهم زهاء ربع قرن ، على هذا النحو في بلاط عدوه القديم المتغلب عليه^(١) .

وكانت إقامة الخليفة بالأندلس تدنو عندئذ من نهايتها ، وقد استطالت هذه الإقامة زهاء خمسة أعوام ، منذ مقدم الخليفة في رمضان سنة ٥٦٦ هـ . ولم تدون الرواية في الأشهر الأخيرة من إقامته شيئاً من الحوادث ، سوى ما أمر به من نكبة محمد بن عيسى المشرف على إشبيلية وذلك في شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧١ هـ ، وكانت قد لحقت به ريب كثيرة من تبديد الأموال واختلاسها ، فقبض عليه ، وتولى بلول بن جلداس محاسبته ، واستصفاء أمواله ، ثم عذب وضرب حتى مات ، وألقيت جثته في الوادى الكبير .

ولم يمض على ذلك سوى أسبوعين أو ثلاثة ، حتى اتخذت الأهبة لسفر الخليفة ، وذلك بعد أن عقد لأخيه أبى على الحسين على ولاية إشبيلية ، ولأخيه أبى الحسن على ، على ولاية قرطبة . وغادر أبو يعقوب إشبيلية في ركبته في يوم الخميس الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٥٧١ هـ (٢٨ فبراير سنة ١١٧٦ م) ومعه الخوادم والأشياخ والعمال والكتاب ، ومن زعماء الأندلس بنو مردنيش ، وإبراهيم بن همشك وغيرهم . وكان خروجه من مرسى طلياطة على نهر الوادى الكبير ، فجاز النهر ثم البحر إلى طنجة ، وأقام بها أياماً ، ثم غادرها إلى مراكش ، فوصلها في منتصف شهر رمضان من نفس العام (٢٨ مارس سنة ١١٧٦ م) .

(١) البيان المنرب - القسم الثالث ص ١٠٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٧١ ،

A. P. Ibars : Valencia Arabe, T.I. p. 552 . وكذلك : ١٣٩ .

الفصل الرابع

أحداث الأندلس والمغرب

عصف الوباء بالمغرب والأندلس . ثورة عشائر صنهاجة وإخمادها . غزو النصارى لمدينة قونقة وحصارها . غزو الموحدين لأراضي طليطلة وطليرة . استمرار النصارى في حصار قونقة . سقوطها في أيديهم . غزو ملك ليون لنفحص إشبيلية . إغارة البرتغاليين على باجة وطريانة . خروج جنود باجة للفرار وهزيمتهم . فرار أهل باجة وإخلائها . رواية أخرى عن غزوة البرتغاليين . نكبة الخليفة لبيئ جامع وغيرهم . وفاة بعض السادة والأعلام . غزو السفن الموحدية لثغر أشبونة ، ورد السفن البرتغالية . غزوة ثانية للسفن الموحدية . نفاذ الموحدين إلى الداخل وهزيمتهم . معركة بحرية بين الموحدين والبرتغاليين . هزيمة البرتغاليين ومقتل قائدهم . غزو الموحدين لأراضي يابرة . غزو البرتغاليين لأراضي إشبيلية . غزوهم للشرف ومدينة شلوقه ، وحسن القصر . غزو القشتاليين لأراضي قرطبة . توغلهم في وادي إشبيلية وجنوبي الأندلس . استيلائهم على حصن شنتيلة . غزو الموحدين لحصن شنتيلة وحصاره . صموده وإقلاعه عنهم . إخلاء النصارى له . غزو الموحدين لأحواز طليطلة . اشتباكهم مع القشتاليين . هزيمة القشتاليين وفرارهم . القائد ابن وانودين والخليفة . وفاة السيد أبي حفص . ثورة بني الرند بقفصة . سير الخليفة لقمع الثورة . تواطؤ ابن المنتصر مع بني الرند ونكبته . محاصرة قفصة وضربها . تسليم ابن الرند . حث الخليفة العرب على الجهاد . استجابة العرب لدعوته . سياسة الموحدين في اصطلاح العرب . دأبهم في التقلب وعدم الولاء . عقد الصلح بين ملك صقلية والخليفة . رسالة الفتح . عود الخليفة إلى مراكش . سير الخليفة إلى تينمل . زيارته لقبر المهدي وقبر أبيه . قصيدة في مناقب المهدي ومحة دعوته . توسيع مدينة مراكش . ثورة عرب سليم وهزيمتهم للسيد أبي الحسين وأسرهم . حوادث أخرى .

لم تمض أسابيع قلائل على استقرار الخليفة أبي يعقوب بمراكش ، حتى ظهر الوباء بالمدينة في أول شهر ذي القعدة (سنة ٥٧١ هـ) واشتد حتى بلغت ضحاياه كل يوم نحو مائتي شخص ، ولما ضاق الجامع بالصلاة على الموتى ، أمر الخليفة أن يُصلّى عليهم بسائر المساجد . وأصيب معظم السادات بالوباء ، ومات منهم أربعة من إخوة الخليفة هم السيد أبو عمران ، ثم أخوه السيد أبو سعيد ، فأخوهما السيد أبو عبد الله ، ثم أخوه السيد أبو زكريا وإلى يجاية . ومات من أشياخ الموحدين أبو سعيد بن الحسين ، وكان الشيخ أبو حفص عمر المتهنئ قادماً من قرطبة قاصداً إلى مراكش ، فأصيب بالوباء وتوفي بالطريق ، ودفن برباط الفتح ، وفقدت الدولة الموحدية بوفاته ركناً من أهم أركانها ، وبناء من أعظم بناتها ، وقائداً من

أعظم قوادها . ومرض الخليفة ، وأخوه السيد أبو حفص ، وأشرفا على الهلاك ، ولكن تداركتهما العناية حتى شفيا . ويروى ابن صاحب الصلاة عن السيد أبي علي الحسين ولد الخليفة ، أنه كان يموت كل يوم في القصور الملكية ثلاثون شخصاً حتى فنى معظم رجال الحاشية والخدم والعبيد . واستمر هذا الوباء مدى عام ، وساد الروح حاضرة مراکش ، حتى أنه لم يكن يدخلها أو يخرج منها أحد ، وكان كل من خرج منها فاراً ، أدركه الوباء في الطريق . ولم يكن عصف الوباء قاصراً على أهل المغرب ، بل تعدى أثره إلى الأندلس ، ولكن فيما يبدو بصورة مخففة . وكان من أعيان المتوفين به بالمغرب والأندلس غير من تقدم ذكرهم ، القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف قاضي مراکش ، وكان من أعلام عصره زهداً وعدلاً وأدباً ، والكاتب أبو الحكم بن هرودس المالقي ، وأخوه أبو الحسن وكان من جلة الطلبة ، والكاتب أبو الحسن علي بن زيد الإشيلي ، ومشرف غرناطة أبو عمرو بن أفلق ، وجملة كبيرة من أعيان الطلبة والموحدين في مختلف القواعد^(١) .

وما كادت تنقش غمة الوباء حتى وقعت ثورة محلية بين عشائر صنهاجة القبيلة ، وذلك في أواخر سنة ٥٧٢ هـ (أوائل ١١٧٧ م) ، فخرج الخليفة إلى غزوها في الرابع من شهر ذي القعدة ، وترك أخاه السيد أبا حفص بمراكش والياً عليها ، فلما وصل إلى رباط هسكورة في منطقة الأطلس ، جنوب شرق مراکش ، أمر ببناء محلة للعسكر ، وقدم عليهم ابنه السيد أبا يوسف يعقوب ، وعاد إلى مراکش في الحادي والعشرين من ذي القعدة ، ولم تلبث العشائر الثائرة أن أذعنّت وعادت إلى الطاعة ، وانصرف جميع الأجناد^(٢) .

وفي تلك الآونة بدأت حوادث الأندلس تتخذ وجهة خطيرة سواء في الشرق أو الغرب . وكان التهادن والصلح قد عقد بين الخليفة وبين الكونت نونيو دي لارا صاحب طليطلة ، وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وألفونسو هنريكيث ملك البرتغال ، في سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) أثناء إقامته بإشبيلية . ولكن الخليفة ما كاد يغادر شبه الجزيرة عائداً إلى المغرب في شعبان سنة ٥٧١ هـ ، حتى عول النصاري على نقض الهدنة ، واستئناف الغزو . ففي العام التالي ، أعنى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) وهى السنة التى عصف فيها الوباء بمراكش ، خرج ألفونسو الثامن

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٩ و ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٠ .

ملك قشتالة ، ووصيه السابق الكونت نونيو دى لارا ، لغزو الأراضى الإسلامية ، وانجها بقواتهما صوب مدينة قونقة (كونكة) وهى تقع فوق ربوة عالية صعبة المنال عند ملتقى نهري شقر ووقر ، فى شمال شرقى الأندلس ، وهى من حصون ولاية بلنسية الأمامية المنيعه ، وضربا حولها الحصار (يناير سنة ١١٧٧ م) . ويقول ماريانا ، إن قونقة كانت من المدن التى أنشأها المسلمون فى تلك المنطقة ، لأنه لم يرد ذكرها فى سير الرومان والقوط ، وإن ملك أراجون كان مشتركاً فى تلك الحملة ، وقد تحالف مع ملك قشتالة على محاربة المسلمين ، كما اشترك فى الحملة إلى جانب الملكين عدد كبير من القادة ومشاهير الفرسان مثل بيدرو أسقف برغش ، وسانشو صاحب آبله ، وريموندو صاحب بلازنسيا ، وغيرهم^(١) . فبعث أهل قونقة إلى الخليفة بمراكش فى طلب الغوث والتجدة ، فبعث الخليفة إلى ولديه السيد أبى على الحسين وإلى إشبيلية ، والسيد أبى الحسن على وإلى قرطبة ، بأن يتحركا لغزو جهات طليطلة وطلبيرة ، وذلك حتى يرغم القشتاليون على رفع الحصار عن قونقة . فخرج السيد أبو الحسن فى عسكر قرطبة فى اليوم السادس من شوال (أبريل ١١٧٧) ، وأغار على أراضى طليطلة وأثنى فيها ، وارتد بغنائمه سالماً إلى قرطبة . وخرج السيد أبو على الحسين بعسكر لإشبيلية فى أربعة آلاف فارس ، وأربعة آلاف راجل ، وسار شمالاً صوب طلبيرة ، وعاث فى أحوازها ، واستولى على كثير من السبى والغنائم ، وعبر نهر تاجه فى قارب كان قد حمله معه من إشبيلية على أكتاف الرجال ، وفاء لنذر نذره .

على أن هذه الحركة التى نظمها الموحدون لغزو أراضى قشتالة ، لم تؤت ثمرتها فى إيجاد قونقة ، فقد لبث القشتاليون على حصارها ، ولم تصدهم قسوة الشتاء ، ولا مناعة المدينة المحصورة ، ولا ضخامة حاميتها ، عن المضى فى إرهاقها والتضييق عليها . والظاهر من أقوال الرواية النصرانية أن الموحدين قد أرسلوا صوب قونقة بعض أمداد مباشرة لإنجاده ، لكن هذه الأمداد عاقبتها عن الوصول إلى المدينة المحصورة ، قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة . وطال حصار قونقة زهاء تسعة أشهر من أواخر يناير سنة ١١٧٧ حتى أواخر سبتمبر ، وفى النهاية اضطرت المدينة المسلمة ، بعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع ، وبعد أن برح بها الجوع والحرمان إلى التسليم إلى ملك قشتالة ، وذلك فى اليوم

الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١١٧٧ م . وفى الحال حول مسجدتها الجامع إلى كنيسة ، جرياً على القاعدة الماثورة ، ثم جعلت قوتقة بعد ذلك مركزاً لأسقفية . وكان سقوط قوتقة ثغرة خطيرة فى خط الدفاع الشمالى الشرقى الأندلسى ، وكان تقصير الموحدىن أوقصورهم فى إنجادهما وإنقاذها ، ينطوى على خطأ عسكري خطير ، يكشف عن ناحية أخرى من ضعف وسائل الدفاع الموحدى عن شبه الجزيرة الأندلسية^(١) .

وانتهز فرناندو الثانى ملك ليون (البيوج) نفس الفرصة فى الإغارة على الأراضى الإسلامية ، فخرج فى نفس العام بقواته ، وفتحاً فحصى إشبيلية ، ووصل فى سيره حتى أحواز مدينتى أركش وشريش جنوبى إشبيلية . فخرج إليه الموحدون من إشبيلية ، فلحقوا بقوة من النصارى من أهالى منطقة طليعة ، وكانت قد خرجت فيما يبدو للانتقام مما أنزله الموحدون بأراضيهم ، فأحرق بها الموحدون وأبادوها ، واستغنوا ماكان معها من الغنائم والماشية ، وأسروا منها ثمانين ، أخذوا إلى إشبيلية ، وهناك ضربت أعناقهم أمام الخليفة والأشياخ^(٢) .

ووقع فى غربى الأندلس عدوان مماثل ، وحذا ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال حذو زميله ملكى قشتاله وليون ، وقد اعتزم مثلهما أن ينقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة الموحدى . وكانت مدينة باجة هدفه مرة أخرى ، وخصوصاً بعد أن عمرت واستردت رونقها ورخاءها . فسار إليها فى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) ، وانتسف زروعها ، ونازلها أياماً حتى كاد أن يتغلب عليها . ثم تركها وسار بقواته ، نحو الجنوب الشرقى قاصداً وادى إشبيلية ، ووصل فى زحفه إلى ضاحيتها الغربية طريانة ، فلخلها وأنخن فيها ، وعاث فى أحواز إشبيلية ، ثم عاد إلى باجة مرة أخرى فوجدتها خراباً وقد أقفرت من أهلها . وكان أهل باجة فى تلك الأثناء قد أصابهم حنة أخرى ، اضطرتهم إلى الفرار من مدينتهم . وذلك أن واليها عمر بن تيمصلى خرج منها بجندتها وفرسانها ، وانضم إليه على بن وزير حاكم حصن شربة فى قواته ، وأغار على فحصى أبى دانس ، ونشب القتال بينهم وبين النصارى . وفى أثناء ذلك قدمت قوة من نصارى شترين فجأة ، وانضموا

(١) راجع البيان المغرب - القسم الثالث ص ١١٠ و ١١١ . وراجع أيضاً :

M. Lafuente : Historia General de Espana T. III p. 326 & 327

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١١١ .

إلى إخوانهم في مقاتلة الموحدين ، فانهزم ابن تيمصلت وزميله ابن وزير وأسرا مع جملة من الفرسان والرجالة ، وقتل الباقون ، ووصل الخبر إلى أهل باجة فبادروا بالفرار من مدينتهم في الأهل والولد ، وقصدوا إلى مدينة ميرتلة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٥٧٤ (يولييه ١١٧٨ م) وحمل ابن تيمصلت وزميله ابن وزير إلى قلمرية ، وعذب ابن تيمصلت ثم أعدم ، واقتل ابن وزير بأربعة آلاف دينار^(١) .

وتقدم إلينا الرواية البرتغالية قصة هذه الغزوة في صورة أخرى ، فتقول إن الذي قام بغزو وادي إشبيلية هو سانشو ولد ألفونسو هنريكز وولى عهده ، وذلك في سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأنه بعد أن هزم الموحدين في ظاهر طريانة ، سار لغزو مدينة لبلبة ، ولكنه علم عندئذ أن جيشاً موحدياً قد سار لمحاصرة باجة ، فبعث قوة مختارة من فرسانه ردت المهاجمين ، ثم لحق بها بباقي قواته ، وهزم الموحدين مرة أخرى ، وبقيت باجة في حوزة البرتغاليين^(٢) .

وعلى أثر هذه الأحداث المتوالية ، استدعى الخليفة أبو يعقوب أخويه السيدين أبا علي الحسين وإلى إشبيلية ، وأبا الحسن علي وإلى قرطبة إلى حضرة مراکش ، فغادرا إشبيلية في اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ٥٧٣ هـ (٢٧ فبراير ١١٧٨ م) ، ومعهما أبو علي بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين بإشبيلية ، فلما وصلا إلى الحضرة بحث معهما الخليفة طويلاً في شئون الأندلس ، وفيما يجب عمله لمحاربة النصاري ، والدفاع عن أراضي المسلمين . ثم أمرا بالانصراف إلى شبه الجزيرة ، فوصلا إليها في المحرم سنة ٥٧٤ هـ (يونيه ١١٧٨ م) .

وفي نفس هذا العام ، أعنى سنة ٥٧٣ هـ ، قام الخليفة أبو يعقوب بحركة تطهير شاملة بين وزرائه وعماله ، فنكب وزيره أبا العلاء إدريس بن إبراهيم ابن جامع وبنيه ، فقبض عليهم ، واستصفي أموالهم ، ونفاهم إلى مدينة ماردة بالأندلس ، فأقاموا بها في فقر وضعة نحو ستة أعوام ، حتى توفي الخليفة أبو يعقوب ، فعفا عنهم ولده الخليفة أبو يوسف . وكان بنو جامع يتولون وزارة الخليفة الموحدي ، منذ بداية حكمه ، أي منذ خمسة عشر عاماً ، وعيدهم إدريس ابن جامع ، هو ولد إبراهيم بن جامع من أصحاب أهل الدار ، أعنى من قرابة

(١) البيان المغرب ص ١٠٧ و ١٠٨ .

(٢) H. Miranda : Imperio Almohde, T. I. p. 277 & 278

— ٩٩ —

المهدي ابن تومرت ، فلما سما شأنهم ، وتمكن سلطانهم ، طغوا كالعادة وبغوا ، فتكبههم أبو يعقوب ليتخلص من نيرهم . ونكب الخليفة عدة آخرين من العال ، وأعدم بعضهم ، وكان من هؤلاء أبو عبد الله بن المعلم مشرف إشبيلية ، وابن فاخر مشرف بجلجاسة ، وأبو الحسن علي بن حنون ، وغيرهم (١) .

وفي سنة ٥٧٤ هـ ، بعث الخليفة ابني السيد أبي الحسن والي قرطبة ، إلى الأندلس ، فولى أبو زيد نظر غرناطة ، وولى أبو محمد عبد الله نظر مالقة . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفي أخو الخليفة السيد أبو علي الحسن والي إشبيلية ، ثم أخوه السيد أبو العباس بن عبد المؤمن ، وكان والياً لمدينة بجلجاسة . وتوفي من أعلام الدولة الموحدية اثنان كانا من أركان حكومة الخليفة أبي يعقوب ومجلسه ، وهما أبو علي بن عزون عميد زعماء الأندلس ، والفقيه أبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضر بمراكش ، وكان من أقطاب الفقه والحديث والأدب ، وحظي لدى الخليفة عبد المؤمن ، ثم ولده الخليفة أبي يعقوب ، وعلت مكانته في الدولة الموحدية . وكان يتولى رفع المسائل للخليفة ، وتوصيل الرسائل الواردة ، وقراءة كتب الفتنح ، ويتقدم للخطابة والصلاة بأمر المؤمنين ، ويرفع إليه أشعار الشعراء في المناسبات المختلفة ، ويلازم ركب الخليفة في الحركة والغزو ، وكان له أدب بارع ، وشعر جيد ولاسيا في الزهد (٢) .

— ١ —

وفي العام التالي أعنى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) اشتد علوان البرتغاليين في البر والبحر . وكان ألفونسو هنريكز قد نقض الهدنة التي عقدها مع الخليفة ، وقام البرتغاليون بغزو وادي إشبيلية ، ثم مدينة باجة ، حسباً قدمنا ، ثم تفاقم علوانهم تباعاً ، فعندئذ قرر الخليفة أن يقوم الموحدون بمجهود لرد هذا العلوان ، فبعث أسطوله المربط بسبته تحت إمرة غانم بن مردنيش لغزو شواطئ البرتغال ، فسار غانم صوب أشبونة ، وهاجم ثغرها ، واستولى على سفينتين من سفن البرتغاليين ، وعاد بأسطوله إلى سبته . فعندئذ سارت حملة بحرية برتغالية إلى الجنوب وهاجمت شواطئ ولاية الغرب الجنوبية ، واستولت على جزيرة شلطيش ، الواقعة قبالة

(١) المراكشي في المعجب ص ١٣٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

ولبة في مصب نهر أوديل ، وأسرت كثيراً من سكانها المسلمين فبقوا في الأسر حتى اقتادهم الخليفة أبو يعقوب^(١) .

ورأى الخليفة أن ينتقم لهذا الاعتداء ، وأمر لانشغاله بغزوة قفصة التي نتحدث عنها بعد ، بأن يقوم أسطوله بغزو البرتغال مرة أخرى ، فخرج غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء ، في حملة بحرية ، سارت إلى مياه البرتغال الشمالية ، ورسوا عند سان مارتين دى بورتو شمالاً أشبونه ، ونفذ المسلمون إلى الداخل ، وحاولوا مهاجمة « بورتو دى موس » . التي تقع على مقربة من الشاطئ ، ولكن حاكمها البرتغالي الأميرال روينو استنفر لمعاونته أهالي مدينة شنترين ، وألكانينا التي تقع في شمالها ، فهرعوا لإنجاده ، ودبر البرتغاليون كميناً للمسلمين في جبال منديجا ، وانقضوا عليهم ، فزقت صفوفهم ، وأسر غانم وأخوه أبو العلاء ، وجملة من أكابر الموحدين ، واحتوى البرتغاليون على أسلابهم ومتاعهم ، واستولوا على السفن الموحدية وأسروا من كان فيها ، وساروا بها إلى أشبونة . ووقعت هذه الموقعة في منتصف شهر الحرم سنة ٥٧٦ هـ (١١ يونيو سنة ١١٨٠ م) . وكتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة يلتمس الغوث ، فعهد الخليفة إلى أخيه هلال ابن مردنيش بالنظر في فداء أخيه ، فجمع المال اللازم لذلك ، وبعث به إلى إشبيلية ، فحمل إلى النصارى ، وأفرج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه^(٢) ، ولكن سئى أن ابن عذارى ، وهو صاحب هذه الرواية ، يقدم لنا رواية أخرى عن اقتداء غانم وأصحابه .

وحاول البرتغاليون أن يتبعوا نصرهم ، بنصر أكبر ، فحشدوا أسطولاً ضخماً سار بجذاء شاطئ ولاية الغرب بقيادة الأميرال روينو ، وكان مقصد البرتغاليين أن يقوموا بضربة لميناء سبتة مركز الأسطول الموحدي . ولكن قائد أسطول سبتة عبد الله بن جامع ، وهو الذي تولى قيادته منذ أسر غانم ، خرج منها بأسطوله ، وخرج في نفس الوقت أسطول إشبيلية بقيادة أبي العباس الصقلي ، واجتمعت الأساطيل الموحدية بغير قادس ، ثم سارت منه مجتمعة صوب شاطئ البرتغال الجنوبي ، ثم انعطفت لتسير شمالاً بجذاء شاطئ ولاية الغرب ، وكان الأسطول البرتغالي قد بدأ عندئذ سيره نحو الجنوب ، فالتى الفريقان قبالة رأس إسبكل

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٣ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٦ .

جنوبي أشبونة ، وكان من غرائب القدر أن وقع هذا اللقاء في الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٧٧ هـ (أواخر مايو سنة ١١٨١) أعنى لعام بالضبط من اليوم الذى وقعت فيه موقعة « بورتودى موسى » وعلى مقربة من المكان رسا فيه الأسطول الموحدى بقيادة غانم بن مردنيش ، فنشبت بين الأسطولين معركة بحرية عنيفة هزم فيها البرتغاليون شر هزيمة ، وقتل قائدهم الأميرال روينو ، واستولى المسلمون على عشرين سفينة من سفنهم ، وأسروا نحو ألف وثمانمائة أسير ، وغنموا غنائم وفيرة من العتاد والسلاح ، وكان نصراً موحدياً باهراً . وبأمر القائمان الظافران ابن جامع والصقلي ، فسارا إلى الحضرة في الأسرى ، والغنائم وقدماهما إلى أمير المؤمنين ، فأمر بتخصيص بعض الأسرى لافتداء غانم بن مردنيش وأصحابه ، وأمر بإعدام الباقيين^(١) .

وقام القشتاليون في نفس الوقت ببعض الغارات في أراضي الأندلس من ناحية طليطلة ، وأمنحوا فيها كالعادة تخريباً وسيماً ، بيد أن المعركة الرئيسية ، كانت تضطرم بين الموحدين والبرتغاليين . ذلك أنه في نفس الوقت الذى وقعت فيه المعارك البحرية السالفة الذكر بين الفريقين ، كان الموحدون يغزون أراضي البرتغال الداخلية ، ففي فاتحة سنة ٥٧٧ هـ ، خرجت من إشبيلية ، حملة موحدية قوية بقيادة أبي عبد الله محمد بن وانودين الهنتاقي ، وسارت نحو الشمال الغربي صوب مدينة يابرة وعاثوا في أحوازها ، وانتسفوا الزروع والكروم والثمار والأشجار ، واستاقوا كثيراً من الماشية ، وامتنع البرتغاليون داخل المدينة ، والمسلمون يشخون في كل ناحية من نواحيها . وفي ذات يوم خرج البرتغاليون من يابرة فجأة ، واشتبكوا مع الموحدين في معركة حامية ، فهزموا شر هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، ولجأ الباقون إلى المدينة . فأقام عليها ابن وانودين يومين ثم انصرف عنها ، وهاجم في طريق عودته حصناً آخر للنصارى واستولى عليه ، وسبي رجاله ونساءه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، مثقلاً بالغنائم والأسرى ، وذلك في أواخر شهر محرم سنة ٥٧٧ هـ (يونيه سنة ١١٨١ م)^(٢) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى خرجت حملة برتغالية ، من أهل شنترين ، وعمرت نهر وادى يانه ، وسارت حتى فحص الشرف من أحواز إشبيلية ، فخرج

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ و ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ .

إليهم عسكر إشبيلية ، ونشب بينهما قتال عنيف قتل فيه من النصارى مائة وسبعون ، ولكن البرتغاليين كانوا قد رتبوا كميناً ، فخرج كمينهم واشترك في المعركة ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة . وأغار القشتاليون في نفس الوقت على مدينة إستجة وعلى أراضى قرطبة . ثم انصرفوا دون قتال ولا مقاومة ، وأحيط الخليفة بمراكش علماً بما حدث^(١) .

وفي العام التالي ، أعنى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) تفاقم عدوان البرتغاليين على أراضى الأندلس . فخرجت حملة برتغالية قوية قوامها فرسان شترين ، وأشبونة ، وعبرت نهر وادى يانه ، واجتاحت الشرف جنوبى لإشبيلية ، حتى وصلت إلى مدينة شلوة^(٢) ، على مصب الوادى الكبير ، فنزلتها في ألف فارس وألف راجل ، واقتحمها ، وقتلت من كان بها من المسلمين ، واحتوت على كثير من الأسرى والغنائم ، ثم استولت على حصن القصر^(٣) وغيره من حصون تلك الناحية ، وعادت من طريق لبلة ، دون أن يقف في سبيلها أحد . وتفاقم في نفس الوقت عدوان القشتاليين ، فخرج ألفونسو الثامن أو أذفنش الصغير كما تسميه الرواية الإسلامية في قواته ، وسار أولاً صوب قرطبة ، وعسكر في ظاهرها ، وذلك في الرابع من شهر صفر ، ثم بعث طوائف من قواته سارت نحو مالقة ، ورندة ، وغرناطة ، فساد الاضطراب في تلك القواعد الأندلسية ، وارتفعت الأسعار ، واشتد الضيق . واجتمع مجهود الموحدين الدفاعى حول إشبيلية ، والتحوط لحمايتها ، فوجه قائدها أبو عبد الله بن وانودين قواته إلى الأنحاء المجاورة ، وتعزيزها ، ووجه بعض عسكره إلى دفع القشتاليين عن فحوص قرمونة ، كل ذلك والقشتاليون يتخنون في الأراضى الواقعة بين قرطبة وإشبيلية ، دون أن يردهم أحد ، ثم سار ألفونسو الثامن إلى منازل مدينة إستجة ، وكاد يتغلب عليها ، ولكن واليها أبا محمد بن طاع الله الكرمى استطاع أن يصمد فيها . فغادرها ألفونسو صوب إشبيلية ، وهو يعيث في تلك المنطقة فساداً وتدميراً . وفي خلال ذلك تغلب القشتاليون الزاحفون نحو الجنوب على بعض حصون رندة ، وأسروا فيه ألفاً وأربعمائة من المسلمين ، وانتسفوا الزروع

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) وهى بالإسبانية سان لوكار Sanlúcar la Mayor

(٣) وهو بالإسبانية Aznalcázar

فى أراضى رندة والجزيرة ، واستولوا على مقادير عظيمة من الغنائم من الماشية وغيرها .

وكان استيلاء ألفونسو الثامن على حصن شنتفيلة^(١) أخطر ما حققه القشتاليون فى تلك الغزوة . وكان من أمنع حصون المنطقة الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، يقع فوق ربوة عالية وله أسوار منيعة ، فاستولى عليه القشتاليون فى السابع عشر من صفر (٢٢ يونيه ١١٨٢ م) وأسروا من كان به من المسلمين ، وعددهم سبعمائة بن رجال ونساء ، فافتداهم أهل إشبيلية بمبلغ ألفين وسبعمائة وخمسة وسبعين ديناراً ، جمعت من الناس بالمسجد الجامع . وعنى ألفونسو الثامن بتقوية الحصن ، ومضاعفة أهباته الدفاعية ، ووضع به حامية من خمسمائة فارس وألف رجل ، وأسكنه بالنصارى وشحنه بالآلات والعدد والسلاح ، ويروى أنه قال ، حين الاستيلاء على هذا الحصن : « الآن آخذ قرطبة وإشبيلية » . وأقلع ملك قشتالة بعد ذلك فى قواته عائداً إلى بلاده ، وذلك فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٧٨ هـ (١٧ يوليه ١١٨٢ م) بعد أن قضى فى غزوته خمسة وأربعين يوماً^(٢) .

وأدرك الموحدون خطورة فقد حصن شنتفيلة ، فقرروا العمل على استرداده . واستدعى السيد أبو إسحق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، الحشود من سائر أنحاء الأندلس يرسم الجهاد ، وخرج فى قواته فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٧٨ هـ . وحدث فى نفس الوقت أن خرجت حامية شنتفيلة النصرانية لتغير على بعض الأنحاء المجاورة ، فخرج إليها المسلمون من قرمونة وغيرها ، وقتلوا وهزموها ، وقتلوا منها سبعين فارساً ، وأسروا جملة أخرى ، واستاقوا الأسرى إلى السيد أبى إسحاق فأمر بإعدادهم فى الطريق . وشجع هذا النصر المحلى ، الموحدون على منازل حصن شنتفيلة ، فطوقوه من كل ناحية ، وأحكموا حصاره ، وقطعوا عنه المؤن والعلوفات ، واستمر الحصار ستة وأربعين يوماً حتى مات أكثر الجند والبواب ، وفى خلال ذلك خرج ألفونسو الثامن فى قواته من طلبيلة قاصداً لإنقاذ الحصن المحصور ، ووصل نبأ مقدمه إلى الموحدون فى السادس من جمادى الأولى ، فرفعوا الحصار ، وانصرفوا عائدين إلى إشبيلية . وعلى أثر ذلك وصل ألفونسو الثامن إلى الحصن فلم يجلبه سوى خمسين فارساً ، هم البقية من حاميته الخمسمائة ، ومن

(١) وهو بالإسبانية Santafile

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٩

الرجال ستمائة من ألف ، وقد هلك الباقون من أثر الحصار والمرض والوباء ، فأمر بإخلاء الحصن ، والرحيل عنه وذلك في الخامس عشر من جمادى الثانية (١٦ سبتمبر سنة ١١٨٢ م)^(١) .

وما كادت تنهى غزوة شنتيلة ، حتى قرر الموحدون استئناف الغزو ، واهتم أبو عبد الله بن وانودين بحشد الجند ، فاجتمع منهم بإشبيلية عدد جم ، وفي الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ (٩ سبتمبر ١١٨٢ م) ، غادر لإشبيلية في عسكره ومعه أشياخ الموحدين وأشياخ الأندلس ، وسلك طريقاً منعرجة حتى وصل إلى حصن بته ، وهناك ميز عسكره ، وعقد الأشياخ مجلساً للشورى ، تقرر فيه السير إلى غزو مدينة طليبرة الواقعة غربي طليطلة على نهر التاجه ، وهى أولى مدن الحدود القشتالية . ومن ثم فقد اتجه الجيش الموحدى نحو الشمال ، وعبر جبال الشارات (سيرا مورينا) ثم نهر وادى يانه ، وكان الجو قائماً ملبداً بالضباب ، فسار حتى أضحى على مقربة من طليبرة دون أن يفتن النصارى إلى مقدمه ، وهناك التى الموحدون بسرية من النصارى فى نحو عشرين فارساً ، فأحذقوا بهم وأسروهم جميعاً إلا دليلهم فإنه نجح فى الفرار . ولما أشرف الموحدون على وادى التاجه ، لم يجدوا أمامهم مغنا ، فعلموا أن الدليل الفارق قد أخطر بمقدمهم ، فأسرعوا السير حتى وصلوا إلى ظاهر طليبرة ، وذلك فى منتصف جمادى الآخرة .

وفى اليوم التالى احتل الموحدون ربوة مرتفعة تقع على نحو ميل من المدينة ، وضربوا مخيمهم بها . ودهش النصارى لإقدام المسلمين على دخول بلادهم على هذا النحو ، بعد أن مضت مدة طويلة لم يجرؤ أحد منهم على الظهور فى تلك المنطقة ، وفى الحال حشدوا قواتهم واستنجدوا بأهل الحصون المجاورة ، وخرجوا لقتال الموحدين ، وكان الموحدون خلال ذلك قد غادروا الربوة متصرفين ، بعد ما امتلأت أيديهم من الغنائم ، فجدد النصارى فى اتباعهم مصممين على قتالهم ، ولما أصبح الموحدون على قيد نحو ثمانية أميال من المدينة ، توقفوا وراء أحد التلال واستعدوا للقاء النصارى ، وابن وانودين يحثهم على الجهاد والتفانى ، إذ هم فى أراضى العدو بعيدين عن بلادهم . ثم نشبت المعركة المرتقبة بين الفريقين فثبتت الموحدون ، وحملوا على القشتاليين حملة صادقة ، هزموا على أثرها ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

— ١٠٥ —

ومزقت صفوفهم ، وولوا الأدبار ، وقتل منهم حسباً تقول الرواية الإسلامية أكثر من عشرة آلاف بين فارس وراجل ، واستولى المسلمون على عتادهم ، ودوابهم ، وعاد الموحدون إلى إشبيلية ظافرين مغتبطين ، وبعث ابن وانودين إلى الخليفة بكتاب الفتح ، فسر به ، ولكنه أبدى غضبه على ولده السيد أبي إسحاق لأنه لم يحضر تلك الغزوة التي نسبت برمتها إلى ابن وانودين ، مع أنه من جملة قواده ، وعاقب كل من تخلف من الأجناد ، وحرّمهم من العطاء .

ومن جهة أخرى فإنه يبدو من رد الخليفة على ابن وانودين ، وقوله في خطابه إليه « وما رميت لإذ رميت ولكن الله رمى » . يبدو من ذلك أن الخليفة قد غص بالانتصارات المتوالية التي أحرزها ابن وانودين ، دون بقية الأشياخ والسادة . وكان أبو عبد الله محمد بن وانودين هذا ، هو ولد أبي يعقوب يوسف ابن وانودين الهنتاقي من كبار أهل خمسين ، وقد نشأ في مهاد العلم ، ونظمه الخليفة عبد المؤمن في مجلسه ، وقربه إليه ، ثم قدمه على العسكر وولاه القيادة وصحبه في سائر غزواته في إفريقية . ولما أوفد إلى الأندلس ظهر في محاربة ابن مردنيش ثم في هزيمته لنصارى شتيرين ، وفي قيادة قافلة الميرة إلى بطليوس ، ثم في رد القشتاليين عن قرمونة ، وأخيراً في غزوة طليعة . ومع ذلك كله فسرعان ما غضب عليه الخليفة لأتفه الأسباب ، وذلك عند مقدمه إلى إشبيلية في العام التالي ، حيث وشى في حقه الوشاة ، فأمر بتغريبه إلى غافق ، على مقربة من قلعة رباح ، فلبث بها حيناً ، ثم نزع إلى تونس واستقر بها^(١) .

— ٢ —

نرجع الآن قليلاً إلى الوراء لنستعرض ما حدث في المغرب في تلك الأعوام القلائل التي اشتد فيها عدوان القشتاليين والبرتغاليين على الأندلس ، والتي شغل فيها الخليفة بالأحداث الداخلية عن تجديد حركة الجهاد .

وكان من أهم الأحداث الداخلية ، في تلك الفترة ، وفاة السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن أخى الخليفة أبي يعقوب ، وكان أبو حفص شقيقه وكبيره ، وأمهما حسباً تقدم حرة هي زينب بنت القاضي موسى بن سليمان الضرير ، من أصحاب خمسين ، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ (أغسطس

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥ .

(١١٧٩ م) ، وكان أبو حفص ، منذ أيام أبيه الخليفة عبد المؤمن يشغل مكانة ملحوظة في الدولة الموحدية ، وقد تولى في فتوته ولاية تلمسان ، ثم وزر لأبيه بعد مصرع وزيره عبد السلام الكومي . ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ ، بشعر سلا ، قام السيد أبو حفص مع الشيخ عمر بن يحيى الهستاني كبير الأشياخ بتنظيم البيعة لأخيه الأصغر أبي يعقوب يوسف ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ثم تولى له في البداية منصب الحجابة على نحو ما كان لأبيه . واضطلع السيد أبو حفص بأعظم قسط في حملة شرق الأندلس ، وفي الأعمال الحربية التي انتهت بتحطيم مملكة الشرق ، وانتهاء ثورة ابن مردنيش ، وكان على العموم يحتل في دولة أخيه الخليفة أبي يعقوب أعظم مكانة ، وفي تدبير الأمور والبث فيها أعظم نصيب .

وفي نفس هذا العام أعنى سنة ٥٧٥ هـ وقعت الثورة بمدينة قفصة الواقعة جنوبي القيروان على مشارف الصحراء . وكانت قفصة مذ ضعفت دولة بني باديس الصنهاجين بإفريقية ، منزل إمارة محلية في ظل بني الرند ، وعيدهم عبد الله ابن محمد بن الرند ، فاستقل بقفصة ، وقوى أمره تبعاً ، ويسط سلطانه على عدة من البلاد المجاورة حتى قسنطينة ، ثم خلفه في الإمارة ولده المعتز ، ثم حافده يحيى بن تميم بن المعتز . ولما قام عبد المؤمن في سنة ٥٥٤ هـ بغزوته لإفريقية ، استولى على قفصة ، ونقل بني الرند إلى بجاية ، وعين لقفصة والياً موحداً . وكان والى قفصة الموحدى حينما وقعت الثورة ، عمران بن موسى الصنهاجي ، وكان قد أساء السيرة ، ووقع الاضطراب بالمدينة ، فبعث لقيف من أهلها إلى بجاية في دعوة علي بن عبدالعزيز بن الرند المعروف بالطويل ، فقدم إليهم ، واضطربت الثورة ، وقتل عمران بن موسى ، واستبد ابن الرند بالمدينة ، وكان يشجعه في ثورته ، ويحرض العرب للانضمام إليه قريبه القائد علي بن المنتصر من بجاية^(١) .

فلما نمت هذه الأنباء إلى الخليفة أبي يعقوب ، اعتزم السير بنفسه إلى إفريقية ، فخرج في قواته من مراكش في الخامس عشر من شوال سنة ٥٧٥ هـ (مارس سنة ١١٨٠ م) ، ويروى لنا ابن صاحب الصلاة ، أن البركة الدورية التي كانت تعطى للعسكر في تلك الغزوة كانت تبلغ في كل مرة ألف ألف دينار ، سوى العلوفات والمرافق ، مما يدل على ضخامة الجيش الذي حشد^(٢) ، واستمر الخليفة

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٦ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

في سيره وثيداً ، واحتفل في الطريق بعيد الأضحى ، وقدم ولده السيد أبا يوسف يعقوب على مقدمة الجيش ، فسقه إلى تلمسان . ووصل الخليفة في قواته إلى تلمسان في أوائل سنة ٥٧٦ هـ ، ولما كملت أهبة الجيش وتعبته ، خرج من تلمسان في الثاني عشر من شهر صفر ، متجهاً إلى إفريقية ، فلما وصل إلى بجاية نزل بها . وتحقق لديه أن القائد على بن المنتصر متواطئ مع قريبه الثائر بقفصة ، وأنه يوالى تحريضه على الاستمرار في الثورة ، ويوالى تحريض العرب لتأييده ، وضبطت بمنزله رسائل تؤيد ذلك ، فقبض عليه ، وأحيط بسائر أمواله . ثم سار الخليفة من بجاية ، فلما قرب من قفصة ، بادر أشياخ العرب من رياح إلى المثلول لديه ، وتأكيد ولائهم وطاعتهم . وضرب الخليفة الحصار حول قفصة وضربها بالحجانيق ، حتى اضطر على بن الرند إلى الإذعان والتسليم ، أو التوحيد وفقاً لقول البيهقي ، ثم ارتد إلى تونس وفقاً لرواية أخرى ، واحتل الموحدون قفصة وذلك في رمضان سنة ٥٧٦ هـ (فبراير ١١٨١م) وعقد الخليفة بولاية إفريقية والزاب لأخيه السيد على أبي الحسين ، وبولاية بجاية أو ولاية القيروان على قول آخر لأخيه السيد أبي موسى^(١) .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لتجديد مساعيه في استمالة العرب الذين ينزلون بهذه الأنحاء من إفريقية وترغيبهم في الجهاد بالأندلس . وقد شرح لنا هذه المساعي في رسالة الفتح التي وجهها إلى الموحدين بقرطبة . وذلك أنه لما اجتمع لديه أشياخ قبائل رياح وكبرائهم من جميع الأنحاء ، ذكروا بما كان لأسلافهم من فضل سابغ في نصرة الدين ، وأنه يجدر بهم أن يحلوا حذو أسلافهم في الاضطلاع بتلك المهمة الجليلة ، وأن خير ما يصنعونه في ذلك هو المساهمة في الجهاد بالأندلس ، وغزو التصاري بها ، سيما وقد تفاقم عدوانهم في الآونة الأخيرة ، وأن أولئك الأشياخ أبدوا أنهم على أتم أهبة للاستجابة إلى هذه الدعوة ، وأن قبائل رياح كلها ، وبطونها وأفخاذها ، أبدوا جميعاً أنهم يقبلونها بقلوب خالصة ، ونيات صافية ، وأنهم أخذوا بالفعل في الحركة والاحتشاد ، كل طائفة صوب الطريق التي تفضلها وتراها أيسر لمجازها ، وتوالت جموعهم حتى امتلأت بها تلك البطاح والسهول . وكان ممن حضر ذلك الجمع الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام ، فلما وقع العزم على الاستجابة ، أخذ في الرحيل بأهله وولده وكل من تبعه من

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، وكتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٥ ، والمعجب للمراكش ص ١٤١ ، ١٤٢ .

قومه ، وبادر الجميع بالامتثال والرحيل ، مبايعين ربهم على الجهاد في سبيله .
وينوه الخليفة في رسالته ، بأنه كان من أثر هذه الحركة أنه لم يبق بإفريقية من طوائف
العرب ، سوى من نزل من قبائل سليم بجبهات طرابلس وما وراءها مشرقاً نحو
برقة والإسكندرية ، وأن هؤلاء قد خوطبوا أيضاً بما خوطب به زملاؤهم ،
وكتبوا ، وبذلت لهم أطيب الوعود ، وأنذروا في نفس الوقت ، أملاً في استمالتهم
واستجلابهم إلى مشاركة إخوانهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى خطة السياسة الموحدية في استمال القبائل العربية
النازلة بإفريقية وحشدتها في الجيوش الموحدية ، وهي الخطة التي وضعها الخليفة
عبد المؤمن منذ افتتاحه لثغر المهديّة في سنة ٥٥٥ هـ ، وتابعها ولده الخليفة أبو يعقوب
وضاعف اهتمامه بتنفيذها حسبما سبق أن فصلناه . وقد كان للسياسة الموحدية من
تحقيق هذه الخطة هدف مزدوج أشارت إليه رسالة الفتح المتقدمة الذكر ، وهو
أولا تخليص إفريقية من طوائف العرب النازلة بها ، وكف أيديهم عنها ، وذلك
لما كان من استغلالهم عليها ، وتخريبهم لربوعها ومدنها ، وثانيا لاستنفارهم إلى
الجهاد والاستعانة بهم في تدعيم الجيوش الموحدية المرسلّة إلى الغزو بالأندلس .
وقد استطاع الخليفة أبو يعقوب أن يحشد بالفعل منهم حشوداً عظيمة عبرت معه
إلى الأندلس ، واشتركت مع الجيوش الموحدية في غزوة وبذة وفي محاربة النصارى
في مختلف الميادين في شبه الجزيرة . ولما أراد أبو يعقوب العودة إلى المغرب في
سنة ٥٧١ هـ ، فرق العرب الباقيين في مختلف القواعد ، فأُنزل بعضهم في نواحي
قرطبة ، وبعضهم في نواحي إشبيلية الحنوية ، مما يلي مدينة شريش وأعمالها .

بيد أن السياسة الموحدية لم تجن خيراً من هذه الخطة في استمال العرب وحشدتهم
إلى جانبها ، وذلك لما كانوا يسمعون به من حب التقلب ، ومجانبة الولاء ، والسعي
إلى اجتئاء المغامر المادية بأي الوسائل . وسوف نرى فيما بعد ، كيف انقلبوا إلى
محاربة الدولة الموحدية ، وغدوا من أخطر خصومها في منطقة إفريقية^(١) .

وحدث أيضاً أثناء وجود الخليفة بإفريقية ، أن وفدت إليه رسل ملك صقلية ،
النورمانى ، وهو يومئذ وليم الطيب ، يطلب الصلح والمهادنة ، وكان ملوك صقلية

(١) راجع رسالة الخليفة أبي يعقوب المتضمنة لشرح مساعيه في حشد العرب في كتاب «مجموع
رسائل موحدية» . الرسالة السادسة والعشرون ص ١٤٩ - ١٥٧ ، وراجع أيضاً كتاب المعجب
للمراكشي ص ١٢٤ و ١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ .

منذ استرد منهم عبد المؤمن ثغر المهديّة ، وقضى على سلطانهم في شواطئ إفريقيا قبل ذلك بعشرين عاما ، يخشون بأس الدولة الموحدية ، ويؤثرون السلم معها . ويقول لنا صاحب المعجب إن ملك صقلية عقد الصلح مع الخليفة على أن يحمل إليه إتاوة سنوية اتفق عليها ، وأنه أرسل إلى الخليفة تحفاً و ذخائر نفيسة منها حجر ياقوت يسمى « الحافر » لاستدارته بمثل حافر الفرس ، وقد وضع في تابوت مصحف عثمان ، الذي كان يبالغ الموحدون في تكريمه^(١).

وعلى أثر افتتاح قفصة ارتحل الخليفة إلى تونس ، وكتب من هنالك برسالة الفتح إلى حضرة مراکش ، وإلى الأندلس - إلى إشبيلية وقرطبة - وبعث مع الرسالة بقصيدة طويلة من نظم طييه العلامة الفيلسوف أبي بكر بن طفيل ، يشيد فيها بالفتح ، وبالحيش الموحدى ، وقد جاء في أولها :

ولما انقضى الفتح الذى كان يرتجى أصبح حزب الله أغلب غالب
وساعدنا التوفيق حتى تبينت مقاصدنا مشروحة بالعواقب
وأنجزنا وعد من الله صادق كفى بإبطال الظنون الكواذب
وهبوا كما هب النسيم إذا سرى ولم يتركوا بالشرق علقه آيب
وأذعن من عليا هلال بن عامر أبى ولجى الأمر كل مجانب
يغص بهم عرض القيافى وطولها وقد زحوا الآفاق من كل جانب

ولما وصل كتاب الفتح ، وقصيدة ابن طفيل ، إلى السيد أبي إسحاق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، عم البشر والسرور ، ومثل لديه أشياخ إشبيلية للتهنئة ، وخطب بين يديه الفقيه ابن الحد ، وأنشد أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة صاحب تاريخ « المن بالإمامة » قصيدة جاء فيها :

خير البشائر صوغت حمل المنى بقول خير خليفة وإمام
وافت كما ابتسم الأمان لحائف وانهل أثر المحل سكب غمام^(٢)

ثم قفل الخليفة عائداً إلى حضرة مراکش ، فوصل إليها في شهر صفر سنة ٥٧٧ هـ ، وعلى أثر وصوله ، سارت وفود الأندلس إلى العدو لتهنئته ، يتقدمهم ولده السيد أبو إسحاق وإلى إشبيلية ، وابن وانودين وغيره من أشياخ الموحدين ،

(١) المراكشى في المعجب ص ١٤٢ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٥ .

وقدمت كذلك وفود قرطبة وغرناطة ومرسية لغرض التهئة ، وأقامت هذه الوفود بالحضرة إلى أواخر العام ، ثم انصرفت عائدة إلى بلادها .

وفي خلال ذلك علم الخليفة أن طائفة من أهل جبل السوس الواقع على مقربة من بلاد هرغة وهي قبيلة المهدي ابن تومرت ، قد استولوا لأنفسهم على ما تحصل من معدن الفضة الذي يستخرج من ذلك الجبل ، وذلك بطريق الاغتصاب من عمال المنجم الخاص بذلك ، فخرج الخليفة في بعض عسكره من مراكش في أول صفر سنة ٥٧٨ هـ ، ولما وصل إلى الجبل المذكور ، أمر ببناء حصن عليه ، ووضع به حامية ، ثم سار من هنالك إلى تينملل فزار قبر المهدي وقبر والده ، الخليفة عبد المؤمن ، وكان معه وفد من أهل إشبيلية قدم لزيارته بالحضرة قبل ذلك بقليل ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة وقد كان ضمن هذا الوفد ، إنه زار القبرين بصحبة أبي بكر بن زهر ، وأبي الوليد ابن رشد ، وأن الخليفة زار فضلاً عن القبرين الغار الذي في جبل إيجليز حيث كان يتعبد المهدي والمسمى برابطة الغار ، والرابطة الأخرى المسماة رابطة وانسري ، وكان الناس يأخذون التراب منها للتبرك ويجعلونه على المرضى . وأمر الخليفة بهذه المناسبة ، أن ينظم الشعراء قصائدهم في رثاء المهدي ورثاء أبيه ، وأن يذكروا مناقبهما ومآثرهما ، وأغدق عليهم صلاته الكثيرة (١) . وكان مما قيل بهذه المناسبة ، في ذكر مناقب المهدي ، وشرح أسطوريته ، والإشادة برسائله ، قصيدة نظمها شاعر من أهل الجزائر ، وقد على أبي يعقوب تينملل ، وأثشد قصيدته على قبر المهدي ابن تومرت بمحضر من الخليفة وشيوخ الموحدين ، وإليك بعض ما ورد فيها :

سلام على قبر الإمام المجدد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه	وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحبي علوم الدين بعد مماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أنتنا به البشرى بأن علاء الدنيا	بقسط وعدل في الأنام مخلد
ويفتح الأمصار شرقاً ومغرباً	ويملك عرباً من مغير ومنجد
فن وصفه أقنى وأجلى وإنه	علاماته خمس تبين لمهتدى
زمان واسم المكان ونسبة	وفعل له في عصمة وتأيد

وتتبعه للنصر طائفة المهدي
هي الثالثة المذكور في الذكر أمرها
بهم يجمع الله الجبابرة الأولى
ويقطع أيام الجبابرة التي
فيغزون أعراب الجزيرة عنوة
ويفتتحون الروم فتح غنيمة
وينغدون للدجال يغزونه ضحاً
وينزل عيسى فيهم وأميرهم
يصلي بهم ذاك الأمير صلاتهم
فيمسح بالكفين منه وجوههم
وما أن يزال الأمر فيه وفيهم
فأبلغ أمير المؤمنين تحية
عليه سلام الله مادر شارق

فأكرم بهم إخوان ذى الصدق أحمد
وطائفة المهدي بالحق تهتدي
يصدون عن حكم من الحق مرشد
أبادت من الإسلام كل مشيد
ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويعرون منها فارساً وكأن قد
يلدقونه حد الحسام المهند
لإمام فيدعوهم لمحراب مسجد
بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
وتخبرهم حقاً بغز مجدد
إلى آخر الدهر الطويل المرمد
على التأني مني والوداد المؤكد
وما صدر الوارد عن ورد مورد

وقيل إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر لإلقائها بنفسه، للكبر وبعداً لشقة، وأنه أرسل بها فأنشدت باسمه على قبر الإمام ، وكان نظمه إياها أيام حياة الخليفة عبدالمؤمن^(١).

وفي العام التالي ، أعني في سنة ٥٧٩ هـ ، كانت توسعة مدينة مراکش . وكانت العاصمة الموحدية ، قد بدأت تضيق بسكانها الذين هرعوا إلى استيطانها من كل صوب ، وبالرغم مما أقيم بها منذ أيام الخليفة عبد المؤمن ، من الأحياء الكبيرة والدور العديدة الفخمة لسكنى رجال البلاط ، وعلية القوم ، والوافدين إليها من مختلف أنحاء المغرب والأندلس ، فإنها أضحت قاصرة عن أن تستوعب سكانها ، وحركة عمراتها الضخمة . وكان الخليفة قد أمر قبائل هسكورة وصنهاجة أن يتركوا بلادهم ، وأن يأتوا إلى العاصمة بأهلهم لسكنائها ، فلما وصلوا إليها لم يجدوا بها متسعاً لنزولهم ، فشكوا إلى الخليفة أمرهم . فعندئذ رأى الخليفة أنه لا بد من العمل على توسعة المدينة ، وعهد إلى ولده وولى عهده السيد أبي يوسف

(١) راجع المعجب ص ١٠٤ - ١٠٦ حيث يورد هذه القصيدة وقصتها ، وينفرد المراكشي بذلك بين المصادر الموحدية .

يعقوب بتلك المهمة ، فركب في يوم أول ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين لينظروا خير موقع يصلح لتحقيق هذه الرغبة ، فانفق رأيهم على زيادة المدينة من الجهة القبلية ، بإنشاء مدينة جديدة متصلة بها من هذه الناحية ، ووافق الخليفة على هذا المشروع ، وقام العبيد والرجال بهدم سور المدينة من جهة باب الشريعة ، ووضعت خطط المدينة الجديدة في يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، واتصل بناء السور حول المواقع الجديدة ، وبناء باب الشريعة أربعين يوماً ، حتى كمل ، وبدأ لإنشاء الدور والرباع بسرعة في هذا القطاع الجديد من العاصمة الموحدية^(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بإفريقية حادث مكرر . ذلك أن طوائف العرب من بني سليم ثاروا على مقربة من مدينة قابس ، فسار أبو الحسن على ابن الخليفة ووالى تونس لقتالهم ، ودامت الحرب بينهم أياماً ، ثم أمر القرسان الموحدون من أهل الرايات أن ينتقلوا من موضعهم إلى جبل قريب يسمى جبل كسرى ، فظن أن هذا الانتقال بسبب الهزيمة ، فتركوا عتادهم وفروا منهزمين دون قتال ، فلجأ السيد ومن معه إلى الجبل ، ولكنهم لم يجدوا به ماء ، فلما اشتد بهم العطش كروا على العرب دفعة واحدة ، فهزمهم العرب ، وأحدقوا بهم وأسروا السيد وأصحابه . (جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ) . ولما علم الخليفة بذلك قرر في الحال غزو بني سليم والانتقام منهم ، ولكن لم تمض بعد ذلك سوى أيام قلائل حتى ورد الخبر بأن السيد وأصحابه قد أطلق سراحهم لقاء ما دفعوا من المال ، وأنهم وصلوا سالمين إلى تونس^(٢) .

ومن حوادث هذا العام أيضاً نكبة الخليفة لأبي زكريا بن حيون شيخ قبيلة كومية وابنه على الذي كان مشرفاً على تلمسان ، وقبض على أبي زكريا وحوسب مدة ، ثم نفي إلى بطليوس بالأندلس ، وبقي ابنه على في السجن ، حتى خرج الخليفة إلى الغزو ، فأمر بأن يحمل معه مصفداً ، ولكنه استطاع الفرار أثناء السير . ومنها فرار الداعية على بن محمد بن رزين المعروف بالجزيري من مراکش ، وكان على مذهب الخوارج الأزارقة يقول بتكفير جميع المسلمين ، وتبعه قوم من البربر يقرأون عليه مذهبه ، وشاع خبره ، وعندئذ خشي بطش ولاية الأمر . ففر من المدينة واختفى حيناً ، حتى قبض عليه فيما بعد وقتل أيام الخليفة المنصور .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٦ (٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٧

الفصل الخامس

غزوة شنترين

ومصرع الخليفة أبي يعقوب يوسف

استعداد الخليفة للجهاد بالأندلس. ولادة الأندلس وقضائها الجدد. قسمة السلاح والعتاد. سير الخليفة إلى رباط القنح. الاتفاق على توجيه الحملة إلى الأندلس. سير الخليفة إلى مكانة، ثم إلى قاس. تعيين السيد أبي حفص لقيادة العرب، وبعض السادات لقيادة الموحدين. سير الخليفة إلى سبته. جواز قبائل العرب لقبائل البربر ثم الموحدين إلى شبه الجزيرة. عبور الخليفة ومسيره إلى إشبيلية. أقوال ابن صاحب الصلاة. اختيار مدينة شنترين هدفاً للزوة المنشودة. حكمة هذا الاختيار وبواعثه. منشآت الخليفة بإشبيلية. خروج الخليفة في قواته إلى بطليوس. تحالف ملكي قشتالة وليون ضد الموحدين. ملك ليون يحاصر قاصرش. الرواية النصرانية عن غلة الموحدين. رفع الحصار عن قاصرش. مسير الموحدين إلى شنترين. عدد الجيش الموحدى. شنترين وموقعها. أشبوة هدف الزوة الموحدة. محاصرة الموحدين لشنترين. اقتحامهم للربض الخارجى. اعتصام التصارى بالقصبة. المارك بين الموحدين والبرتغاليين. أمر الخليفة بالكف عن القتال. تحول الجيش الموحدى من موقعه. صدور الأمر بالرحيل. غموض بواعث هذا الأمر. رواية في تعليقه. رواية أخرى في شرح ماحدث في المعسكر الموحدى. شرح الرواية النصرانية لأسباب الانسحاب. ماحدث خلال الانسحاب من القوض والاضطراب. مهاجمة التصارى لساقة الجيش المنسحب. وصولهم إلى غلة الخليفة. جرح الخليفة ثم وفاته خلال السير. بعض روايات عن هذا الحادث. رواية أخرى من مرض الخليفة ووفاته. أسباب نكبة الجيش الموحدى. مسير الجيش وكتبان وفاة الخليفة. التوقف في طرش. اجتماع القادة ومبايعة الأمير أبي يوسف يعقوب. الوصول إلى إشبيلية إعلان الوفاة وأخذ البيعة للخليفة. انقضاء النزو والأمر بالرحيل. مسير الركب الخليل إلى طريف. عبوره إلى العدو. المسير إلى رباط القنح. الخليفة أبو يعقوب. حزمه وتقواه وعلمه. حرصه على تنفيذ حكم الشرع. مطاردته للعمال الظلمة. خبرته بشئون المملكة. شغفه بالجهاد. علمه وأدبه. تمكنه من الحديث والفقه واللغة. دراسته لفلسفة والطب. صلته بابن طفيل وابن زهر وابن رشد. كيف وضع ابن رشد شروحه لأرسطو. ابن طفيل سفير الخليفة لدى العلماء. شغف أبي يعقوب بجمع كتب الفلسفة. أثر من آثاره العلمية. كلفه بالمنشآت العمرانية. وزراؤه وقضاته وكتابه. أبنائه وصفته.

كان من الواضح للخليفة أبي يعقوب وأعوانه من أقطاب الموحدين، أن حوادث الأندلس، قد أخذت في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة، تسير نحو اتجاه مكدر، وأن عدوان المالك الإسبانية النصرانية، قد أخذ يشتد ويتفاقم، وأن غزوات البرتغاليين لولاية الغرب، وما أحرزوه من انتصارات في البر

والبحر على القوات الموحدية ، وغزوات ملك قشتالة لموسطة الأندلس وتهديده لقرطبة وإشبيلية ، وتوغل قواته جنوباً حتى غرناطة ومالقة ورندة ، كل ذلك قد كشف عن ضعف الجبهة الدفاعية الموحدية بالأندلس ، وعن قصور القوات الموحدية عن حماية الأندلس ، وصعد عدوان النصارى عنها .

ومن ثم فقد رأى الخليفة أنه لا بد من تنظيم حركة جديدة للجهاد بالأندلس ليقودها بنفسه ، وظهرت بوادر هذه النية منذ أوائل شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٩ هـ ، حينما أمر الخليفة بتميز طوائف الموحدين والعرب والقبائل استعداداً للغزو ، وبصنع عشرة مجانيق جربت بعد صنعها بالرمل أمامه ، في منطقة البحيرة خارج مراكش ، واستمر تميز الجند طوال شهر جمادى الثانية (سبتمبر ١١٨٣ م) . وفي شهر شعبان أصدر الخليفة المراسيم بتولية أربعة من أبنائه قواعد الأندلس الأربعة الرئيسية ، وهم السيد أبو إسحق لولاية إشبيلية كما كان ، والسيد أبو زكريا يحيى لولاية قرطبة ، وذلك تنفيذاً لرغبة القاضي أبي الوليد بن رشد ، والسيد أبوزيد لولاية غرناطة ، والسيد أبو عبد الله لولاية مرسية ، وأمر بسفرهم إلى مقر أعمالهم ، تمهيداً لحركة الغزو . وأصدر أمره في نفس الوقت بتولية أبي المكارم ابن الحسين المصري لقضاء إشبيلية ، وأبي الوليد بن رشد لقضاء قرطبة ، وأبي عبد الله بن الصقر لقضاء غرناطة ، وتحرك الجميع للسفر إلى شبه الجزيرة في السابع والعشرين من شعبان .

وفي منتصف شهر رمضان ، أجريت قسمة السلاح والعتاد ، وخصص خباء لكل عشرة من الفرسان ، ثم أخرجت البركة لسائر الجند من الفرسان والرجالة . وفي يوم السبت الخامس والعشرين من شوال (فبراير ١١٨٤ م) صدرت الأوامر بالحركة ، وركب الخليفة كعادته بعد صلاة الصبح ، وخرج من باب دُكَّالة ، وهو الذي يسلكه إلى الغزو بإفريقية . ويصف لنا صاحب البيان المغرب - والمرجح أنه ينقل عن ابن صاحب الصلاة^(١) - موكب الخليفة ومراحل سيره ، فيقول إنه سار يتقدمه العلم الأبيض مع الرجالة ، كالعادة ، ومعه مصحف عثمان على جبل أبيض مرتفع ، وقد وضع تابوته المرصع بنفيس الجواهر ، وعليه قبة حمراء لصيانتها ، ويليه مصحف المهدي يحمله بغل ، وقد سار بنو الخليفة مع

(١) يدفنا إلى هذا الاستنتاج ما نلاحظه من مطابقة في السرد والوصف لأسلوب ابن صاحب الصلاة ، وورود عبارات كثيرة مسجعة وغيرها مطابقة لما يستعمله ابن صاحب الصلاة في مواطن كثيرة .

إخوته خلفه ، ووصل الخليفة في ركبه الضخم إلى سلا في الثالث عشر من ذى القعدة ، ونزل بمدينة المهديّة (رباط القنح) ، وهناك وفد عليه أبو محمد ابن أبي إسحاق بن جامع قادماً من إفريقية ، فأخبره أن السلام يسودها ، وأن العرب الذين يخشى من شعبهم ، قد فروا من البلاد بأهلهم ، حينما سمعوا بحركة الغزو ، وبذلك أمن شهرهم واستتببت السكينة والأمن .

وفي أثناء ذلك وصل شيوخ العرب المنضمون للحملة بجميع قبائلهم ، فصدر أمر الخليفة بالإتعام عليهم بالكسبي والبركات والصلوات الجزيلة . وتعهد الأشياخ بأن يساهموا في هذه الغزوة بمائة وثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل .

ثم أمر الخليفة باجتماع شيوخ الموحدين والعرب والقادة في مؤتمر عام ، وخرج إليهم ولده أبو يوسف يعقوب ، وأبلغهم أن أمير المؤمنين يطلب رأيهم ويستشيرهم في أمر توجيه هذه الحملة ، هل توجه إلى أفريقية أم توجه إلى الأندلس ، فكان رأيهم بالإجماع أن توجه إلى الأندلس لغزو النصارى والجهاد في سبيل الله ، فأبدى الخليفة ارتياحه لهذا الرأي^(١) . ومعنى ذلك أن الخليفة ، حين خروجه من مراكش لم يكن لديه رأى حاسم في شأن الغزوة التي ينوى القيام بها ، وهذا في ذاته يكشف لنا جانباً من ضعف الخطط العسكرية الموحدية .

وفي اليوم الثامن والعشرين من ذى القعدة ، بدأت العساكر في الجواز على قنطرة سلا ، وفي اليوم الثلاثين غادر الخليفة في موكبه ، رباط القنح إلى مكناسة ، فوصلها في السادس من ذى الحجة ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم غادرها إلى فاس ، وكانت قد ترامت إليه الأنباء عن خيانة مشرقها وعمالها المختلفين ، واختلاساتهم ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، ومصادرة دورهم وأموالهم لحساب « المخزن » ، وألزموا بأن يردوا « للمخزن » أربعمائة ألف وستين ألف دينار ، تعهدوا بأدائها أقساطاً ، ورتب عليهم الرقباء حتى قاموا بأدائها .

وفي الثاني عشر من ذى الحجة ، أمر الخليفة بأن يتقدم العسكر قبيلتنا هتانة وتينملل برسم الجواز إلى الأندلس ، وبأن يتقدم ولده السيد أبو حفص على طوائف العرب ، وأن يشرف على جوازهم إلى الأندلس ، ثم قدم على قبائل الموحدين وحشودهم ، بعض السادات من الأبناء والإخوة ، وكتب إلى الولاة

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ ، وكذلك في روض القرطاس ص ١٢٩ .

بالأندلس أن يستعدوا لاستقبال هذه الحشود المختلفة ، وأن يكونوا هم في جوعهم في هيئة استعداد للجهاد .

وفي يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم سنة ٥٨٠ هـ (٨ أبريل ١١٨٤ م) غادر الخليفة أبو يعقوب مدينة فاس في موكبه ، على الترتيب السابق وصفه ، حتى وصل إلى ثغر سبتة فأقام به بقية شهر المحرم . وأمر في أثناء ذلك ببدء الجواز ، فجازت قبائل العرب أولا ، ثم قبائل زناتة ، فالمصامدة ، فغراوة وصنهاجة وأورية وغيرهم من بطون البربر ، ثم جازت جيوش الموحديين ، فلما كمل جواز الجيش عبر الخليفة فيمن بقي من طوائف العبيد والحرس ، وكان عبوره في الخامس من صفر (١٧ مايو) ونزل بجبل الفتح (جبل طارق) ثم سار منه إلى الجزيرة الخضراء ، ثم إلى إشبيلية عن طريق أركش وشريش ، فوصل إليها في عساكره في اليوم الثالث عشر من صفر (٢٥ مايو) ، وخرج أهل الحاضرة الأندلسية إلى لقائه والسلام عليه ، وفي مقدمتهم قاضيهم ابن الحد . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إنه كان حاضراً في هذا اليوم ، وأنه قام بالسلام على الخليفة مع من تقدم إليه من الطلبة ، وأنه لم يستطع الكلام لشدة الزحام ، وإن الخليفة نزل بقصره داخل حدائقه الواقعة خارج باب قرمونة . وفي اليوم التالي لوصوله أمر بتميز العساكر وتوزيع السلاح والعتاد عليهم . ووزعت ألف فرس من عتاق الخيل على أشياخ الموحديين والعرب وكبار الجند . وأمر قائد الأسطول أبو العباس الصقلي بإعداد سفن الغزو وما يلزمها من الآلات والمعدات . وكانت أجناد الأندلس ، تتلاحق خلال ذلك من أوطانها وقواعدها إلى إشبيلية ، لتنضم إلى جيش الغزو^(١) .

وأقام الخليفة بإشبيلية أسبوعين وهو دائب العناية باستكمال الاستعدادات وتنظيم الحشود ، والنظر في كل ما يلزم للقيام بالغزوة المنشودة ، وضمان نجاحها . أما هدف هذه الغزوة ، فقد استقر الرأي على أن يكون مدينة شنترين البرتغالية . وقد سبق أن أوضحنا أن الخليفة لم يحدد هدف هذه الغزوة منذ البداية بصورة قاطعة ، بل لم تتحدد وجهة الحملة الموحدية إلى شبه الجزيرة الأندلسية إلا حينما وصل الخليفة إلى سلا . ولكن اختيار مدينة شنترين بالذات هدفاً للغزوة الموحدية يرجع إلى أسباب عديدة ، مادية ومعنوية . فقد كانت البرتغال في عهد

(١) نقله البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ص ١٢٢ . وكذلك روض القرطاس ص ١٣٠ .

أبي يعقوب أول مملكة نصرانية في شبه الجزيرة ناصبت الموحدين العدوان ، وكانت مدينة شترين بالذات أهم قواعد هذا العدوان ، فنها خرجت الحملات العدوانية المتتالية التي شنها الفارس المغامر جبرالدو سمبافور على بلاد ولاية الغرب وحصونها في قطاع بطليوس ، وهي ترجاله وقاصرش ، ومتانجش وشربة ، وجلمانية . ثم كانت بعد ذلك قاعدة لمهاجمة ملك البرتغال وجبرالدو سمبافور لمدينة بطليوس ذاتها ، واستيلاهما عليها ، ولو لم يتعاون فرناندو ملك ليون مع الموحدين على إنقاذ المدينة ، لقيت في أيدي البرتغاليين . وكانت شترين أخيراً مركزاً للحملات الخربة التي شنها البرتغاليون على أحواز إشبيلية ، والتي وصلت في سيرها مرة إلى طريانة ، وأخرى إلى الشرف ومدينة شلوق ، وعلى الحملة فقد كانت شترين هي المركز الرئيسي لعدوان البرتغاليين على قواعد ولاية الغرب وأراضيها ، وقد اضطلع فرسانها وجندوها بأعظم دور في هذه الحملات العدوانية ، والغزوات الخربة ، وكان الخليفة وقادته يرون أن الاستيلاء على شترين يلحق بالبرتغاليين وملكهم ألفونسو هنريكي즈 ضربة شديدة ، ويقضى على أهم مراكز العدوان في البرتغال ، ومن ثم كان اختيارها هدفاً للغزوة الموحدية الكبرى .

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة أبا يعقوب ، لم ينس خلال هذه المشاغل الحربية الطامية برنامج منشآت العاصمة مدينة إشبيلية ، وهو الذي بدأه حين إقامته الأولى بإشبيلية قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاماً ، بإنشاء المسجد الجامع والقصور الموحدية ، وقنطرة طريانة . ومشاريع الري والسقاية ؛ ذلك أنه أمر قبل تحركه إلى الغزو عامله أبا داود بلول بن جلداسن ، أن يقوم خلال غيبته في الغزو ، بإنشاء سور حصين على قصبة إشبيلية ، يمر من مبدئ بنيانه أمام رحبة ابن خلدون داخل المدينة ، وبيناء صومعة للجامع في موقع اتصال السور بالجامع المذكور ، وبناء دار صنعة للسفن تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع ، إلى الرحبة السفلى المتصلة بباب الكحل^(١) . وسوف نعود فيما بعد إلى التحدث عن مصير هذه المنشآت في موطنه المناسب .

في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٠ هـ الموافق لليوم السابع من شهر يونيو سنة ١١٨٤ م ، تحركت الجيوش الموحدية وعلى رأسها

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٧٠ . ١ . وفي المطوع ص ٤٨١

الخليفة أبو يعقوب يوسف ، من مدينة إشبيلية ، نحو الشمال ، بنفس الترتيب الذى سبق وصفه . وكان السير هيناً وثيداً ، فوصلت بعد تسعة أيام إلى حصن العرجة^(١) في طريق بطليوس ، وهناك تم اجتماع الجيوش الموحدية ، وقد بدت في أكمل نظام ، وأحسن زى ، وتقلد الجند كامل أسلحتهم من السيوف والدروع والقسى وغيرها ، ثم استأنفت الجيوش سيرها ، حتى وصلت إلى مدينة بطليوس ، فأمر الخليفة بالنزول في ظاهرها ، وأن يجرى تمييز الجند ، واستكملت الجيوش ما كان ينقصها من الزاد والمرة . وكان الوزير السابق لإدريس بن جامع منفياً في بطليوس ومعه في المنفى أيضاً أبو زكريا بن حيون الكومى شيخ قبيلة كومية ، فالتسوا إلى أمير المؤمنين حين مقدمه أن يأذن لها بالاشتراك في الجهاد فأذن لها .

وكان الموقف بالنسبة للممالك النصرانية قد تغير قبل ذلك بأعوام ، وانقطعت كل مهادنة بينها وبين الموحدين ، وجنحت كلها إلى العدوان ، وإلى غزو أراضي الأندلس كل من الناحية التى تليها ، وذلك حسباً فصلناه من قبل . وكان فرناندو ملك ليون قد نبذ محالفة الموحدين حسباً تقدم ، وحذا حذو زملائه في انتهاج هذه السياسة العدوانية ، وعقد مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن معاهدة تعهد فيها بأن يلتزم معاداة الموحدين ، وألا يعود إلى محالفتهم قط ، وقطع زميله ملك قشتالة على نفسه مثل هذا العهد (يونيه سنة ١١٨٣ م) . وكان في الوقت الذى عبرت فيه الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، يقوم بغزوة جديدة لأراضي الأندلس ، ويحاصر مدينة قاصرش^(٢) الواقعة شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر التاجه ، واستمر يحاصرها طول الشتاء حتى نهاية الربيع . وكان الخليفة الموحدى يعلم بأمر هذا التحالف الجديد بين قشتالة وليون . وكان الذائع بين الملوك النصرانى أن الجيوش الموحدية الغازية ، قد تغزو أى الممالك النصرانية ، أعنى قشتالة أو ليون أو البرتغال ، إذ كانت جميعاً سواء في موقفها العدوانى من الموحدين ، وفي الإغارة على أراضي الأندلس . بل أن الرواية النصرانية ، وبخاصة الرواية البرتغالية ، تنسب إلى الخليفة الموحدى من غزوته هذه مشاريع أجل خطراً ، وأبعد مدى ، فتقول لنا إنه كان ببغى ، بعد الاستيلاء على شنترين ، أن يقوم بافتتاح مملكة البرتغال كلها شمالاً حتى نهر دويرة ، ثم سير بعد ذلك إلى غزو مدينة طليطلة

(١) وهو بالإسبانية Alanje .

(٢) وهى بالإسبانية Cáceres .

حاضرة قشتالة^(١) ، وعلى أى حال فإن فرناندو ملك ليون ، حينما علم بسير الجيوش الموحدية نحو بطليوس واقترابها بذلك من مواقعه ، بادر برفع الحصار عن قاصرش ، وعاد إلى حاضرتة مدينة ردريجو ، وأخذ يرقب سير الحوادث . وفى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الأول غادر الخليفة فى قواته مدينة بطليوس ، وسار نحو الشمال الغربى مخترقاً الناحية اليسرى من وادى التاجه ، ثم أمر الجند الموحدين أن يتقدموا صوب شترين ، فعبروا نهر التاجه بقيادة السيد أبى إسحاق وإلى إشبيلية ، ثم تلاهم بقية الجند وعلى رأسهم الخليفة ، ونزلت الجيوش الموحدية جميعها بالتل المرتفع المشرف على شترين من ناحيتها الشرقية والجنوبية ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ (٢٧ يونيو سنة ١١٨٤م) وفقاً لقول الرواية الإسلامية المعاصرة^(٢) ، وتضع الرواية النصرانية مقدم الجيوش الموحدية إلى شترين قبل ذلك بثلاثة أيام فى اليوم الرابع والعشرين من يونيو وهو يوم القديس خوان^(٣) .

وتنوه معظم الروايات الإسلامية بضخامة هذا الجيش الموحدى ، ووفرة حشوده^(٤) ، ويقدم إلينا بعضها عن عدده أرقاماً مدهشة ، فيقول لنا صاحب الروض المعمار إنه كان يضم أربعين ألفاً من أنجاد العرب الفرسان ، ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الأندلس ما ينيف على مائة ألف فارس^(٥) ، وإذن فقد كان هذا الجيش الذى أعد لغزو البرتغال ، واقتتاح شترين أضخم من الجيش الذى سار من قبل عند جواز الخليفة الأول إلى الأندلس ، إلى حصار وبدة ، وتنوه الرواية النصرانية أيضاً بضخامة الجيش الموحدى ، وذلك بما تذكره من أرقام خسائره ، حسبما نشير إليه فيما بعد .

وتقع مدينة شترين ، وقد أتيحت لنا زيارتها ، فى شمال شرقى أشبونة على

(١) H. Miranda : Ibid, cit. *Chronicon Lusitanum* p. 392

(٢) هذه هى رواية البيان المغرب ، منقولة فيما يرجع عن ابن صاحب الصلاة ، وكان مرافقاً للحملة (البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٣) ويضع صاحب روض القرطاس مقدم الموحدين إلى شترين فى السابع من ربيع الأول (ص ١٤٠) .

(٣) راجع فى ذلك H. Miranda : Ibid, p. 297 & 300

(٤) راجع ما ينقله البيان المغرب فى القسم الثالث عن القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر

(ص ١٣٥) وكذلك ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٥) الروض المعمار - صفة جزيرة الأندلس فى مقاله عن « شترين » ص ١١٤ .

قيد خمسين كيلومتراً منها ، فوق ربوة مرتفعة تقع على الضفة اليمنى لنهر التاجه ، أمام حنية نصف دائرية . وقد كانت في العصر الذي نتحدث فيه من أمنع القواعد البرتغالية ، وكانت في عهدها الإسلامي ، نظراً لحصانة موقعها في منعطف النهر من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى . وقد سقطت في أيدي النصارى لأول مرة في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكن المسلمين استردوها ، واستمرت في حوزتهم عصراً آخر ، ولما اشتد ساعد مملكة البرتغال الناشئة في عهد ملكها ألفونسو هنريكيث ، وأخذ هذا الملك يغير على القواعد الإسلامية المجاورة ، كانت شترين وأشبونة من القواعد التي استولى عليها ، وذلك في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) حينما اضطربت شئون ولاية الغرب على أثر قيام الثورة ضد المرابطين وبقينا بيد النصارى إلى ذلك الحين . وكان الموحدون يتوقون إلى استرداد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد ولاية الغرب .

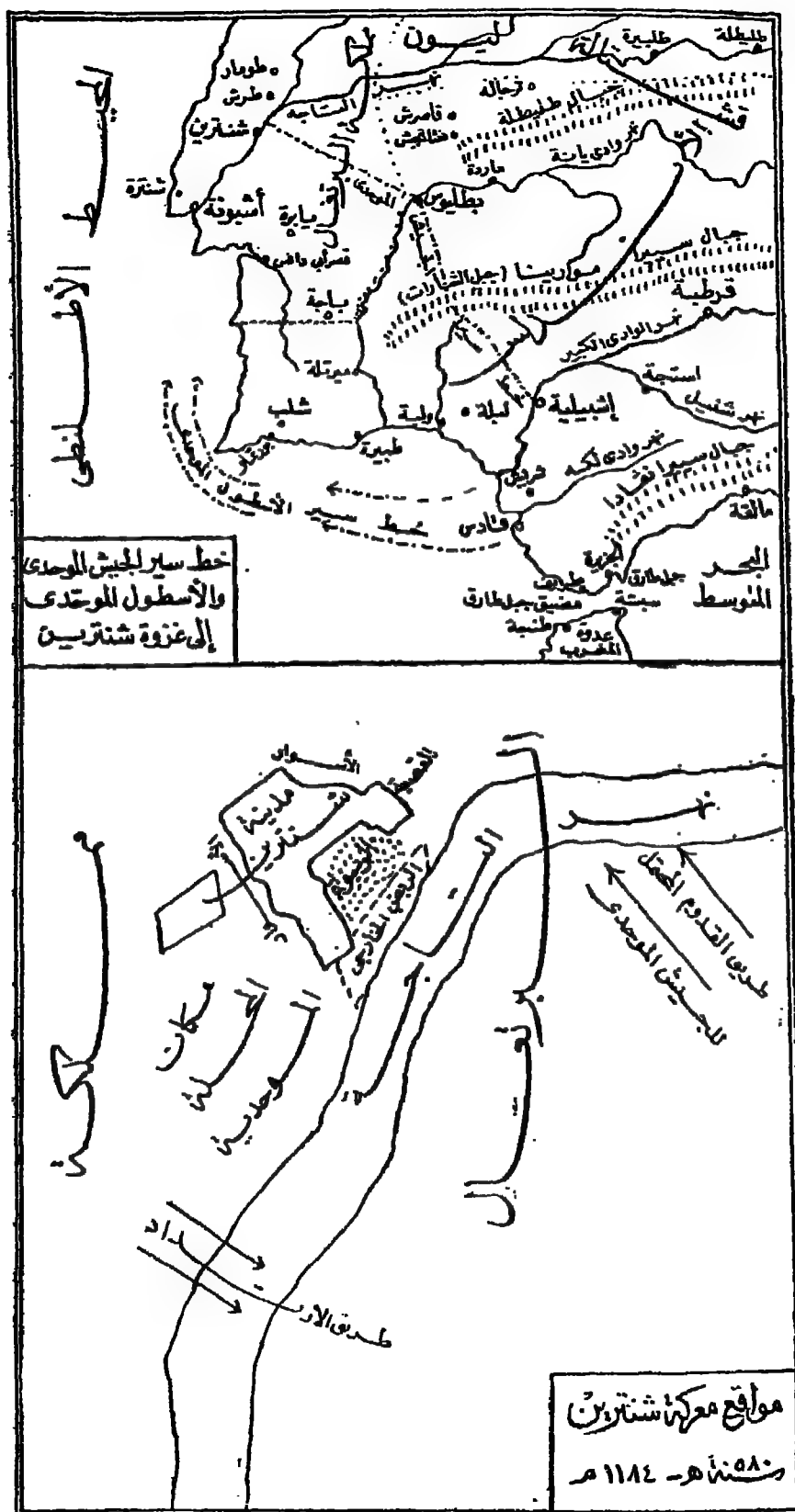
وهناك في الواقع ما يدل على أن استرداد ثغر أشبونة كان من أهداف هذه الحملة الموحدية الكبرى بل ربما كان هو هدفها الرئيسي^(١) . ذلك أن الأسطول الموحدى ، كان وقت عبور الخليفة إلى شبه الجزيرة ، قد حشد عند مصب الوادى الكبير ومصب وادى يانه ، وكان في نفس الوقت الذى انجبت فيه الجيوش الموحدية صوب شترين ، يسير إلى مياه أشبونة ، ثم يحاصرها^(٢) . بيد أنه كان من الطبيعى أن يقوم الجيش الموحدى قبل السير إلى أشبونة ، بالاستيلاء على شترين ، وهى حصن أشبونة من الشمال ، وبذلك تؤمن مؤخرة الجيش الموحدى ضد أى هجوم يقوم به النصارى من تلك الناحية .

ومن ثم فإنه ما كادت القوات الموحدية تصل إلى ظاهر شترين ، حتى أمر الخليفة بأن يتقدم الجند حتى أبواب المدينة ، وأن يضربوا حولها الحصار ، ونزل الموحدون في الرىض الواقع في جنوبها الشرق والممتد على طول النهر وضربت به قبة الخليفة ، وكان البرتغاليون وعلى رأسهم ألفونسو هنريكيث ، قد احتشدوا داخل شترين وقصبتها وجلدوا في تحصينها ، واتخذوا أعظم أهبة الدفاع عنها^(٣) ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٠ .

(٢) الروض المطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٤ .

(٣) المراكشى في المغرب ص ١٤٥ .



وكان المدافعون عن الربرض الخارجى قد أقاموا حواجز يستطيعون الاعتصام بها ، والدفاع منها . فافتحم الموحدون الربرض وهدموا أحياء المتصلة بالسور ، وهدموا الكنيسين اللتين به ، وقتل كثير من المدافعين عنه ، وارتد الباقيون إلى القصبة ، واعتقد القادة الموحدون أن السيل ممهد لاقتحام المدينة وأخذها ، وأعدت بالفعل السلام اللازمة لاقتحام الأسوار . وفى يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول (٢٩ يونيه) ، هاجم الموحدون الأسوار ، واشتبكوا مع قوة من النصارى خرجت لقتالهم فهزموها وردوها صوب القصبة . وفى صبيحة اليوم التالى - السبت - تجدد القتال بين الموحدين وبين النصارى ، واستمر القتال بين الفريقين حتى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول (٢ يوليه) . ونشبت بينهما خلال ذلك عدة معارك عنيفة . وتقدم إلينا الروايات النصراية عن هذه المعارك صوراً مختلفة ، ويقول بعضها إن المعارك لبثت تضطرم بين النصارى والموحدين فى الربرض الخارجى للمدينة خمسة أيام ، وأن الموحدين بالرغم من خسائرهم لبثوا يمددون هجائهم ، حتى حطمت سائر الحواجز والتحصينات بالربرض ، وأضحى الموقف مستحيلاً ، واضطر النصارى إلى اللجوء إلى ناحية القصبة . وهذه الرواية تقرب فى جملتها من أقوال الرواية الإسلامية . بيد أن بعض الروايات النصراية تقدم إلينا مزاعم لا يستطيع أن يسيغها العقل ، ولاسيا الرواية المنسوبة إلى الخبر الإنجليزى راول دى ديستو ، وخلاصتها ان الموحدين وصلوا إلى شترين فى يوم القديس خوان ، أعنى فى يوم ٢٤ يونيه ، وحاصروها ، وأنهم بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من القتال المستمر ، نجحوا فى اقتحام المدينة من ثلثة أحدىوها . ولكن وصل فى اليوم التالى أسقف بورتو وابن الملك وقتلوا من الموحدين خمسة عشر ألفاً ، وسدوا تلك الثلثة بجثثهم . وفى اليوم الذى يليه وصل أسقف شنت ياقب ومعه عشرون ألف مقاتل ، وفى الفجر قتلوا ثلاثين ألفاً من الموحدين^(١).

بيد أنه وقعت فى اليوم الختامى لهذه المعارك ، وهو يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول (٢ يوليه) بالعسكر الموحدى مفاجأة مذهلة ، وهى صدور أمر الخليفة بالكف عن القتال ، وكان الأمر قد صدر فى نفس الوقت بتحريك الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أو من شرق شترين إلى غربها وشمالها حسبما يقول صاحب

H. Miranda ; ibid ; C.R. de Diceto y Crónica de Alfonso Enriquez (١)

روض القرطاس . فعجب الناس لذلك ، ولم يفقهوا له سبباً ، بل إن في هذا التعليق ذاته ما ينم عن إنكار الشيوخ والقادة الموحدين لهذا الأمر الفجائي الذي لم يدرس ، ولم تنتضح مبرراته . فما الذي حدث في المعسكر الموحدى ، وكيف ولم وقع هذا التحول الفجائي في حركة الجيش الموحدى ، ولما لم يمض على مقدمه إلى شترين سوى ستة أيام ؟ إن الرواية الإسلامية لا تقدم إلينا في هذا الموطن أى شرح واضح أو أى تعليل مقنع لهذا الارتداد الفجائي لجيش ضخم غار يربى عدده على المائة ألف ، عن مدينة مرهقة بالحصار وقد سقطت أرباضها في أيدي الغزاة ، ولا تدافع عنها سوى حامية محلية ، قد أنهكتها المعارك المتوالية مع الغزاة ، ولجأت في النهاية إلى القصبية ترقب المصير المحتوم ، ولم يقل لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو مرافق الحماة ومؤرخها ، شيئاً سوى التعليق على أمر الارتحال بقوله : « فتعجب الناس من هذا الرأى في الانتقال والارتحال ، وتعطلت في النفوس جميع الآمال ، وظهر الخلل في جميع الأحوال » . ثم يقول إنه قد حدث في هذا اليوم - أى يوم صدور الأمر بالارتحال - على عسكر أهل مرسية حادث مروع ، وذلك أنهم خرجوا للإغارة في بسائط النصارى ، فخرجوا عليهم وهزمهم هزيمة شنيعة فارتدوا إلى المحلة منهزمين ، « وبات الناس في المحلة على حذر ، ومن الوجل في ألم وضرره »^(١) .

ويقول لنا مؤرخ موحدى آخر كان مرافقاً للحملة أيضاً هو القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر ، إن الخليفة أبا يعقوب حينما قصد مدينة شترين أمنع بلاد ابن الرنك ، وأكثرها أجناداً ، وأقواها استعداداً ، فزع النصارى وروعت نفوسهم لما رأوه من ضخامة الجيش الموحدى وتفوقه العظيم . وكان القصد محاصرة المدينة وإرهاقها ، ثم يقول دون أى إيضاح آخر : « فلما استرأت من جهاتها الأنباء ، وطال لغير طائل الثواء ، عزم أمير المؤمنين على الارتحال ، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكلال ، فأمر بالرحيل ليلاً »^(٢) .

على أن مؤرخاً معاصراً آخر ، ويعتبر كذلك من مؤرخى الموحدين ، هو عبد الواحد المراكشى ، يقدم إلينا عن هذا الارتداد للجيش الموحدى رواية ، قد تبدد بعض هذا الغموض الذى يثيره صمت شاهد العيان ، وهى أن أبا يعقوب حينما

(١) نقله البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) نقله البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣٦ .

حاصر شترين وبالع في التصديق عليها ، وانتساف قواتها ، وقطع المؤونة والمدد عنها ، لم يزد ذلك أهلها إلا حزمًا في الدفاع ، وجلدًا في تحمل مشاق الحصار ، فخشى الموحدون هجوم البرد ، إذ كان الوقت آخر فصل الخريف ، وخافوا أن يفيض النهر فلا يستطيعون عبوره ، وتنقطع عنهم الأمداد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالارتداد عن شترين والرجوع إلى إشبيلية ، فإذا تغرت الظروف ، عاد الموحدون إلى حصارها ، وصوروا له أن الأمرين ، وأن المدينة تعتبر غنما في يده لا يمنعها عنها مانع ، فاستمع الخليفة إلى نصحتهم ، وقال نحن راحلون غدا إن شاء الله ، ولم يقف أحد على هذا القول سوى الخاصة ، وكان أول من قوض نجاءه وأظهر الأخذ بأهبة الرحل ، أبو الحسن علي بن عبد الله المعروف بالماتى ، وكان من أكابر البلاط الموحدى ، ويوصف بخطيب الخلافة ، فلما رأى الناس صنعه ، حذوا حذوه لما يعلمونه من وقوفه على أسرار الدولة ، وعبر النهر في تلك العشية أكثر العسكر ، يريدون التقدم خشية الزحام ، ولم يبق إلا من كان بقرب نجاء أمير المؤمنين ، وبات الناس يعبرون الليل كله ، وأمير المؤمنين لا علم له بما حدث^(١) . وينقل ابن خلكان هذه الرواية بنصها وتفصيلها في ترجمة الخليفة أبي يعقوب^(٢) .

ونلاحظ فيما يتعلق بهذه الرواية أن حصار شترين لم يقع في أواخر الخريف ، ولكنه وقع في أواخر شهر يونيه سنة ١١٨٤ م ، أعني في أوائل الصيف ، وقد رأينا أن الحصار ، وفقاً لرواية شاهد العيان ، وكذلك وفقاً للرواية النصرانية ، لم يدم سوى عدة أيام^(٣) . وعلى ذلك فإن تعليل الارتداد باقتراب الشتاء ، والخوف من فيضان النهر ليس بالتعليل المقنع ، وإن كان على أى حال محاولة لتفسير تصرف الخليفة الموحدى .

هذا ، وهناك محاولة أخرى من جانب الرواية الإسلامية لتفسير ما حدث في المعسكر الموحدى ، هي رواية صاحب روض القرطاس ، وهى أنه لما أمر أمير المؤمنين بانتقال الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أنكر الناس ذلك .

(١) المراكشى في المعجب ص ١٤٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٣) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٨٠ هـ ، أن الخليفة أبا يعقوب حاصر شترين مدة شهر

(ح ١١ ص ١٩٠) . وينقل ابن خلكان هذه الرواية (ج ٢ ص ٤٩٢) .

ولم يعلموا له سبباً ، وأنه لما جن الليل ، وفرغ الخليفة من صلاة العشاء ، استدعى ولده السيد أبا إسحق والى إشبيلية ، وأمره بالرحيل من تلك الليلة إلى غزو مدينة أشبونة وشن الغارة على أنحائها ، وأن يسير لها بجيوش الأندلس خاصة ، وأن يكون رحيله نهاراً ، فأساء السيد أبو إسحق فهم أوامر الخليفة ، وظن أنه أمره بالرحيل في جوف الليل إلى إشبيلية . يقول صاحب الروض : « وصرخ الشيطان في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل . وفي هذه الليلة تحدثت الناس بذلك ، وتأهبوا له ، فرحل من الناس طائفة بالليل . فلما كان قرب الفجر أقبل السيد أبو إسحق ، وأقنع كل من كان يليه ، وتابعه الناس بالرحيل ، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك » (١) .

على أن ما تقدمه إلينا الرواية النصرانية عن أسباب انسحاب الجيش الموحدى قد يفسر لنا ما وقع بطريقة أوضح ، وأكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث . ذلك أن الموحدين ، بعد أن اشتبكوا مع البرتغاليين في ربض شنترين في سلسلة من المعارك الطاحنة استمرت بضعة أيام ، واستولوا خلالها على أرض الربض وحطموا تحصيناته الخارجية ، أدركوا أن المدينة من المناعة ، وأن المدافعين عنها من الاستعداد والكثرة ، بحيث يتعذر اقتحامها ، ولا بد لأخذها من الاعتماد على حصار طويل صارم . وفي أثناء ذلك وقع حادث كان له فيما يبدو تأثير حاسم في تطور الموقف . ذلك هو مقدم فرناندو الثانى ملك ليون في قواته . ونحن نذكر أنه لما تحرك الجيش الموحدى من إشبيلية ، صوب بطليوس ، كان فرناندو الثانى يحاصر مدينة قاصرش الواقعة شمال شرقى بطليوس محاولاً الاستيلاء عليها ، فلما وقف على حركة الجيش الموحدى ، رفع الحصار عن قاصرش ، وارتد إلى قاعدته القرية مدينة ردرىجو . ولما تعينت وجهة الجيش الموحدى بالسير إلى شنترين وحصارها ، سار فرناندو في قواته صوب ميدان المعركة لإنجاد المدينة المحصورة ، وذلك تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه بقتال الموحدين ، وتقول الرواية النصرانية أيضاً إن ألفونسو ملك البرتغال كان متوجساً في البداية من مقدم فرناندو وجيشه ، فلما علم أنه قادم لإنجاده وإنجاد إخوانه النصارى ، اطمأنت نفسه وأيقن بالخلاص (٢) . ومن ثم فإنه يبدو أن تطور الحوادث على هذا النحو

(١) روض القرباس ص ١٤٠ .

(٢) Primera Crónica General de España (Ed. Pidal) p. 676

هو الذى حمل الخليفة على اتخاذ قراره الفجائى ، بالارتداد ، خشية أن يعمل الليونيون على إعاقة عبوره النهر إلى الضفة اليسرى ، ولا سيما بعد أن اقتنع بصعوبة الاستيلاء على شترين .

بيد أنه إذا كان هذا التعليل يلقى شيئاً على بواعث قرار الارتداد ، فإننا لانستطيع أن نفهم سر ذلك الاضطراب المروع الذى اقترن بتنفيذه . ومن الحق أن الخليفة ومعاونيه كانوا يقصدون أن يكون الارتداد وفق خطة منظمة ، تقي الجيش المنسحب كل اضطراب وكل عثار . وهذا ما يؤكده لنا القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر فى روايته حين يقول « إن ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع ، وأوعزوا إليهم ، ترتيب التحرك وكيفية القلوع ، وأن يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل الحملة والأقال ، وتلتخص إلى السعة من المضايق والأحوال »^(١) . بيد أن الذى حدث هو العكس تماماً . وهو القوضى المروعة ، والاختلال المطبق . يقول أبو الحجاج يوسف ، وهو شاهد العيان : « فاضطرب إقلاع الناس اضطراباً شنيعاً ، وكثر الضجيج ، واختلاط الأصوات ، وتهولت المحلات ، وأخذ العموم على شتى المسالك ، فلا ترى شيئاً ولا مطيعاً » .

وكان أشنع ما فى ذلك ، هو ما حدث من غموض فى فهم أوامر الخليفة ، وتسرع فى تنفيذه . ذلك أن كثيراً من الأسياف وروساء القبائل فهموا أنه يجب الارتداد فوراً وفى جوف الليل ، فهرعت طوائف غفيرة من الجند إلى الارتداد . وعبور النهر ، ووقع الارتداد فى مناظر مروعة من الاختلال والضجيج والقوضى . يقول الراوية شاهد العيان : « حضرت يوم هذا الإقلاع وليله ، فإ رأيت فى تاريخ قبله ، ولا يحصر واصف هولاه » ، وأقلع السيد أبو إسحاق ولد الخليفة نفسه فى جندته عند الفجر قاصداً إشبيلية ، واعتقد كثير أن الخليفة نفسه قد أقلع فى السحر ، واستمر عبور الجند على هذا النحو تباعاً ، حتى عبر معظم الجيش ، كل ذلك والخليفة غافل عما حدث . فلما أسفر الصبح ، ظهرت الحقيقة المروعة ، ولم يبق حول الخليفة الموحى سوى الساقة ، فعندئذ أمر الخليفة بضرب الطبول ، فاجتمعت القلول الباقية ، وانحدر الخليفة صوب النهر ، وبقى ابنه أبو يوسف يعقوب مع بقية الساقة ، فى موضع المحلة مستعداً للقاء النصارى وردهم وحماية أبيه ومن معه .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٦ .

ولكن نصارى شترين أدركوا عندئذ ما وقع في العسكر الموحدى ، من إقلاع وارتداد ، فبادروا بالخروج من المدينة ، وهجموا على القوات المنسحبة بشدة ، وأدركوا ساقه الخليفة ، ودافعت القلول الموحدية بمنتهى البسالة ، وسقط خلال ذلك عدد من أكابر الموحدين والأندلسيين ، ووصل النصارى إلى مقر الخليفة نفسه بعدوة الوادى ، وإصابه بعضهم بجراح خطيرة . وعلى أثر انتهاء المعركة أمر الخليفة بتفريق الجموع ، ورجوع كل جندى إلى قبيلته ، وأمر بتخريب الوادى ، وانتساف زروعه ، وقطع أشجاره وهدم ضياعه ، وتغيير مائه ، وحرق كل ما يمكن حرقه ، كما أمر بتقسيم السرايا في نواحي الوادى لتحصيل الأقوات ، وانتزاع السبى والغنائم . كل ذلك الخليفة الحريج ملتزم فراشه ، ومن حوله أطباؤه ابن زهر وابن طفيل^(١) وابن قاسم ، وهو يزداد ضعفاً على ضعف ، ثم أمر الخليفة بالرحيل ، وهو محمول في محفة ، حتى تم اجتياز وادى التاجه ، وما كاد الموكب يقطع بضعة أميال أخرى ، حتى أسلم الخليفة الروح ، وذلك فى الثامن عشر لربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٩ يولييه سنة ١١٨٤ م)^(٢) .

تلك هى رواية القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر ، المرافق للجيش المنسحب عن ظروف الارتداد وعن إصابة الخليفة أبى يعقوب يوسف ووفاته متأثراً بجراحه . بيد أن هناك رواية أخرى هى رواية المراكشى ، وهو أيضاً معاصر ، ومن مؤرخى الموحدين ، وهى أنه لما رأى نصارى شترين ما حدث من عبور الموحدين ، وانصراف معظم الجيش المحاصر ، ووقفوا على ما قرره الخليفة من الارتحال فى بقية جيشه ، خرجوا من المدينة فى خيل كثيفة ، وحملوا على المحلة الموحدية بشدة ، حتى بلغوا قبة أمير المؤمنين ، ودافعهم من حولها ، وجلهم من أعيان الأندلس ، حتى قتل كثير منهم ، ونفذ النصارى إلى خباء الخليفة ، فطعنه أحدهم تحت ستره طعنة توفى منها بعد أيام يسيرة ، وتكاثر الموحدون على الروم حتى ردوهم ، فانهزموا راجعين إلى المدينة ، وعبر أمير المؤمنين النهر

(١) وردت فى النص « ابن مقبل » ولكننا نعتقد أن ذلك تحريف لاسم ابن طفيل طبيب الخليفة الخامس .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣٧ و ١٣٨ . وتضع معظم الروايات تاريخ وفاة الخليفة فى شهر ربيع الآخر على خلاف فى اليوم الذى توفى فيه . ولكن المراكشى يتفرد بالقول بأن الخليفة أبى يعقوب توفى فى اليوم السابع من رجب سنة ٥٨٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٨٤ م) المعجب ص ١٤٧ . ويجارىه فى ذلك ابن خلكان فيذكر نفس التاريخ (الوفيات ج ٢ ص ٤٩٤) .

جريحاً في محفة ، فلم يمض على ذلك يومان أو ثلاثة حتى توفي متأثراً بجراحه^(١).

وهناك رواية أخرى مماثلة تقرب في جوهرها من رواية المراكشي ، وهي رواية صاحب روض القرطاس ، وهي أنه لما وقع ارتداد معظم الجيش الموحدى ليلاً ، وجاء الصبح ، فلم يجد الخليفة حوله سوى اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله ، وقواد الأندلس لأنهم هم الذين كانوا يمشون أمام ساقته وخلف محلته ، فلما أشرقت الشمس وشهد النصاري ما وقع من ارتحال المحلة الموحدية ، وأنه لم يبق منها حول المدينة سوى تبة أمير المؤمنين وعبيده وحشمه وأهل دائرته ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فتحوا أبواب المدينة ، وخرج جميع من فيها خرجة عنيفة وهم ينادون « الرى . الرى »^(٢) أصغى الملك ، فالتحموا محلة العبيد ، حتى وصلوا إلى خباء الخليفة ، فزقوه واقتحموه ، فدافعهم الخليفة بسيفه حتى قتل منهم ستة رجال ، فطعنه أحدهم طعنة نافذة ، وقتل ثلاث من جواريه كن قد انصبين عليه حتى طعن ، وسقط على الأرض ، فتصايح الفرسان والعبيد والأجناد والموحدون وقواد الأندلس ، واجتمع المسلمون فقاتلوا النصاري قتالاً عنيفاً حتى ردوهم عن الخباء ، ثم تابعوا قتالهم بشدة حتى هزمهم وردوهم إلى أبواب المدينة ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة تقدر بما يزيد على عشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين جماعة . ثم ركب أمير المؤمنين ، وقد أشرف على الموت ، وارتحل الناس ، ومات الخليفة خلال الطريق ، وكانت وفاته في يوم السبت الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (١٣ يولييه سنة ١١٨٤ م) وذلك على مقربة من الجزيرة الخضراء في طريق جوازه إلى العدو^(٣).

ويؤيد هذه الرواية عن مصرع الخليفة أبي يعقوب متأثراً بجراحه ، من المؤرخين المتأخرين ، الوزير ابن الخطيب ، حيث يقول لنا إن الخليفة توفي بظاهر شترين من سهم أصابه في خيائه وهو محاصر لها ، قضى عليه ، وكنم موته : بيد أنه يضع تاريخ مصرعه في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ

(١) المراكشي في المعجب ص ١٤٥ و ١٤٦ ، وتقل ابن خلكان هذه الرواية في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٢) " El Rey El Rey " .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وهو يوافق الثامن من أغسطس سنة ١١٨٤ م^(١).

ويوجد أخيراً رواية مقادها أن الخليفة أبي يعقوب لم يمت متأثراً بجراحه ، ولكنه توفي من مرض لم تذكر لنا الرواية كنهه ، وهذه هي رواية ابن الأثير ، حيث يقول إن الخليفة حاصر شنترين شهراً ، فأصابه مرض فمات منه في ربيع الأول (٥٨٠ هـ) وحمل تابوته إلى مدينة إشبيلية^(٢) ، ويأخذ صاحب الروض المعطار بهذه الرواية فيقول لنا إن الخليفة ، وهو مقيم على شنترين عرض له المرض الذي توفي منه ، وأقام الرحل به مضطجماً على فراشه ، وضعفه يزايد ، إلى أن تُفقد في بعض أميال فوجد ميتاً وذلك في سنة ٥٨٠ هـ^(٣).

ويتردد ابن خلدون بين الروايتين ، فيقول لنا إن الخليفة توفي من سهم أصابه في حومة القتال عندما اقتحم النصاري محله وأنه توفي من مرض أصابه^(٤). وكان الخليفة أبو يعقوب عند وفاته في السابعة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده ، حسباً تقدم في سنة ٥٢٣ هـ بتينملل .

ولأنه ليدلو لنا إزاء اتفاق الروايات الموحدية المعاصرة ، ومعها صاحب روض القرطاس وابن الخطيب ، أن القول الراجح هو أن الخليفة أبا يعقوب قد أصيب في الموقعة التي نشبت بين النصاري وبين محله ، وأنه توفي متأثراً بجراحه . ومن الواضح أن وقوع مثل هذا الحادث ممكن ومعقول في مثل الظروف التي أحاطت بالجيش المنسحب ، وفي غمرة الخلل الذي أصابه ، والقوضى التي سادته . ولقد كان انسحاب الجيش الموحدى من أمام أسوار شنترين نكبة مؤلمة ، تفوق في نتائجها الخطيرة المروعة ، نكبة انسحابه من وبدة قبل ذلك باني عشر عاماً . ونستطيع هنا أن نستشف نفس الأسباب ، ونفس وجوه الضعف التي التابت للجيش الموحدى ، وعصفت بتماسكه ونظامه ، وجعلته بالرغم من ضخامته ، ووفرة استعداداته وعدته ، أشبه بكتلة بشرية مفككة ، لا تجمعها أية قيادة حازمة ، ولا هدف مشترك ، وفتت في قواه المعنوية ، فانهارت لديه فكرة الجهاد التي حشد من أجلها ، وأضحيت كل طائفة من طوائفه تبحث فقط عن سلامتها ،

(١) ابن الخطيب في الإحاطة في مخطوط الإسكوريال الذي سبقت الإشارة إليه لوصة ٣٩٥

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠ .

(٣) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، وكذلك فقه العليبي ج ٢ ص ٥٤٦ .

وترقب أول فرصة للانسحاب . ومن الواضح أيضاً أن استئثار الخليفة بتوجيه حركات جيشه دون الاعتماد على رأى قواده ، كان له أكبر الأثر فيما حدث من سوء فهم للأوامر الصادرة ، بل ربما نستطيع أن نستشف من ذلك أثر الانشقاق وعصيان الأوامر الصادرة من الخليفة دون دراسة ودون تدبر ، وقد كان منها الأمر بنقل مواقع الجيش الموحدى من شرق وجنوبى شنترين إلى الشمال والغرب ، وهو أمر عارضه القواد الموحدون ، لأنه يضع الجيش الموحدى فى مواقع تعرضه لخطر التطويق ، ثم أمر الانسحاب المفاجئ الذى استأثر الخليفة بإصداره ، فكان نذيراً بكارثة الانسحاب المروع ، وما اقترن به من شنيع الاضطراب والقوضى ، وما انتهى الأمر إليه من فقد الاتصال بين الفرق المنسحبة ، وبين حرس الخليفة وخاصته ، فكانت النكبة المروعة ، باقتحام محلة الخليفة وإصابته القاضية ، أضف إلى ذلك كله ما كان يعانيه الجيش الموحدى من نقص فى تمويناته ، حتى اضطر حين الانسحاب أن يبحث عن أقواته بشن الغارات على الأراضى التى يحترقها خلال مسيره . وقد أثبت الخليفة أبو يعقوب وقواده بذلك كله ، أنهم لم يتعلموا شيئاً من دروس حمة وبذة ، ولم يحاولوا إصلاح جيوشهم ، على ضوء ما تبين من وجوه النقص فيها ، واستمر اعتمادهم فى حشدتها على التفوق العددي دون سواه .

لما توفى الخليفة أبو يعقوب متأثراً بجراحه بعد عبوره نهر التاجه بقليل ، محمولاً على محفته حسباً تقدم ، كتمت وفاته ، وحمل كالعادة مسجياً فى محفته ، حتى نزل الركب خلال الطريق إلى إشبيلية ، بعد موضع يسميه صاحب البيان المغرب « بحصن طرش » وهناك ضربت أخية الخليفة كالعادة ، وأحدق الفتيان والخدمة بالقبة الخليفة وفقاً للرسوم المعتادة ، وكان السيد يعقوب أبو يوسف ولد الخليفة هو الذى يدخل على أبيه منذ إصابته ، ويخرج من لدنه ، ويتصرف فى الأمور باسمه (١) ، فلما نزل الركب بالموضع المذكور ، وتكامل وصول الناس ، بعث السيد أبو زيد ابن الخليفة إلى إخوته الأكابر الموجودين مع الجيش ، وإلى أكابر الموحدين ، وأطلعهم على وفاة الخليفة ، وكشف لهم عن جثمانه وهو مسجى فى فراشه ، وطلب إليهم مبايعة الأمير يعقوب أبى يوسف ، فاستجابوا إليه ، وتمت البيعة فى مساء نفس اليوم . وفى اليوم التالى استؤنف السير ، وكل شئ على

حاله ، واستمر كتمان وفاة الخليفة الراحل ، بيد أنه كفن وأدرج في تابوت ، حتى وصل الركب إلى إشبيلية ، وذلك بعد نحو شهر من بداية انسحاب الجيش وعبره نهر التاجه .

واستراح أبو يوسف يعقوب بإشبيلية ثلاثة أيام ، تلاحت خلالها الحشود ، ووصلت جموع العرب والموحدين وسائر الطوائف الأخرى ، ونزلت في أكناف إشبيلية ، ودعى الناس خاصتهم وعامتهم ، لتقديم البيعة ، وأعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وغصت القصبة بوجوه القوم من موحدين وغيرهم ، وأنشدت البيعة للخليفة الجديد مدى يومين هما وفقاً لقول صاحب البيان غرة وثاني جمادى الأولى^(١) وأغدق الخليفة بهذه المناسبة صلاته على قرابته وأهل بيته ، وخص أخاه السيد أبا زيد بهبة جليلة قدرها عشرة آلاف لما بذل في خدمته ، وتنظيم بيعته .

وقد تمت بيعة الخليفة أبي يوسف في هدوء وسلام ، ودون أية معارضة ، أولاً لأن أباه الخليفة الراحل أبا يعقوب كان قد خصه بولاية عهده أثناء حياته ، وإن لم تقدم لنا الرواية تاريخ هذا التعيين^(٢) ، وثانياً لأنه كان أكبر أولاده^(٣) ، فكان هذا الاعتبار في ذاته مبرراً لتقديمه ، وذلك خلافاً لما كان عليه أبوه الخليفة أبو يعقوب بن عبد المؤمن حيث قدم للخلافة مع وجود شقيقه الأكبر السيد أبي حفص ، وذلك تنفيذاً لوصية أبيه .

ولما كمل أمر البيعة ، وشملت سائر أنحاء الأندلس ، وسائر الطبقات ، وتم تنظيم شئون الأندلس ، دعا الخليفة في اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى (٢ سبتمبر سنة ١١٨٤) أشياخ الموحدين والعرب ، وشيوخ الوفود من سائر القواعد ، وأذن بالحركة وانقضاء الغزو ، والتأهب للرحيل ، وكتب بذلك لسائر البلاد والقبائل من المجاهدين والمسافرين ، وقدم القائد أبو العباس الصقلي إلى ثغر طريف ، في ثلاث عشرة سفينة لنقل الخليفة وخاصته وجيشه ، وتقدمت سفينتان

(١) وهذا التاريخ لا يتفق مع سير الأحداث والتواريخ السابقة . فقد كانت وفاة الخليفة وفقاً لنفس المؤرخ في ١٨ ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ ، وقد استغرق وصول الجيش المنسحب مدى شهر . وإذا فقد كان من المنطق أن تكون البيعة في نحو منتصف شهر جمادى الأولى لا في غرته (البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٨ و ١٤٢) .

(٢) المعجب للمراكشي ص ١٤٧ .

(٣) الحلال الموشية ص ١٢٠ .

- ١٣٢ -

بالانتقال إلى رباط الفتح بمياه سلا . وفي فجر اليوم التالي ، خرج أهل الأندلس إلى بحيرة الوادي في جموع حاشدة ، وضربت قبة الخليفة على شاطئ النهر (الوادي الكبير) ، ونظم الموكب الخلفي ، يتقدمه المصحف الكريم ، وسار الخليفة في ضحى اليوم ، فنزل بقرية طريانة قبالة إشبيلية ، ثم غادرها إلى شريش ، تتبعه الجيوش ، ثم إلى مدينة شذونه ، أو مدينة ابن السليم^(١) ، حيث التقى بالسيد أبي زكريا ابن أخيه السيد أبي حفص قادماً من تلمسان مع أعيان عرب زغبة ، ومعه سبعائة جواد معونة لأهل الأندلس . وسار الخليفة بعد ذلك جنوباً صوب الشاطئ حتى وصل إلى الموضع المسمى بحجر الإيل^(٢) ، وهي ربوة تقع على مقربة من طريف ، وقد اجتمع الأسطول على طول الشاطئ ، على قدم الأبهة لنقل الخليفة وجيشه ، وفي اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ (١٢ سبتمبر) ضربت قبة الخليفة ، وقام أهل الأندلس بتحية الوداع ، وكذلك ودع الخليفة إخوته الذين قدمهم للولاية بالأندلس ، وهم أبو إسحاق وأبو زيد وأبو يحيى ، وفي ضحى نفس اليوم ركب الخليفة البحر ، وأمام سفينته مصحف عثمان ، ونزل بقصر مصمودة ، أو القصر الصغير ، قبالة ثغر طريف من البوغاز ، واستراح هناك ريثما تم جواز سائر الجيش . ثم غادر القصر إلى رباط الفتح ، وهناك تسمى لأول مرة بأمر المؤمنين ، وكان منذ بيعته يكتفى بلقب « الأمير يعقوب » ، وكتب في الحال بذلك إلى بلاد الأندلس . وتلقاه في الرباط ، أبو عبد الله بن واجاج في وفود العرب وأهل فاس ومكناسة وعمالهم ، وأقال إبراهيم بن إسماعيل من عمل فاس ، وأمر سائر العمال بالثول إلى الحضرة ، وقام بدفن أبيه أمير المؤمنين أبي يعقوب موقتاً بدار الخليفة بالرباط ، ثم نقل منها بعد ذلك ودفن بتينملل إلى جانب أبيه عبد المؤمن والمهدي ابن تومرت^(٣) . وغادر الخليفة بعد ذلك رباط الفتح إلى حضرته مراکش^(٤) .

- ٣ -

كان الخليفة أبو يعقوب يوسف من أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، وبالرغم

(١) وهي بالإسبانية Medina Sidonia

(٢) وهي بالإسبانية La Pena del Cierro .

(٣) روض القرطاس ص ١٤١ ، والحلل الموشية ص ١٤٣ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٣ .

من أنه لم يحقق في ميادين الحرب والسياسة نتائج عظيمة كالتى حققها أبوه الخليفة عبد المؤمن ، وولده الخليفة يعقوب المنصور ، فإنه يعتبر مع ذلك ، ولاسيما من النواحي الإدارية والعمرانية ، ثالث هؤلاء الخلفاء الثلاثة ، الذين بلغت الدولة الموحدية فى ظلهم أوج قوتها وعظمتها .

وقد امتاز حكم الخليفة أبى يعقوب بالحزم ، وتحري الحق والعدالة ومطاردة الظلم والبغى^(١) ، وترجع هذه النزعة إلى ما كان يتسم به هذا الخليفة من التقى والورع ، ومن العلم والتبحر فى العلوم الشرعية . وقد ظهرت هذه النزعة بصورة عملية ، فى غير مناسبة من أوامره وتصرفاته . وربما كانت رسالته التى وجهها إلى أخيه السيد أبى سعيد وإلى سائر الطلبة الموحدين بالأندلس فى سنة ٥٦١ هـ ، بشأن وجوب تحرى الدقة فى تنفيذ الأحكام وتوقيع العقوبات ، أبرز محاولة بنلها فى هذا الشأن . وقد رأينا كيف عنى الخليفة فى هذه الرسالة التى لخصنا محتوياتها فيما تقدم ، بإصدار أمره إلى الموحدين بالأندلس بقضى بحكم الإعدام إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة مشفوعة بالشرح وأقوال الشهود والعدول ، وأن تكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، وكذا فى سائر المعاملات والأموال ، واستحقاقها ، وفى الرقاب وعتقها وغير ذلك . وكان الخليفة إلى جانب هذه المحاولات الشرعية ، يقوم بمطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فإذا وقف على ما يرتكبه بعضهم من ظلم أو عسف أو اغتيال أموال الناس بالباطل ، عزله ونكبه . وكان من أبرز ما فعله فى ذلك بطشه بعمال مدينة فاس وملحقاتها ، والتتكيل بهم ، ومصادرة دورهم وأموالهم^(٢) ، وما قام به فى جوازه الأول إلى الأندلس من نكبة بعض عمال إشبيلية والحزن من المختلسين وغيرهم ، وما قام به بعد ذلك من نكبة عماله ووزرائه بنى جامع الذين استأثروا بالوزارة دهرأ ، وغير ذلك مما أشرنا إليه .

وإلى جانب هذه النزعة إلى تحقيق العدالة ، كان حكم أبى يعقوب متسماً بالمقدرة والحزم ، فقد كان خبيراً بشئون مملكته ، عارفاً بسياسة رعيته ، دؤوباً

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٦ ب . وفى المطبوع ص ٢٣٣ و ٢٣٤

(٢) البيان المغرب - القمم الثالث ص ١٣١ .

على النظر في الأمور ، وكان عارفاً بالشئون المالية ، ضابطاً لخراج مملكته^(١) ، وربما كانت هذه المقدرة في فهم الشئون وتديرها راجعة بالأخص إلى ممارسته إياها ردحاً من الزمن قبل توليه الخلافة أيام أن كان والياً لإشبيلية ، وقائماً بشئون الأندلس .

وقد تجلّى هذا الحزم في حكم أبي يعقوب في شدة عنايته بقمع أية نزعة إلى الخروج والعصيان ، والسير بنفسه إلى مقاتلة الخوارج ، وذلك كما حدث عند فتنة غارة ، ثم فتنة صنهاجة ، وحين ثورة قفصة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه في مواضعه .

والخلة الثانية التي امتاز بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، هي شغفه بالجهاد في سبيل الله ، وقد ظهر أثر هذا الشغف بالجهاد من الناحية النظرية فيما ألفه أبو يعقوب في فضل الجهاد ، مما نذكره بعد ؛ وظهر من الناحية العملية في عنايته بحشد الجيوش العظيمة وتمويلها ، ثم قيادتها في حملتيه العظيمتين إلى شبه الجزيرة الأندلسية . وبالرغم من أن الخليفة أبا يعقوب لم يكن موفقاً في حملتيه المذكورتين ، وقد سجل فشله الأول تحت أسوار وبدة ، ثم سجل فشله الثاني أمام أسوار شنترين ، وبالرغم من أن الحملتين لم تكونا بعيدتين عن تحقيق الأغراض العسكرية والإقليمية ، فإن مقصد الجهاد كان هو النزعة المسيرة لهما ، وقد ذهب الخليفة ضحية هذه النزعة واستشهد في ميدان الجهاد .

وكان أبو يعقوب إلى جانب ذلك ملكاً عظيماً « شديد الملوكية » على حد قول المؤرخ ، بعيد الهمة ، وافر البذل والجود ، عمت صلاته وأعطيته سائر الطوائف . ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « آية الموحدين في الإعطاء والمواساة » ، وفي أيامه ساد الرخاء واستغنى الناس ، وكثرت في أيديهم الأموال^(٢) .

على أن الملع وأعظم نخلة كان يتسم بها أبو يعقوب ، هو علمه وأدبه ، وقد أفاضت الروايات المعاصرة واللاحقة في التنويه بمواهبه العلمية والأدبية ، ويجمل ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، العارف بشخص أبي يعقوب وخلاله ، مواهبه العلمية ، في تلك الفقرة : « كان الأمير أبو يعقوب يوسف رضى الله عنه كاملاً فاضلاً عدلاً ورعاً جَزَلاً مستظهِراً للقرآن ، حافظاً له ، عالماً بالحديث ،

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) المعجب ص ١٣٣ ، وابن الخطيب في الإحاطة بخطط الإسكوريال لوحة ٣٩٥ .

متقناً للعلوم الشرعية والأصولية، متقدماً في علم الإمام المهدي رضي الله عنه^(١).
على أن ما يجمله ابن صاحب الصلاة في تلك الكلمات القليلة، يفصله لنا المراكشي بإفاضة في حديثه عن أبي يعقوب. وقد عاش المراكشي قريباً من عصر أبي يعقوب، وكانت تربطه بعدة من أبنائه مثل أبي زكريا يحيى، وأبي عبد الله محمد، وأبي إبراهيم إسحق، روابط وثيقة.

يقول المراكشي إن أبا يعقوب كان «أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها، في الجاهلية والإسلام». ثم يقول: «إنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن، وأمرهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية»^(٢).

ويجب لكي نقدر روعة هذه الصفات في أبي يعقوب، أن نذكر أولاً أنه كان بأرومته من صحيح أصول البربر، وذلك سواء من ناحية أبيه أوناحية أمه، وقد ولد ونشأ بتنمّل عاصمة المهدي، في بيئة بربرية محضة، ولكن يجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن أبا يعقوب كانت تحمله نفس الروح العلمية التي امتاز بها أبوه الخليفة العالم عبد المؤمن بن علي، ثم يجب أن نذكر أيضاً أن أبا يعقوب قضى زهرة فتوته في إشبيلية منذ عينه أبوه والياً لها في سنة ٥٥١ هـ، وهو في نحو الثامنة عشرة من عمره، حتى وفاة أبيه في سنة ٥٥٨ هـ، حينما استدعى لتولي الخلافة من بعده. ففي هذه الأعوام الثمانية التي قضها أبو يعقوب في المدينة الأندلسية العظيمة، التي كانت قد غدت منذ اضمحلال قرطبة عاصمة الأندلس الفكرية، تفتحت مواهب أبي يعقوب العلمية والأدبية، وقد كانت إشبيلية يومئذ مجمع أقطاب اللغة والعلوم الدينية، وكان أبو يعقوب منذ حداثة حافظاً للقرآن متمكناً من الحديث، حتى قيل إنه كان يحفظ صحيح البخاري. وكان في نفس الوقت بارعاً في الفقه؛ وفي إشبيلية تلقى علوم اللغة عن بعض أقطابها، وفي مقدمتهم العلامة اللغوي أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك المعروف بابن ملكون، وبرع في النحو والأدب. ولما ولى الخلافة، وعاد إلى إشبيلية في جواره الأول إلى الأندلس، واستطالت إقامته بها زهاء خمسة أعوام أخرى، تجتأت في هذه الفترة روعة مواهبه العلمية، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم

(١) ابن صاحب الصلاة في «المن بالإمامة» لوحة ٤٦ ب. وفي المطبوع ص ٢٣٣

(٢) راجع المعجب ص ١٣٢ و ١٣٣.

أئمة التفكير الإسلامى ، هم طيبه الخاص ، الفيلسوف العلامة أبو بكر بن طفيل الوادى آشى ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد بن رشد^(١) ، والطبيب العبقرى أبو بكر بن عبد الملك بن زهر . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطيبه ابن طفيل ، ولا يصبر على فراقه . وهكذا أتيج لأبى يعقوب أن يطلق العنان لشغفه بالدراسات الفلسفية فى ظل هذا الأفق العلمى الباهر ؛ ويبدو مما يذكره لنا المراكشى ، عن بعض مجالس الخليفة الفلسفية نقلا عما رواه له أبو بكر ابن يحيى القرطبي عن أستاذه ابن رشد ، أن الخليفة كان يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ ، ويبدى فى شرح مسائلها « غزارة حفظ » تدعو إلى الإعجاب . ويضيف القرطبي إلى ذلك رواية أخرى مفادها أن أبا يعقوب هو الذى أوعز إلى ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها بما يشوبها من الغموض ، وأن ابن طفيل هو الذى اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة لما يعلمه من مقدرته وقوة نزوعه وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذى حمل ابن رشد حسبا يقول لنا ، على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهى الشروح التى اشتهر بها ابن رشد ، وترجمت فيما بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم فى دوائر التفكير الغربى . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه بفضل ابن رشد وبراعته^(٢) .

وحمل الخليفة أبو يعقوب شغفه بالدراسات الفلسفية على الاهتمام بجميع كتبها ، والتنقيب عنها ، وعن غيرها من الكتب الخلية ، فى سائر أنحاء المغرب والأندلس ، وبذل فى ذلك جهوداً وأموالاً هائلة ، واجتمع له منها مقادير ضخمة قيل إنها بلغت قرب ما كانت تبلغه المكتبة الأموية العظيمة أيام الحكم المستنصر . ويروى لنا المراكشى طرفاً من هذه الجهود ، وكيف وقع عمال الخليفة على مجموعات عظيمة من كتب الطب والفلك كانت لدى رجل بإشبيلية يعرف بأبى الحجاج المرانى ، وأن هذه الكتب كانت قد وقعت إلى أييه أيام الفتنة بالأندلس^(٣) .

(١) كان ابن رشد قاضيا لإشبيلية منذ سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ١٣٦ .

(٣) المعجب ص ١٢٣ و ١٣٤ .

وقد انتهى إلينا من آثار الخليفة أبي يعقوب العلمية، بحث ديني يكشف لنا عن براعته في علم الحديث والعلوم الشرعية، وهو كتاب «الجهاد» الذي ألحق بكتاب المهدي ابن تومرت أو كتاب «أعز ما يطلب» وفيه يورد مؤلفه طائفة كبيرة من الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد في سبيل الله، والحث عليه، وتبيان محاسنه. ويلحق بذلك الكلام عن الجهاد ببذل المال وما ورد فيه أيضاً من الأحاديث وما يتسم به من الفضائل. ويحمل هذا الكتاب في خاتمه اسم مؤلفه، وهو الخليفة أمير المؤمنين، وتاريخ الانتهاء من وضعه، وهو العشر الآخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسة أثنى قبيل وفاة واضعه بنحو تسعة أشهر^(١).

وكان الخليفة أبو يعقوب كلفاً بالمشاريع الإنشائية العظيمة، وقد قام بإنشاء طائفة من المنشآت العمرانية الهامة، والصروح الحليّة، التي خلدت اسمه، وجعلته في مقدمة خلفاء الموحدين، بل وفي مقدمة ملوك المغرب قاطبة في هذا الميدان. ويكفي أن نذكر هنا ما قام به في إشبيلية حاضرة الأندلس، من المشاريع والمنشآت العظيمة مثل قنطرة طريانة، ومسجد إشبيلية الجامع، وصومعته العظيمة التي أتمها ولده يعقوب المنصور، ومشروع إمداد إشبيلية بالماء، وتجديد أسوارها التي خربها السيل، وإنشاء القصور والبساتين الموحدية العظيمة خارج إشبيلية، وإنشاء قصبة بطليوس العظيمة وإمدادها بالماء، وهي التي ما زالت أطلالها القائمة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والمنعة. وما قام به أخيراً من توسيع حضرة مراكش وتجميلها، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه في مواضعه.

* * *

وتولى الحجابة لأبي يعقوب أول ولادته، شقيقه وكبيره السيد أبو حفص، ولما تنحى عنها وزرله أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع، واستمر في منصبه نحو خمسة عشر عاماً. ولما اشتد طغيانه، وبدت مثالبه، نكبه أبو يعقوب واستصحب أمواله، ونفاه مع ولده إلى الأندلس سنة ٥٧٣ هـ. فخلفه في الوزارة أبو بكر ابن يوسف الكومي، ليعمل تحت رياسته ولده وولى عهده أبي يوسف يعقوب، واستمر الأمر كذلك حتى وفاة أبي يعقوب وقيام ولده يعقوب بالأمر من بعده^(٢).

(١) راجع فصل الجهاد في كتاب المهدي ابن تومرت ص ٣٧٧ - ٤٠٠.

(٢) البيان للمغرب - القسم الثالث ص ١٤٠، وابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة الخليفة أبي يعقوب، مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥.

وتولى القضاء في عهده أبو محمد الملقب ، ثم عزل وولى بعده عيسى بن عمران التازى التسولى ، وكان عالماً متمكناً ، وأديباً نابهاً ، وشاعراً مجيداً ، وخطيباً بليغاً ، وكان يخطب عن الوفود وفي المناسبات الهامة ، وكانت له مكانة رفيعة في البلاط الموحدى . ثم ولى القضاء من بعده حجاج بن يوسف . ثم أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة . واستمر في منصبه حتى وفاة أبي يعقوب ، ومن بعده فترة أخرى في أوائل عهد ولده يعقوب المنصور .

وتولى الكتابة لأبي يعقوب أبو الحسن بن عياش القرطبي كاتب أبيه من قبل . وكان هذا الكاتب الأندلسي ، قد فر من بلده قرطبة عند قيام الثورة بها في أواخر العهد المرابطى ، ولجأ إلى إشبيلية ، واتصل بالسيد أبي حفص بن عبد المؤمن فاختره لكتابه ، ثم صحبه معه إلى تلمسان ، ولم يزل متولياً كتابته حتى نكبة الخليفة عبد المؤمن لوزيره ابن عطية ، فاستدعاه الخليفة وعينه لكتابه . ولبث ابن عياش كاتباً للخليفة أبي يعقوب حتى توفى في سنة ٥٦٨ هـ . وكتب لأبي يعقوب أيضاً أبو القاسم القالى ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة وهو من أهل بجاية ، وأبو الحسين الهوزنى الإشبيلي ، وأبو عبد الرحمن الطوسى . وفي مجموعة الرسائل الموحدية ، رسائل عديدة بقلم ابن عياش وزميله ابن محشرة تدل بما كان لهما من الكاتبتين من مقدرة رائعة في أساليب البيان^(١).

وترك أبو يعقوب من البنين ثمانية عشر ، وهم ولى عهده يعقوب المنصور وشقيقه إسحق ، ويحيى ، وإبراهيم ، وعبد العزيز ، وإدريس ، وأبو بكر ، وعبد الله . وأحمد ، ويحيى الصغير ، ومحمد ، وعمر ، وعبد الواحد ، وعبد الحق ، وطلحة وعبد الرحمن ، وموسى ، وعثمان . كما ترك عدة من البنات .

وأما عن شخصه ، فقد كان أبو يعقوب أبيض اللون مشرباً بالحمرة ، فاحم الشعر ، مستدير الوجه ، أعين ، إلى الطول أقرب ، وكان جهير الصوت ، طيب المجالسة ، فصيح العبارة ، حلو الألفاظ ، رقيق الخلال^(٢).

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٠ ، والمراكشى في المعجب ص ١٣٧ ، وابن الخطيب في الإحاطة مخطوط الإسكوريال السابق ذكره لوحة ٣٩٥ .

(٢) المراكشى في المعجب ص ١٣٢ . وقد عاش المراكشى قريباً من عصر الخليفة أبي يعقوب وكانت له صلة وثيقة ببعض أبنائه .

الكتاب السابع
عصر الخليفة يعقوب المنصور
حتى موقعة العقاب

الفصل الأول

عصر الخليفة يعقوب المنصور

وبداية ثورة بني غانية

الخليفة أبو يوسف يعقوب . رواية في معارضة بيعته . اهتمامه بمطاردة الفساد والمنكر . حظره لبس الثياب الحريرية . عنايته بتحقيق العدل وقمع الظلم . جلوسه للنظر في المظالم . إنشاؤه لضاحية الصالحة الملوكية . مضاعفته لوزن الدينار . بداية عدوان بني غانية بإفريقية ، فتح المرابطين للجزائر الشرقية . ولاية وانور اللمتوني عليها . ولاية محمد بن غانية . استقلاله بعد سقوط المرابطين بحكم الجزائر . وفاته وولاية ولده إسحاق . الجزائر تندو مشوى لبقايا المرابطين . تقدم الجزائر ونمو قوتها . غزوات سفنها لشواطئ الدول النصرانية . عقد التهادن بينها وبين بيزة وچنوة والبندقية . اطمئنانها أيام حكم ابن مردنيش . تحولها إلى مصالحة الموحدين بعد وفاته . اهتمام الموحدين بأمر الجزائر . مطالبهم لإسحاق الاعتراف بالطاعة . وفاة إسحاق وولاية ولده محمد . مقدم على الربرتير سفير الخليفة إلى الجزائر . اعتراف محمد بطاعة الخليفة . خروج إخوته عليه واعتقالهم إياه . حجزهم لسفير الخليفة ورفضهم لطاعة الموحدين . خطبهم لمحاربة الموحدين في إفريقية . تدبيرهم لغزو بجاية . مسير على بن إسحاق إليها في حملة بحرية . اقتحامه إياها بمواطاة بعض أهلها . نزوله بها ودعوته لبني العباس . تعيينه لأخيه يحيى والياً لها . مطاردته لوالها الموحدي السيد أبي الربيع . هزيمة السيد وفراره . استيلاء على جزائرو مليانة وأشير والقلعة . وصف لمدينة مليانة . عوده إلى بجاية وانتهابها فيها . مسيره إلى قسنطينة وورده عنها . اهتمام الخليفة المنصور بتلك الحوادث . إرساله جيشاً إلى إفريقية بقيادة السيد أبي زيد . تسميره للأسطول في نفس الوقت . ثورة المدن المحتلة ضد الغزاة . استيلاء الأسطول الموحدي على مدينة الجزائر . القبض على يحيى بن غانية وعلى حاكم مليانة المرابطي . الثورة داخل بجاية . دخول الموحدين إليها . فرار يحيى بن غانية وإخوته . أسر رشيد قائد سفن الميارقة والاستيلاء عليها . فشل على بن إسحاق في اقتحام قسنطينة . فراره وإخوته وقلوله إلى الصحراء . مطاردته وعجز الموحدين عن إدراكه . فراره إلى بلاد الجريد ونهبه لمخلاتها . استمالته لطوائف العرب . اقتحامه لمدينة توزر ونهبها . الفوضى في بجاية . اقتحام غزى الصنهاجي قائد ابن غانية لأشير . قدوم الموحدين لإنقاذها ونجاحهم في استردادها . مصرع غزى وأخيه . مقتل رشيد الرومي . مقتل وتشريد أنصار بني غانية في بجاية . زحف على بن غانية على قصصة واستيلائه عليها . دعوته للخليفة العباسي . استمالته لطوائف العرب . تحالفه مع قراقوش الأرمني . كيف نزع قراقوش وصحبه الترك إلى المغرب . افتتاحه لفزان وطرابلس . التفاف العرب حوله . تطور الحوادث في الجزائر الشرقية . مؤامرة الربرتير لخلع طلحة بن إسحاق وإعادة أخيه محمد . نجاح المؤامرة . دعوة الربرتير للخليفة الموحدي . مفادته لميورقة . محاولة الموحدين تملك الجزائر . فشل هذه المحاولة . ثورة أهل ميورقة على محمد . مقدم عبد الله بن غانية . انزاعه الولاية ونفيه لمحمد . محاولة أخرى للموحدين لافتتاح الجزائر . فشلهم في أخذ ميورقة . تفاقم أمر على بن غانية بإفريقية . تحالفه مع قراقوش وطوائف العرب . انصواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . ييسط حكم الإرهاب

على إفريقية . اهتمام الخليفة يعقوب بذلك . تجهيزه لجيش موحد . مسيره في قواته إلى رباط الفتح ثم إلى فاس . عنايته بالشئون خلال مسيره . مسيره إلى قسنطينة ثم إلى تونس . استعداد ابن غانية وحلفائه . الخليفة يرسل حملة لقتاله بقيادة السيد أبي يوسف . اللقاء بين الموحدين والبيارق وحلفائهم قرب قفصة . موقعة عمرة . هزيمة الموحدين ومصرع أكثرهم . الاستيلاء على محلتهم . فرار السيد أبي يوسف وقلوله . اهتمام الخليفة لتلك النكبة . خروجه في قواته من تونس . مسيره صوب القيروان . إنذاره لابن غانية . مسيره إلى الحمة قرب قايس . مقدم ابن غانية وحلفائه . مهاجمة الموحدين للعرب حلفاء ابن غانية . تحاذلهم وتبدهم . مهاجمة الموحدين للبيارقة والترك . المعركة الدموية . هزيمة البيارقة . فرار ابن غانية وقراقوش إلى الصحراء . استيلاء المنصور على قايس وبلاد الجريد . محاصرته لقفصة وتسليمها بالأمان . القبض على قادة الفرز وإعدامهم . توحيد قراقوش وابن زيان . عودة المنصور إلى تونس . مسيره إلى تلمسان ثم إلى مكناسة . تأثر أخيه الرشيد وعه سليمان ضده . نكوصهما ومسيرهما لمقابلة الخليفة . القبض عليهما وإعدامهما . دخول الخليفة إلى الحضرة . اهتمامه بشئون الأندلس واستعداده للجهاد .

استعرضنا فيما تقدم مجمل الحوادث التي وقعت عقب نكبة شنترين ومصرع الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وما تم من مراحل بيعته الخليفة أبي يوسف يعقوب ولد الخليفة الراحل ، وعبوره من الأندلس إلى العدو عاتلاً إلى حضرة مراکش .

وكان الخليفة الجديد في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمدينة قصر عبد الكريم أو القصر الكبير أواخر شهر ذى الحجة سنة ٥٥٤ هـ (يناير سنة ١١٥٩) أو في سنة ٥٥٥ هـ على قول آخر . وأمه أم ولد كان قد أهداها سيدراى بن وزير صاحب شلب لأبيه الخليفة أبي يعقوب^(١) . لقبه المنصور بفضل الله ، أسبغته عليه انتصاراته المتوالية ولاسيما في معركة الأرك العظيمة .

وقد رأينا كيف تمت بيعته الخاصة عقب وفاة أبيه ، بمحلة الجيش المنسحب ، وهوى طريقه إلى إشبيلية ، ثم تأيدت بعد ذلك بيعته العامة بإشبيلية ، ولم تلق هذه البيعة يومئذ معارضة من أحد . ولكن صاحب المعجب ، يقول لنا إنه كان له من إخوته وعمومته منافسون لا يروونه أهلاً للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء سيرته في صباه ، وأنه لقي منهم شدة . بيد أنه لما نزل خلال عودته بسلا ، استجاب لبيعتهم من كان قد تخلف من أعمامه بني عبد المؤمن ، بعد ما أغدق عليهم الأموال والإقطاعات الواسعة^(٢) .

(١) البيهقي في أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٦ ، والبيان المغرب القم الثالث ص ١٤ ، وروض القرطاس ص ١٤٣ ، وتاريخ الدولتين للزركشي ص ١٠ .
(٢) المراكشي في المعجب ص ١٥٠ .

وبدأ الخليفة يعقوب عهده بعمل خير مشكور ، فأخرج من بيت المال مائة ألف دينار من الذهب ، فرقت في أسر الفقراء والضعفاء في سائر أنحاء المغرب ، وأمر بتسريح المسجونين^(١) . ثم نشط إلى مطاردة مظاهر الفساد التي بدت بالحاضرة الموحدية على أثر عودته ، وكان الناس قد انغمسوا ، في الدعة ، وانهمكوا في ضروب اللهو والملاذ ، وراجت سوق الخمر والقيان والغانيات ، فأريقتم الخمر في كل مكان ، وفقدت الأوامر بذلك إلى سائر الجهات ، وأُذِر الخالفون بعقاب الموت ، وطاردت الشرطة كل مستهتر ، وألقت القبض على من وجد من الغنيين ، ففارقوا في كل مكان ، ولاذوا بالنكيرة والاختفاء ، واختفى القيان ، وزهد الناس في مجالسهن ، وبعث الخليفة بهذه المناسبة إلى إشبيلية ، حاضرة الأندلس الموحدية ، برسالة إلى الطلبة والموحدين والأشياخ مؤرخة في في عقب رمضان سنة ٥٨٠ هـ يأمر فيها بمطاردة شراب الرب ، وهو مسكر ذائع ، وقطعه جملة ، ومنع بيعه وإغلاق حوانيته ، وإراقة مايوجد منه ، وتوقيع أشد العقاب على من يقتنيه ، وبأن تنفذ هذه الرسالة إلى كافة الجهات للعمل بما فيها^(٢) . وأمر الخليفة كذلك بمنع الثياب الحريرية الغالية ، والاجتزاء منها بالرسم الرقيق ، ومنع النساء من لبس الثياب الخفيفة ، والاقتصار على الساذج القليل ، وأخرج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباغ المذهب ، فبيعت منه مقادير وفيرة بأثمان باهظة . وهكذا هبت على العاصمة الموحدية ريح من الاقتصار والتواضع والتقشف ، واختفى كثير من ضروب الفساد التي كانت ذائعة بها^(٣) .

وعنى الخليفة في نفس الوقت بالعمل على بسط العدل وتأييده ورد المظالم التي وقعت أيام أبيه ، ومطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فنفلت كتبه إلى سائر الولاة والعمال بمراعاة العدل ، وتأسيس الرعية ، والعمل على إرضائهم في اقتضاء حقوقهم ، وكف الظلمة عن إرهابهم ، وإباحة جواز البحر إلى المشتكين ، والمتظلمين من شبه الجزيرة . فاستبشر الناس بالعهد الجديد وطواله ، وأملوا بتحقيق العدل والخير .

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٢) الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل الموحدية (ص ١٦٤ - ١٦٧) .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

ورأى الخليفة أن يقرن هذا التوجيه إلى تحقيق العدالة ، بأن يجلس للنظر بنفسه في المظالم وإجراء العدل ، واتخذ مجلسه لذلك الغرض بالمسجد الجامع المجاور لقصر الحجر القديم ، وكان بدأ جلوسه في غرة شهر رجب سنة ٥٨٠ هـ ، وكان يداوم جلوسه منذ الضحى إلى قرب الزوال . ويقد إليه المتظلمون من كل ضرب ، فيؤتسهم يرفقه ولينه ، ويستمع إلى ظلاماتهم ، وكثرت دعاوى المدعين من السوق والتجار ، قبل السادة والأشياخ والكابر ، بطلب الحقوق والأموال ، وكثر في ذلك الزور والتدليس ، فكان يقع الصلح في معظم الأحوال بما يرضى المدعين دفعاً للفضيحة ، فلما تبادى هذا الأمر ، وكثر وفود السفلة والغوغاء وانكشف أمرهم ، وبدأ تحاملهم ، قطع الخليفة جلوسه للعامة ، وأسدل الستار على هذا السيل من الإفك والبهتان^(١) .

وفي العام التالي ، اعترم الخليفة أن ينشئ له ضاحية ملوكية تتفق مع روعة الملك ومقتضياته ، وذلك بعد أن ضاق قصر الحجر القديم - قصر على بن يوسف - وملحقاته ، عن استيعاب الأغراض الخليفة ، ومطالب البلاط والحاشية ، فاخطت ضاحية الصالحة ، على رقعة مستطيلة تمتد في جنوبي مراكش ، ما بين باب أغات شرقاً وباب الشريعة غرباً . وكان البلد في إنشائها في مستهل شهر رجب سنة ٥٨١ هـ (٢٨ سبتمبر سنة ١١٨٥ م) وحشد لبنائها رهن من المهندسين والعرفاء ، وآلاف من العمال والبناين والفنانين ، من المغرب وإفريقية والأندلس ، وجمعت لها سائر الآلات اللازمة ، ورتب لها الحفاظ والنظار . وأمر الخليفة أن يراعى في إقامتها منتهى الإتقان والمناة ، وأنشئت بها عدة قصور ملوكية ، ومسجد جامع ، ما زال يقوم بها حتى اليوم ، ويحمل اسم منشئه الخليفة يعقوب المنصور ، واستمر العمل في بنائها نحو أربعة أعوام ، حيث كملت في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٤ هـ (مايو سنة ١١٨٨ م) ، وبدت في أجمل هيئة ، وأضحت عروس الحاضرة المراكشية ، بما أسبغ عليها من ضروب التنسيق والإتقان ، والفخامة^(٢) .

وفي نفس هذا العام الزاخر بمشاريع الإصلاح والإنشاء أعنى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) اتخذ الخليفة خطوة جديدة لها خطرهما ، في ميدان الإصلاح المالي ، وذلك هو

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٤ و ١٤٥ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٥ و ١٤٦ .

— ١٤٤ —

إقدامه على مضاعفة وزن الدينار الموحدى . وكان الدينار الموحدى القديم صغير الحجم ، صغير الوزن ، لا يعدو وزنه القانونى بحسب الوزن الحديث جرامين وخمسة وثلاثون فى المائة من الجرام ، فأمر المنصور بمضاعفة وزنه ، وأخرجت دار السكة الموحدية بمدينة فاس ، الدينار الحديد بوزن أربعة جرامات وسبعين فى المائة من الجرام ، فكان لذلك الإجراء أثر بالغ فى بث الطمأنينة المالية ، واستقرار التعامل بين الناس^(١) .

يبد أنه حدثت فى نفس تلك الفترة التى خيم فيها ظل الأمن والاستبشار على العاصمة الموحدية ، والتى عنى فيها الخليفة الجديد ، بأعمال الإصلاح والإنشاء — حدثت بإفريقية حوادث فى منتهى الخطورة ، إذ هاجم بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، أو أصحاب ميورقة ، ثغر بجاية واستولوا عليه ، واستولوا على عدة أخرى من ثغور الشاطئ ، وكان ذلك بداية ذلك الصراع المرير الذى نشب فى أراضي إفريقية بين الموحدين وبنى غانية ، واستطال أكثر من نصف قرن ، وكان له أبلغ الأثر فى انحلال الدولة الموحدية واستغراق جهودها ، وتبديد قواها ومواردها . ولا بد لنا لكى نفهم طبيعة ذلك الصراع وتطوراته ، والبواعث التى أدت إليه ، أن نعود فترة طويلة إلى الوراء ، نستعرض فيها تاريخ الجزائر الشرقية ، منذ أسندت ولايتها إلى بنى غانية أيام العهد المرابطى .

— ١ —

ذكرنا فيما تقدم من أخبار الدولة المرابطية أن أمير المسلمين على بن يوسف ، حينما غزا الجنوبيون والبيزيون وحليفهم أمير برشلونة ، الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فى أواخر سنة ٥٠٨ هـ (أوائل سنة ١١١٥ م) واستولوا على مدينة ميورقة بعد حصار طويل ، باحدر بتجهيز أسطول مرابطى ضخم لاسترداد الجزائر ، واستردها المرابطون بالفعل فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) وعين أمير المسلمين لولايتها وانور بن أبى بكر اللمتوفى ، فلبث فى حكمها زهاء عشرة أعوام ، ولكنه أساء السيرة واستبد وبغى ، حتى اضطرت الثورة فى الجزائر ، وقبض الثوار على وانور ، وبعثوا إلى أمير المسلمين ، يشرحون ظلاماتهم ، ويلتمسون إليه أن

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وراجع كتاب «الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة» المنشور بعناية الدكتور حسين مؤنس (مهد الدراسات الإسلامية بمديريت سنة ١٩٦٠) ص ٥١ .

يعين لهم والياً آخر ، فاستجاب أمير المسلمين إلى رغبتهم ، وعين والياً جديداً للجزائر ، ولم يكن هذا الوالى الجديد ، سوى محمد بن غانية المستوفى ، وهو أخو الأمير القائد أبى زكريا يحيى بن غانية ، وكان يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وتولى شئونها بحزم وكفاية ، وشاء القدر أن تكون ولايته للجزائر ، فاتحة عهد جديد فى تاريخها ، يتصل مدى أمد قصر بتاريخ الدولة المرابطية ، ثم يغلو بعد ذلك مستقلاً فى ظل بنى غانية .

وقد سبق لنا التعريف ببني غانية ، وتتبع سيرة زعيمهم القائد البطل يحيى ابن غانية ، حتى وفاته بغرناطة سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ، خلال غمار الثورة التي اضطرت بأرجاء الأندلس ضد المرابطين . أما أخوه محمد بن غانية ، فقد لبث على ولايته للجزائر ، حتى سقطت الدولة المرابطية ، ودخل الموحدون مراکش ، في شوال سنة ٥٤١ هـ (مارس ١١٤٧) . وكان محمد ، مذكرأى انهيار الدولة المرابطية ، وقيام أمر الموحدين ، يعمل على توطيد سلطانه بالجزائر ، والاستقلال بشئونها . ولما قضى الأمر وانتهت الدولة المرابطية ، لبث محمد مع ذلك على ولائه لقضية المرابطين ولمتونة ، واستمر يدعو في الخطبة لأمر المسلمين وبني العباس ، وجعل من ميورقة والجزائر ، ملجأ ومثوى للوافدين والفاقرين من فلول لمتونة والمرابطين ، يستقرون بها تحت حمايته ورعايته .

واستطال حكم محمد بن غانية للجزائر زهاء ثلاثين عاما ، وكان يرقب من من مقره الناقى بالبحر ، سير الحوادث ، وتقدم أمر الموحدين بشبه الجزيرة . بيد أنه كان يرى في قيام ابن مردنيش ضد الموحدين ، وتمكن سلطانه في شرق الأندلس ، عاملا يدعو إلى الطمأنينة . وكان مذ شعرا بتوطد أمره ، في تلك الجزائر المنعزلة ، يعترزم أن يجعل منها ملكاً موثقاً له ولعقبه : وكان له من الولد أربعة هم عبد الله وإسحق والزبير وطاحنة ، فاختار لولاية عهده أكبر أولاده عبد الله : وهنا تختلف الرواية فيقال إن إسحاق حقد على أخيه ودبر مؤامرة قتل فيها أبوه وأخوه . وفي رواية أخرى أن عبد الله خلف أباه في حكم الجزائر حينما توفي سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ، وأن أخاه إسحاق خلفه في الحكم بعد وفاته (١) .

وعلى أى حال فقد تولى اسحاق بن محمد بن غانية حكم الجزائر الشرقية ،

(۱) ابن خلدون ج ۶ ص ۱۹۰ ، والمعجب المراكشي ص ۱۵۲ ، وراجع أيضاً :

A. Bel : Les Benou Ohania (Paris 1903) p. 19.

وضبطها بحزم وقوة . واستمر على سياسة أبيه من جعلها ملجأ للوافدين من فلول لمتونة ، ورمزاً لثورة المرابطين الأخيرة ضد الموحددين . وكان أولئك المرابطون الوافدون على الجزائر يملونها بعونهم ، وروح البغض المتأصلة فيهم ضد الموحددين ، بقوى ذات شأن . وفي عهد إسماعيل نمت موارد الجزائر وقوتها نمواً كبيراً ، وأصبحت أساطيلها القوية عاملاً يحسب حساباً في ميزان القوى البحرية في هذا الجانب من البحر المتوسط . ويبدو من خطاب أرسله الفارس برنجيردي ترأجونا ، وهو من أشراف برشلونة ، وكان قد لجأ إلى ميورقة ، فراراً من اضطهاد أميره ، إلى ألفونسو الثاني ملك أراجون في سنة ١١٧١ (٥٦٧ هـ) ما كانت عليه ميورقة الإسلامية في ذلك العهد من القوة والازدهار ووفرة الموارد . وكانت حملات إسماعيل البحرية تتردد بالغزو بانتظام لشواطئ الممالك النصرانية القريبة ، وتشن فيها ، وتحرز مقادير عظيمة من الغنائم والسبي ، ويقول لنا المراكشي إنه كان يغزو هذه الشواطئ في العام مرتين^(١) . وفي الروايات النصرانية ، أن مسلمي ميورقة في عهد إسماعيل غزوا ثغر طولون في جنوبي فرنسا ، واستولوا عليه في سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأسروا الشيكونت هوجو جودفريد صاحب مرسيليا ، وعدة آخرين من أكابر النصارى ، وكان من أثر اشتداد قوة ميورقة البحرية ، وتوالي غزواتها لشواطئ الدول النصرانية القريبة ، أن سعت جمهوريات جنوة وبيزة والبندقية إلى عقد المهادنة والصلح مع إسماعيل ، فعقدت بين الفريقين في سنة ١١٧٧ (٥٧٣ هـ) معاهدة صلح وصداقة تعهد فيها كل منهما ألا يحدث أضراراً للآخر في البر ولا في البحر ، واستمرت هذه المعاهدة سارية حتى توفي إسماعيل في أوائل سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م)^(٢) .

ونحن نعرف أن ثورة ابن مردنيش ضد الموحددين ، استطلت زهاء ربع قرن حتى وفاته في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وفي خلال ذلك كان ابن مردنيش يسيطر على شرقي الأندلس كله ، وعلى أجزاء من الأندلس الوسطى . وكانت مملكة ميورقة خلال هذه الفترة ، تشعر بما تسبغها عليها سيطرة ابن مردنيش لشرقي الأندلس من طمأنينة وسلامة . بيد أن سلطان ابن مردنيش مالميث أن أخذ في التصددع ،

(١) المراكشي في المذهب ص ١٥٢ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 24 & 25

(٢) راجع : A. Campaner y Fuertes: Bosquejo Historico de la Dominación Islámica en las Islas Baleares (Cif. Espana Sagrada) p. 144-145.

ولاسيما منذ انقلب عليه صهره وحليفه القوى إبراهيم بن همشك وانحاز إلى الموحدين. ثم انتهى أمر ابن مردنيش وانهارت مملكة الشرق بوفاته (٥٦٧ هـ) ودخل الموحدون مرسية ، وبسطوا سيطرتهم على شرق الأندلس ، وأضحوا على مقربة من الجزائر. وهنا رأى إسحاق ابن غانية ، أن يتحول إلى مصانعة الموحدين ومهادنتهم ، فأخذ يرأسلهم ، ويبعث إليهم بنفيس الهدايا من خاصة غنائمه وسيبه ، وكان الموحدون في البداية ، يستصغرون شأن الجزائر ، ولا يحفلون بأمرها ، فلما سيطروا على شواطئ الأندلس وثغورها الشرقية ، ولما رأوا تقرب إسحاق منهم ، أخذوا يهتمون بشأنها ، ويدركون أهمية موقعها البحري ، فتوالت كتبهم على إسحاق بطلب الدخول في طاعتهم ، وبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى إسحاق كتابه بذلك في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) وطلب إليه بصفة رسمية أن يعترف بطاعته وأن يدعو له في الخطبة . فعرض إسحاق هذا الأمر على أكابر أصحابه ، فاختلف رأيهم بين الاستجابة والرفض ، فرأى أن يرجئ رده على الخليفة . وخرج في أسطوله غازياً إلى بعض السواحل النصرانية القريبة ، فقتل في بعض المعارك ، وقيل أنه طعن في حلقه ، وحمل حياً إلى ميورقة ، وهناك مات في قصره . وكانت وفاته سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م)^(١) .

ولما توفي إسحاق بن محمد بن غانية ، خلفه في حكم الجزائر أكبر أولاده العليدين محمد^(٢) . وكان قد اختاره في حياته لولاية عهده . وكان محمد يواجه في بداية حكمه تلك المشكلة الدقيقة ، التي أثارها الخليفة الموحدى بدعوته إلى خضوع الجزائر لسلطانه . وازدادت هذه المشكلة دقة بماعمد إليه الخليفة أبو يعقوب من إرسال سفيره إلى ميورقة في بعض السفن الموحدية ، التي سارت به من سبتة ، ليعرض الطاعة بنفسه على أميرها ، وليختبر مدى استعداد بني غانية للاستجابة إلى الدخول في الدعوة الموحدية . وكان سفير الخليفة إلى محمد بن غانية ، رجلاً من طراز خاص ، هو أبو الحسن علي البربرتي ، وهو ولد الفارس النصراني البربرتي El Reverter أو روبرتو القطلوني ، قائد جند الروم أو النصراني المرتزقة في الجيش المرابط أيام علي بن يوسف ، وقد أبلى البربرتي وجنده الروم

(١) المعجب ص ١٥٢ ، وكذلك A. Bel : Ibid; p. 24 & 25.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ . ويقول المراكشي إن الذي خلف إسحاق هو أكبر أولاده

علي (ص ١٥٢) .

حسباً فصلنا من قبل ، خبر البلاء في محاربة الموحدين ، وانتصر عليهم مراراً ثم توفى قتيلاً في إحدى المعارك ، وذلك في سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) وترك ولدين ، كان أحدهما على هذا الذي اعتنق الإسلام ، وتحول إلى خدمة الموحدين .

واستقبل محمد بن غانية سفير الخليفة بترحاب ومودة ، وأبدى استجابته إلى الدخول في طاعة الخليفة . وكان الخليفة أبو يعقوب عندئذ قد عبر البحر إلى الأندلس في جيوشه الحاررة ، وذلك في صفر سنة ٥٨٠ هـ (أبريل سنة ١١٨٤ م) ، قاصداً استئناف الجهاد ضد النصاري ، فلم يكن أمام محمد سوى الخضوع وسيلة لانتقاء الغزو الموحدى . ولكن إخوة محمد ، وهم على ويحيى وطلحة وعبد الله وسير وتاشفين ومحمد المنصور وإبراهيم ، لم يرقهم هذا الخضوع ، فثاروا ضد محمد ، وقبضوا عليه واعتقلوه ، وقدموا أخاهم علياً لولاية الجزائر ، ووضعوا في الوقت نفسه سفير الخليفة علياً البربري في شبه اعتقال ، وحالوا بينه وبين مغادرة الجزيرة ، واعتقلوا بحارة السفن الموحدية ، ووضعوا بها بحارة من ميورقة ، ولبثوا يطاولون البربري ، حتى جاءت الأنباء بمصرع الخليفة أبي يعقوب عقب موقعة شنترين ، وتفرق الجيوش الموحدية الغازية ، فعندئذ أعلن علي وإخوته جهاراً رفضهم للدعوة الموحدية والدخول فيها ، وألقوا بعلي البربري إلى ظلام السجن^(١) .

ولم يكتف بنو غانية — علي وإخوته — برفض طاعة الموحدين واعتقال سفيرهم ، بل فكروا كذلك في انتهاز فرصة ما أصاب الموحدين من آثار هزيمة شنترين ، وتفرق جيوشهم الغازية ، وجنوح الخليفة الجديد أبي يوسف يعقوب إلى القيام بأعمال الإصلاح والإنشاء في ظل السكينة والعافية ، لإنزال أول ضرباتهم بالموحدين ، فالتجّهوا بأبصارهم إلى إفريقية ، إلى تلك المنطقة المضطربة ، التي كانت دائماً مثار القلاقل والمتاعب للموحدين ، والتي كانت طوائف العرب بها تجعل بتقلبها من فريق إلى فريق ، ميزان القوى دائماً في تردد ، وأزمعوا غزو مدينة بجاية أقرب ثغور هذه المنطقة إلى ميورقة .

ولم يكن تفكير بنى غانية في غزو بجاية دون تمهيد سابق ، فقد اتصل علي ابن غانية ببعض العناصر الناقمة على الموحدين في المدينة ، من أولياء بني حماد

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك :

Campaner y Fuertes : Ibid, p. 146 : -A. Bel : Ibid; p. 29.

أمرائها السابقين ، وراسله جماعة من أهلها ، وكان يعتمد فوق ذلك على موازنة بعض طوائف العرب من بني هلال ورياح والأثبيج . ونحن نذكر ما حدث قبل ذلك بأعوام قلائل من ثورة بني الرند في قفصة ، وقيام الخليفة أبي يعقوب بإخماد هذه الثورة (سنة ٥٧٦ هـ) ، وإسناده عندئذ ولاية إفريقية لأخيه السيد على أبي الحسين ، وولاية بجاية والزاب لأخيه السيد أبي موسى عيسى ، وما حدث بعد ذلك بقليل من ثورة عرب بني سليم على مقربة من قابس ، وأسرفهم للسيد أبي الحسين وأصحابه عندما تصدوا لمقاومتهم ، ثم إطلاق سراحهم لقاء فدية كبيرة . وكان تكرار هذه الحوادث وأمثالها ، مما يشجع بني غانية على اختيار هذه المنطقة بالذات مسرحاً لمغامراتهم ضد الموحيدين .

وحشد على بن إسحاق الملقب بالمبورقي أسطولا صغيراً من اثنين وثلاثين سفينة تحمل نحو مائتي فارس وأربعة آلاف راجل ، تحت إمرة القائد رشيد النصراني ، واستخلف على ميورقة عمه أبا الزبير . وسار مع إخوته في سفنه صوب بجاية ، فوصلت بسلام إلى مقربة من الميناء . وكان كل شيء في المدينة هادئاً ، ولم يخطر ببال أحد من أهلها أن الغزاة على الأبواب . ودفع القائد رشيد رجاله في زورق إلى أسفل الأسوار للاستخبار والتحرى ، وكان والى المدينة السيد أبو الربيع سليمان عم الخليفة خارج المدينة وعلى مقربة منها راحلاً إلى الحضرة ، وقد حل بها السيد أبو موسى مع بعض أصحابه في طريقه إلى تلمسان ، ولم يك ثمة أية أهبات دفاعية يعتد بها . فقدمت السفن المهاجمة من المدينة . واحتشد رهط كبير من الغزاة في مكان معين قبالة الأسوار ، كان متفقاً على اختياره لاقتحام المدينة مع الضالعين مع الغزاة ، وتلى بعض هؤلاء من الأسوار ليدلوا الغزاة على عورات السور ، وثغرات الدفاع . واجتمعت جاهرين من أهل البلد لمقاومة الغزاة دون قائد يجمع شملهم ، ودون استعداد ، وقد تخاذل الرؤساء وأولو الأمر ، فسلط المبورقيون عليهم القسي والسهام ففتكت بهم . ثم تقدم الفرسان والمشاه ، واقتحموا المدينة من ثلمات السور ، واستولوا عليها ، وقبضوا على السيد أبي موسى وآله وعلى سائر الموحيدين الذي يخشى بأمرهم . وكان سقوط بجاية على هذا النحو في يد على بن إسحاق المبورقي في السادس من شهر شعبان سنة ٥٨٠ هـ (١٣ نوفمبر سنة ١١٨٤ م)^(١) .

(١) المعجب ص ١٥٣ ، والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٩١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ . ويأخذ ألفرد بل بهذا التاريخ Les Benou Ghania, p. 42 . ولكن صاحب البيان =

وأقام على بن غانية أسبوعاً في بجاية ينظر في شئونها ، وصلى بها الجمعة ، ودعا في الخطبة لبني العباس ، وللخليفة العباسي أحمد الناصر ، وكان خطيبه يومئذ هو خطيب بجاية الفقيه المحدث والأديب الشاعر ، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشيلي صاحب كتاب « الأحكام » وغيره . وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب ، حينما بلغه موقفه يزعم قتله والاقتصاص منه . ولكنه توفي غير بعيد ونجا من نقمته^(١) .

وترك على بن غانية النظر على بجاية لأخيه يحيى بمعاونة رشيد الرومي ، وخرج من فوره لمطاردة واليها السيد أبي الربيع ، وكان ما يزال على مقربة من بجاية ، فلحق به بموضع يعرف بياملول ، وكان معه رهط من الأعراب الموالين للموحدين فالتخلوا كعادتهم عند الشعور بالهزيمة ، وانضموا إلى ابن غانية ، وهزم السيد أبو الربيع ، وقتل عدد من رجاله ، وسقطت محلة بأسرها في يد العدو وفيها أهله وأمواله ، ولكنه استطاع الفرار إلى الجزائر ، ومنها إلى تلمسان ، فنزل بها على واليها السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، وأخذها في تحصينها ، والاستعداد في الدفاع عنها^(٢) .

وتابع على بن غانية زحفه المظفر صوب الجزائر فدخلها ، وقدم عليها يحيى ابن أخيه طلحة ، ثم سار إلى مليانة ومازونة ثم إلى أشير والقلعة (قلعة بني حماد) واستولى عليها جميعاً ، واستباح أهلها ، واستصفي أموالهم . وكانت مليانة ، وهي أهم هذه البلاد ، في الأصل مدينة رومانية ، جدها زيري بن مناد الصنهاجي وحصنها ، وكانت في ذلك الوقت حسبما يصفها لنا الإدريسي ، مدينة قديمة البناء ، حسنة البقعة ، نضرة المزارع ، ولها نهر يروي معظم مزارعها وجناتها ، قد ركبت على ضفافه الأرحاء ، ولأراضيها حظ من مياه نهر شلف ، وعلى ثلاثة أيام منها ، وفي جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشرش ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرسون ، وأوربة ، وبنو أبي خليل ، وكتامة ومطاطة ، وبنو مليت ،

= المغرب يضع تاريخ سقوط بجاية في التاسع عشر من صفر سنة ٥٨١ هـ (القسم الثالث ص ١٤٨) ويتابعه في ذلك ابن خلدون (ج ٦ ص ١٩٠) وكذلك الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٠ .

(١) المعجب ص ١٥٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٨ .

وبنو وارتجان وبنو أبي خليفة، ويصلائن، وزولات، وزواوة، وهوارة وغيرها .
وطول هذا الجبل مسيرة أربعة أيام ، وينتهي طرفه إلى مقربة من تاهرت (١) .
وقدم على بن غانية على مليانة يدّر بن عائشة ، ووقف بها أياما ، ثم عاد إلى
بجاية ، وهناك جلس بمسجدها الجامع ، فأقبل الناس لمبايعته والدخول في
طاعته ، والتف حوله الدهماء والعامة ، واستخرج ما كان في المخازن من الأموال
والثياب ، وكسا أوباش العرب ومن انضم إليهم من الأخطا والكافة ، ولما
رتب شئونه ببجاية ، ترك بها رشيداً الرومي إلى جانب ابن أخيه يحيى ، وسار
في قواته إلى قسنطينة ، ولكنها كانت على أهبة الدفاع ، واستبسل أهلها في
قتاله ، وقتلوا جملة من رجاله ثم اعتصموا بمدينتهم ، ف ضرب حولها الحصار ،
موثلاً أن تسقط في يده (٢) .

وعلم الخليفة يعقوب المنصور ، بتلك الحوادث المؤسفة ، وهو ما يزال في
بداية عهده ، وما يكاد يبدأ حملته الإصلاحية ، فاهتز لها ، وأدرك في الحال
خطورتها ، واعتزم أن يبذل قصارى جهده لقمعها ، فجهز حملة قوية من الخند
المختارة قوامها عشرون ألف مقاتل مزودة بوافر العدة والآلات ، وجعل قيادتها
لابن عمه السيد أبي زيد بن أبي حفص ، وسار في نفس الوقت أسطول موحدى
كبير من سبعة ، تحت قيادة أبي محمد بن إسماعيل بن جامع ، وأبي محمد بن عطوش
الكومي ، وأبي العباس الصقلي ، وسارت القوات البرية والبحرية وفق خطة
موحدة لمحاربة العدو ، متعاونين في البر والبحر ، وسار الجيش الموحدى أولاً إلى
فاس ، وتوقف بها وقتاً لاشتداد البرد والأمطار ، ثم رحل إلى تلمسان وكان بها
السيد أبو الحسن بن أبي حفص ، وقد حصن أسوارها وشحنها بالمقاتلة ومعه السيد
أبو الربيع والى بجاية السابق ، وكان قد لحاً إلى تلمسان ، وتوقف بها يرتقب
الفرصة لاستنقاذ أهله وذويه من قبضة العدو المغير .

وسار الجيش الموحدى من تلمسان شرقاً بحذاء الشاطئ ، والأسطول يحاذيه
من البحر ، وكان الخليفة يعقوب قد وجه إلى أهالى القواعد المغزوة ، كتباً يعلمهم
فيها بالأمن والأمان والصفح والإحسان لمن تعاون مع العدو . واستطاعت الجواسيس

(١) الإدريسي في « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٨٤ و ٨٥ ،
وكذلك الاستبصار في عجائب الأمصار (طبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) ص ١٧١ .

(٢) الرسائل الموحدية - الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٢ ، ١٧٣ . والبيان المغرب -
القسم الثالث ١٤٨ .

الموحدية أن تدس هذه الكتب تحت جناح الليل إلى مختلف القواعد ، فلما علم الناس أن القوات الموحدية قد اقتربت منهم ، وثبت طوائف كثيرة منهم بالاحتلين ولاسيا بالجزائر ، وقبضت على العديد منهم ، وبادر الأسطول الموحدى ، فاستولى على الجزائر قبل أن يصل إليها الجيش ، وأسر بها يحيى بن غانية وأتباعه الميورقيين ، ثم استولى على مليانة ، وكان حاكمها المرابطى يدّر بن عائشة قد فر منها ، فاقتنى أهلها أثره ، وطارده ثم قبضوا عليه وعلى أصحابه بعد معركة شديدة ، وسبق مع أصحابه مصفدا . ثم أعدم بعد ذلك . وكان السيد أبو زيد قد وصل عندئذ إلى وادى شلف ، وأمر بمتابعة الحرب ، وتقدم نحو بجاية على جناح السرعة ، إذ علم بأن ابن غانية يروم نقل السيد أبى موسى وزملائه من أكابر الموحدين إلى ميورقة ، وسار الأسطول إليها في نفس الوقت . وتقدم القائد أبو العباس الصقلى في إحدى السفن مع بعض أهالى بجاية ، ودسوا الكتب إلى أهلها بوصول القوات الموحدية ، فثارت العامة داخل المدينة ، وفتحوا الأبواب ، ونزل بحارة الأسطول وعلى رأسهم أبو محمد بن جامع إلى المدينة ، وفتكوا بالميورقيين وأنصارهم ، وفر يحيى بن غانية وأخوه عبد الله في عدد قليل من أصحابه ، ولحق بأخيه أمام قسنطينة ، وأسر الموحدون رشيداً الرومى قائد الميورقيين ، واستولوا على السفن الميورقية خارج الميناء ، وأطلق سراح السيد أبى موسى ومن معه من أكابر الموحدين . وهكذا استنفذت بجاية بضربة سريعة ، وكان استردادها في اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٨١ هـ (٢٢ مايو سنة ١١٨٥) ، بعد أن لبثت في قبضة بنى غانية نحو سبعة أشهر^(١) .

وفى ذلك الحين كان ابن غانية تحت أسوار قسنطينة ، وكانت المدينة المحصورة قد استنفدت كل وسائل الدفاع ، وأشرفت على السقوط في يد العدو ، ولكن ماكادت أنباء استرداد بجاية تصل إلى المحصورين ، حتى اضطرت قواهم المعنوية وثبتوا في معقلهم ، ورأى الميورقى من جهة أخرى ماحل بقضيته من الحسران ، بعد سقوط بجاية ، وضياح أسطوله ومصرع الكثير من أصحابه ، ونكول الأعراب عن موازرتة ، وخشى من إدراك الموحدين له ، وهو في هذه الحالة اليائسة ، فارتد عن قسنطينة مع إخوته وقلوله الباقية ، وتوغل في الصحراء ، بعيداً عن

(١) الرسائل الموحدية - الرسالة التاسعة والعشرون ، ١٧٦-١٧٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 50-53

المطاردة . ولم تمض على فراره ثلاثة أيام حتى وصل السيد أبو زيد في قواته إلى نيكلات على مقربة من بجاية ، وهناك وافاه طلبة بجاية وأكابرها وعلى رأسهم السيد أبو موسى ، وأخذ الجميع في الأهبة والاستعداد لمطاردة العدو القار ، وسبق إلى الحملة الموحدية كل من قبض عليه وأسر في بجاية من أنصار الميورقي سواء منهم من جاز معه من ميورقة ، أو من انحاز إليه ، ارتداداً عن الدعوة الموحدية ، وميزوا وقتل معظمهم . واستبقى يحيى بن طلحة الميورقي رهينة . وفي اليوم الثالث سار الموحدون في أثر ابن غانية واستمروا في مسيرهم حتى مقرة ونفاوس ، ولكنهم لم يستطيعوا إدراكه ، لأنه كان قد ألقى معظم أثقاله في الطريق وفرق قواته ، وسبق الموحدون بمراحل ، ولم يستطع الموحدون بقواتهم الكثيفة وعددهم الثقيلة لحاقاً به ، فعندئذ ارتد السيد أبو زيد في جموعه إلى بجاية ، وذلك بعد أن أنفقت الحملة الموحدية زهاء ستة أشهر في حركة متواصلة لم تنعم خلالها بقسط من الراحة^(١) .

أما على بن غانية ، فقد اتجه وأخوه يحيى في فلوله جنوباً ، واخترق جبال الأطلس إلى منخفض حندة ، ثم إلى منطقة الواحات الواقعة جنوبى ولاية إفريقية المسماة بلاد الجريد ، وهو ينهب الخلات الغنية في تلك المنطقة ، ويستميل بجيزيل صلاته طوائف العرب النازلين في تلك الأنحاء ، ولاسيما بنى رياح وبنى جشم . ولما اطمأنت نفسه وكثرت جموعه ، سار إلى افتتاح مدينة توزر ، فحضر حولها الحصار ، وقطع غابات النخيل المحيطة بها ، فقاومته المدينة بشدة ، ولكنه استطاع بمعاونة بعض الضالعين معه من أهلها أن يدخلها أخيراً . فلما دخل أغضى عن أهلها الذين ناصرته ومنحهم الأمان ، واستصنى أموال الآخرين ، ثم فرض عليهم فروضاً أخرى لافتداء أنفسهم ، فن استطاع أن يقتدى نفسه ، أطلق سراحه ، ومن عجز قتل ثم ألقى بعد قتله إلى بئر بالمدينة سميت فيما بعد بئر الشهداء ، وكان سقوط توزر في سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)^(٢) .

وكان السيد أبو زيد قد استقر في تلك الأثناء في بجاية ، وكانت المدينة قد سادها الاضطراب والقوضى ، وخربت دورها ومعاهدها ، وأفقرت سائر المناطق المحيطة بها ، وخربت على يد جند ابن غانية وأنصاره الأعراب ، وعدمت المؤن والموارد والغلات ، وارتفعت الأسعار ، وفر كثير من السكان وهاموا على

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٥١ .

(٢) رحلة التجاني (المنشورة بناية المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٥٨) ص ١٦٢ .

وجوههم ، ثم سرى الرباء إلى المدينة وكثر الموت . ووصلت أنباء تلك الحالة إلى الخليفة بمراكش ، وكثرت لديه الأقوال في حق السيد أبي زيد ، وقصوره عن معالجتها ، فبعث إليه معاتباً ، وحثاً على العمل لتدارك الأمر ، وغادر الأسطول في نفس الوقت مياه بجاية ، عائداً إلى قواعده في سبتة .

وبالرغم من ابتعاد الميورقي عن بجاية وأحوازاها ، وتوغله في القفار الجنوبية فإنه بعث جملة من جنده تحت إمرة غزى الصنهاجي ، فسار إلى مدينة أشير ، واقتحمها ، وقتل حافظها الموحدى ، فبادر السيد أبوزيد إلى توجيه ولده السيد أبي حفص عمر في قوة موحدية ومعه أبو الظفر بن مردنيش في جملة أخرى من الأجناد ، فساروا لقتال غزى وأصحابه ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها غزى وقتل ، وأرسل رأسه إلى بجاية وعاقب بها ، واستولى أبو الظفر بن مردنيش على محلة العدو وحرمه وعتاده وماشيته ، وحل عبد الله الصنهاجي مكان أخيه غزى في الدفاع عن أشير ، فاستماله القاضي أبو العباس بن الخطيب ، وأغراه بالعود ، واستنزه من المدينة ، ثم قبض عليه وأرسل إلى بجاية ، حيث صلب لإزاء رأس أخيه^(١) .

وكان من أحداث بجاية في هذا العام ، أن قُتل رشيد الرومي قائد ابن غانية السابق ، وقتل عدد من أهل بجاية ممن انحازوا إلى جانب بني غانية ، وكان من هؤلاء أبناء القائد ابن محلة ، وغُرب بنو حمدون من بجاية إلى سلا ، لاتهمهم بالتواطؤ مع بني غانية ، بعد أن أرغموا على تصفية أموالهم بها بثمان بخس ، وأبعد غيرهم من الأعيان أيضاً إلى سلا ، بعد أن صفيت أموالهم وديارهم^(٢) .

وعلى أثر ذلك استدعى السيد أبوزيد من قبل الخليفة إلى الحضرة ، فسار إليها في جملة من صحبه بالرغم من اشتداد البرد والأنواء خلال فصل الشتاء ، فلما وصل إليها أحسن الخليفة استقباله ، وأكرم وفادته ، وسرى بذلك عنه ما كان قد لحق به من أوزار الواقعة ، وتهمة القصور والإهمال .

وكان على بن غانية ، بعد أن استولى على توزر يطمح إلى الاستيلاء على قفصة . ونحن نذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف ، كان قد استرد قفصة في سنة ٥٧٦ هـ (١١٨١ م) وأخذها ثورة بني الرند ، وكانت المدينة بالرغم من

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٣ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٣ .

انضموا إليها تحت لواء الموحدين ، ما تزال مسرحا لمختلف الدسائس والتيارات ، وولاؤها للموحدين غير ثابت ، ولامستقر ، ومن ثم فإنه ما كاد الميورقي يزحف عليها بقواته ويضرب حولها الحصار ، حتى يادر أهل المدينة بإخراج الموحدين منها ، وتسليمها إلى الميورقي ، فوضع بها حامية من جنده المرابطين وحلفائه الجند الأتراك ، وجدد تحصيناتها ، وكان ذلك أيضاً في سنة ٥٨٢ (١١٨٦ م) .

وهكذا سيطر على بن إسحاق بن غانية الميورقي على معظم إفريقية ، وقطع بها خطبة الموحدين ، ودعا لطاعة الخليفة العباسي ، الناصر لدين الله ، وأرسل إليه في طلب المراسيم والخلع والأعلام السود . وكان مما يزيد في خطورة هذا الموقف بالنسبة للموحدين ، أن الميورقي استطاع أن يستميل إلى جانبه كثيراً من طوائف العرب من سليم ورياح وغيرهم ، واستطاع من جهة أخرى أن يعقد الحلف مع قراقوش الأرمني مملوك الأيوبيين وجنده الترك ، وكانوا قد نزحوا من مصر إلى الغرب واستولوا على طرابلس ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أطراف إفريقية الشرقية^(١) .

ويجب إن نشير بهذه المناسبة إلى الظروف التي وقع فيها نزوح أولئك الجند الترك إلى هذه الأنحاء من إفريقية . وذلك أنه لم تم استيلاء الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب على مصر ، على أثر وفاة الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، ووقعت الوحشة من أجل ذلك بينه وبين سيده القديم السلطان نور الدين ، ففكر بعض أمراء بني أيوب ، أن ينزحوا ، إذا ما تغلب عليهم نور الدين ، إلى بعض الجهات النائية المأمنة مثل ائمن أو المغرب . واتجه نحو المغرب بالأخص تقي الدين عمر بن شاهنشاه أخو صلاح الدين . واكتفه عدل عن مشروعه لما رأى ما يكتشفه من الصعاب والمخاطر ، ففكر اثنان من أولياء بني أيوب ، هما شرف الدين قراقوش الأرمني مملوك تقي الدين (وهو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين فيما بعد) وإبراهيم بن قراتكين المعظمي ، نسبة إلى الملك المعظم شمس الدولة أنجي صلاح الدين ، في تنفيذ المشروع ، وفرا في طائفة كبيرة من الجند الترك ، وسارا صوب المغرب ، ثم افترقا ليسعى كل منهما إلى مصيره فسار قراقوش إلى قلب ولاية طرابلس ، وافتتح سنترية وأوجلة ، ودعا للسلطان صلاح الدين ، وابن أخيه تقي الدين عمر ، ثم سار إلى فزان فافتتحها ، وقضى على دولة الهواريين القائمة بها

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

— ١٥٦ —

وكانت زويلة مقر ملكهم ، وخطب فيها أيضاً لصالح الدين وابن أخيه .
وقوى أمر قراقوش تباعاً ، فسار إلى طرابلس ، والتف حوله العرب من
بنى دباب ونهضوا معه إلى جبل نفوسة ، فاستولى عليه ، واستخلص منه أموالاً
عظيمة فرقها في حلفائه العرب ، ثم وفد إليه مسعود بن زمام أمير بنى رياح ،
وكان من الخارجيين على بنى عبد المؤمن فانضم إليه بقواته ، وضرب قراقوش
بقواته المشتركة الحصار حول طرابلس ، وكانت خالية من الأجناد والأقوات ،
فاستولى عليها بأسر أمر ، وذاع صيته واشتد ساعده ، وهرعت طوائف العرب
من كل فج إلى لوائه . وملك قراقوش كثيراً من أنحاء إفريقية المجاورة ، وتضخمت
موارده وقواته ، ومعظمها من العرب الذين عاثوا فساداً في تلك الأنحاء ، فجلبت
عليه من التخريب والنهب والإفساد ، بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك ، وأخذت
نفسه تحذنه بالاستيلاء على سائر إفريقية (١) .

— ٢ —

وفي ذلك الحين حدثت عيورقة حوادث هامة . وكان من الطبيعي بعد أن
خلت الجزيرة من معظم الجند والقادة ، منذ رحيلهم تحت إمرة عاهلهم على
ابن غانية إلى إفريقية ، واستولى الموحدون على سفن الأسطول الميورقي في مياه
بيجة ، أن تتخذ الأحداث بالجزيرة وجهة جديدة . وكان رسول الخليفة الموحدى
على البربرية منذ اعتقل بالجزيرة ، يرقب القرص لكي يتحرر من معتقله ، وليقوم
في نفس الوقت بضربة تحقق الغاية من رسالته . وألقى على فرصته في الاتصال
بالجند المرتزة النصارى من حراس معتقله ومن إليهم من أبناء ملتهم ، وكان
معظمهم يرومون مغادرة الجزيرة إلى أوطانهم ، فوعدهم على بأنهم متى عاونوه
على تحقيق غرضه ، فإنه يعمل على تسريحهم في أهلهم وأولادهم إلى أوطانهم .
وكانت أرومة البربرية وأصله النصراني ، مما يجبه إلى نفوس أولئك الجند النصارى
ويجعله موضع ثقهم وأملهم . والظاهر أيضاً أن البربرية استطاع أن يجذب إلى
جانبه بعض أعيان المدينة من أنصار محمد بن غانية المزعول وخصوم أخيه على .
وهكذا دُبرت مؤامرة قوامها الجند النصارى للخلع والى الجزائر القائم وهو طلحة
ابن إسحاق بن غانية ، وإعادة أخيه محمد المزعول ، ونفذ المتآمرون مشروعهم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٦ ، ورحلة التجاني ص ١١١ - ١١٣ ، وابن خلدون

ج ٦ ص ١٩١ و ١٩٢ .

فى يوم جمعة ، وفى وقت الصلاة ، حينما شغل معظم الناس بأداء الصلاة فى المسجد الجامع ، وغيره من المساجد . فأخرج المتآمرون علياً الربرير من بيته ، ووثبوا إلى مخازن السلاح ، فاستولوا على ما فيها ، ثم حاصروا القسبة ، وقتلوا من بها من الجند المرابطين ، وتحصن الربرير وأنصاره بالقسبة ، فحاصروهم جمهور من أهل ميورقة . وضربوا القسبة بالمخانيق وأرسلوا على من بها وإبلا من الحجارة والسهام . فأتى الربرير من داخل القسبة ، بأهل على بن غانية ، وفيهم أمه وأبنائه ، ووضعهم فوق الأسوار ، ليرغم المحاصرين على الكف عن ضرب القسبة ، فعندئذ هدأت الأمور ، واضطر أهل البلد إلى المفاوضة ، وتبادل العهود^(١) .

وعلى أثر ذلك استدعى محمد بن إسحاق بن غانية حاكم الجزائر السابق ، وكان قد خلعه لإخوته ، حينما اعترف بطاعة الموحدين عند مقدم الربرير إلى ميورقة ، واعتقل فى أقصى الجزيرة ، واتفق على إعادة تنصيبه والياً للجزائر ، ونزل الربرير عن القسبة والسلطة ، وأعلن طاعة الموحدين ، وخطب للخليفة الموحدى ، وجمع الربرير من الأموال والنخائر ما استطاع ، وسرح المرتزقة النصراني بأموالهم وأهلهم إلى بلادهم . ثم غادر الجزائر عائداً إلى المغرب ، وقصد إلى حضرة مراکش . ووقع ذلك فى أوائل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . وفى رواية أخرى أن محمداً بن إسحاق غادر ميورقة مع الربرير ولحق بالحضرة ، ليقدم طاعته بنفسه إلى الخليفة^(٢) . وهكذا حكم محمد بن إسحاق ميورقة فى ظل طاعة الموحدين الإسمية : ولما حاول الخليفة يعقوب المنصور بعد ذلك أن يجعل من هذه الطاعة حقيقة واقعة ، بتملك ميورقة ، وأرسل لهذه الغاية إليها أسطولا بقيادة أبى العلاء بن جامع ، أبى محمد أن يستجيب إليه ، واستغاث بملك أراجون فأمدّه بالجند ، ولم يستطع الموحدون تنفيذ مشروعهم . ومن جهة أخرى ، فإن الهدوء لم يستمر طويلاً بالجزائر ، ذلك أن أهل ميورقة ثاروا على محمد لخضوعه للموحدين ، ورفضوا إلى الولاية أخاه تاشفين . وفى رواية أخرى أنه لما وقف على بن إسحاق بن غانية وإخوته وهم بإفريقية ، على ما حدث فى ميورقة ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٥ و ١٥٦ . وراجع :

A. Bel : *ibid*; p. 68 & 66 وكذلك : Cmapaner y Fuertes ; *ibid*, p. 148 et suiv.

(٢) البيان المغرب ص ١٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ .

سار منهم عبد الله في بعض صحبه، وركب البحر إلى صقلية، وهناك زوده النصارى ببعض السفن فصار إلى ميورقة، والتف حوله جمع من أهل الجزيرة واستطاع أن يدخل ميورقة باسمالة بعض أعيانها، وأن ينزع الولاية لنفسه، وقبض على أخيه محمد، وبعث متغياً إلى الأندلس. فالتجأ هنالك إلى الموحدین فلولوه على مدينة دانية، واستقر عبد الله في ولاية الجزائر دون منازع. وعاد الخليفة المنصور فبعث أسطوله إلى الجزائر بقيادة أبي العلاء بن جامع، ثم أرسله مرة أخرى بقيادة الشيخ إبراهيم المزرجي، فقاوم عبد الله أشد مقاومة، وقتل كثير من الموحدین، ولم ينالوا مأرباً من ميورقة، ولكنهم استطاعوا الاستيلاء، على جزيرتي يابسة ومنورقة. وكان ذلك في سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م). واستردت الجزائر في عهد عبد الله قوتها ورخاءها، واستمر في رياستها أعواماً طويلة، وهو يعاود الغزوات البحرية للشواطئ النصرانية القريبة، حتى كان افتتاح الموحدین للجزائر في سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٣م) على ما نذكر بعد^(١).

عظم أمر على بن غانية بأنحاء إفريقية الجنوبية والوسطى، ولاسيما مذ تقاطرت طوائف العرب من بني هلال وجشم وبني رياح والأنبج إلى لوائه. وعقد التحالف بينه وبين قراقوش الأرمني وأجناده الترك الوافدين من مصر، وبسط سلطانه على سائر أنحاء إفريقية، ولم يبق بيد الموحدین منها سوى المهدية وتونس، ودعا على الخلافة العباسية حسبا أسلفنا، وتلقب بأمر المسلمين جرياً على ما كان عليه أمراء الدولة المرابطية^(٢) وبعث ولده عبد المؤمن إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد ليطلب إليه المدد والرعاية، فعقد له الخليفة على سائر ما يملكه، وبعث ديوان الخليفة هبة عبد المؤمن إلى مصر، خطاب الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين باعتباره نائب الخليفة بمصر والشام، فكتب له صلاح الدين كتابه إلى مملوكه قراقوش، بالعمل المشترك على تأييد الدعوة العباسية^(٣)، وكانت

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٥ و ١٥٦، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٧، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤، وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦.

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢.

استعادة الجزائر على يد عبد الله بن غانية وتمكن سلطان بنى غانية بها ، عاملاً جديداً ، فى ذبوع أمر على وتوطيد هيئته وسلطانه .

وبسط على بن غانية على إفريقية حكم لإرهاب مطبق ، وأطلق العنان لأحلافه من طوائف العرب ، يعيشون أينما استطاعوا فساداً ، ويطلقون أيديهم بالإبذاء والسلب والنهب والسبي ، لا يراعون حرمة ولا يرحمون ضعفاً ، وعلى لا يستطيع منعهم أو ردعهم استبقاء لولائهم ومحالفتهم . وقد وصف مؤرخ رحالة حالة إفريقية فى ذلك الوقت بإيجاز فى قوله « إنه هلك العباد وخراب البلاد » . وكان من شنائع على بن غانية ، أنه سار إلى جزيرة باشو بالقرب من حضرة تونس فى غضون سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، فسأله أهلها الأمان ، فنجحهم إياه ، ولكن ما كاد عسكره يدخل إليها ، حتى نهبوا سائر ما فيها ، وهتكوا الحرمات ، وفر من استطاع منهم إلى تونس ، ونزلوا بين أسوارها ، فأهلكهم البرد خلال فصل الشتاء ، وبلغ من هلك على قول الرواية اثنا عشر ألفاً^(١) .

وتوالت أنباء هذه الحوادث الإفريقية المزعجة على الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور فأهتمه ، وأدرك مبلغ خطورتها ، وبعث إليه أخوه السيد أبو عبد الله الذى كان قد حل مكان السيد أبى زيد فى ولاية إفريقية من تونس ، يستغيث به ويستنصره إلى تدارك الأمر بعد أن بلغ الخطر أقصاه ، وظهر عجز القوات الموحدية القليلة ، وأضحت سيادة الموحدين فى إفريقية على وشك الانهيار ، فاتخذ الخليفة أهبة للحركة إلى إفريقية ، وبدأ بالتحرك إلى تينملل ، حيث زار قبر المهدي ، جرياً على تقليدهم المأثور ، فى التيمن بزيارته ، عند الملمات والحوادث الحسام ، ثم عاد إلى مراکش ، وجهاز جيشاً مختاراً من الموحدين قوامه عشرون ألف فارس ، وغادر الحضرة فى قواته عقب عيد الفطر فى الثالث من شوال سنة ٥٨٢ هـ (١٧ ديسمبر ١١٨٦ م) مستخلفاً عليها أكبر أعمامه السيد أبا الحسن ، ومسنداً إليه فى نفس الوقت الإشراف على تكملة الأعمال الخاصة بضاحية الصالحة ، وتابع الخليفة سيره دون توقف حتى رباط الفتح ، وهناك وافاه ولاة الأندلس والمغرب ، فآلى إليهم بتعليقاته وتوجيهاته . وكان من الأمور الظاهرة فى تجهيز هذه الحملة الموحدية ، أن الخليفة لم يصطحب معه فى جيشه كتاب العرب إلا قلّة من أشياخ بنى رياح مثل بنى زيان وذلك تحوطاً من تقلباتهم

(١) رحلة التجانى عن ابن شداد ص ١٤ .

وخطر انسلاخهم أثناء القتال إلى جانب إخوانهم عرب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد اقتصر الخليفة في حشوده على القلة المختارة من الجند ، نظراً لصعوبة تموين الحشود الحرارة في إقليم خربت أرجاؤه ، ونضبت موارده ، من كثرة الغزوات والمعارك^(١) . وأصدر الخليفة أوامره المشددة في نفس الوقت إلى سائر العمال بالمنازل وأمهات الطرقات بتمهيد المسالك ، وتوطيد السبل ، ونصب الجسور في أماكنها ، وإعداد الأقوات والعلوفات ، فكان الجند يسرون في طرق ممهدة ، موفورة المرافق والموارد ، مما لم يكن معهوداً من قبل في مثل هذه الرحلات الغازية . واستراح الخليفة وجيشه في حضرة فاس ، وقضى بها معظم أشهر الشتاء ، وعمر إلى فاس وأهلها الجيش الموحدى ، بمختلف ضروب الإكرام والضيافات ، وجدد الجند أسلحتهم وعددهم وملأوا أزودتهم ، ونظر الخليفة في شئون المدينة ، وترتيبها على أكمل وجه ، ثم غادر الخليفة وجيشه فاس إلى رباط تازة وهو خلال الطريق دائب النظر في شئون الرعية ، ومجتهد في إزالة المظالم ، وتحقيق مبادئ العدل والإنصاف . وفي تازة لاحظ الخليفة أن معظم الإخوة والأعمام قد اختصوا بلباس الفقائر الزيبية ، والبرانس المسكية ، فأنكر عليهم اتخاذ ذلك الزي لكونه زى الخليفة في حالتي ركوبه وجلوسه ، فجمعهم السيد أبو زيد وإلى بجاية السابق باعتباره عميدهم ، المقدم عليهم ، وذكرهم بوجوب التزام المراسم الخلافية ، وأن يتجنبوا التشبه بالخليفة فيما هو خاص به فامتنعوا من ذلك الحين عن اتخاذ الملابس التي تحمل الألوان الخلائقية^(٢) .

ولما وصل الجيش الموحدى إلى أراضى قسنطينة ، وكان على بن غانية يرقب حركاته ، اجتمع ابن غانية في قواته من الميارقة والأعراب والأغزاز وبعض طوائف سليم ، على مقربة من القبروان ، وبدت ثلاثتهم أمام الجيش الموحدى ، وكان رأى الخليفة يعقوب أن يبادر بمهاجمة خصومه من قبل أن يكمل استعدادهم ، ولكن الأشياخ والوزراء رأوا في المجلس الذى عقد للشورى أن الأفضل ، أن يتابع الجيش الموحدى سيره إلى تونس ، وهناك ينال قسطه من الراحة والاستعداد ، وهكذا وصل الجيش الموحدى إلى تونس في شهر صفر سنة ٥٨٣ هـ .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٨ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٨ و ١٥٩ .

وقد كان هذا خطأ عسكرياً دفع الموحدون ثمنه غالياً . ذلك أنه لما وصل الجيش الموحدى إلى تونس ، واستراح الجند من أنقالمهم ، وجددوا مؤنهم ولوازمهم ، جهز الخليفة حملة من ستة آلاف فارس تحت إمرة ابن عمه السيد أبى يوسف يعقوب ابن أبى حفص ، وعمر بن أبى زيد من أشياخ الموحدين ، والقائد على البربرية ، وسارت هذه الحملة إلى مقاتلة على بن غانية وجموعه ، وكانت ترابط على مقربة من قفصة . فلما اقترب الموحدون من محلة الميارقة وحلفائهم الترك تحت إمرة قراقوش ، خرج إليهم على بن غانية فى جموعه ، والتقى الفريقان فى السهل المسمى بسهل « شجرة » وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ (٢٥ مايو سنة ١١٨٧ م) ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وظهر انقسام الجيش الموحدى واختلاله منذ البداية ، حيث تقدم الجناح الذى يقوده على البربرية إلى المهجوم فزقته سهام الأعداء وطعناتهم ، وسقط البربرية أسيراً وتفرق صحبه ، وحدث مثل ذلك حينما هجم القائد أبوعلى بن يومور فى طوائف العرب الذين يقودهم ، فخذلوه فى القتال كعادتهم المأثورة ، وأسر ابن يومور وقد أثنى جراحاً . واختلت صفوف الموحدين فى كل ناحية وكثر القتل فيهم ، وماتت النهار حتى كان الجيش الموحدى قد مزق تمزيقاً ، وفر السيد أبويوسف فى فل من أصحابه صوب تونس ، وهلك عدة من الأشياخ ، وفى مقدمهم عمر بن أبى زيد ، وبقي معظم الرجال ممن لم يستطيعوا الفرار ولاسيا الجرحى ، فلجأوا إلى قفصة ، وشجعهم على ذلك ابن غانية ، ووعدهم بالأمان وتركهم يملأون طرقات المدينة ، حتى إذا اجتمعوا فيها أمر بقتلهم ، فقتلوا جميعاً . وجلس ابن غانية بنجاء السيد أبى يوسف ، وجمعت بين يديه أسلاب الموحدين وأسلحتهم ، ففرقها فى جندده ، واقتيد إليه على بن البربرية وابن يومور ، فأمر بتعذيبهما ثم قتلهما ، وعلق رأس ابن يومور على باب قفصة . وكانت على الحملة هزيمة ساحقة للموحدين لم يصيبهم مثلها منذ بعيد^(١) .

وكان لتلك النكبة فى نفس الخليفة يعقوب المنصور أعمق وقع ، فاعزم أن يأخذ بالثأر ، وأن يستأصل شأفة العدو ، ولم يدخر وسعاً فى الأهبة ، وفى تمييز جيشه وفى إعداداته للضربة الحاسمة . ثم خرج فى قواته من تونس فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٨ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) وسار جنوباً صوب القيروان ،

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٠ و ١٦١ ، ورحلة التنجاني ص ١٣٦ و ١٣٧ . وراجع A. Bel : ibid ; p. 78 - 80

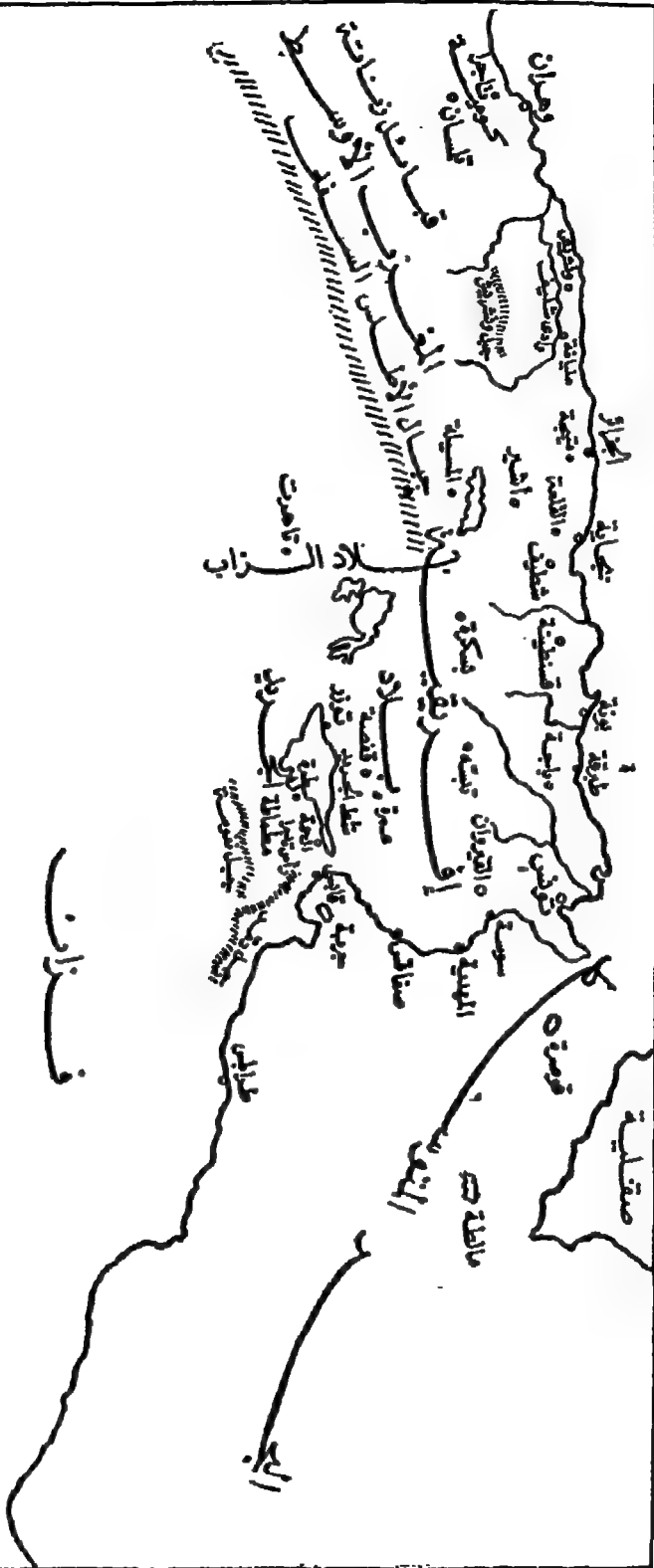
وقد برز الجيش الموحدى فى أروع حظه واكتمال عدته ، وسمة خطورته ، ولما وصل المنصور إلى القيروان ، وجه منها إلى ابن غانية وحلفائه كتابا يتذرهم فيه بوجوب دخول الطاعة ، ونبد الشقاق والعدوان ، فاعتقل ابن غانية الرسول ولم يجبه بشيء^(١) ولكنه جد فى أهباته . ورأى الخليفة خلال تجواله بالقيروان ، وأحيائها الخربة المفقرة ، ما انتهى إليه جامعها الشهير من العناء والبلى ، فبعث من فوره إلى ولاية شرق الأندلس : بإعداد كسائه وفرشه وزخارفه .

واستمر سير الجيش الموحدى بعد ذلك جنوباً فى طريق قابس حتى وصل إلى مقربة من « الحمة » الواقعة على مقربة منها ، وقد بدت طلائع العدو ، وكان على بن غانية وحلفاؤه من الترك والعرب ، قد عسكروا فى موقع حصين على مقربة من الحمة فى انتظار الموحدين . فضرب الموحدون محلهم إزاء العدو ، واعتزم المنصور أن يبادر منذ الغد بمهاجمة العدو ، وأن يقود المعركة بنفسه بالرغم من اعتراض القرابة والأشياخ ، وقدم المنصور على مختلف القبائل أشياخ قرابته وأكابر عشيرته . وماكاد الصبح يسفر ، وتبدد الشمس حجب الضباب المتراكم ، حتى دفع المنصور بعض قواته على معسكر العرب الضالعين مع العدو ، فبدد شملهم وأركنوا كعادتهم إلى الفرار ، واحتوى الموحدون على سائر أسلحتهم ، وفتت هذه الضربة الأولى فى عضد ابن غانية وحلفائه . ثم انقض المنصور بعد ذلك فى سائر قواته على جموع الميارقة والترك ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية عنيفة لم تدم سوى بضع ساعات ، وقد أدرك على بن غانية وحليفه أنهما يخوضان المعركة الحاسمة فى ظروف قاتمة . ولم يأت الظهر حتى كان الموحدون قد مزقوا صفوف العدو تمزيقاً ، وأبيد معظمهم بالقتل ، وفرقت فلولهم فى مختلف الأنحاء ، وكانت ضربة دموية ساحقة للميارقة والترك ، وفر ابن غانية وحليفه قراقوش فى بعض فلولهما صوب توزر ، فسار الموحدون فى أثرهم ، ولما اقترب الموحدون من توزر علم المنصور أن ابن غانية وحليفه قد فرا إلى الصحراء وغاض أثرهما . وتمت هذه الهزيمة الساحقة على ابن غانية فى يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٨٣ هـ (١٥ أكتوبر سنة ١١٨٧ م)^(٢) .

(١) الرسائل الموحدية - الرسالة الثلاثون ص ١٨٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ١٦٢ و ١٦٣ ، ورحلة التيجانى ص ١٢٦ ، و ١٢٧ و ١٢٨ ، والرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٨٨ . وكذلك :

A. Bel : ibid ; p. 81 & 82



إفريقية والمغرب الأوسط
ومن ألق الصرايح بين بني غانية
وبين المرقدين
سنة ٥٨٠ - ٦٠٥ هـ

وسار المنصور على الأثر إلى قابس ، وقد كانت مركز قراقوش ، فاستولى عليها في اليوم التالي بالأمان ، وقبض فيها على أهل قراقوش وذويه وصحبه ، بعد أن حاولوا عبثاً الامتناع بالقصبة ، واستصغى أموالهم ، وأرسلهم ، رقيقاً إلى مراکش^(١). ثم سار من قابس إلى بلاد الجريد في طرق وعرة مقفرة ، واستولى تباعاً على قواعد هذه المنطقة : نواوة وتوزر ، وتقيوس ، والحمة ، ونفطة ، وأهمها هي توزر عاصمة بلاد الجريد ، وقام أهل هذه البلاد ضد من كان بها من بقية الميارقة ، وأبادوهم قتلاً وأسراً ، وفرت فلولهم من توزر إلى الصحراء . ثم سار الموحدون بعد ذلك من توزر إلى قفصة ، وكانت بها بقية كبيرة من صحب الميورقي وحلفائه الغز ، فامتنعوا بها معتمدين على حصانها ، وأسوارها العالية ، فحضر الموحدون حولها الحصار ، وسلطوا عليها المجانيق وخربوا ماحولها من الزرع وغابات النخيل الهائلة ، وصنعوا برجاً عالياً من سبع طبقات ، شحن بالكمأة والرماة ، ودفع حتى حاذى السور ، وردموا الخندق المقابل لثلمة السور حتى ساوى وجه الأرض ، وأصبح السيل ممهداً لاقتحام المدينة ، بيد أن المهمة كانت شاقة ، وقد ألقى المدافعون عند أول محاولة ، على الموحدين ، وابلاً هائلاً من الأحجار ، فارتدوا ليستعدوا لإعادة الكرة في اليوم التالي . ولكن أهل المدينة أدركوا ما سوف يحل بهم من الدمار ، فخرج أعيانهم بالليل ، وقصدوا إلى الخليفة المنصور ملتسعين بالأمان ، وبحث المنصور الأمر مع القراية والأشياخ ، فاستقر الرأي على أن يؤمن أهل البلد الأصليين في أنفسهم وأموالهم ، وأن يؤمن الأغزاز (الغز) في أنفسهم وماملكت أيمانهم ، وأن يخرج كل من كان بالبلد من الحشود ، والغرباء على الحكيم ، وأنه لا أمان للميورقيين ومن والاهم من الصحب والأوباش ، فتم الاتفاق على ذلك ، وفي صباح اليوم التالي خرج سائر من بالبلد من الشيخ الهرم إلى الغلام اليافع ، ولم يبق بالبلد سوى النساء والأطفال ، وميز الناس ، وعزل منهم أهل البلد ، فأخلى سبيلهم ، وسُمح لهم بالرجوع إلى بلدتهم ، وعزل أصناف الجنود والغوغاء وسائر أهل الحشود ، ومن جعلهم إبراهيم بن قراتكين أحد قواد الغزو الوافدين من مصر وهو الذي سبق ذكره ، فقبض عليهم جميعاً ، وزجوا إلى برج الكبير ، ثم اقتيدوا بعد صلاة الظهر بين يدي المنصور ، فأمر بإعدامهم جميعاً فأعدموا زمراً ، وألقوا إلى الحفير ،

(١) الرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٠ .

ونقل المنصور محلته بعيداً عن مسرح المذبحة ، وأمر بهدم أسوار قفصة فهلّمت على الأثر . وكان الاستيلاء على قفصة فيما يرجح في أوائل ذي القعدة سنة ٥٨٣هـ (يناير سنة ١١٨٧ م) وليس في شعبان حسبما يقول صاحب البيان المغرب ، إذ كانت موقعة الحمة في التاسع من شعبان ، ثم كان بعدها الاستيلاء على قابس وسائر قواعد بلاد الجريد ، ثم حصار قفصة ، وقد اقتضى وحده مجهودات متعاقبة ، وليس من المعقول أن تقع هذه الأحداث كلها في أسبوعين أو ثلاثة ، ومن جهة أخرى فإن الخليفة يؤرخ رسالته التي وجهها من قفصة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش عن فتح قفصة في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٥٨٣هـ (١) .

ووصل إلى المنصور ، يوم حلوله تحت أسوار قفصة ، خطاب من قراقوش يعرب فيه عن خضوعه ورغبته في دخول التوحيد ، وأنه على استعداد إذا ما قبلت تويته أن يأتي إلى الموحدين مستنئياً طائعاً . وفي اليوم التالي وصل خطاب مماثل من أبي زيان زعيم الغز ، وزميل قراقوش السابق ، وهو الذي استقل بحكم طرابلس ، يعرب فيه عن انضوائه تحت لواء التوحيد ، وأنه قد أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها (٢) .

وكان لهذه الانتصارات الرنانة التي أحرزها المنصور على أعدائه في إفريقية أبعد صدى . وقد أكثر الشعراء بهذه المناسبة من نظم قصائد التهئة والمديح ، فكان مما قاله أبو بكر بن مُجبر في يوم الحمة قصيدة هذا مطلعها :

أسائلكم لمن جيش لهام	طلائعه الملائكة الكرام
أت كتب البشائر عنه ترى	كما يتحمل الزهر الكام

ومنها :

لقد برزت إلى هون المنايا	وجوه كان يحجبها اللثام
وما أغنت قسى الغز عنها	فليست تدفع القدر السهام
غدوا فوق الجياد وهم شخوص	وأمسوا بالصعيد وهم رمام

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٦ - ١٦٨ ، ورحلة التجاني ص ١٣٨ و ١٣٩ ،
والرسالة الثانية والثلاثون من رسائل موحدية ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .
(٢) الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٨ .

هو الأمير الرضى طوبى لنفس يكون لها بعصمته اعتصام
حياة الدين دولته فدامت لأمر قد أتيح له الدوام
سلام الله من قرب وبعد عليه وحسب ما نزل السلام
وعاد المنصور بعد افتتاح قفصة في قواته إلى تونس . ويقول لنا ابن عذارى
إنه دخل تونس في العشرة الأخيرة من شوال سنة ٥٨٣ هـ . ونحن نعتقد تبعاً لما
سبق أن أوضحناه عن تاريخ فتح قفصة ، أن عودته إلى تونس كانت بعد ذلك
بقليل . ومكث المنصور في تونس بضعة أسابيع ينظم الشئون ، ويوطد الأحوال
بعد ما طرأ عليها من الاضطراب والتزعزع ، وعقد لأخيه السيد أبى زيد على ولاية
إفريقية . ولما انتهى من ترتيب الشئون ، سار إلى المهدية وقد أعلن عزمه على
القفول إلى المغرب ، وأمر باتخاذ العدة للرحيل ، ف قضى بها فترة يسيرة ، وبعد
أن نظر في شئونها ، وندب عمالها ، غادرها مرتحلاً إلى الحضرة ، وذلك في المحرم
سنة ٥٨٤ هـ (مارس سنة ١١٨٨ م) .

فسار توأ إلى تلمسان عن طريق تاهرت ، حتى وصلها دون توقف أو تلوم .
وكانت قد وصلته خلال وجوده بإفريقية أنباء مقلقة عن بعض مؤامرات تُدبر ،
وعن بعض شخصيات من القرابة تتحفظ للتمرد والثوب . وكان أول من تلقاه
بتلمسان عمه السيد أبو إسحق إبراهيم بن عبد المؤمن ، وكان قد نُسى إلى الخليفة ،
أن هذا العم يطعن في آرائه ، ويسفه تصرفاته ، ولا سيما عقب هزيمة عُمره ،
فلما قدم للسلام عليه ، رده المنصور بيفاء ، وكان مريضاً منذ مدة ، فاشتد به
المرض ولم يلبث أن توفي .

بيد أنه كان ثمة ما هو أخطر من النقد الصراح . ذلك أنه على أثر هزيمة
مُحَمَّرة التي مزق فيها الجيش الموحدى وقتل معظم قاداته ، لاح لبعض السادة
أن دولة المنصور قد تصدعت دعائمها ، وأضحت على وشك الانهيار ، وكان
في مقدمة هؤلاء وأشدهم إقداماً وجرأة ، أخو الخليفة السيد أبو حفص عمر
الملقب بالرشيد والى مرسية ، وعمه السيد أبو الربيع سليمان والى تادلا . فأما الأول
وهو الرشيد ، فقد كان يبسط على ولاية مرسية حكم إرهاب حقيقى ، وكان
يسوم الناس الخسف ، ولا سيما التجار ، ويستصنى أموالهم بالإرهاب والقتل ،
ويستنزف ما فى بيوت المال ، وكان مما فعله أن قبض على ابن رجاء مشرف
مرسية ، وألزمه بإحضار تقييدات أبواب الجبابة ، ولما عجز عن ذلك أمر بقتله

فقتل ، وفر ابن سليمان صاحب العمل إلى بلنسية ، وكذلك فر منها الكاتب حكيم ابن محمد ناجياً بحياته ، ولكن الرشيد استدعاه بالخديعة ولين القول ، ثم غدر به وقتله ، والخلاصة أن الرشيد كان يرهق أهل مرسية ، خاصتهم وعامتهم بصنوف بطشه وبغيه . بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد . ذلك أن الرشيد كان يضمّر مشاريع أخرى . فلما وقعت هزيمة عمرة ، اضطربت مخيلته بمختلف الأطماع والمشاريع ، وبادر بالاتصال بألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وعقد معه حلفاً سرياً تسربت أنبأؤه إلى الخليفة مع الواصلين من الأندلس . فلما حدثت موقعة الحمة ، وأحرز المنصور نصره الساحق على ابن غانية وحلفائه ، أدرك الرشيد أنه توغل في أوهامه ، وارتد إلى شيء من التعقل والتريث ، ولم يلبث أن وصله أمر أخيه الخليفة بالاستدعاء إلى حضرة مراکش ، فسار إليها وهو معتمد على عطف أخيه وصفحه وإغضائه ، وتنفس على أثر رحيله شتق أهل مرسية .

وأما السيد أبو الربيع عم الخليفة ، فقد كان ممن عارض في توليته وتخلّف عن مبايعته منذ البداية ، وكان حين وقعت حوادث إفريقية يتولى النظر على إقليم تادلا الواقع على مقربة من شمال شرق مراکش ، فلما وقعت نكبة الجيش الموحدى بعمرة ، أخذ السيد أبو الربيع في مفاوضة بعض قبائل صنهاجة القرية لمعاونته على الثورة ، والقيام بأمره ، فلم تنجح محاولته ، وأعرضت تلك القبائل عن مسأومته . وسار إليه في نفس الوقت السيد أبو زكريا يحيى بن السيد أبي حفص في سرية كبيرة من الموحدين ، فأحاطت بقاعدة تادلا ، وحالت بين السيد أبي ربيع وبين أية حركة أو نشاط نخشى منه ، ولم يجد السيد أمامه سيلا سوى التوبة والاستسلام ، فأمر بالذهاب لمقابلة الخليفة ، وكان الخليفة في طريقه إلى الحضرة ، فقصده إليه في محلته على مقربة من مكناسة ، ووصل السيد أبو حفص عمر الرشيد في نفس الوقت قادماً من الأندلس ، فأمر الخليفة بنزوله مع نفر من صحبه وحاشيته على انفراد . ثم أمر بالقبض على السيدين أخيه وعمه ، وبعث بهما مكبولين إلى رباط الفتح ، واعتقلهما بالقصبة ، حتى يصدر في شأنهما أمره . ولما وصل الخليفة إلى مراکش ، وانتهت مراسم التحية ، واستقبال الوفود ، بحث مع السيد أبي الحسن ، نائبه بمراكش ، ومع أشياخ الموحدين ، أمر السيدين المذنبين ، وذلك على ضوء ما صدر منهما من محاولات في الخروج والثورة ، وهو ما يستوجب إعدامهما شرعاً ، وانتهى الأمر بتقرير إعدامهما ، وبعث الخليفة إلى عثمان

ابن عبدالعزيز الكوي قائد قصبة رباط الفتح ، بأن يتولى تنفيذ هذا الحكم فيهما ، فقام بالمهمة ، وضرب عنقهما ، وقتل معهما في نفس الوقت عدد من تحقق اشتراكه معهما في محاولتهما^(١) . ويزيد صاحب روض القرطاس على ذلك ، أن الخليفة قتل أيضاً أخاه أبا يحيى ، بمعنى أنه أمر بإعدام ثلاثة من السادة دفعة واحدة ، أحد أعمامه ، واثنين من إخوته^(٢) ، ووقع ذلك فيما يرجح في أواسط سنة ٥٨٤ هـ ، (١١٨٨ م) . ويقول لنا المراكشي إنه كان لهذا التصرف الدموي وقع عميق لدى قرابة الخليفة فهابوه ، واشتد خوفهم وتوجسهم منه بعد أن كانوا يتهاونون بأمره ويحتقرونه ، لأشياء كانت تصدر منه في صباه أيام أن كان بالأندلس والياً لإشبيلية^(٣) . وما كاد المنصور يستقر بمراكش ، بعد أن اطمأن إلى استتباب السكينة ، وتوطد سلطان الموحدين بإفريقية ، حتى أخذ ينظر في شئون الأندلس . وكانت الأحوال في شبه الجزيرة ، قد أخذت خلال انشغاله بحوادث المغرب وحملته إفريقية ، تتطور بصورة تدعو إلى القلق ، واشتد عدوان البرتغاليين من جهة على قواعد ولاية الغرب الجنوبية وانتهى بالاستيلاء على شلب وأحوازها ، ووصلت غارات القشتاليين من جهة أخرى إلى أحواز إشبيلية ، ومن ثم فقد خص المنصور شئون الأندلس بعنايته ، وأخذ في الاستعداد لتدارك تلك الحال ، والعمل على قمع عدوان التصاري . فأذاع الدعوة إلى الجهاد على حكم الاختيار والتطوع ، فتقاطرت جموع المتطوعين المجاهدين إلى الحضرة ، من سائر جنابات المغرب ، ومن مختلف الطوائف والقبائل ، وبعث الخليفة إلى العمال بالاستعداد ، وضرب الآلات الحربية ، وإعداد العتاد والأقوات ، ثم ندب لولاية إشبيلية ابن عمه السيد أبا حفص يعقوب بن السيد أبي حفص عمر ، وكان موضع ثقته وإيثاره ، كما كان أبوه من قبل موضع حب أبيه وإيثاره ، وذلك لكي يعمل على مواجهة الأحداث بالأندلس بروح وهمة جديدين ، وندب ابن عمه السيد أبا الحسن ابن أبي حفص والياً لتلمسان ، وعهد إليه بشئون المخازن والمؤن ، والسهر على إعدادها وتوفيرها للحشود المقبلة^(٤) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧١ - ١٧٣ ، والمعجب ص ١٥٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٣) المعجب ص ١٥٧ ، ويقول لنا المراكشي أيضاً إن قتل السادة كان في سنة ٥٨٣ هـ ،

وهو تاريخ خاطئ ، لأن عودة الخليفة من غزوته الإفريقية ، كان في الحرم سنة ٥٨٤ هـ .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٤ .

الفصل الثاني

حوادث الأندلس وإفريقية

أطماع البر تغال في ولاية الغرب . تهوؤ الفرص لتحقيقها . مقدم السفن الصليبية إلى مياه أشبونة . اتفاق سانشو ملك البرتغال مع الصليبيين على غزو شلب . موقع شلب وخواصها في ذلك العصر . سير سانشو وحلفائه الصليبيين إلى الجنوب . زحفهم على شلب واستيلائهم على أرباضها . محاصرة شلب وضربها . صمود المدينة . قطع النصارى لها عنها . اضطرابها إلى التسليم بالأمان . خروج المسلمين منها واستيلاء النصارى عليها . غزوات القشتاليين في منطقة إشبيلية . تأهب الخليفة أبي يوسف يعقوب للجهاد بالأندلس . سيره إلى رباط الفتح . عبور الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . سير الخليفة إلى قرطبة . اجتماع الحشود الموحدية بالأندلس ، وسيرها إلى شلب . سير الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية . عقد ملكي ليون وقشتالة الصلح مع الخليفة . سير الخليفة في قواته من قرطبة إلى وادى التاجة . غزوه لمنطقة شترين . استيلائه على قلعة طرش . محاصرته لطومار . تخريبه لبساط تلك المنطقة . صمود طومار . أمر الخليفة بالكف عن النزول . عوده في قواته إلى إشبيلية . عود الجيش المحاصر لشلب . فشل هذه الغزوة لأراضى البرتغال . نظر الخليفة في أمر المسجونين والعامل . فتنة الجزيرة ومطاردته . ما أذيع حول شخصه . القبض عليه وإعدامه . حقيقة أمره ودعوتة الإصلاحية . سفارة صلاح الدين إلى المنصور . ظروف الشرق الإسلامى يومئذ . عدوان الصليبيين واستيلائهم على ثندور الشام وبيت المقدس . نهضة صلاح الدين وتحطيمه للمملكة اللاتينية . أثر ذلك في مضاعفة الغرب لأهباته المدوانية . اتجاه صلاح الدين إلى طلب العون من المغرب . رسالته الأولى إلى الخليفة الموحدى . سفارته إليه على يد ابن منقذ . ما جاء في رسالته إلى الخليفة . أقوال الروايات المصرية والمغربية عن حركات السفير المصرى ومسير سفارته . استقبال الخليفة لابن منقذ وتسليم هدية صلاح الدين . فشل هذه السفارة وبواعت هذا الفشل . المغزى العظيم الذى تنطوى عليه . أهبة المنصور لاستئناف الغزو . خروجه في قواته من إشبيلية . سيره إلى البرتغال . مهاجمته لقصر الفتح . تسليم النصارى إيهاها بالأمان . استيلاء الخليفة على حصن قلالة والحصون المجاورة . سير الموحدين إلى شلب . محاصرتها وضربها بالمجانيق . اقتحامها وتسليمها بالأمان . عود المنصور إلى إشبيلية . عبوره إلى العلوة ومسيره إلى الحضرة . مرض المنصور . اختياره لولده محمد لولاية العهد . ملخص بيعة أهل قرطبة لولى العهد . مقدم السيد أبى زيد وأشياخ العرب . استجاء الخليفة بفاس . سيره إلى رباط الفتح وتجديد قصبها . عوده إلى مراكش . أمره بإنشاء حصن الفرج بشرق إشبيلية . فتنة الأشل ببلاد الزاب . مطاردة والى بجاية له . حماية العرب له . تحيل اللواى في القبض على العرب . اضطراب عائلتهم إلى القبض على الثائر وتسليمه . استئناف بنى غانية لحركاتهم . عيهم في بلاد الجريد . وفاة على بن إسماعيل ابن غانية . قيام أخيه يحيى مكانه بالأمر . توحيد قراش ومسيره إلى تونس . بواعت هذا التصرف . فراره من تونس وعوده إلى مفاخراته . استيلائه على طرابلس . الخلاف بينه وبين يحيى . هزيمة قراش وفراره . استيلاء يحيى على طرابلس . ثورة أهل طرابلس وعودهم لطاعة الموحدين .

لم يكن ثمة شك في أن نكبة شترين ، وما ظهر خلالها من عجز الجيوش الموحدية الجرارة ، واختلال نظامها ، كان له أكبر الأثر في إذكاء أطماع ملك البرتغال ألفونسو هنريكز (ابن الرنق) في انتزاع ما تبقى من ولاية الغرب الأندلسية ، وفي مضاعفة شهوة العدوان والتغلب ، في نفسه الوثابة المضطربة . ولكن ألفونسو هنريكز لم يعيش طويلاً ليقوم بنفسه بتحقيق هذه الأطماع العريضة ، إذ توفي في السادس من شهر ديسمبر سنة ١١٨٥ م (أواخر سنة ٥٨١ هـ) ، بعد أن حكم مملكة البرتغال زهاء نصف قرن ، وبعد أن وطم أدركانها ، ووسع حدودها شرقاً وجنوباً على حساب الأراضي الإسلامية ، وكانت وفاته لنحو عام ونصف فقط من وفاة الخليفة أبي يعقوب يوسف عقب نكبة شترين . فخلفه ولده سانشو الأول ، وهو يضطرم بمثل أطماعه ، وقضى أعوام حكمه الأولى في العمل على إصلاح البلاد والحصون التي خربتها الحرب ، وتعميرها بالسكان . ومنذ بداية سنة ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) نراه يعد العدة لاستئناف غزو الأراضي الإسلامية . وكانت كل الظروف تشجعه ، وتعصده مشاريعه . فقد كان الخليفة الموحدى ، بعيداً في المغرب تشغله أحداث إفريقية ، ومغامرات بني غانية ، ومؤتمرات الحوارج عليه ، وكانت هذه الأحداث الحولية الخطيرة تجعل من المتعذر على الخليفة الموحدى ، أن يبعث بشيء من حشوده إلى شبه الجزيرة ، وكانت القوات الموحدية بالأندلس قليلة العدد والعُدَد ، لانتكفى لدفع عدوان النصارى سواء من ناحية مملكة قشتالة أو مملكة البرتغال . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الظروف تهيئ لنصارى البرتغال أممداً طارئة لم تكن في الحسبان ، هي الأممدا الصليبية ، التي عادت تنقاطر إلى المشرق من ناحية المحيط ، لتتجدد الجيوش الصليبية التي ضعفتها ضربات صلاح الدين ، وسقوط المملكة اللاتينية ، باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس في رجب سنة ٥٨٣ هـ (أكتوبر سنة ١١٨٧ م) .

في أوائل سنة ١١٨٩ م (أوائل ٥٨٥ هـ) ، وصل أسطول صليبي ضخيم من خمسين سفينة ، يحمل عدداً وافراً من الجند الألمان والقلمنك إلى مياه إسبانيا الغربية في طريقه إلى البحر المتوسط ، ورسا في مياه جليقية قبالة مدينة شنت ياقب المقدسة ، ونزلت منه بعض طوائف من الجند لتزور قبر القديس ياقب ، ولكن أهل المدينة توجسوا شراً من مقدم أولئك الجند ، وخشوا أن تمتد أيديهم إلى الذخائر التي يحفل بها مزار هذا القديس ، فردوهم بعد معركة عنيفة ، قتل فيها عدد من

الجانبيين ، وعاد الجند الصليبيون إلى سفنهم ، فسارت بهم نحو الجنوب . وتقدم في نفس الوقت إلى هذه المياه أسطول صليبي آخر من إنجلترا وبلاد القلاندر ، ودفعته الأنواء والعواصف الجاححة نحو مياه أشبونة ، ثم انضمت إليه السفن القادمة من مياه جليقية ، فاجتمع بذلك في مياه أشبونة عدد ضخم من السفن الصليبية ، تحمل ألوفاً عديدة من المقاتلة ، فتلقاهم سانشو ملك البرتغال بترحاب ، وألقى في مقدمهم فرصة طيبة للاستعانة بهم في غزو القواعد الإسلامية الجنوبية ، وتقاتلهم مع الرؤساء والقادة الصليبيين على تسيير حملة قوية مشتركة إلى مدينة شلب ، لانتزاعها من المسلمين ، لأنهم يتخذونها بالأخص قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط يغزونها ، وينهبون ثغورها ، ويأسرون كثيراً من النصارى^(١) ، فاستجاب إليه الصليبيون ، بما أذكى أطماعهم من إحراز الغنائم والثروات من أراضي المسلمين .

وكانت شلب ، في ذلك الوقت ، بعد باجة وبابرة ، أمتع قواعد ولاية الغرب الأندلسية ، وأوفرها عمراً وثراء ، وهي تقع في أقصى جنوبي البرتغال ، على مقربة من المحيط ، فوق ربوة متدرجة تشرف على نهر دراد الذي يصب في المحيط جنوباً قرب ثغر بورتماو الصغير ، ومن حولها بسائط خضراء ، تكثر فيها غابات الزيتون ، والحدائق والحقول اليانعة ، وإليك كيف يصفها لنا الشريف الإدريسي ، وقد زارها قبل ذلك بنحو نصف قرن :

« ومدينة شلب حسنة في بسيط من الأرض وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات . وشرب أهلها من وادئها الجارى إليها من جهة جنوبها وعليه أرحاء البلد ، والبحر منها في الغرب على ثلاثة أميال ، ولها مرسى في الوادئ وبها الإنشاء ، والعود يجبالها كثير ، يحمل منها إلى كل الجهات . والمدينة في ذاتها حسنة الهيئة يديعة المباني مرتبة الأسواق ، وأهلها سكان قراها من عرب اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء خاصتهم وعامتهم »^(٢) . تلك هي شلب الإسلامية التي أزمع سانشو ملك البرتغال وحلفاؤه الصليبيون

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٧٥ ، وأشباخ في تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٣٢٩ و ٣٣٠ ، وراجع أيضاً :

Huici Miranda: Impeio Almohade, cit. Las Crónicas dos Sete Reide Portugal p. 842

(٢) الإدريسي في وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ص ١٧٩ و ١٨٠) ، وقتله صاحب الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٠٦ .

أن يتزعموها من المسلمين : ففي أوائل سنة ٥٨٥ هـ (أوائل سنة ١١٨٩ م) ، بعث سانشو بقواته البرية جنوباً صوب شلب ، وسارت سفن الصليبيين من خليج التاجه حذاء الشاطئ البرتغالي حتى مياه نهر بورتماو الصغير ، الواقع على قيد إثني عشر كيلومتراً من جنوبي شلب . وبدأ البرتغاليون بمهاجمة حصن ألبور^(١) الواقع على مقربة من غربي بورتماو ، وقتلت حاميته الإسلامية ومن كان به من اللاجئين المسلمين ، وعددهم جميعاً يقرب من الستة آلاف^(٢) ، ثم زحف سانشو بعد ذلك في قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، نحو المدينة الإسلامية ، وهاجموا أرباضها ، واستولوا عليها في الحال . وكان والي المدينة عندئذ الحافظ عيسى بن أبي حفص ابن علي ، رجلاً عاجزاً قليل الخبرة يشئون الدفاع ، فامتنع بقواته داخل المدينة ، معتمداً على حصانها الطبيعية ، وأسوارها القوية العالية ، وشغل الصليبيون عن مهاجمة المدينة بنهب ما حولها من الأرباض والمحلات ، وحاول سانشو مدى بضعة أسابيع أن يقتحم المدينة بالهجوم في قواته ، ولكن محاولاته ذهبت عبثاً : فاضطر أن يلجأ إلى الحصار ، وأن يستدعي قوات جديدة لمعاونته قدمت في أربعين سفينة جديدة . وتضع الرواية النصرانية بدأ حصار شلب في ٢١ يولييه سنة ١١٨٩ م (ربيع الآخر سنة ٥٨٥ هـ) . وحاول سانشو في بدء الحصار أن يعاود اقتحام المدينة ، فصرها بالحنانيق والنبال ضرباً شديداً ، ولكن ذلك لم يؤثر شيئاً على تحصينات المدينة القوية ، وحاول الحشد القلمنك من جهة أخرى أن يحفروا السرايب تحت الأسوار وأن يحدثوا بها ثلمات للدخول ، فأحبط أهل المدينة كل محاولاتهم . وكان من الممكن أن يطول هذا الموقف ، وأن تصمد المدينة للحصار ، مدة طويلة ، لولا أن عمد سانشو إلى محاولة قطع الماء عن المدينة ، وإرغامها إلى التسليم من جراء العطش . وكانت شلب تستمد ماءها من النهر القريب بواسطة بئر كبيرة أقيمت قرب السور تسمى « القراجة » ، وأقيم فوقها لحمايتها برج قوى ، ففكر المحاصرون في هدم هذا البرج ، وهاجموه بواسطة السلام ، فلما رأى المسلمون هذه المحاولة ، خرجوا لمنعها ، ونشبت حولها معركة تفوق فيها النصاري واستولوا على البئر . وكانت هذه بالنسبة للمسلمين ضربة مؤلمة ، لم تلبث أن حققت نتائجها المحتومة . ذلك أن العطش أخذ إلى جانب الجوع ، يحدث أثره

(١) حصن ألبور بالإفرنجية Alvor .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٥ .

المروع في أهل المدينة ، وكان النصارى يترقبون الفرصة القريبة لمهاجمة المدينة واقتحامها ، بعد أن يعجز أهلها عن الدفاع تماماً . ولكن المدينة لم تستطع أن تصمد حتى هذه اللحظة ، ولم يلبث أن بعث أهلها وفدهم إلى سانشو ، يعرض عليه تسليم المدينة ، إذا وافق على أن يخرجوا منها حاملين سائر أمتعتهم ، فتفاوض سانشو مع حلفائه ، وكان رأى القلمنك الصليبيين أن يقتل أهلها المسلمون جميعاً ، ولكن الرأى انتهى بإقناعهم بالحصول على أسلاب المدينة ، واتفق في النهاية على أن يؤمن أهل المدينة في أنفسهم ، وأن يتركوا البلد بجميع ما فيه من أموالهم وأثاثهم . وهكذا غادر أهل شلب مدينتهم « مسلوبين » ، ودخل النصارى مدينة شلب ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، في يوم الاثنين العشرين من رجب سنة ٥٨٥ هـ (٣ سبتمبر سنة ١١٨٩ م)^(١) .

وكان سقوط مدينة شلب على هذا النحو ضربة قاصمة لسلطان الموحدين في ولاية الغرب ، إذ كانت هي آخر معاقلهم في تلك المنطقة الحساسة ، وسقوطها بعد سقوط باجة قبل ذلك بعشرة أعوام ، يفتح الطريق لتهديد بقية ولاية الغرب في اتجاه ولبة ولبلة ثم إشبيلية . على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن القشتاليين كانوا من الناحية الأخرى ، يهددون موسطة الأندلس ، ومنطقة إشبيلية بالذات ، بغاراتهم المتوالية . ففي نفس الوقت الذي سارت فيه القوات البرتغالية والصليبية لافتتاح شلب ، خرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة في قواته ، نحو منطقة قرطبة ، ثم اكتسح البساط شرقاً نحو إشبيلية ، وهو يعيش فيها قتلاً وسلباً ، فخرجت قوات إشبيلية إلى لقاءه فأوقع بها الهزيمة ، والتجأت فلولهم إلى حصن المنار ، فطاردهم النصارى واستولوا على الحصن ، واستأصلوا من فيه من المسلمين قتلاً وأسرأ . ولم يمض قاييل على ذلك ، حتى سار ألفونسو إلى أم غزالة ، وكانت قد أخليت من سكانها قبل وصوله ، فحاصرها وقتلاً ثم تركها ، وسار إلى ريينة ، واستولى عليها ، وقتل معظم سكانها وأسر الباقين ، واستمر في حملته الغازية حتى قلعة جابر ، ثم حصن شلر ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة ٥٨٥ هـ (أغسطس سنة ١١٨٩ م)^(٢) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٥ و ١٧٦ ، والروض المطار (صفة جزيرة الأندلس ص ١٠٦) وراجع : Huici Miranda : ibid; (cit. Relaciones). p. 342 - 345 .
(٢) البيان المغرب ص ١٧٥ و ١٧٦ .

- ١٧٥ -

وعاد ملك قشتالة بعد حملته المظفرة إلى طليطلة .

- ١ -

كان لتلك الحوادث أعمق وقع في نفس الخليفة يعقوب المنصور ، فما كاد يقف على أخبارها ، حتى أخذ في التأهب للعبور إلى الأندلس ، واستئناف الجهاد ، واعتمد في هذه المرة على التطوع في جمع الحشود ، حسبما ذكرنا من قبل ، وعنى عناية خاصة بتوفير العتاد والسلاح والمؤن ، ثم خرج في قواته من مراكش في الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٨٥ هـ (٢٣ يناير سنة ١١٩٠ م) ، وذلك بعد أن وجه كتبه إلى إشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، بما اعترزمه من قدومه إلى شبه الجزيرة لنصرة أهلها على عدوهم ، وما يرجوه من تيسير استقبال الجيوش الوافدة ، وسار إلى رباط الفتح ، فلما وصلها ، أقام بها نحو الأربعين يوماً ، حتى وصلت باقي الحشود وقوات القبائل ، واستكملت أهبة الجيش الغازي .

وفي أواخر شهر المحرم من سنة ٥٨٦ هـ (أوائل مارس سنة ١١٩٠ م) غادر المنصور رباط الفتح في قواته ، وسار إلى قصر مصمودة (القصر الصغير) وجلد منه كتبه إلى إشبيلية متضمنة قرب وصوله . ولبت مقياً بالقصر ، حتى كان بدء الجواز في الخامس عشر من ربيع الأول ، ولما انتهى جواز الجند ، عبر المنصور البحر في يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول ، ونزل بجزيرة طريف ، وهناك أقبلت وفود بعض البلاد للسلام عليه ، وشكا البعض مما يقع من ظلم العمال ، فأغضى المنصور عن مناقشة هذا الأمر في هذه الظروف الدقيقة . ثم تحرك من طريف في غرة جمادى الأولى ، وسار شمالاً صوب مدينة أركش ، وهناك ودع الوفود الملتفة حوله ، وسار إلى قرطبة . وبعث إلى السيد يعقوب بن أبي حفص وإلى إشبيلية ، بأن يتحرك منها بعساكره ، وأن يجمع سائر الحشود ، من العرب والبربر ، من غرناطة وغيرها ، ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة ، وسائر المتطوعة والمجاهدين . فصدع السيد يعقوب بالأمر ، وحشد سائر القوات المتقدمة ، وسار فيها قاصداً إلى شلب ، وذلك في غرة جمادى الأولى (٦ يونيه) وعسكر في ظاهر المدينة . ولم يمض شهر على ذلك حتى وصلت سفن الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية

على مقربة من ثغر بورتماو ، ثم دنا الموحدون من أسوار شلب ، ونصبوا عليها
المجانيق ، وآلات الرمي ، وضربوا حول المدينة حصاراً صارماً مرهقاً .

وأما المنصور ، فإنه لما وصل بقواته إلى قرطبة نزل بها بالقصر الذي كان أنشأه
السيد أبو يحيى . ثم تجول بأطلال مدينة الزهراء ، ليشاهد آثار القرون الماضية ،
وليعتبر بما أحدثته صروف الدهر ، وأمر بإنزال التمثال الذي كان منصوباً فوق
بابها ، وقد كان وفقاً لقول البكري تمثالاً للعرءاء : ويقول لنا صاحب البيان
إنه هبت في عصر ذلك اليوم ربح عاصفة أحدثت بعض الخلل في محلة الساقة ،
فأذاع بعض عامة قرطبة أن ذلك كان بسبب إنزال تمثال الزهراء ، وأن هذا
التمثال كان طلسماً لحمايتها ، وبلغ المنصور ذلك فسخر منه ، وأنهى باللائمة على
جهل أهل قرطبة^(١) ، وأمر بالاجتهاد والتأهب :

وكان قد وصل إلى قرطبة رسل من قبل ملك قشتالة ، جاءوا ليسعوا إلى
عقد الهدنة ، وكان مقدم الحيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، قد بث حسبا
تحدثنا رسالة الخليفة ، بين النصارى ، أسباب الخزع والفرع ، فبادر ملوكهم
إلى إرسال رسلهم في التماس المسالمة والتهادن ، وأنه بينما كان الخليفة على وشك
العبور من القصر الصغير ، وصل رسل ملك قشتالة إلى إشبيلية ، يعرضون
السلم ويطلبون عقد الهدنة ، ويعرضون التحالف على قتال غيرهم من النصارى .
وتكررت هذه العروض عند وصول الخليفة إلى قرطبة ، فاستجاب الخليفة إلى
مطالبهم ، لأنه حسبا يقول لنا في رسالته ، رأى مصلحة المسلمين في افتراق كلمة
الكفر ، وكذلك عقد ملك ليون الهدنة مع الخليفة ، ولم يأبه بالخلف القديم الذي
كان قد عقده أبوه فرناندو مع ملك البرتغال أيام موقعة شنترين^(٢) .

ثم أمر الخليفة السيد أبا زكريا بن أبي حفص أن يسير إلى إشبيلية في جيش
خاص من العرب وزناتة وأهل تلمسان ومن إليهم ، ليتجهز هنالك ويلحق به
ويأخوته في طريق الغزو . وقام المنصور بعد ذلك بتمييز القوات المرتزقة ،
والحشود الواصلة من العلوة ، وفرقت فيهم البركة ، ثم أمر بعقد الرايات ، وخرج
في قواته من قرطبة متجهاً نحو الشمال الغربي إلى وادى التاجه ، ولحق به السيد
أبو زكريا في قواته في نفس الاتجاه . وكانت خطة المنصور ، فيما يبدو هي العمل

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٥ .

(٢) رسائل موحدية - الرسالة الرابعة والثلاثون ص ٢٢٢ و ٢٢٣ .

على إرغام ملك البرتغال على احتجاز قسم كبير من قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، في الشمال بعيداً عن شاب ، لكي يخفف ضغط النصارى بذلك على القوات الموحدية الضاربة حولها ، فستطيع تكريس جهودها للتغلب على منعة المدينة ذاتها . ومن ثم فقد سار المنصور صوب السهل الممتد على ضفاف التاجه شمالى شنترين ، وأنخن الموحدون في تلك الرقعة الخضراء ، فاتسفوا زروعها ، وخربوا ضياعها ، ثم عبروا النهر وساروا للمهاجمة قلعة طرش^(١) الواقعة على مقربة من شمال شنترين ، وهى قلعة عظيمة شديدة المنعة ، تقع فوق ربوة عالية ، فحاصروها بشدة ، ولم تمض أيام قلائل ، حتى عرض قائدتها التسليم بالأمان ، فوافق الخليفة وغادر القلعة كل من كان فيها من النصارى ، وفي الحال خرب الموحدون القلعة وسائر متعلقاتها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكانت حسبما تصفها رسالة الخليفة محلة عامرة نضرة ، تغص بالفراس والكروم : ثم سار الموحدون بعد ذلك شمالاً ، وهاجموا مدينة طومار^(٢) ، وهى قاعدة منيعة ، تقع في بسيط مخصب زاهر ، وكانت تدافع عنها حامية من فرسان المعبد (الداوية) فحرب الموحدون بسائطها ، ولكنهم اضطروا إلى حصارها ، نظراً لما أبدته حاميتها من شدة في الدفاع . ودام الحصار وقتاً دون أن تسلم طومار ، ويقول لنا صاحب البيان المغرب ، إن رسل ابن الرنك (ملك البرتغال) قدموا عندئذ في طلب المهادنة والسلام ، وأن المنصور أمر بتخفيف القتال ريثما ينعقد السلم ، وتنظم الأمور^(٣) . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو مما يقصه علينا الخليفة في رسالته أن الموحدين ، كانوا خلال هذا الحصار ، يوجهون سراياهم في سائر البسائط القريبة تشخن فيها ، وتمعن في تخريبها ، وأن سانشو ملك البرتغال كان في ذلك الحين مرابطاً بقواته في شنترين ، لا يجرو على الخروج منها للملاقاة الموحدين^(٤) .

وعلى أى حال فإن الموحدين لم يستمروا في حصار طومار ، ولم يأخلوها ، وحدث العكس حيث أمر الخليفة بالكف عن القتال واختتام أعمال الغزو . ويقدم إلينا صاحب البيان تفسيراً لذلك خلاصته ، أن الخليفة شعر بتوعلك تمادى أمره ،

(١) هى بالإفرنجية Torres ، وتقوم اليوم مكانها بلدة Torres Novas البرتغالية .

(٢) هى بالإفرنجية Tomar وهى تقع على مقربة من شمال T. Novas .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٠ .

(٤) الرسالة الموحدية الرابعة والثلاثون ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

وأنه من جهة أخرى لاحظ أن شئون التموين بالجيش قد اختلت ، وأخذت المئون والعلوفات تنضب ، وقد كانت تحمل إليهم على خط تموين طويل يمتد من قرطبة . وهذا بعكس ما كان عليه البرتغاليون حيث استطاعوا قبل الغزو أن يحصلوا معظم زروعهم ، وأن يخبثنوا المئون الكافية^(١) . ولهذا كله قرر الخليفة أن يخبث أعمال الغزو ، وأن يأمر بالارتداد إلى إشبيلية ، وصدرت الأوامر في نفس الوقت إلى الجيش المحاصر لشلب بأن يغادرها على وجه السرعة ، وأن يرتد كذلك أدراجة . وقضى المنصور في هذه الغزوة ثلاثة وأربعين يوما . وكانت عودته إلى إشبيلية في الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ (يولييه ١١٩٠ م)^(٢) .

ونستطيع أن نقول إن غزوة المنصور لأراضى البرتغال لم تسفر عن نتائج ذى شأن ، وأنها كانت بالعكس غزوة فاشلة ، فلم تؤخذ طومار ، ولم تُسترد شلب ، وهى غاية الغزو الأولى . ونستطيع أيضاً أن نلاحظ مرة أخرى أن اختلال شئون التموين فى الجيوش الموحدية ، كان دائماً فى مقدمة أسباب فشلها فى تحقيق أغراضها العسكرية . على أننا نستطيع أن نلاحظ فى نفس الوقت ، أن ما تلزع به المنصور من الخزم فى تنظيم الارتداد فى الوقت المناسب ، كان كفيلاً بسلامة الجيش الموحدى ، وعدم تعرضه لكارثة أخرى ، من طراز كارثة شترين .

على أن المنصور لم تقف همته ومشاريعه عند هذا الحد . ذلك أنه كان يشعر أنه لابد من تحقيق الهدف الرئيسى من عبوره إلى شبه الجزيرة ، باسترداد شلب . وضرب قوى البرتغال العسكرية ، ومن ثم فقد عول على البقاء بالأندلس ، والعكوف على الاستعداد الوئيد المجدى .

وانتهز المنصور فرصة وجوده بإشبيلية ، فأخذ ينظر فى شئون الناس والعمال ، وأمر بفحص قضايا المسجونين الذين طال سجنهم ، وإعدام من يستحق الإعدام منهم بعد عرض أمره عليه ، واشتد فى مطاردة المنكرات والملاهى . وأما عن العمال فقد أمر المنصور ، بالقبض على ابن سنان لما نعى إليه من أنه كان فى موقعة النار أول من بادر بالفرار ، وأمر كذلك باستصفاء أمواله .

(١) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ص ٢٢٧ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٠ .

وفى ذلك الحين بالذات ، رُفِعَ إلى المنصور أمرُ ثائرٍ من نوعٍ جديدٍ ظهر بمراكش . ويدعى على الجزيرى . ويقدم إلينا صاحب البيان بالمغرب هذا الثائر فى صورة غامضة مثيرة ، فيقول لنا إنه كان يتظاهر بطلب العلم ، ويعنى بنوع خاص « بحفظ المتشابهات » ، وإنه لما ظهر أمره لأول مرة ، أمر الخليفة بطرده من مراكش ، فغادرها ، وأخذ يتجول فى الأقطار ، وهو يبت دعوته سرّاً ، ولاسياً بين العامة حيث يخاطبهم ، ويسايرهم فى أفكارهم ، ثم ظهر من جديد بمراكش وكثر القول عن دعايته ومساعيه ، فأمر والى المدينة السيد أبو الحسن ابن أبى حفص بمطاردته والبحث عنه أينما وجد ، ولكنه استطاع أن يلوذ بالفرار ، ثم ظهر بمدينة فاس ، وأخذ يختلط بعامة أهلها وأوباشها وتبعه منهم جماعة ، فرفع خبره إلى والىها ابن ومازير ، فقبض على عدة من أتباعه وقتلهم ، وأفلت الثائر من المطاردة مرة أخرى ، واختفى ولم يوقف له على أثر .

ثم تواترت الأنباء بأن الثائر قد عبر إلى الأندلس ، فأمر المنصور بالكتب إلى سائر الولاة والعمال بصفته وهيئته وأماراته ، وبأن يقبض عليه أينما وجد . وذاعت بهذه المناسبة عن الثائر أقوال وروايات خرافية كثيرة ، فقيل إنه ساحر قدير ، وإنه يتصور فى صور الحيوانات المختلفة ، مثل الحمار والكلاب والسنائير ، وترددت هذه الأقاويل بين العامة . ثم قيل إنه عثر عليه فى مالقة ، وقبض على كثير من الأوباش الذين التفوا حوله ، وفيهم أخوه ، فأمر المنصور بإحضارهم إلى إشبيلية ، وقيل إن الثائر كان ضمن هؤلاء المقبوض عليهم ، ولكنه استطاع أن يفلت بواسطة رشوة دفعها أتباعه للقاضى المختص ، ويدعى الوافى . فأمر المنصور بقتل أولئك الأتباع ، وعددهم تسعة وتسعون ، وأمر بأن يجلد القاضى بعدد الدنانير التى تقاضاها على سبيل الرشوة ، فهلك قبل أن يستوفى هذا العدد ، وقتل فى نفس الوقت فى مختلف الأنحاء كثيرون آخرون ممن نسب إليهم مسابقة الثائر واتباع دعايته .

وأخيراً ، وبعد بحوث ومطاردات عنيفة ، قبض على الثائر فى بعض قرى مرسية ، وأخذ إلى إشبيلية ، وحل إلى مجلس الموحدين ، وطيف به على الحاضرين وهو يعان إنكاره لما نسب إليه من المبادئ والنظريات الثورية ، ثم انتهى الأمر بصلبه ، والقضاء على مادار حول شخصه من ضروب الإرجاف والخرافة^(١) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٢ .

ونظم الشعراء قصائدهم كالعادة في امتداح المنصور ، وتهنئته بالقضاء على هذه الفتنة . فن ذلك مقاله الجراوى من قصيدة طويلة :

تار من الفتنة العمياء أطفأها سعد الإمام وحد الصارم الذكر
مازال إبليس فى الأقطار يوقدها وترتمى من شرار الخلق بالشر
زاد الشقى على الخفاش مشبهه ضعف البصيرة إذا ساواه فى البصر
جارى إلى سقر أصحابه فهووا فيها سراحا ووافاهم على الأثر

تلك هى رواية صاحب البيان المغرب عن ثورة الجزيرى ، وهى فيما يبدو مستمدة من أقوال ابن صاحب الصلاة ، وهى رواية بلاط لاتمثل سوى وجهة النظر الرسمية .

يبد أنه يبدو من جهة أخرى أن ثورة الجزيرى ، كان لها شأن آخر ، وأن الجزيرى واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزيرى ، لم يكن ذلك للرجال المشعوز ، الذى تقدمه إلينا الرواية الموحدية . فهو عالم أندلسى من أهل الجزيرة الخضراء ، أخذ من مختلف العلوم بقسط وافر ، وكان يُنعى على الدولة الموحدية ما جنتحت إليه من الأخذ بأسباب الأبهة والترف ، ومن مخالفة تعاليم المهدي الأصلية . وكان يضطرم بنزعة إصلاحية ، ويطمح إلى إحياء سنن المهدي ابن تومرت ، ويبث دعوته بين الكافة بقوة وبراعة ، حتى عظم أمره ، وكان شاعراً مجيداً . ومن قوله يشير إلى رسالته الإصلاحية :

فى أم رأسى سر يبدو لكم بعد حين
لأطلبن ——— مرادى إن كان سعدى معينى
أو لا فأكتب ممن سعى لإظهار دينى

وكانت الجموع تهرع إلى الالتفاف حوله أينما وجد ، وتذاع عنه وعن دعايته أغرب الروايات ، حتى زعم بعض الناس أنه يتصور فى صور الحيوانات مثل القطط والكلاب وغيرها . وكان من الطبيعى أن تفرع السلطات الموحدية لأمر هذا المصلح النائر ، وأن تخشى من تأثير دعايته فى الجموع ، وأن تبث عليه العيون والأرصاء فى كل مكان . وكان ينجح فى الإفلات من المطاردة فى أحيان كثيرة ، حتى قبض عليه أخيراً فى بعض قرى مدينة بسطة ، وقتل ،

— ١٨١ —

وأرسل إلى مراکش . وكانت ثورة الجزيرة في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م)^(١) .

— ٢ —

وفي هذا العام بالذات أعنى في سنة ٥٨٦ هـ ، تلقى الخليفة الموحدى سفارة هامة ، من الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشام ، على يد وزيره عبد الرحمن بن منقلد . ولم تكن هذه أول مرة يحاول فيها عاهل مصر ، أن يتصل بالخليفة الموحدى ، وأن يكتب إليه . ولا بد لنا قبل التحدث عن موضوع هذه السفارة ، أن نشير إلى الظروف التي كان الشرق الإسلامى يجوزها في تلك الفترة ، والتي حملت صلاح الدين ، على أن يتجه ببصره إلى الغرب الإسلامى ، ذلك أن الشرق الإسلامى كان منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) ، يواجه عدوان الغرب المنظم في صورة الحملات الصليبية المتوالية . وكان هذا العدوان قد أسفر عن ثماره الأولى باستيلاء الصليبيين على ثغور الشام وبيت المقدس ، وقيام المملكة الفرنجية اللاتينية في بيت المقدس . وكانت مصر في تلك الفترة المولدة ، وهى أواخر العهد الفاطمى ، تجوز مرحلة انحلال وضعف ، وتعوزها الوسائل والقوى الدفاعية الناجعة . فلما انتهت الدولة الفاطمية ، ونهضت مصر نهضتها المشهورة ، على يد الملك الناصر صلاح الدين ، واستطاعت أن تسحق قوى الصليبيين ، وأن تسترد بيت المقدس ، وأن تقضى بذلك على المملكة اللاتينية (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) هرع الغرب في حشوده العظيمة مرة أخرى إلى الشرق ، ليقضى على تلك القوة الجديدة ، التى تهدد أطماعه ومشاريعه بالانهيار . وكان صلاح الدين ، بالرغم مما شاهده من القوى العظيمة ، وما أحرزه من الانتصارات الباهرة ، يشعر بأخطار هذا التكتل الصليبي الجديد ، ويخشى إذا لم يتداركه العون من إحدى النواحي ، أن يضعف عن مدافعتة . وهنا اتجه صلاح الدين ببصره نحو المغرب ، يرجو منه العون والغوث . وكان يرى في الدولة الموحدية التى بلغت يومئذ ذروة عظمتها وقوتها ، ملاذاً يجدر قصده والالتجاء إليه . فكتب إلى الخليفة الموحدى ، - يعقوب المنصور - في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) رسالته الشهيرة مدبجة بقلم القاضى الفاضل يستصرخه ، ويستنصر به على قتال الجيوش الفرنجية الزاحفة يومئذ على مصر والشام ، وفيها

(١) هذه رواية صاحب المغرب في حل المغرب (ج ١ ص ٣٢٣ و ٣٢٤) . وقد نقل

المقرئ هذه الرواية وهذا الشعر في نقح الطيب .

يصفه « بأمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين » ويصف له جهوده محاربة الصليبيين وهزيمتهم ، وما كان لذلك من أثر في تحالف النصرانية ، ودول الغرب عليه ، ونهوض ملوكه بجيوشهم وأساطيلهم لمحاربه ، ومحاولة الاستيلاء على ثغور المشرق ، والقضاء على قوى الإسلام المجتمعة تحت لوائه ، ويطلب صلاح الدين إلى عاهل المغرب ، أن يمد الشام ، مسرح القتال ، بشطر من أساطيله المنصورة ، وأن يرسل في الوقت نفسه ، جناحاً من أسطوله إلى صقلية ، فيشغل طاغيها ، ويعطله عن الاشتراك مع زملائه الملوك النصارى في مهاجمة مصر ، ويعتله بذلك في جزيرته . ثم يقول صلاح الدين في رسالته إلى الخليفة الموحدى : « وبذلك يذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكرٍ لا ترد به المحامد على عقبها ، ويقم على الكفر قيامة ، يُطلع بها شمس النصر من مغربها » (١) .

والظاهر أن البلاط المصرى لم يكن على علم تام بحقيقة سير الأمور في المغرب والأندلس في تلك الفترة . ذلك أن يعقوب المنصور ، ما كاد يتولى الخلافة عقب مصرع أبيه في موقعة شترين ، حتى أخذ يواجه حسباً رأينا سلسلة من الأحداث المزعجة سواء في المغرب أو الأندلس . فأما في المغرب فقد رأينا كيف شغل بثورة بني غانية ، واعتدائهم على إفريقية ، واستخلاص ثغورها من أيديهم . وأما في الأندلس ، فقد عنى المنصور ، كما رأينا بحشد الجيوش ، لاستئناف حركة الجهاد ، ورد علوان النصارى عن أراضي الأندلس ، بعد ما تفاقم هذا العلوان سواء من جانب قشتالة أو من جانب مملكة البرتغال . وقد كان من الطبعي ، في تلك الظروف الدقيقة التي يجوزها الموحلون ، في المغرب والأندلس ، أن صرخ صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى ، لم يلق صدًى ، وإن رسالته لم يكن لها الأثر المرغوب .

على أن صلاح الدين لم ييأس من القوز بعون الخليفة الموحدى . ذلك أنه كان يشعر بأنه يتوجه بصريحه إلى الوجهة الصحيحة ، وأن نزعة الجهاد ، كانت تضطرم في المغرب على يد الدولة الموحدية ، اضطرامها في المشرق ، وأن الكفاح الذى يضطرم به الموحلون ضد إسبانيا النصرانية ، لم يكن إلا شطراً من الكفاح الذى تضطلع به مصر في المشرق . ومن ثم فقد اعتزم صلاح الدين أن يكرر محاولته . فعاد في العام التالى في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، فأرسل إلى الخليفة

(١) تراجع رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى في صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٢٦ - ٥٣٠ .

يعقوب المنصور ، سفارة على يد وزيره الشهير شمس الدولة ابى الحارث عبدالرحمن ابن منقذ ، يحمل إليه رسالة وهدية فخمّة . وكان ابن منقذ ، وهو سليل أمراء بنى منقذ أصحاب حصن شيزر السابقين بالشام ، من رجالات الدولة الصلاحية البارزين ، ومن يصطفهم السلطان لقضاء المهام الدقيقة . ويصف صلاح الدين في رسالته إلى الخليفة الموحدى ، ما حدث من تقاطر الفرنج على الشام براً وبحراً ، وفي مقتلهم جيوش ملك الألمان وملك الإنجليز وأساطيله ، وما وقع حول عكا التي حاصرها الفرنج من المعارك الخطيرة ، وما بذله السلطان لإنقاذها من الجيوش في البر والبحر . ثم يتجه إلى الخليفة يطلب الإنجاد ويقول : إنه كان من المتوقع من « تلك الدولة العالية ، والعزّة القادرة ، مع القدرة الوافية ، والهمة الملهية الهادية ، أن يمدّ غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمدّ غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام » ، وأنه لما تأخرت الإجابة « ظن أنها توقفت على الاستدعاء ، فاستصرخه بهذه النحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر ، إلى أن تحركها الرياح » (١) .

وهنا تختلف الروايتان المصرية والمغربية في تاريخ وصول السفير المصرى إلى المغرب ، وفي ظروف لقائه مع الخليفة . فتقول الرواية المصرية إن ابن منقذ أبحر من الإسكندرية قاصداً إلى المغرب في شهر رمضان سنة ٥٨٦ هـ ، وأنه وصل إلى مراكش في شهر ذى الحجة من هذا العام ، وأدخل إلى الخليفة في العشرين منه ، وحملت هدية السلطان إلى الخليفة في نفس اليوم . بيد أنه يبدو أن الرواية المصرية لم تكن مطلعة تمام الاطلاع على سير الحوادث في المغرب والأندلس في تلك الفترة . ومن ثم فإنها لم تستطع أن تتبع حركات السفير المصرى بدقة . ذلك أن الخليفة المنصور ، كان وقت وصول السفير المصرى إلى المغرب ، قد عبر البحر حسبما تقدم في جيوشه إلى الأندلس معزماً مقاتلة النصارى ، وإنقاذ مدينة شلب من قبضة البرتغاليين ، وأنه كان في تلك الآونة بالذات مقبلاً بإشبيلية ، يجد في الأهبة ، ويتربح الحوادث . ومن ثم فإن الرواية المغربية ، وهى رواية صاحب البيان المغرب ، المستقاة فيما يبدو من رواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ البلاط الموحدى ، تقدم إلينا تفاصيل أخرى عن تحركات السفير المصرى ،

(١) الروضتين في تاريخ المولتين ج ٢ ص ١٧١ - ١٧٣ . وراجع مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب (المنشور بناية الدكتور جمال الدين الشيال) ج ٢ ص ٣٦١ و ٣٦٢ .

تبدو أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . فتقول لنا إن السفير المصرى حينما وصل إلى المغرب ، نزل بـبغرتونس ، ثم ببغرتجاية ، فاستقبله السيد أبوزيد والى إفريقية والسيد أبو الحسن والى بجاية ، بمنتهى الحفاوة والإكرام ، وكتبوا إلى الخليفة المنصور وهو يومئذ بإشبيلية بمقدم السفير ، فوصلت كتبهما إليه في شهر رجب سنة ٥٨٦ هـ فرد الخليفة عليهما بالشكر ، وأن يستمر في مجاملة السفير وإكرامه ، وأن يطلب إليه كتابان رسالته حتى يستقبله الخليفة ، وبأن يستقر بمدينة فاس معززاً مكرماً ، حتى يتم هذا الاستقبال^(١) .

ولبت ابن منقذ مقياً بفاس زهاء عام ينتظر لقاء الخليفة . وكان المنصور في تلك الأثناء ، حسباً نفصل بعد ، قد نظم غزواته الكبيرة لأراضي البرتغال ، واستولى على ثغر قصر أبي دانس أو قصر الفتح في جمادى الأولى في سنة ٥٨٧ هـ ، ثم سار إلى مدينة شلب واستولى عليها في جمادى الثانية ، وعاد ظافراً إلى إشبيلية ، ثم غادرها عائداً إلى المغرب في شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ (يولييه ١١٩١ م) ، ولما وصل إلى مراكش واستقر بها ، استقبل ابن منقذ ، وقدمت إليه هدية السلطان ، وكان فيها مصحف كريم في أربعة مخيشة بالمسك ، وثلاثمائة مثقال من العنبر ، وعشر قلائد من الجوهر ، ومائة قوس بأوتارها ، ونصول سيوف هندية وغيرها . ويقول لنا صاحب كتاب « الإستبصار » إن اجتماع ابن منقذ بالخليفة كان في السادس من محرم سنة ٥٨٨ هـ (يناير ١١٩٢ م) وإنه غادر الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام^(٢) . وأفضى ابن منقذ إلى عاهل المغرب بمضون سفارته ، فتلقى جواب المنصور عنها مجعلاً . ويقول لنا ابن خلدون إن الخليفة اعتذر عن إعارة الأسطول^(٣) وأحيل ابن منقذ إلى الوزراء لاستكمال التفاصيل . ثم غادر مراكش في العاشر من المحرم سنة ٥٨٨ هـ ، وهو يحمل من الخليفة إلى السلطان هدية تضارع هديته في القيمة والفخامة ، فوصل إلى الإسكندرية في أواخر جمادى الثانية من هذا العام^(٤) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٣ .

(٢) كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار (المنشور بمناية الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

١٩٥٨) ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٣ ، و ١٨٤ .

ومما تذكره الرواية بهذه المناسبة أن ابن منقذ رفع إلى المنصور ، قصيدة من نظمته من أربعين بيتاً ، يمدحه فيها ، فنحه المنصور صلة بخية قدرها أربعون ألف دينار ، ألفاً عن كل بيت ، وقال له إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك ، وهذا بعض ما جاء في القصيدة المذكورة :

سأشكر بجزاً ذا عباب قطعته إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل إلى بابك المأمول ترجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا بأن نذاك الغمر بالنجح كافل
فلازلت للعلياء والحدود بانياً تبلغك الآمال ما أنت آمل^(١)

ونحن نعرف أنه لم يكن لهذه السفارة نتائج عملية ، ولم يحصل صلاح الدين على ما كان يرجوه منها من عون وإنجاد . وفي بعض الروايات أن الخليفة المنصور لم يستجب إلى صريح صلاح الدين ، لأنه لم يلقيه في رسالته بألقاب الخلافة^(٢) . وهي رواية ظاهرة الضعف . ذلك أن الأسباب الحقيقية لموقف الخليفة الموحدى ، يجب أن تفهم على ضوء الحوادث والظروف التي كان يجوزها الغرب الإسلامي . أعنى المغرب والأندلس ، في تلك الفترة . فقد كانت إفريقية وهي منطقة حساسة من المغرب ما تزال معرضة لعدوان بني غانية ، ومن إليهم من الأعراب الضالعين معهم ، وكانت الأندلس تواجه مثل الأخطار التي كان يواجهها الشرق الإسلامي ، من عدوان النصارى والصليبيين . وبالرغم من نجاح الموحدين في غزو البرتغال ، واستردادهم لقصر الفتح وشلب ، فإنه كان ثمة احتمال دائم ، بأن يتكرر عدوان البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين القادمين من الثغور الشمالية ، على غربي الأندلس ، وأن يتكرر عدوان القشتاليين على أواسطها . وقد كانت الأساطيل الموحدية ، التي كان صلاح الدين يطمح بالأخص إلى عونها ، ترابط باستمرار في مياه الأندلس الجنوبية والغربية ، استعداداً لموازة الحيوث الموحدية لرد كل عدوان محتمل . ومن ثم فإنه لم يك ثمة إزاء هذه الظروف والأخطار كلها ، فيما يبدو ، مجال لأن يتقدم عاهل المغرب إلى غوث إخوانه المشاركة ، بقوات كان هو في أشد الحاجة إليها . وكان على كل فريق أن يعتمد على نفسه في رد العدوان الذي يواجهه .

(١) فتح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٤٣٢ .

— ١٨٦ —

على أننا نستطيع ، بالرغم من هذه الآثار السلبية ، التي انتهت إليها محاولات صلاح الدين للحصول على عون الخليفة الموحدى . أن تقول إنها كانت تنطوى على نفس المغزى العظيم الذى أوحى ببذلها ، وهو رسوخ التضامن الروحي ، وقوة المشاعر المشتركة ، بين شطرى الكتلة الإسلامية ، فى المشرق والمغرب ، فى تلك العصور التي تعرض فيها كلاهما لحنة العدوان الصليبي .

— ٣ —

لبث المنصور خلال إقامته بإشبيلية ، منذ عاد إليها فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، يجد فى أهباته العسكرية ، ويجمع الآلات والعدد ، ويستكمل ضم الحشود . فلما تمت أهباته ، واستكملت من سائر نواحيها ، عزم على الحركة والسير لاستئناف الغزو ، فخرج من إشبيلية فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٨٧ هـ (٢٨ أبريل سنة ١١٩١م) فى قوات كثيفة ، حسنة الأبهة والهيئة والنظام ، وعبر نهر وادى يانه محترقاً أراضي البرتغال ، ومتجهاً نحو الشمال الغربى ، وكان مقصد الخليفة الأول ، هو قاعدة قصر الفتح أو قصر أبى دانس الحصينة ، الواقعة جنوب شرق أشبونة على الضفة اليمنى لنهر سادو ، على مقربة من البحر ^(١) ، فلما وصل إليها قُسمت الحشود الموحدية وفق نظام خاص ، وقام العيد وأهل الخدمة بردم خندق المدينة من جهاتها الأربع ، وأقبلت القوات الموحدية إلى السور تحاول اقتحام المدينة ، ولكن البرتغاليين أمطروا الهاجين وابلاً كثيفاً من النبال والحجارة ، فأصيب كثير من الجند الموحدين بالجراح . فلما رأى المنصور فتك النبال بمنجده ، أمر بوقف القتال ثلاثة أيام ، طلباً للراحة ، والعود إلى مهاجمة المدينة ، بعزائم أشد ، ووصل فى تلك الأثناء جانب من الأسطول الموحدى ، دخلت سفنه النهر الذى تقع عليه المدينة ، وهى تحمل آلات الهجوم الفتاكة . وفى الحال — فى خلال يوم وليلة فقط — نصبت حول المدينة أربعة عشر منجنيقاً . وفى اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى (سنة ٥٨٧ هـ) الموافق ١٠ يونيه سنة ١١٩١ ، صدر الأمر لسائر الجيش الموحدى بمهاجمة المدينة ، فانقض عليها من سائر الجهات ، وأخذت

(١) كانت قاعدة القصر Alcacer do Sal فى ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسي ، مدينة حسنة متوسطة على النهرسمى شطوبر (Sadoa) وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية بكثرة . ولما استدارها من الأرض كلها أشجار الصنوبر ، وبها الإنشاء الكثير ، وبينها وبين البحر عشرون ميلاً (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٨١) .

المجانيق تضرب المدينة بشدة، فلما تفاقم الأمر ، ووصل هجوم الموحدين إلى ذروة عنفه وروعته ، بادر أهل المدينة بطلب الأمان ، ونزلوا من المدينة مستسلمين فحملوا في المراكب ، وبعثوا إلى إشبيلية ليكونوا هنالك عنوان الفتح . واستولى الموحلون على المدينة ، وشرع المنصور في النظر في شئون الحصن وأحواله ، وأمر بإصلاحه وشحنه بالمقاتلة الأنجاد من الموحدين ، ورتب لهم من المؤن والمواد رواتب شهرية وسنوية ، في مخازن إشبيلية وسبتة ، وندب لولاية الحصن المذكور أبا بكر محمد بن وزير وهو ابن أبي محمد سيدراى بن وزير زعيم الغرب السابق ، أيام ثورة ابن قسى ، وكان حاكم الحصن من قبل ، قبل أن يسقط في أيدي البرتغاليين في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)^(١) .

وسار الموحلون بعد ذلك إلى حصن قلالة^(٢) ، وكان أمنع حصون هذه المنطقة ، وبه حامية قوية ، ولكنهم أيقنوا باستحالة المقاومة ، وعرضوا التسليم في الحال ، والجلاء عن الحصن ، فاستجاب المنصور لرغبتهم ، وأعطى سيبلهم ، فساروا آمنين إلى بلادهم ، ونهب الموحلون سائر ما في الحصن من الأثاث والأقوات والسلاح . ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدم حتى بحيث آثاره . وزحف الموحلون على حصن المعلن^(٣) القريب ، فاستولوا عليه ، وأمر المنصور كذلك بهدمه ، فهدم حتى صار أثر آ بعد عين .

وتقول الرواية النصرانية في شأن هذه الحصون ، إن أهل الحصون المجاورة ، وهى حصون قلالة ، وكوينا ، والمعلن ، لما رأوا سقوط حصن القصر بالرغم من مناعته بهذه السرعة ، بادروا باخلاء حصونهم ، وفروا في مختلف الأنحاء ، ولما أشرف الموحلون عليها ، أمر المنصور بهدمها ، فهدمت حتى سويت بالأرض^(٤) .

ثم اتجه الموحلون بعد ذلك جنوباً إلى المقصد الرئيسى في هذه الغزوة ، وهو مدينة شلب . فوصلوا إليها في يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة (٢٧ يونيه سنة ١١٩١ م) . وفى الحال طوقها الموحلون بقوات كثيفة ، وردمت الخنادق

(١) البيان المغرب ص ١٨٥ .

(٢) حصن قلالة ، وهو بالبرتغالية Palmela .

(٣) حصن المعلن هو بالبرتغالية Almada .

(٤) Huici Miranda: Ibid; (cit Crónica de Sancho I, p. 537) (٤)

لحديقة بها ، ونصبت حول أسوارها المخانيق ، وأخذت تضربها بشدة . واستمر الحصار والضرب حتى يوم الأربعاء الخامس عشر من جمادى ، ففي فجر تلك الليلة ، كان الموحدون ساهرين يرقبون القرص . وكان الحراس وأهل المدينة ، قد غلب عليهم التعب والنوم ، ولم يتوقعوا أن يقوم الموحدون بأية محاولة في مثل هذه الفترة . ولكن الموحدون بالعكس ، لما رأوا إغفاء أهل المدينة ، تقدم أحد أدلائهم من السور ، ووثب إلى ثلثة فيه ، وتبعه جماعة من الأنجاد ، فرفعوا الرايات على السور ، وضربت الطبول ، وضج الجند بالتهليل والتكبير ، واقتحم الموحدون المدينة ، فلم يستيقظ أهلها ، إلا وقد سيطر عليها الفاتحون ، يشخون فيهم قتلا وجرحاً ، فبادروا بطلب التسليم والأمان ، فضرب لهم المنصور أجلا قدره عشرة أيام لإخلاء المدينة ، وخرج النصارى من قصبة شلب في يوم الخميس الخامس والعشرين من جمادى الثانية (٢٣ يولييه سنة ١١٩١ م) ودخلها الموحدون في الحال ، وعادت شلب بذلك إلى قبضة الإسلام ، بعد أن لبثت في أيدي البرتغاليين ، منذ سقوطها في رجب سنة ٥٨٥ هـ ، زهاء عامين^(١) . وقدم المنصور على ولايتها ابن وزير^(٢) .

تلك هي الرواية الإسلامية عن استرداد شلب . أما الرواية النصرانية ، فلا تقدم إلينا شيئاً من تلك التفاصيل ، بل تكتفى بالقول بأن الموحدين نصبوا المخانيق حول المدينة ، وأخذوا في ضربها بالنهار والليل دون هوادة ، حتى اضطروا أهلها إلى التسليم ، وخرجوا منها بأنفسهم وأمتعتهم .

ولبث المنصور ثلاثة أيام أخرى في ظاهر شلب ، ثم غادرها في قواته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الثانية ، بعد أن أنفق في غزوته زهاء ثلاثة أشهر ، فوصل إلى إشبيلية في الرابع من شهر رجب سنة ٥٨٧ هـ (٢٨ يولييه سنة ١١٩١ م) .

وأنفق المنصور في إشبيلية شهرين آخرين ، عنى خلالها بتنظيم شئون الأندلس واختيار أكفاء القادة لرياسة الثغور ، أو بعبارة أخرى مدن الحدود وحصونها ، وشحنها بصفوة الجند ، وتعيين بعض قرابته لولاية المدن الشاغرة من الولاة .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

وفي غرة رمضان ، جلس بمحلات البحيرة خارج إشبيلية ، لتلقى تحيات المودعين ، ولما تمت مراسيم الوداع ، غادر إشبيلية ، ميمماً شطر العلوة ، وعبر البحر في الخامس عشر من رمضان ، واستمر في سيره حتى وصل إلى حضرة مراکش^(١) وماكاد يستقر بها حتى استقبله الشعراء كالعادة بقصائد التحية والتهنئة . فمن ذلك ما قاله شاعره الخراوى :

إياب الإمام حياة الأمم توالى السرور به وانتظم
وجاد به الأرض صوب الحيا وجلى الظلام به بدر تم
فتوح عظام جناها الزمان لذى هم دونهم المهم

على أن المنصور ماكاد يستريح من وعثاء السير والسفر ، حتى دهمه المرض واشتد به ، وطال أشهراً حتى خيف منه على حياته . وأشار عليه الأطباء بالانتقال إلى فاس ، فحمل إليها في محفة ، واستمر بها أشهراً حتى تماثل إلى الشفاء . ويروى لنا المراكشي بهذه المناسبة أن الخليفة حينما اشتد مرضه ، أرسل يستدعى أخاه السيد أبا يحيى والى إشبيلية ، وأن أبا يحيى لبث يتلأأ في العود مؤملاً أن يموت أخوه ، وأنه قام في ظل هذا الأمل باستكتاب بعض أشياخ الجزيرة مساطير لتأييد دعوته ؛ فلما برىء الخليفة من مرضه عاد أبو يحيى إلى المغرب : وكان أخوه الخليفة قد وقف على حركته ، فأمر القبض عليه وقتله ، فتولى قتله أخوه لأبيه السيد عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحض من الناس^(٢) . ونحن نلاحظ على هذه الرواية بأنها متأخرة عن موضعها ، وأن حادث ائثار السادة بالخليفة وقع في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، حسبما أشرنا إليه في موضعه ، وأن السيد أبا يحيى وهو ولد الخليفة وليس بأخيه ، لم يكن بين المتأمرين ، الذين عاقبهم الخليفة بالإعدام .

(١) يقدم إلينا صاحب ررض القرطاس ، رواية أخرى عن غزوة الموحدين لبرتغال واسترداد مدينة شلب ، فيقول لنا إن الذى اضطلع بهذه الغزوة هو محمد بن يوسف والى قرطبة ، وأنه سار إلى شلب في جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس ، حتى فزل شلب فحاصرها ، وشد عليها القتال حتى فتحها ، وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة ويابرة ، ورجع إلى قرطبة قد ضلها بخمس عشرة ألف سبية وآلاف من أسرى الروم ، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسةائة (ص ١٤٤) . وهى رواية ظاهرة الضعف والخلط ، خصوصاً أنها تغفل ذكر المنصور بالمرّة وتنسب لغيره قيادة هذه الغزوة .

(٢) المعجب ص ١٥٨ و ١٥٩ .

وشعر الخليفة إبان مرضه بدقة الموقف ، وأراد أن يحتاط لكل احتمال ، فعقد البيعة لابنه أبي عبد الله محمد بولاية عهده ، وكان سنة نحو عشر سنين^(١) ، وهو الذى تسمى بالناصر فيما بعد ، وكتب بذلك إلى خاصة القراة كالسيد أبي زيد وإلى إفريقية ، وولده السيد أبي يحيى وإلى إشبيلية ، فبادروا بالحضور إلى الحضرة ، مطيعين مؤيدين لذلك العهد ، وجاء وفد من شبه الجزيرة يحمل تأييد أهل الأندلس ، وجاء معهم يوسف بن الفخار اليهودى رسول ملك قشتالة يسعى إلى توطيد الهدنة المعقودة . وكان الخليفة قد أبل عندئذ من مرضه ، فتلقى تهنئة الوفود والأكابر بإبلاله ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالمعتاد^(٢) .

وقد انتهت إلينا صورة وثيقة البيعة الرسمية التى كتبها أهل قرطبة بمبايعة ولى العهد أبي عبد الله محمد الناصر ، وهى مؤرخة فى العشر الأوائل من ذى القعدة سنة ٥٨٨ هـ ، وتبدأ بالتنويه بأهمية الاستخلاف فى الولاية ، وشرعيته ، منذ عهد النبي ، حينما استخلف أبا بكر فى الصلاة ، ثم تنوه بقيام المهدي ، وإعلاء كلمة الدين بظهوره ؛ وتقول لنا بعد ذلك فى صدد البيعة ما يأتى :

« وبعد فهذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها حرسها الله ، من الطلبة ، والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية ، من حاضر منهم ومن باد ، أجمعوا بتوفيق الله وعونه ، وإحسانه العميم ومنه ، على المبايعة للأمير الأجل الملك السعيد ، السيد الأوحده . . . المؤهل المؤئث ، الحائز لشرف الانتساب . . . فرع الشجرة المباركة الطيبة الانتهاء التى أصلها فى مقر الهدى ثابت ، وفرعها فى السماء . . . أبو عبد الله محمد بن سيدنا الإمام المنصور ، الناصر لدين الله تعالى الخليفة المرتضى أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ، بن سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمرهم وأسماهم » .

ثم تقول « فبايعوه بمقتضى أمره العلى ، ونصه الواضح الحلى ، ببيعة مباركة سعيدة ، استقبلوها آمالاً فسيحة مديدة ، وأعمالاً من البر والتقوى جديدة : أسكنت عليهم شآبيب الرحمة والأمان ، وأصبحت فواضل الإنعام والإحسان ، وازدادت بهاء وجمالاً معالم الإسلام والإيمان . . . » وإن أهل قرطبة « بادروا إلى

(١) المعجب ص ١٧٥ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٧ .

التزام عهد هذه البيعة المباركة عهداً ، وإحكام عقدها السعيد عقداً ، فباعوا للأمير الأجل السيد السعيد الأوحده . . بيعة لإخوانهم الموحدين ، على صفاء من قلوبهم ، وخلوص من عيوبهم ، وصحة من عقائدهم وضمائرهم ، وتوافق من بواطنهم ، وطوايرهم ، وعلى أوفى عهود البيعة وشروطها ، وأكمل عقودها وربوطها ، من من السمع والطاعة في السر والجلهر ، والعسر واليسر ، وعلى اعتقاد النصيحة والموالة الصريحة ، أعطوه بذلك عهد الله المؤكد ، وميثاقه المشدد ، وأعطوه به صفقة قلوبهم وإيمانهم ، وعهدة إسلامهم وإيمانهم ، وخالصة سرهم وإعلانهم^(١) وفي العام التالي سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) وصل السيد أبو زيد والى إفريقية ، ومعه برسم الخليفة هدية جليلة من التحف الملوكية ، وفي صحبته وفد من أعيان عرب سليم ورياح ، وأنجادهم^(٢) ، وكان الخليفة قد تحرك في تلك الأثناء من الحضرة قاصداً إلى فاس نزولا على نصيح أطبائه ، فالتقى به السيد أبو زيد ومن معه في تانسيفت ، وأمر الخليفة بعد انقضاء مراسيم التحية واللقاء ، بمسير الوفود القادمة إلى مراكش لمشاهدة القصور والمرافق الخلافية ، وما تحويه الحضرة من جليل الآثار والمنشآت ، الدالة على عظمة الدولة الموحدية وقوتها . فأضمت الوفود بالحضرة أياما ، ثم لحقت بأمر المؤمنين في طريقه لترجى إليه آيات الشكر ، والعرفان .

ورحل الخليفة إلى رباط الفتح ثم إلى فاس . وعنى خلال إقامته بفاس بالنظر في شئون إفريقية . وكانت هذه الشئون بما يعتورها من المتاعب ، ومن الأخطار المترتبة على عدوان بنى غانية ، تلقى من الخليفة أعظم اهتمام ، وغمر الخليفة بهذه المناسبة وفود العرب من سليم ورياح بوافر صلاته وإكرامه ، والتزمت الوفود من جانبها بالوفاء ومقابلة البربخسن الصنيعة ، ثم عادت إلى مواطنها بإفريقية ، وقد نالت من إنعام الخليفة وبره أضعاف ما أملت .

ولما شعر الخليفة باكتمال الصحة والعافية ، سار إلى رباط الفتح مرة أخرى ، وكان يؤثر هذه المدينة التي أسسها جده عبد المؤمن بحبه ، ويميل إلى سكناها والاستجمام بها . وكان في تلك المرة قد عقد العزم على الانتقال إليها بصفة نهائية ،

(١) ورد نص هذه البيعة كاملا ضمن المخطوط رقم ٤٨٨ الفزيرى بمكتبة الإسكوريال ، وهو الذى سبق أن نقلنا عنه عدة من الوثائق المرابطية .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

واتخاذها حاضرة لمملكته ، فأمر بتجديد قصبتها ، وكانت تسمى بالمهدية ، إذ كانت بخطتها وموقعها على البحر ، وأحاطته بها ، تشبه المهدية الفاطمية بإفريقية ، وألقى بشأن تنظيمها وتجميلها بقية أوامره ، ثم عاد إلى مراکش في منتصف هذا العام (٥٨٨ هـ) ، واستقر بها ، وهو دائب الاهتمام بأعمال الإنشاء ، وتجديد الأهباء ، واستكمال العدد (١) .

وفي العام التالي سنة ٥٨٩ هـ ، أمر المنصور بإقامة صرح عظيم حصين خارج إشبيلية ليكون منزلاً للمجاهدين ، وأن يكون موقعة في وسط الشرف . ويقدم إلينا المراكشي بعض تفاصيل عن هذا الصرح ، فيقول لنا ، إن المنصور حينما عاد ظافراً من غزوته لاسترداد شلب ، أمر أن يُبنى له على النهر الأعظم (نهر الوادي الكبير) حصن ، وأن تبني له في ذلك الحصن قصور وقباب ، جارياً في ذلك على عادته من حب البناء ، وإثارة التشييد ، فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد ، وسمى ذلك الحصن حصن الفرج . ويضيف صاحب البيان المغرب إلى ذلك ، وهو ينقل فيما يرجع عن ابن صاحب الصلاة ، أن هذا الحصن أو القصر الكبير ، قد كل بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من البطاح ، وأنه جاء من أضخم ما عمل ، وكان المنصور وهو بالحضرة دائب التشوف إلى متابعة أخبار هذا الصرح ، والوقوف على ما تم فيه ، وعلى صفاته ، حتى إنه أمر أخيراً باستدعاء المشرف على بنائه إلى الحضرة ليقص عليه بنفسه كل ما يتعلق بهذا الصرح وطراره وصفاته (٢) .

ووقعت في تلك السنة سنة ٥٨٨ هـ ، ببلاد الزاب ، جنوبي إفريقية ، فتنة جديدة كان بطلها زعيم يدعى الأشل . وليس في الرواية الموحدية ، ما يلقى ضوءاً على شخصية هذا الزعيم للثائر ، ولا كنه دعوته ، وكل ما هنالك أنها تقول لنا ، إن الأشل قام ببلاد الزاب ودعا لنفسه ، فالتف حوله شرذمة من العرب ، وكثير من أشتات الناس من أهل تلك المنطقة ، ومن أهل الجبال المجاورة ممن تصفهم الرواية « بالغوغاء والسفلة » وكان يلقى في روع أتباعه بأنه موعود بأمره ، وأن

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٨ و ١٨٩ . ويقول ابن خلكان إن رباط الفتح كانت على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه (الوفيات ج ٢ ص ٤٣١) وهو قول تطليه المبالغة .

(٢) المعجب ص ١٦٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٩ .

الكتب والدلائل نصت على خبره . وعظم أمره ، وذاع ذكره ، وكثر عدوانه في تلك المناطق ، وتوالت على الخليفة المنصور أنباؤه ، فبعث إلى السيد أبي زكريا وإلى بجاية ، بأن يبذل كل ما في وسعه للقبض على هذا الزعيم الثائر . فخرج السيد أبو زكريا في عسكره من بجاية ، وهو يتحسس أخبار الأشل ، ويتقصى آثاره . ولما توغل بعيداً في الصحراء ، اجتمعت طوائف من عرب البوادي ليحاولوا مهاجمته ، وانتهاب محلته ، ولكنه استطاع أن يجتنب اعتداءهم طوراً بلين القول وطوراً بالوعيد وإظهار القوة ، وأنفذ السيد رهطاً من رجاله ، يتحسسون أخبار الثائر ومكان وجوده . وحاول في نفس الوقت أن يغري بعض الأعراب بالصلات والوعود ليكشفوا له مكان وجوده ، ولكنه لم يظفر منهم بطائل : ثم عاد إليه رسله الثقا ، وأخبره بعضهم بمكان وجود الثائر ، وأنه يتصدر مجلس الزعامة وهو في ثياب فاخرة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، وبين يديه سيف مُحلّى ، وقد التف حوله لقيف من شيعته وهو يتحدثهم بلسان حضري : وعندئذ حاول السيد مرة أخرى أن يحمل بعض الأعراب على إرشاده عن هذا المكان ، وهويبذل لهم أطيب الوعود . ولكن الأعراب عقدوا العزم على مخادعته وغدره : ثم سار السيد في قواته ميمماً شطر قلعة بني حماد ، وهي من أعمال بجاية ، ودخلها بعسكره : وهناك وفد عليه الزعماء العرب يطالبونه بإنجاز وعوده ، فاحتفل بهم وقدم لهم الطعام . فلما استقروا داخل القلعة ، أغلقت أبوابها ، وأمر السيد بالقبض على جملة من أولادهم ، ثم استدعى آباءهم ورؤساء العشائر منهم ، وأقسم لهم بأوثق الأيمان أنه لن يخل وثاقهم ، ولن يطلق سراحهم إلا بإحضار الأشل أو رأسه ، أو يحمل رؤوسهم مكان رأس الأشل إلى الخليفة المنصور . فأبدى العرب أنهم لا يستطيعون الغدر بمن لجأ إليهم ، واحتفى بجوارهم ، ولو قتلوا جميعاً . وعندئذ تلخل أمهات الأبناء المعتقلين ، وصاحوا كيف نضحي بأبنائنا في سبيل شقي منافق : وعندئذ نشب الخلاف بين الأمهات والآباء ، وذاع الخبر في مختلف الأحياء ، ووقف الأشل على ما حدث فأراد القرار اتقاء الغدر ، ولكن رهطاً من عشائر المعتقلين بادروه بالهجوم ، وقبضوا عليه وعلى وزيره وحلوهما إلى القلعة ، فغمرهم السيد بإحسانه وصلاته ، وأخلى سبيل المعتقلين ، وأمر بإعدام الثائر وصاحبه ، وحملت رأسه إلى بجاية ، وعلقت على بابها مع ذراعه وعضده ، وأخذت بذلك ثورته في مهدها^(١)

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٠ و ١٩١ .

ولم تكد تنتهى هذه الفتنة حتى وردت على المنصور فى سنة ٥٩٠ هـ ، أنباء مقلقة عن إفريقية ، خلاصتها أن بنى غانية قد استأنفوا حركاتهم بنشاط مضاعف ، وأن حلفاءهم من العرب والغز ، يعيشون فساداً فى أنحاء إفريقية ولاسيما بلاد الجريد . ونحن نعرف أن على بن إسحاق بن غانية الميورقى ، بطل هذه الحركة التى كادت تقضى على سلطان الموحدىن فى إفريقية ، كان على أثر هزيمته الساحقة فى معركة الحمة (سنة ٥٨٤ هـ) قد فر جرياً إلى أعماق الصحراء . وهنا تختلف الرواية فى مصيره ، فيقول لنا صاحب المعجب إنه توفى بعد قليل متأثراً بجراحه التى أصابته فى معركة الحمة^(١) . ويقول ابن خلدون إنه توفى فى بعض حروبه مع أهل نفزاوة من سهم أصابه فى بعض المعارك ، وذلك فى نفس العام (٥٨٤ هـ) فدفن هناك ، ثم حمل رفاته إلى ميورة^(٢) . ويقول التجانى فى رحلته إن على بن غانية ، حينما طارده المنصور بعد موقعة الحمة ، توغل فى صحراء توزر ، فرجع عنه المنصور ، ثم مات على بعد ذلك على توزر من سهم أصابه فى ترقوته فقضى عليه^(٣) .

ولما توفى على بن غانية ، قام بالأمر من بعده أخوه يحيى ، وهو يضطرم بمثل مثله ، ويرى إلى تحقيق مثل غاياته ، أعنى قيادة الثورة ضد الموحدىن ، والقضاء على سلطانهم فى إفريقية ، معتمداً فى ذلك ، مثل أخيه على محالفة سائر العناصر الخصيمة من العرب والغز وغيرهم . ومن ثم فإنه جدد التحالف الذى كان بين أخيه وبين قراقوش أو قراقش زعيم الغز . ولكن هذا التحالف لم يطل أمدته . ذلك أن قراقش مالبت أن جنح إلى طاعة الموحدىن ، فسار إلى تونس واجتمع بوالها السيد أبى زيد ، فتلقاها بمنتهى الترحاب والتكريم ، وأقام بها وقتاً فى كنفه وتحت رعايته ، وكان ذلك فى سنة ٥٨٦ هـ^(٤) . وهنا يحق لنا أن نتساءل هل كانت ثمة علاقة بين تصرف قراقوش وبين سفارة ابن منقذ التى أوفدها صلاح الدين فى نفس هذا العام إلى الخليفة الموحدى ؟ لقد كان قراقوش مملوكاً للملك المظفر تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن شادى ، ابن أخى السلطان.

(١) المعجب ص ١٥٤ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ح ٦ ص ١٩٣ .

(٣) رحلة التجانى ص ١٦٢ .

(٤) رحلة التجانى ص ١٠٤ .

صلاح الدين، ومن الممكن أن يكون تصرف قراقوش قد وقع بإيعاز السلطان ، حتى لاتعتبر الصعاب مهمة سفيره لدى البلاط الموحدى . بيد أننا لانميل إلى الأخذ بهذا رأى ، لأن قراقوش لم يكن إلا مغامراً لا ذمام له ، ولا يدين فى الظروف التى كان يجوزها بدين الولاء لأحد . وقد أقدم قراقوش من قبل على مثل هذه الخطوة حينما كتب إلى المنصور عقب موقعة الحمة بعرض التوبة والطاعة . ومن ثم فإننا نراه بعد فترة يسيرة من التظاهر بطاعة الموحدين ، يفر من تونس ليستأنف مغامراته ، وذلك قبل أن ينتهى ابن منقذ من تأدية سفارته . ولما وصل قراقوش إلى قابس ، استطاع أن يدخلها مخادعة ، وقتل جماعة من أهلها ، وأعلن خروجه على الموحدين مرة أخرى ، واستدعى أشياخ العرب من ذباب وسليم ، فقتل سبعين منهم ، ومن بينهم محمود بن طوق بن بقية زعيم الحمديد ، وحديد بن جارية ، وذلك داخل قصر العروسين بقابس^(١) . ثم سار إلى طرابلس فاستولى عليها من يد حاكمها الموحدى ، وسار بعد ذلك إلى بلاد الجريد فاستولى على معظم أنحائها . وكانت بلاد الجريد مقر حليفه يحيى بن غانية . وعندئذ وقع الخلاف بينهما ، وسار يحيى لقتال حليفه السابق ، فالتقيا بموضع يعرف « بمحسن » من أعمال طرابلس ، فهزم قراقوش هزيمة شنيعة ، وفر إلى الجبال ، وأتبع يحيى نصره بانتزاع طرابلس من يد ياقوت نائب قراقوش ، وذلك بعد حصارها من البحر بمركبين بعث بهما إليه أخوه عبد الله والى ميورقة ، وقبض على ياقوت وأرسله مصفداً إلى ميورقة ، فلبث سجيناً بها ، حتى استولى الموحدون على ميورقة سنة ٥٩٩ هـ ، وعندئذ أفرج عنه ، وقصد إلى مراكش . وعين يحيى ابن عمه تاشفين بن غازى نائباً عنه بطرابلس ، وغادرها ليتابع مغامراته . فلم يمض سوى قليل حتى ثار أهل طرابلس بنائب الميورقى وأخرجوه منها ، وأعلنوا طاعتهم للموحدين مرة أخرى^(٢) .

ونحن نقف فى حوادث إفريقية عند هذا الحد ، لنعود إلى تتبع حركات يحيى بن غانية ، الذى قدر له أن يعمضى فى قيادة المعركة ضد الموحدين زهاء زهاء خمسين عاما ، وهو ينزل بقواتهم الضاربة تلو الأخرى ، وسلطان الدولة الموحدية بإفريقية يهتز ويتصدع تباعا .

(١) رحلة التجانى ص ١٠٤ ، وابن خلدون فى المبرج ج ٦ ص ١٩٣ .

(٢) رحلة التجانى ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

الفصل الثالث

موقعة الأرك

عزم المنصور على السير إلى إفريقية . مسيره إلى رباط الفتح . مقدم ولاية الأندلس وإبلاغهم بإقضاء الهدنة مع النصارى . غارات النصارى وعيهم في أراضي الأندلس . تعديل المنصور لخطته وعزمه على العبور إلى الأندلس . رواية أخرى عن بواعث هذا التحول . إتمام الأهبة ومقدم سائر الحشود . سير المنصور من مراکش إلى قصر الحجاز . جواز الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . مسيره إلى إشبيلية . إجراء التمييز واستكمال الأهبة . سير الخليفة إلى قرطبة ثم خروجه إلى قشتالة . أهبة ألفونسو الثامن . مسيره نحو قلعة رباح . نزوله بقواته في ربوة الأرك . سير الخليفة إلى لقائه ونزوله قرب الأرك . اشتباك الطلائع . رأى ابن صناديد في خطة القتال . تقسيم الجيش الموحدي وقواده . زحف الموحدين صوب الأرك . استعدادهم لخوض المعركة . ترتيب الجيوش الموحدية . تبادل الغفران والحث على الجهاد . وصف عيان لميدان معركة الأرك . بدء المعركة في ضحى التاسع من شعبان . نزول القشتاليين واندفاعهم نحو المعسكر الموحدي . هجوم القشتاليين على القلب . عنف القتال وروعه . مقتل القائد العام أبي يحيى . اندفاع جيوش الأندلس والمغرب والأغزاز نحو النصارى . اضطراب النصارى إلى الارتداد والفرار إلى الربوة . حلة العرب والمطوعة والأغزاز عليهم وحصدهم . زحف الخليفة في سائر قواته نحو النصارى . ارتياح النصارى وفرارهم . اقتحام الموحدين لحصن الأرك . وصف الرواية النصرانية لأدوار المعركة . ارتداد ملك قشتالة في فله نحو طليطلة . الاتفاق بين الفريقين على تسليم حصن الأرك . استنقاذ الأسرى المسلمين وتسريع حامية الحصن . نتائج المعركة . عدد الجيش القشتالي وخسائره . خسائر المسلمين . الفناء والأسلاب . المقارنة بين موقعة الزلاقة وموقعة الأرك . عنصر الأسطورة في المعركتين . الخلاف بين الموقعتين من حيث الظروف والنتائج . أسباب قصر الموحدين . زحف الموحدين على قلعة رباح واقتحامها . وصف عيان لأطلال هذه القلعة . تقسيم المنصور للفنائم . عوده إلى إشبيلية . توجيه كتب الفتح . تهاني الشعراء . عناية المنصور بإصلاح الجامع وإتمام صومته . قضاؤه للشتاء في إشبيلية . التمييز والاستعداد لاستئناف الغزو . سير المنصور من إشبيلية إلى منطقة أستمادورة . اقتحام الموحدين لحصن متانجش . استيلاؤهم على مدينة ترجالة ، وسانتاكروث . اقتحامهم لمدينة بلاسثيا وأسر حاميةها . سيرهم إلى طليطلة وتخريبهم لأحوازها . احتجاب القشتاليين وإحجامهم عن لقاء الفزاة . اقتراب الموحدين من طليطلة وتخريبهم لبساتنها . رواية عن غزوهم لطليطلة . استنصار ملك ليون بالمنصور . إمداده بقوة من الموحدين . غزو الموحدين واليونانيين لقشتالة وتخريبهم لأراضيها . عود المنصور إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية . نتائج هذه الغزوة السلية . عناية المنصور بأمر العمال والنظار . قيامه بتعيين بعض الولاة . استعداده للغزوة التالية . مسيره إلى قرطبة ونزوله بها .

لما تواترت على المنصور خلال سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) تلك الأنباء المقلقة عن حوادث إفريقية ، وتوالت عليه كتب واليها الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص عن استفحال أمر بني غانية ، وتفاقم غارات العرب واشتداد عيهم ، اعزم أن يسير إلى إفريقية لمعالجة الأمور بنفسه ، فغادر مراكش إلى رباط الفتح ، ليقوم هناك بإعداد الحملة المرغوبة ، وبعث بكتبه إلى ولاية الأندلس بالحضور لتلقى تعليماته فلما وفدوا عليه بالرباط قرروا أن الهدنة التي عقدت مع ملك قشتالة في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠) عقب جوازه السابق إلى الأندلس ، قد انتهى أجلها ، وأنه أي ملك قشتالة قد بعث إلى جميع الثغور الإسلامية الواقعة على حدودها ينلها بذلك ، وأنه اعتماداً على انشغال الخليفة بحوادث إفريقية ، وباستعداده للحركة إليها ، قد بعث أقماطه وقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يغيرون عليها ، ويشخون فيها ، حتى بلغت غاراتهم أحواز إشبيلية^(١) . فصرف المنصور ولاية الأندلس ، وغادر رباط الفتح إلى مكناسة ، وهو على عزمه أن يسير إلى إفريقية : ولكن توالت عليه عندئذ كتب أهل الأندلس ، وقادة الثغور فيها ، باشتداد وطأة العدو ، وتفاقم غاراته ، وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد بعث مطران طليطلة مارتن لوبث في حملة تخريبية محضة إلى أراضي الأندلس ، عاثت فيها أشد عيث ، واستولت على كثير من الغنائم والماشية . فرفعت هذه المخاطبات والأنباء كلها إلى المنصور ، وهو في مكناسة يستعد للسير إلى إفريقية فأقلقته وأهمته ، ورأى عندئذ أن يعدل خطة سيره ، فأمر بأن تُبعث الأمداد إلى ولاية إفريقية ، وأن تعد العدة للسير إلى الأندلس ، فاشتدت الحركة عندئذ ، وأقبلت الحشود من كل صوب ، وكانت رغبة المجاهدين في العبور إلى الأندلس أشد لقرىها ، وتيسير المؤن والأقوات بها^(٢) .

تلك هي البواعث والظروف التي أملت على المنصور عزمه على العبور إلى الأندلس للمرة الثانية : ولكن توجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة ،

(١) وتوجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة كان قد بعث إلى المنصور ، وهو يتأهب لنزو إفريقية ، رسوله يطلب تجديد الهدنة ، وهو يضمرك الكيد ، فلما وصلت أنباء الغارات التي قام بها القشتاليون في أراضي الأندلس ، والرسول في محلة المنصور ، أمر المنصور بطرده وتجهيزه إلى البحر (أورد هذه الرواية خلال حديثه عن موقعة الأرك أبو الحسن حازم القرطاجي في كتابه « رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة » (مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٢) .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩١ و ١٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

على أثر انقضاء الهدنة التي كانت معقودة بينه وبين الموحدين ، غزا أراضي الأندلس ، وتوغل في غاراته حتى الجزيرة الخضراء . وهناك وجه إلى الخليفة المنصور كتاباً من إنشاء وزيره اليهودي ابن الفخار ، يتحدث فيه بأسلوب يفيض غروراً ووقاحة ، أن يأتي لقتاله ، فإن جبن أو عجز ، فليرسل إليه السفن ليجوز فيها إليه ، ويقاتله في أعز مكان لديه ، وأن المنصور غضب لذلك ، واستنفر الناس للجهاد ، وكانت حركته الثانية إلى الأندلس^(١) . على أنه يبدو من نص هذا الخطاب ، ومن تحدته عن « تواكل رؤساء الأندلس ، وإخلاصهم إلى الراحة » أنه يمكن بطريقة أرجح نسبته إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأنه كان موجهاً إلى يوسف بن تاشفين ، وليس إلى الخليفة الموحدى .

وفي أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) كانت أهبات الحملة الموحدية ، قد تقلعت تقدماً كبيراً ، واجتمعت الحشود من سائر بلاد المغرب والقبلة . وفي يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، خرج الخليفة يعقوب المنصور من حضرة مراكش ، والجيش يتلاحق في أثره من سائر النواحي ، وسار توجاً إلى قصر المجاز (القصر الصغير) ، وهناك عني بتنظيم تموين الجيوش ، ثم بدأ الجواز ، فكان أول من جاز البحر قبائل العرب ثم قبائل زناتة ، ثم المصامدة ، فغارة ، فالجيوش المطوعة ، ثم الموحدون ، فالعبيد ، ولما تم جواز الجيوش على هذا النحو واستقرت بأراضي الجزيرة الخضراء ، عبر الخليفة المنصور البحر في جمع كبير من أشياخ الموحدين والزعماء والفقهاء ، والعلماء ، وكان عبوره إلى طريف^(٢) في يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ (أول يونيه سنة ١١٩٥ م) .

وأقام المنصور بطريف يوماً واحداً ، ثم استأنف سيره إلى إشبيلية ، ولقيه في الطريق وإلى إشبيلية السيد يعقوب بن أبي حفص وجماعة من أعيانها ، ثم تقدمه ليعده له أسباب النزول في الحضرة الأندلسية ، ونزل الخليفة بقصر البحيرة خارج باب جهور ، وهرع أهل الحاضرة للسلام عليه ، وعهد الخليفة إلى أبي بكر

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ ، وابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٤٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٤٥ ، والنويري طبعة ريمبرو في مجلة (Revista del Centro de Estudios Históricos T. VIII año 1919 p. 218) ج ٨ ص ٢٧٣

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٢ ، وفي روض القرطاس أنه عبر إلى الجزيرة الخضراء (ص ١٤٦) .

ابن زُهر وزملائه أشياخ المدينة ، يأنزال الأشياخ والأكابر في الدور المعدة لنزولهم ، وبعد الظهر أذن بدخول السادات للسلام عليه ، وكان ذلك يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الثانية . وفي الغد ركب الخليفة إلى حصن القرج الذى كان قد أمر بإنشائه خارج إشبيلية ، وأعجب بمنعته وحسن روائه . ثم عاد فزار المسجد الجامع . وفي يوم السبت أمر بإجراء التمييز ، فانتظم سائر الجند بالزى الفاخر ، والعدد الكاملة ، وركب الخليفة ومعه من حضر من الأبناء ، والقرابة والوزراء ، واستعرض الجند صفّاً صفّاً ، وقبيلاً قبيلاً ، ثم أخرجت الرواتب والبركات ، ووزعت على سائر الحشود^(١) .

وأنفق المنصور في إشبيلية أسبوعين وهو يستكمل أهباته ، ويضع خططه في أناة وروية ، وفي صبيحة يوم الخميس الحادى عشر من رجب (٢٢ يونيه) غادر إشبيلية قاصداً إلى قرطبة ، مختاراً طريق نهر الوادى الكبير فوصل إليها يوم الجمعة التاسع عشر منه ، واستراح بها ثلاثة أيام . ثم خرج منها من باب مورادال في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه ، وسار في قواته شمالاً ميمماً صوب سهول شلبطرة وقلعة رباح .

وكانت أنباء عبور الخليفة الموحدى وجيوشه الزاخرة ، قد ترامت أثناء ذلك إلى ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، فجمع « الكورتيس » في مدينة كريون على عجل وأخذ يتأهب للحرب بكل ماوسع ، واستدعى سائر أتباعه من الأمراء والأشراف في قواتهم ، وحشد كل ما استطاع من الجند ، وبعث إلى زميله ملكى ليون وناقارا في طلب العون ، فوعدها بذلك ، وانتظر أياماً بطليطة حتى وفد أتباعه في حشودهم ، ثم غادرها مسرعاً إلى الجنوب ، واخترق نهر وادى يانه متجهاً نحو أراضي قلعة رباح ، ولم ينتظر مقدم زميله وحليفه ملك ليون ، وكان قد وصل في قواته إلى طليطرة ، ولم ينتظر كذلك مقدم قريبه ملك ناقارا (نبرة) ، إذ كان واثقاً من رجحان كفة قواته وأهباته ، واثقاً من النصر على أعدائه ، مهما بلغت قواتهم .

وكان ملك قشتالة قد بدأ قبل ذلك بقليل بإنشاء حصن جديد في الحلة المسماة

(١) البيان المنرب ص ١٩٢ و ١٩٣ .

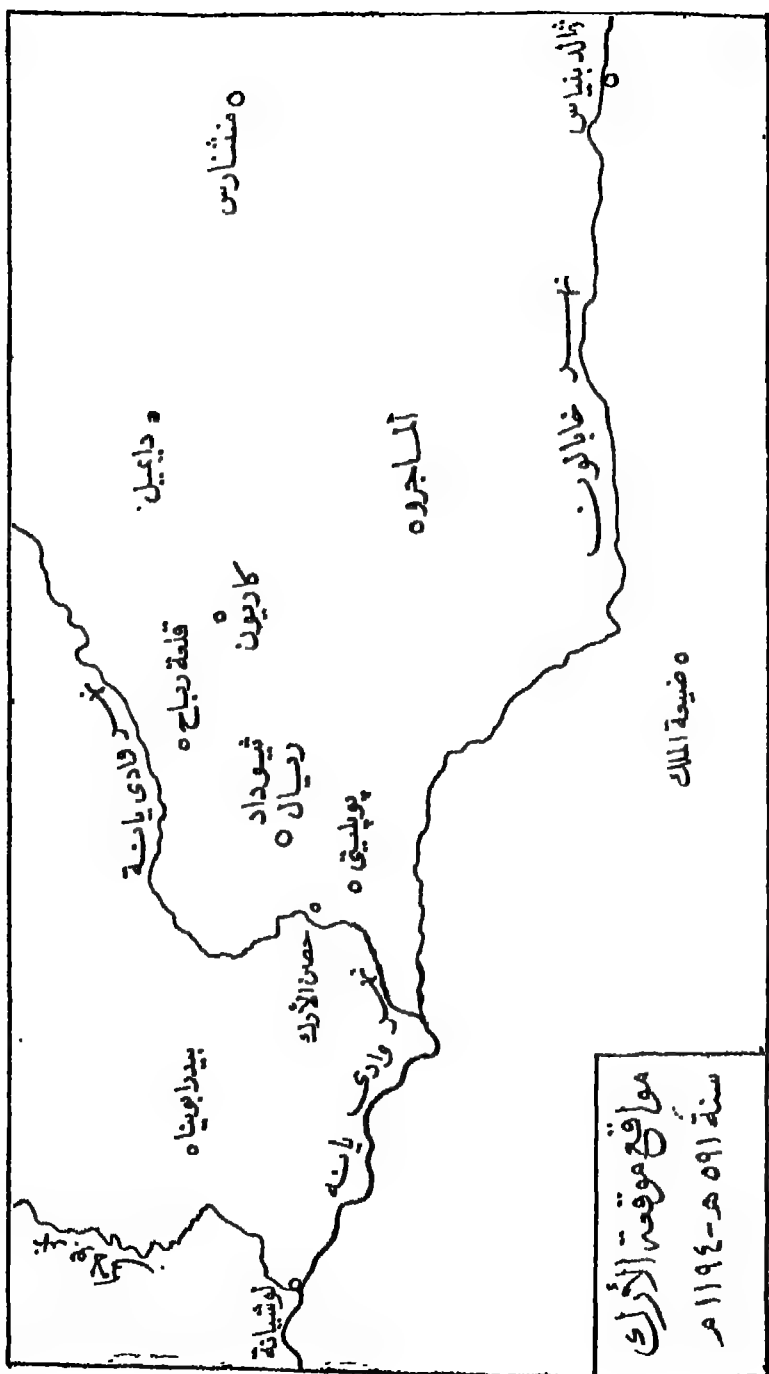
« بالأرك » : وهى محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح ، تقع على مسافة أحد عشر كيلومتراً في غربى مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة^(١) ، وتقوم فوق ربوة عالية ، تمتد سفوحها حتى نهر وادى يانه ، وكانت عندئذ هى نقطة الحدود بين قشتالة وأراضى المسلمين ، فإلى هذه المحلة اتجه ملك قشتالة بقواته ، وعسكر بها معزماً أن يلقي الموحدون وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيه .

وأما الخليفة المنصور فاستمر في سيره مخترباً قلعة رباح حتى وصل إلى مقربة من محلة الجيش القشتالى المعسكر فى الأرك . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الخليفة استمر في سيره حتى بقى بينه وبين الأرك مرحلتان قريبتان ، وإذ نزل هنالك ، وذلك في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٣ يولييه سنة ١١٩٤ م) : وماكاد الجيش الموحدى يستقر في محله حتى ظهرت سرية من خيل القشتاليين خرجت لتستطلع أخبار المسلمين ، فظفرت بها طائفة من الجند الموحدين وأبادتها قتلاً : ومضت بضعة أيام أخرى قبل أن يقع الاشتباك بين الجيشين ، ولم تكن ثمة سوى الطلائع من الجانبين ، وكانت الحسارة تقع في معظم الأحيان على القشتاليين : وفي خلال ذلك كان الخليفة المنصور ، يعقد المؤتمرات الحربية ، ويمر مشاوراته مع أشياخ مختلف القبائل ، ويروى لنا صاحب روض القرطاس أنه لما استشار قواد الأندلس أحواله على كبيرهم أبى عبد الله ابن صناديد ، وأن ابن صناديد أبدى رأيه للخليفة ، بأنه يجب أن تبدأ المعركة باشتباك سائر حشود الأندلس وقبائل العرب ، وسائر قبائل المغرب من زناتة والمصامدة وغيرهم وجند المتطوعة ، وأن ينتظر الخليفة في المؤخرة ومعهم جيوش الموحدين والعبيد والحشم في موضع مستور ، فإن أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين فيها ، وإن أسفرت عن هزيمتهم ، فعندئذ يباشر الخليفة في قواته إلى لقاء العدو ، وليحمي ظهور المسلمين ، ويكون العدو عندئذ قد خبت قواه ، فيكون النصر للمسلمين ، وأن الخليفة قد أعجب بهذا الرأي وقرر اتباعه^(٢) .

ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس فوق ذلك تفاصيل هامة عن تقسيم الجيش

(١) الأرك هى بالإسبانية Alarcos ، وثيوداد ريال هى Ciudad Real وسماها المدينة الملكية . وتقوم مكان الأرك اليوم محلة صغيرة تسمى Sta Maria de Alarcos في فحس قلعة رباح .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ .



الموحدى وقواده فى ذلك اللقاء الهام ، فىقول لنا إن الخليفة جلس فى يوم السبت الخامس من شعبان فى قبة الحمراء واستدعى الشيخ أبي يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص ، وهو حفيد الزعيم عمر بن أبي حفص الهتائى صاحب المهدي ، وكان من أكبر وزرائه ، فولاه قيادة الجيش العامة ، وقدم ابن صناديد على عساكر الأندلس وحشودها ، وجيرمور بن رياح على جميع قبائل العرب ، ومنديل المغراوى على قبائل مغراوة ، وعقد لمحيو بن أبي بكر بن حمادة على جميع قبائل بني مرين ، ولجابر بن يوسف على قبائل عبد الواد ، وعقد لعبد القوى التجينى على قبائل تجين ، ولتجليدر على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولحمد بن منعقاد على قبائل غمارة . وعقد أخيراً للحاج أبي خزر يخلف الأورينى على سائر المتطوعة ، وذلك على أن تكون هذه القيادات جميعها تحت القيادة العامة لأبي يحيى بن أبي حفص : واختص أمير المؤمنين من جانبه بكافة عسكر الموحدى والعبيد^(١) .

وكان الخليفة المنصور ، قد قرر مع قادته أن تبدأ الجيوش الموحدية بالزحف على محلة النصرى . وتحركت الجيوش الموحدية بالفعل خلال السهل المنبسط أمام ربوة الأرك ، حتى صارت على مقربة منها ، ونزات فى السهل المنخفض الممتد أمامها ، وهى تشرف عليه بمنعتها ووعورتها من عل ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء الثامن من شعبان (١٧ يولييه) فلما رأى النصرى اقتراب الموحدى خرجت جملة من قواتهم ، وتقدمت قليلاً من مراكز الجيش الموحدى ، ولكن الموحدى لم يفعلوا شيئاً للاشتباك مع العدو . ذلك أن الخليفة المنصور لم يشأ أن يخوض الموحدون المعركة فى ذلك اليوم ، بل قرر خوضها فى اليوم التالى . فلما رأى النصرى المتقدمون جمود الموحدى ، عادوا إلى محلهم فوق ربوة الأرك وقد أثقلتهم أسلحتهم^(٢) : وفى اليوم التالى . وهو يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يولييه سنة ١١٩٥ م) كانت الجيوش الموحدية كلها على قدم الأهبة ، وقد عبتت تعبئة حرب ، وعقدت الرايات لسائر القبائل والطوائف ، وجعل القائد العام أبو يحيى عسكر الأندلس فى الميمنة ، وزناتة وسائر القبائل المغربية والعرب فى

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ .

(٢) الرواية الصراية اللاتينية *Chronique latine des Rois de Castille* وقد أوردها الأستاذ هوثى فى بحثه عن معركة الأرك *Campana de Alarcos* المنشور بمجلة المعهد المصرى بمديرية Vol. II. p. 62-67 ، ثم فى كتابه *Grandes Batallas de la Reconquista* p. 152.

الميسرة ، وجعل المتطوعة والرماة والأغزاز في المقدمة ، واحتل هو القلب مع قومه من قبيلة هنتانة . وبقى المنصور في خاصته ، وفي جند الموحدين والعبيد في المؤخرة ، على أهبة للتدخل في اللحظة الحاسمة^(١) .

ووقعت قبيل المعركة بقليل في المعسكر الموحدي ، مناظر مؤثرة ، حيث قام القائد العام الوزير أبو يحيى وصاح بصوت جهورى يقول للناس : إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وأن يتغافروا فيما بينهم ، وأن يطيبوا نفوسهم ، وأن يخلصوا نياتهم لله ، فبكى الناس ، وصاحوا من جانبهم بطلب الغفران من الخليفة ، وأنهم ييمن نيته وصدق طوبته ، يرجون الخير من الرحمن . ثم قام القاضي أبو علي بن حجاج ، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبياناً ، في الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدره عند الله ، وكان لهذه الحركة آثارها في إنعاش النفوس وتنبيه الضمائر ، وتنقية السرائر ، وإذكاء العزائم^(٢) .

ومجدد بنا قبل أن نصف أدوار المعركة ، أن نصف البقعة التاريخية ، التي وقعت فيها ، وقد أتيج لنا زيارتها ودراستها^(٣) .

إن ميدان معركة الأرك Alarcos ، مازال معروفاً بمواقعه وحدوده ، تعيينه وتحدهه ، لا الرواية المتواترة فقط ، ولكن تحده كذلك آثار حصن الأرك الشهير ، الذي عرفت باسمه المعركة ، والذي تقوم اليوم مكانه ، فوق نفس الربوة التي كان يحتلها ، كنيسة ، أو معبد يسمى « كنيسة القديسة مريم صاحبة الأرك »

• Sta Maria de Alarcos

ويقع هذا المكان على قيد نحو ستة كيلومترات من غربي مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة ، وشمال غربي بلدة « بوبليتي » الصغيرة ، وتفضى إليه طريق جبلية معبدة ، تخترق في البداية بسيطاً أخضر من الأرض ، يفضى غير بعيد إلى مجموعة من الهضاب الصغيرة . وعلى نحو أربعة كيلومترات من هذه الهضاب ، تقع ربوة الأرك Alarcos التي تقوم عليها اليوم ، فوق أنقاض الحصن القديم كنيسة القديسة مريم ، أوسيدة الأرك ، وهذه الكنيسة أو المعبد ، حسبما يسمى في تلك الناحية Ermita

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ و ١٤٩ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٤ .

(٣) كان ذلك في اليوم الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٣ .

عبارة عن بناء قديم ، يقوم وسط فناء شاسع ، تحيط به أسوار قديمة . ونوجد بداخله كنيسة بها صفان من العقود الكبيرة ، يحتوى كل منهما على أربعة عقود ، وهى بسيطة جداً ، وليست بها أية مظاهر فخمة :

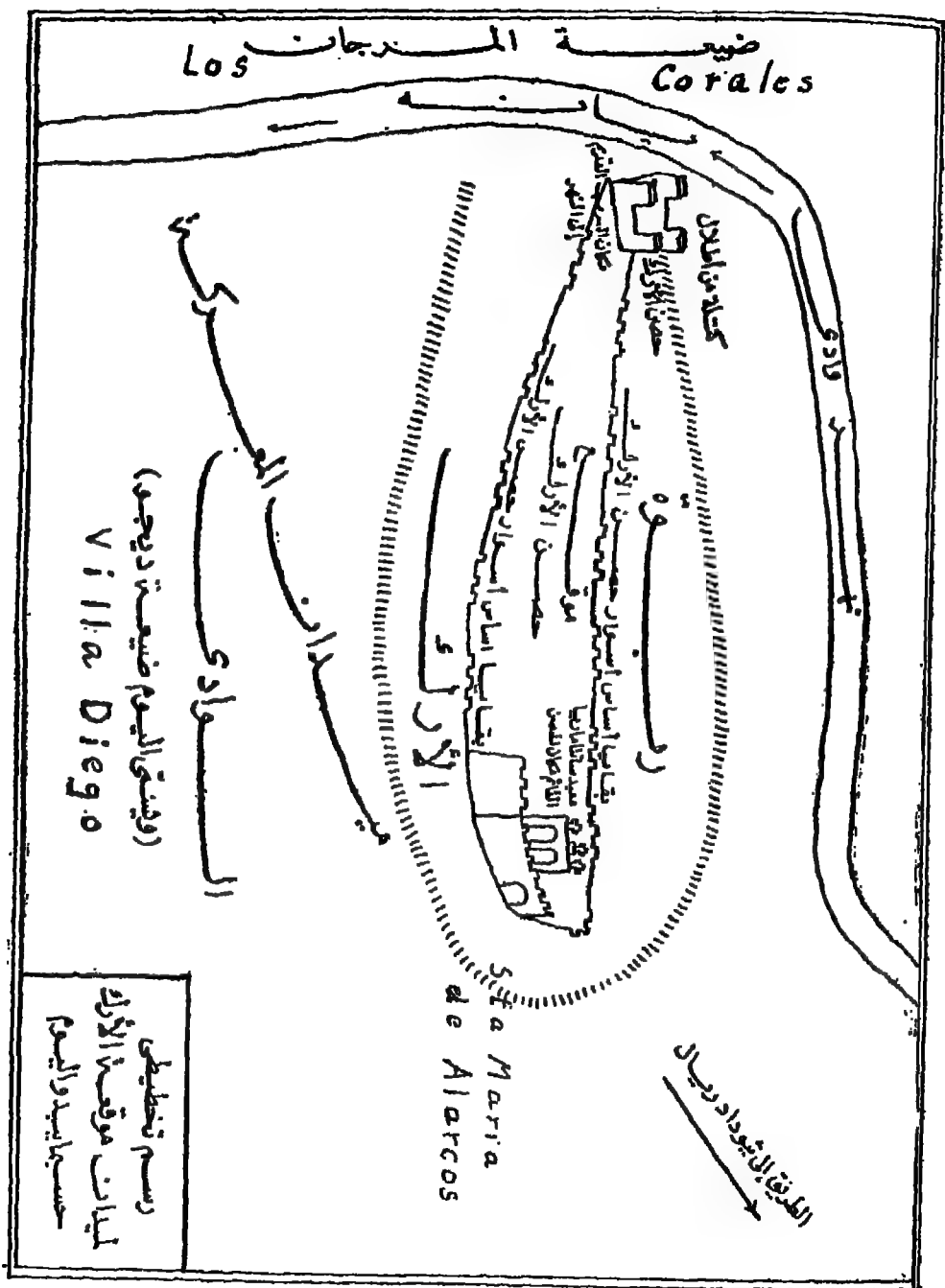
وأما آثار حصن الأرك القديم ، فتبدو أولاً فى مصطبة صخرية كبيرة تمتد خارج سور المعبد على حافة الربوة ، وتلدور حولها ، وهو ما يدل على أن المعبد قد بنى فوق موقع الحصن القديم ، وتبدو ثانياً فى وجود عدة بقايا صغيرة من أسوار الحصن تقع فى غريبه : وظاهر من وجود الأحجار والأنقاض المماثلة ، وامتدادها غرباً حتى قرب النهر أن بناء الحصن ، كان يمتد نحو ثلاثمائة متر ، كما أنه يوجد فى الناحية الخلفية ، من الربوة ، وهى تطل أيضاً على نهر وادى يانه ، آثار عقدين قديمين .

ويوجد عند نهاية الأنقاض غرباً ، كتلة كبيرة من الأحجار والصخور ، وتحته أثر سرب قديم ، يقال إن الفرسان ، كانت تقود منه خيلها إلى النهر لتشرب من مائه : وأنقاض مصطبة الحصن التى سبق ذكرها ، تصل إلى هذه الكتلة من الأنقاض ، مما يدل على أن الحصن كان يمتد حتى ذلك المكان . كما أنه يبدو خلال الأنقاض الممتدة كثير من أسس الجدران القديمة .

وتشرف الربوة فى اتجاه الجنوب على واد عميق متدرج ، يصطلح على أنه المكان الذى وقعت فيه الموقعة . ويجرى نهر وادى يانه بجذاء هذا الوادى من شماله وغربه ، ويلدور فى المنحاة كبيرة حول ربوة الأرك ، ويطلق اليوم على هذا الوادى الذى تغمره الخضرة اسم « محلة ديجو » Villa Diego .

ويبدو من أوصاف أدوار المعركة أن محلة الحيش القشتالى ، كانت تحتل مكاناً يتصل بمشارف ربوة الأرك ، على مقربة من الحصن ، ويمتد فى اتجاه قرية بوبليتي ، ويستند إلى الحصن ، وإلى نهر وادى يانه ، وأن المسلمين كانوا يحتلون البسيط الواقع قبالتهم فى أسفل الوادى ، وتستند محلتهم غرباً إلى يسار النهر .

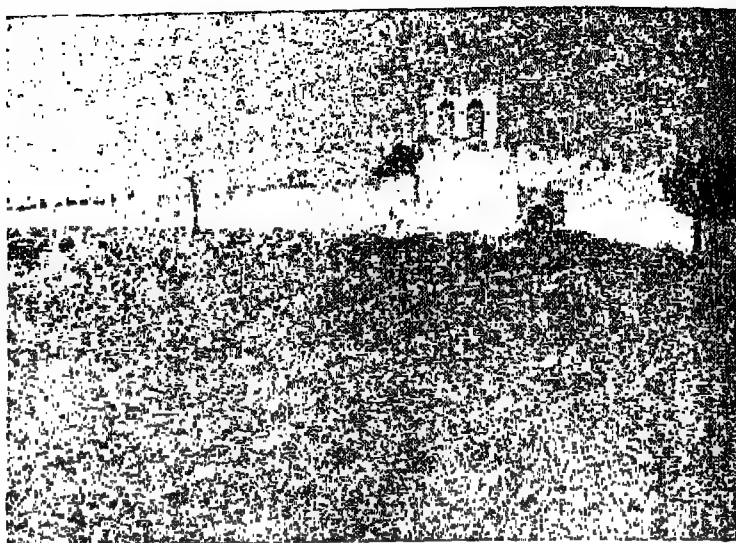
وفى ضحى هذا اليوم - التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يولييه سنة ١١٩٤م) - نشبت المعركة المرقبة : وكان القشتاليون حيناً رأوا جيوش الموحدين تزحف نحو محلتهم ببطء ، وقد عبث للهجوم أكمل تعبته ، قد نزلوا من محلتهم فى صفوف كثيفة قائمة ، أو حسباً تصفهم الرواية الإسلامية وهم « كالليل الدامس ،



والبحر الزاخر ، أسراباً تتلو أسراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً . ويقدر صاحب روض القرطاس ، من هبط في هذه الدفعة الأولى من القشتاليين بنحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فارس « كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزرر » . ثم يتبع حركات هذه القوة النصرانية المهاجمة ، فيقول إنها اندفعت حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أو كادت ، ثم تقهقرت قليلاً ، وعادت إلى الاقتراب من المسلمين ، ثم ارتدت وتبأت للهجوم الفعلي ، وفي أثناء ذلك كان الشيخ أبو يحيى والقائد ابن صناديد ، بحث كل منهما الجند على الثبات وإخلاص النيات والأعمال . وأخيراً تركز هجوم القشتاليين على قوات القلب التي يقودها القائد العام أبو يحيى ، معتقدين أنه هو الجناح الذي يقوده الخليفة ، وكان المنصور قد أمر بالفعل بأن ترفع الأعلام الخليفة على القلب ، فقاتل أبو يحيى وجنوده أشد قتال ، ولكن الصدمة كانت عنيفة ، فقتل أبو يحيى ، وقتل معه جماعة من هتاتة ، والمطوعة وغيرهم . وعندئذ تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغزاز والرماة ، وأحاطوا بالنصارى من كل جانب ، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس إلى المعركة وزحفت معه قبائل زناتة وسائر قبائل البربر ، واندفعت الجيوش الموحدية بجملتها نحو محلة القشتاليين ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة ، وكثر القتل في مقدمة القشتاليين ، التي اضطلعت بالهجمة الأولى ، واستمر القتال على هذا النحو بعنف وشدة ، حتى اضطّر القشتاليون إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التي تحتلها محلتهم ، وبدت بوادر الهزيمة على القشتاليين^(١) .

ولكن صاحب البيان المغرب ، وهو فيما يرجح ينقل عن رواية ابن صاحب الصلاة وهي رواية معاصرة ، يقدم إلينا عن المعركة صورة أخرى . فيقول لنا إن هجوم القشتاليين تركز أولاً على ميسرة الجيوش الموحدية ، وأنه أسفر عن تقهقر جماعة من المطوعة وأخلط السوق ، فلما رأى المنصور ذلك ، نهض بنفسه ، وترك ساقته على حالها ، وتقدم منفرداً ، وهو يبحث الجند على الثبات والمهجوم على العدو ، فكان لحركته أعظم وقع في نفوس الجند ، فاضطربت همهم وعزائمهم ، واندفعت سائر الحشود والقبائل نحو القشتاليين بشدة ، والتحم الحيشان ، واشتد القتال ، وكثر القتل في صفوف القشتاليين ، واضطروا في النهاية إلى التقهقر والفرار . ودامت المعركة من ضحى اليوم حتى غروب الشمس ، وأسفرت عن قتل جموع

(١) روض القرطاس ص ١٤٩ - ١٥٠ .



كنيسة الأرك (سانتا ماريادى الأركوس) التي أقيمت على أنقاض حصن الأرك



مجموعة أطلال قلعة رباح

عظيمة من النصارى ، واستطاع ملك قشتالة أن يفر في نحو عشرين فارساً من أصحابه ، فسار تحت جناح الليل صوب طليطلة ليلوى على شيء ، واعتصمت معظم قلوب النصارى بحصن الأرك^(١) .

وتفصل لنا الرواية الإسلامية ما حدث بعد هزيمة القشتاليين في الجولة الأولى . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، كان عندئذ معتصماً مع باقي قواته ببروة الأرك . فلما ارتد القشتاليون ، وفروا نحو البروة يحاولون الاعتصام بها ، حالت بينهم القوات الموحدية ، فارتدوا ثانية نحو السهل ، فحملت عليهم العرب والمطوعة وهتاتة والأغزاز والرماة ، وحصلوهم حصداً ، وأفنؤهم حسبما تقول الرواية عن آخرهم . ولما علم أمير المؤمنين بما حدث ، ضربت الطبول ونشرت الرايات ، وفي مقدمتها اللواء الخلفي الأبيض ، وزحف المنصور في القوات الموحدية نحو القشتاليين ، تؤيده سائر الحشود والقبائل . وكان ملك قشتالة حيناً رأى ما حل بقواته ، وسمع ضرب الطبول ، وعجيج الأبواق ، قد اعتزم أن يلقي ضد الموحدين بما تبقى من قواته ، ولكن القشتاليين حيناً رأوا كثافة الجيوش الموحدية، وروعة هجومها واضطرامها عولوا على الفرار ، فتلاحقت بهم فرسان الموحدين ، تحصدتهم قتلاً وأسراً ، وأحاط المسلمون بحصن الأرك، يظنون أن ألفونسو الثامن قد اعتصم به ، ولكن تبين أنه قد لاذ بالفرار من أحد أبوابه الخلفية ، فدخل المسلمون الحصن عنوة ، وأضرموا النار في أبوابه ، واحتوا على جميع مافيهِ ، ومافى محلة النصارى ، من اللخائر والأسلاب والسلاح والمتاع والدواب والنساء^(٢) .

وعلى أى حال ، فإنه يبدو من أقوال الرواية الإسلامية ، أن القشتاليين هم الذين بدأوا بالمهجوم على الموحدين . وتؤيدها في ذلك الرواية النصرانية . وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن المعركة ، وصفاً موجزاً يختلف قليلاً عما تقوله الرواية الإسلامية ، وهو أنه لما رأى القشتاليون الموحدين ، يتقدمون من محلهم في الصباح الباكر من ذلك اليوم ، حدثت ضجة في معسكر النصارى ، وخرج القشتاليون في قليل من النظام وتقدموا ، ثم اشتبكوا مع المسلمين . وفي الصدمة الأولى سقط عدة من أكابر النصارى ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٤ و ١٩٥ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٠ .

ولما رأى ملك قشتالة رجاله يسقطون في المعركة على هذا النحو تقدم بنفسه إلى الأمام ، وأخذ يشحن مع طائفة من رجاله في المسلمين يميناً وشمالاً . ولكن رجاله رأوا أنه يستحيل عليهم أن يقاوموا ضغط الحشود الموحدة ، خصوصاً بعد أن سقط كثير من النصارى ، وقد استطالت المعركة إلى منتصف النهار ، فتضرعوا إليه أن يحتفظ بحياته ، خصوصاً وأنه يبدو أن الله قد تمخّل عن النصارى . ولكنه أبى أن يصغى إليهم ، فجذبوه من المعركة رغم إرادته ، وارتد نحو طليطلة في نفر من الفرسان وقلوبهم تنفطر لما حدث حزناً وأسى^(١) .

وتتفق الروايتان الإسلامية والنصرانية على أنه عقب الهزيمة ، لجأت قلوب القشتاليين إلى حصن الأرك بقيادة دون دييولوث دى بسكاية . وتقدر الرواية الإسلامية هذه القلوب بخمسة آلاف ، فطوق الموحدون الحصن ، وكان الخليفة المنصور يعتقد أن ملك قشتالة قد لجأ إليه ، ولكنه تأكد من أقوال حليفه وخدمته القشتالي دون بيدرو فرنانديث دى كاسترو الموجود بمحله ، أن الملك قد لاذ بالفرار إلى طليطلة ، فعندئذ طالب المنصور بتسليم الحصن في الحال ، وأن يُعطى اثني عشر فارساً كرهينة ، حتى يحضر دون دييغو إليه بمراكش ويسلم نفسه أسيراً ، وإلا فإنه سوف يقتحم الحصن ويقتل كل من فيه . وتقول لنا الرواية الإسلامية من جهة أخرى ، إن الاتفاق تم بواسطة دون بيدرو فرنانديث (وتسميه بطوره ابن فرنانديث) على أن يفرج عن خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل إطلاق القشتاليين المحصورين بالحصن ، وأن المنصور ارتضى هذا الاتفاق ، حرصاً على استنقاذ أسرى المسلمين ، وأخذت رهائن وُجّهت إلى إشبيلية . وهكذا استطاع دون دييولوث أن يخرج من الحصن ، وأن يلحق بمليكه في طليطلة^(٢) .

ولكن صاحب روض القرطاس يقدم إلينا عن تسليم حصن الأرك رواية بطبعها شيء من الخيال ، وهو أن الموحدين أخذوا في حصن الأرك أربعة وعشرين ألف أسير من زعماء الروم ، فرأى الخليفة المنصور أن يمن عليهم بالإفراج ، فأطلق سراحهم وأقالهم من الأسر بعد أن ملكهم ، وأن هذا التصرف من جانبه ،

(١) الرواية النصرانية اللاتينية *Chronique Latine des Rois de Castille* التي سبقت الإشارة إليها .

(٢) البيان المغرب - القمم الثالث ص ١٩٥ و ١٩٦ . والرواية النصرانية اللاتينية التي سبقت الإشارة إليها . وينقل صاحب الحجب المستورة هذه الرواية (مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٤) .

قد عز على الموحدين وعلى كافة المسلمين ، واعتبروه سقطات الملوك^(١) تلك هي تفاصيل موقعة الأرك العظيمة التي أحرز فيها الموحدون أعظم نصر ، حققوه خلال حكمهم الطويل لشبه الجزيرة الأندلسية . على أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن نتائج المعركة بعض الأقوال والأرقام المغرقة ، وهي قبل ذلك تقدم إلينا عن عدد الجيش القشتالي أرقاماً لا يسيغها العقل لكي تتفق مع هذه النتائج . وهي لا تقدم إلينا شيئاً واضحاً عن عدد الجيش الموحدى ، وتكتفى بأن تتحدث عن عظمة حشوده ، وبأن تصفه بأنه جيش يضيق له الفضاء^(٢) . ولكنها تقول لنا إن جيش القشتاليين كان يزيد على ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل^(٣) . ويقول الضبي إنه كان بنيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتى ألف راجل^(٤) . أما عن خسائر النصارى ، فيقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنه قتل في المعركة من الكفرة ألوف لاتعد ولا تحصى . ويقول لنا ابن الأثير ويتابعه النویری ، إن عدد القتلى من الفرنج بلغ مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وبلغ عدد الأسرى ثلاثة عشر ألفاً^(٥) . بيد أنه توجد عن خسائر النصارى رواية أخرى أكثر اعتدالاً ، هي رواية يوسف بن عمر ، مؤرخ الموحدين ، التي نقلها إلينا صاحب البيان المغرب ، وهو أنه قتل في المعركة من النصارى زهاء ثلاثين ألفاً^(٦) . ويأخذ بهذه الرواية صاحب كتاب « الحجب المستورة » وهو يتابع في روايته رواية البيان المغرب مع تعديلات يسيرة^(٧) . وأما عن خسائر المسلمين فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النویری ، إنه قتل من المسلمين نحو العشرين ألفاً ، وهي رواية تبدو معقولة وربما مبالغاً فيها بعض الشيء من حيث الكثرة^(٨) . وتقول لنا بعض الروايات الأخرى إنه قتل من أعيان المسلمين نفر قلائل ، وإن عدد القتلى من المسلمين يبلغ نحو الخمسمائة وهو عدد ضئيل بالنسبة لاشتداد القتال ، وطول أمد المعركة .

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنویری (طبعة جبار ريمبرو السالفة الذكر ج ٨ ص ٢٧٤) .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٩ .

(٤) بنية المتمس (المكتبة الأندلسية) ج ٣ ص ٣٥ .

(٥) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنویری ، الطبعة المشار إليها ص ٢٧٤ .

(٦) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٥ .

(٧) كتاب الحجب المستورة في محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٤) .

(٨) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنویری (الطبعة السالفة الذكر) ج ٨ ص ٢٧٤ .

وعلى أى حال ، فإنه لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن الرواية الإسلامية هنا ،
وكعادتها في مثل هذه المواقع العظيمة الحاسمة ، التي تضطرم بين الإسلام
والنصرانية ، تنجح إلى نوع من المبالغة والإغراق ، يمكن فهمه وتعليله وإن لم
تتمكن استساغته . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت فادحة في مثل هذه المعركة
التي بلغ فيها القتال أشده ، والتي ثقلت فيها وطأة المطاردة على الجيش المهزم ،
وأنحن الموحدون في فلوله قتلا وأسرا ، ولكنها لا يمكن أن تعدو بضع عشرات
من الألوف . ومن ثم كان الرقم الذي يقدمه إلينا المؤرخ الموحدى المعاصرو هو
ثلاثون ألفاً ، يطبعه التعقل والاعتدال . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا بعد ذلك
عن الغنائم والأسلاب أرقاماً مدهشة . فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النویری ،
إن المسلمين حازوا من الخيام مائة وخمسين ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفاً ،
ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف ، هذا غير مقادير لأخصى من
الأموال والتحف . وقسم الخليفة الغنائم بعد استبعاد الأخماس ، بين المسلمين وفقاً
لأحكام الشريعة : وكان الخليفة فضلاً عن ذلك ، قد نادى في عسكره أن من
غنم شيئاً فهو له سوى السلاح ، فحُصر ما حمل إليه منه ، فكان يزيد على سبعين
ألف لباس^(١) .

وثمة مسألة أخرى تميل الرواية الإسلامية إلى ذكرها بمناسبة وقعة الأرك ،
وهي المقارنة بين هذه الموقعة وبين موقعة الزلاقة ، وذلك من حيث ظروفها
ونائجها : فهي تذكر كيف أن جنود الأندلس كانوا أول من أصيب من عسكر
المسلمين في الزلاقة ، وكيف كثر القتل فيهم لولا أن تداركتهم في النهاية قوات
ابن تاشفين المرابطية ، وهذا بخلاف ما حدث يوم الأرك حيث لقيت الجيوش
الموحدية النصارى ، مجتمعة وفي جبهة واحدة ، ومن ثم فقد كانت موقعة الزلاقة
« مقسومة الثقل ، مكسرة الصفو » ، ولكن موقعة الأرك جاءت « هنيئة الموقع
عامة المسرة » . ثم هي ترى بحق أن غزوة الأرك ، كانت مثل الزلاقة من أيام
الإسلام المشهورة ، وبها اعتر الإسلام وعلت كلمته ، بل ترى أنها كانت أعظم
من موقعة الزلاقة ، وأنها أنست كل فتح تقدمها بالأندلس^(٢) . على أن المقارنة

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنویری (طبعة ديبرو المشار إليها) ص ٢٧٤ ،

وفتح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) راجع البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٦ ، وروض القرطاس ص ١٥١ .

لا تنف عند هذا الحد ، فقد رأينا فيما تقدم من حديثنا عن موقعة الزلاقة^(١) ، كيف أن الرواية الإسلامية تحيطها بطائفة من الأساطير التي تسبغ عليها هالة من القدسية ، وكذلك فإن حديثها عن موقعة الأرك لا تخلو من ذكر هذه الأساطير . وأسطع ما تقصه علينا في ذلك هو حديث الحلم الذي يقال إن الخليفة يعقوب المنصور رآه قبل الموقعة ببضعة أيام ، في ليلة الجمعة الرابع من شعبان ، واستبشر به بيلوغ النصر ، وهو أنه لبث طوال الليل راکعاً ساجداً مبهلاً ، وداعياً لتأييد المسلمين على أعدائهم ، فيبنا هو راکع في مصلاه إذ غلبه النوم ، فرأى كأن باباً قد فتح في السماء ، ونزل منه فارس أبيض حسن الوجه ، ويده راية خضراء منشورة ، قد سدت الأفق من عظمها ، فسلم عليه ، فقال له من أنت يرحمك الله ، فقال أنا ملك من السماء ، جئت لأبشرك بفتح من رب العالمين ، لك ولعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايك . ثم أنشد هذا الفارس أبيتاً حفظها الخليفة وهي :

بشائر نصر الله جاءتك سافرة لتعلم أن الله ينصر ناصره
فأبشر بنصر الله والفتح إنه قريب وخيل الله لاشك ظافرة
فتفتي جيوش الروم بالسيف والقنا وتخلي بلاداً لا ترى بعد عامرة

وأن الخليفة نهض من نومه موقناً بالفتح والظفر^(٢) . فهذا الحلم الذي تقصه الرواية الإسلامية بمناسبة معركة الأرك ، يذكرنا بالحلم الذي تذكره لمناسبة موقعة الزلاقة وهو أن الفقيه الناسك أبا العباس بن رميلة القرطبي وكان بمحلة ابن عباد ، نهض في جوف الليل ، قبيل نشوب المعركة فرحاً مسروراً ، وهو يقول إنه رأى النبي ، وإن النبي بشره بالفتح والشهادة^(٣) . ثم تذكرنا كذلك بالحلم الذي تقول لنا إن ألفونسو السادس ملك قشتالة رآه قبيل معركة الزلاقة ، وخلاصته أنه رأى أنه يركب فيلاً ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مزعجاً كلما قرعه ، وأن فقيهاً من أهل طليطلة ، نبأه بأن هذا الحلم هو نذير هزيمته ، مشبهاً ذلك بما حدث عام القيل من سحق أبرهة ، وقد كان يركب الفيل أيضاً . ثم يذكرنا كذلك ، بما تزعمه الرواية النصرانية من أن لآخر ، من أن الملوك النصارى ، كانوا متى اشتد القتال بينهم وبين المسلمين ، يرون ملاكاً يهبط من السماء وفي يده صليب أو نحو ذلك .

(١) ، اجمع كتابي « دول الطوائف » ص ٣١٩ - ٣٢١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) الروض المطار ص ٩١ .

والرواية سواء أكانت إسلامية أو نصرانية تنجح إلى مثل هذه الأساطير ، بالأخص في المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية ، مثل الزلاقة ، والأرك وغيرهما . على أن موقعة الأرك تختلف عن موقعة الزلاقة من بعض الوجوه الهامة . فقد كان المسلمون من أندلسيين ومرابطين يواجهون في الزلاقة ، قوى إسبانيا النصرانية كلها ، ملتفة حول عميدها ألفونسو السادس . أما في يوم الأرك فقد كانت الجبهة النصرانية ، مقتصرة على ملك قشتالة وقواته . وقد غادر ألفونسو الثامن طليطلة في قواته ، حينما علم بزحف الموحدين نحو أراضي قشتالة ، ولم يرد أن ينتظر حليفه ملك ليون ، وكان قد وصل عندئذ بقواته إلى طليطلة ، ولكنه لم يقدم على معاونة زميله ، لأنه أبى أن يعطيه بعض الحصون التي طلبها ، ثم انقلب بعد ذلك إلى خصومته ، ومحالفة الموحدين أعدائه . وكذلك لم ينتظر ألفونسو الثامن معاونة من ملك نافارا ، أو من ملك أراجون وذلك لوثوقه من رجحان قواته ، وبقينه ببلوغ النصر على أعدائه . وقد انتصر عليهم من قبل مراراً في معارك محلية . ومن الغريب المدهش ما تقصه علينا الرواية الإسلامية من دلائل يقين ملك قشتالة بإحراز النصر على أعدائه ، وهو أنه كان يصطحب معه حين مسيره لقتال الموحدين جماعات من التجار اليهود ، جاءوا لشراء أسرى المسلمين ، وأسلاهم ، وأعدوا لذلك الأموال اللازمة^(١).

وتختلف كذلك موقعة الأرك في نتائجها عن موقعة الزلاقة . ذلك أن موقعة الزلاقة بالرغم من كونها قد صدعت من قوى مملكة قشتالة ، وقضت مؤقتاً على الخطر الذي كان يهدد دول الطوائف ، فإنها اقتضت على تحقيق النصر للمسلمين ، ولم يتبع يوسف بن تاشفين نصره في الموقعة ، بأية محاولة أخرى لاسترداد طليطلة أو غزو أراضي قشتالة . هذا في حين أن المنصور بث جيوشه عقب النصر مباشرة في أراضي قلعة رباح فاستولت على عدة حصون . ثم إنه لم تمض بضعة أشهر على معركة الأرك ، حتى خرج المنصور في قواته ثانية لغزو أراضي قشتالة ، واخترقها حتى شمالي طليطلة ، واستولى على طائفة من المواقع والحصون حسبما نفصل بعد .

ولقد كان انتصار الموحدين في معركة الأرك ، يرجع فضلاً عن تفوقهم العددي ، إلى عدة أسباب ، روعى تحقيقها لأول مرة في الغزوات الموحدية

(١) بذه المتعمس (المكتبة الأندلسية) ح ٣ ص ٣٥ .

— ٢١٤ —

الكبرى ، وأولها وأهمها العناية بالمحافظة على نظام الجيش ، وتوفير تموينه وموته بصورة مؤكدة ، وتنظيم حشوده ، وتنظيم قياداته ، وتعيين قائد عام يشرف على هذه القيادات ، واعتماد الخليفة على مشورة قواده ، ثم مراعاة الحزم والسرعة في تحريك الجيش ، وإعداد له لضرب العدو على القور . فهذه الميزات التي روعي تحقيقها في الجيش الموحدى ، كانت كفيلة بأن تحقق له الظفر في معركة الأرك ، وأن تجنبه تلك المفاجآت السيئة ، التي أصيب بها في غزوة وبدة ، ثم بعد ذلك في نكبة شترين (١) .

— ٢ —

ما كادت تنهى معركة الأرك العظيمة ، حتى بث المنصور سرىات من جنده في أراضي قلعة رباح ، فاستولت على عدة من حصون العدو في هذه المنطقة ، ثم هاجم الموحلون قلعة رباح ذاتها ، واقتحموها بعد قتال عنيف ، وانتزعوها من أيدي فرسان جعية قلعة رباح المتولين للدفاع عنها ، وقتل أثناء المعركة أستاذ الجماعة نونيدى فريتنس . وغادر الفرسان القلعة ، ولجأوا إلى قلعة شلبطرة القريبة منها . وهكذا استرد المسلمون هذه القلعة المنيعه ، بعد أن لبثت في حوزة النصارى منذ سقوطها في أيديهم في سنة ١١٤٧ م ، زهاء نصف قرن . وأمر المنصور بتطهير جامعها الذي كان قد حول إلى كنيسة ، وقدم على حاميها يوسف بن قادس (٢) .

نقول ، وقد أتبع لنا أن نزور أطلال قلعة رباح القديمة (٣) هذه ، وأن نشهد بقايا هذه القلعة المنيعه ، التي لبثت دهرأ من حصون الأندلس الأمامية ، والتي لعبت دورأ كبيرأ في الصراع بين المسلمين والنصارى . وتقع هذه

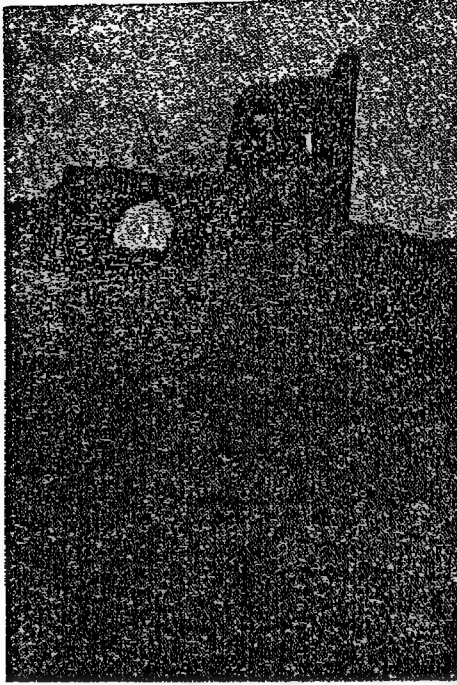
(١) راجع في معركة الأرك ، روض القرطاس ص ١٤٥ - ١٥١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٣ - ١٩٦ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و ٤٥ ، والنويرى (طبعة جبار ويمرو) ص ٢٧٤ و ٢٧٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٩ و ١٦٠ ، ورفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطاني ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٦) . ونشره الأستاذ هوبى ضمن مقاله المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدير ج ٢ ص ٥٧ - ٦١ وراجع أيضاً :

H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista , p. 137-169

(٢) الروض المطار ص ١٦٣ .

(٣) ومى بالإسبانية Calatrava la Vieja .

الأطلال على قيد خمسة عشر كيلومتراً من مدينة ثيوداد ريال ، وعلى قيد نحو سبعة كيلومترات من ضاحيتها كريون ، وهي عبارة عن مجموعة ضخمة من



الأطلال الدارسة ، تقع فوق ربوة قليلة الارتفاع ، وسط بنسيط كبير تظله الجبال الشاهقة ، ويستند من الشمال إلى نهر وادي يانه ، وتنقسم هذه الأطلال إلى مجموعتين ، في إحداهما وهي اليمنى ، يوجد جدار برج عال ، ومن تحته عضادة تظلل عقداً كبيراً كاملاً ، وفي الوسط يقوم جدار ضخيم من عقد سابق . والمجموعة الأخرى ، يفصلها عن المجموعة الأولى فراغ كبير تتخلله الانخفاض والخرائب ، يبلغ طوله نحو ثمانين متراً ، وهي عبارة عن كتلة كبيرة ، يبدو أنها كانت قاعدة

لعدة أبراج ضخمة . وتمتد الأطلال من الناحية الأخرى إلى مدى يبلغ نحو مائة وخمسين متراً ، ويغمر هذه الأطلال الضخمة العالية ، والمكان كله ، جو من الوحشة والرغبة انقبضت له نفسى ، وأنا أطوف حول المكان منفرداً ، بين الأشواك والأدغال البرية ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، وعواء الكلاب المتوحشة ، ونعيق الغربان والنسور الصغيرة ، التى تعمر المكان ، يزعجنى ، وينذرني بسرعة الرحيل .

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لم يكتف بذلك ، بل سار مخترقاً أراضي قشتالة يثخن فيها قتلاً وأسرّاً وسيئاً حتى وصل إلى جبل سليمان (١) على مقربة من قلعة هنارس شمالى طليطلة . بيد أنه لا يوجد ما يؤيد هذه

(١) وهو بالإسبانية Cuesta de Zuloma « مرتفع سليمان » .

الرواية . والظاهر أن صاحب روض القرطاس يشير بذلك إلى غزوة المنصور التالية لأراضى قشتالة بعد ذلك بعامين ، وهى غزوة سوف نتحدث عنها فيما بعد (١) .
وبعد أن أخرج المنصور خمس الغنائم ، وقسم ما فيها على المجاهدين ، سار في جيوشه المظفرة ميمماً شطراً شيبية ، وقد عاين هذا النصر الباهر ما لحق به الحراب الموحدية في شبه الجزيرة ، عقب نكبة شترين من الانتكاس والتصدع ، فوصل إليها في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩١ هـ (٦ أغسطس سنة ١١٩٥ م) ، وأقبلت إليه الوفود من كل فج تترجى إليه تهانى النصر . ثم أمر أن يكتب بالفتح إلى سائر جهات الأندلس والمغرب . وطلب إلى أبى الفضل بن طاهر ابن محشرة أن يتوخى في كتب الفتح غاية الإيجاز ، وأن يكتبها على مثل كتب الصحابة في فتوحهم ، فصعد أبو طاهر بالأمر . ورفع الشعراء قصائدهم إلى الخليفة كالعادة ، ونظم أبو العباس الجراوى شاعر البلاط الموحدى ، في الفتح قصيدة جاء فيها :

هو الفتح أعبى وصفه النظم والنرا	وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأجند في الدنيا وغار حديثه	فراقت به حسناً وطابت به نشرى
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى	وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأخصابه الألى	تبرأ منهم حين أوردهم بئدرا
رأى الموت للأبطال حوله ينتقى	فطار إلى أقصى مصارعه ذعرا
ألوف غدت مأهولة بهم القلا	وأمت خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحي الهيجا عليهم فأصبحوا	هشياً طحيناً في مهب الصبا يئدرا

وأنشد الشاعر الأندلسى المرسى ، على بن حزمون بن يدى الخليفة قصيدة ، وقعت منه أجل وقع ، وهذا بعض ما جاء فيها :

حيثك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فمن الكفار ومأثمهم	إن الإسلام لنى عرس
أمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق للتمس
ورفعت منار الدين على	محمد شُمٌ وعلى أسس

وصدعت رداء الكفر كما صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهم فغلوا فرسا في قبضة مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم عدداً لم يحصى ولم يقس
ومضيت لأمر الله على ثقة بالله ولم تحس
فأناخ الموت كلاكله بظباك على بشر رجس
وتساوى القناع بهامهم المرفض مع الحذب والفرس
فأولئك حزب الكفر ألا إن الكفار لفي نكس^(١)

وأمر المنصور بتسريح الحشود والقبائل وسائر الجنود ، على أن يكونوا على أهبة للاستعداد للجهاد في أية لحظة . وقضى فصل الشتاء بإشبيلية ، وانتقل إلى حصن الفرج ، الواقع جنوب غربي المدينة على الضفة الأخرى من النهر الأعظم (الوادي الكبير) وهو الحصن ، الذي أمر بإنشائه قبل ذلك بقليل ، وكان يحبه ويؤثر الإقامة فيه ، وأمر باستكمال غروس بستانه ، وإنشاء النواعير على شاطئ النهر تحت الحصن لربه ، كما أمر بإصلاح المسجد الجامع ، واستكمال بناء صومعته ، وهو الجامع الذي كان قد أنشأه أبوه ، وأمر بإنشاء صومعته قبيل وفاته بقليل . ولما انتهى الشتاء وأقبل الربيع ، أمر المنصور باستئناف الحركة والاستعداد لمعاودة الجهاد ، واستنفر مختلف الحشود من منازلها ، فلما تم وصول مختلف الطوائف وحشدتها ، أمر الخليفة بتمييز الحيوش وتنظيمها ، واستعدادها لاستئناف الغزو .

على أن المنصور ، قبل أن يبدأ الحركة ، رأى أن يستشير الزعماء والقادة في أمر توجيه الغزو ، واختيار المنطقة الملائمة في أراضي النصارى لإجرائه . وفي أثناء ذلك تردد رسل ملك قشتالة في طلب المهادنة وعقد السلم ، فرفض المنصور^(٢) ، واستقر الرأي على أن توجه الغزوة إلى ما تسميه الرواية الإسلامية « ببلاد الجوف » أعني منطقة إستمادورة ، وذلك لاسترداد ما انتزعه النصارى من قواعد هذه المنطقة . وخرج المنصور من إشبيلية في قواته في منتصف جمادى الأولى سنة ٥٩٢هـ^(٣) (منتصف أبريل سنة ١١٩٦ م) ، واتجه شمالا إلى حصن متانجش^(٤) .

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في المعجب ص ١٦٥ - ١٦٧ .

(٢) الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية (ص ٢٣١) .

(٣) ذكر صاحب البيان المغرب أنه منتصف رجب . ولكن هذا التاريخ يتعارض مع سياق الحوادث ومع التواريخ التي توردها الرواية النصرانية .

(٤) ورد اسمه في الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثين الخاصة بهذه الغزوة (منت أُنثس) ص ٢٣١ .

وقد كان حسبنا أشرنا إليه من قبل من أمنح حصون منطقة بطليوس ، فتقدمت لمهاجمته قوة من الأندلسيين ، فلما رأت الحامية القشتالية مقدم الجيوش الموحدية الزاخرة ، طالبت بالأمان والتسليم ، فأجيبوا إلى ما طلبوا ، وأمر قائد الجيوش الأندلسية أبو عبد الله بن صناديد ، بتوصيلهم إلى المنطقة الآمنة ، ولكن حدث حينئذ بدأوا السير أن هاجمهم جماعة من «أوباش العرب» وسببت من كان معهم من النساء والأطفال ، فغضب الخليفة لهذا الاجترار والإخلال بالعهود المقطوعة ، وأمر بسجن من عثر عليه من المعتدين ، ورد النساء والأطفال إلى ذويهم ، وأوصل الجند القشتاليين آمنين إلى أوائل بلادهم .

وقصدت القوات الموحدية بعد ذلك إلى مدينة ترَجَالِه «قاعدة الثغر الشمالى» الواقعة شمال شرق متانجش ، وشرق مدينة قاصرش ، وكان سكانها النصارى قد أخذوا في إخلائها ، حينئذ شعروا باقتراب الموحدين ، فاستولى الموحدون على المدينة ، وطاردوا سكانها وأفنوا الكثير منهم ، وسبوا الكثيرين من نساءهم . واستولوا كذلك على بلدة «سانتا كروث»^(١) القريبة منها ، وكانت حاميتها قد لاذت بالفرار. ثم عبر الموحدون نهر التاجه ، واتجهوا شمالا نحو مدينة «بلاسنتيا» وهى التى تسميها رسالة الفتح الموحدية (ابلتانسية) وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انفق بضع سنين في إنشائها وتحصينها ، ونقل إليها كثيراً من أهل الشمال ، وكان أهلها المدنيون قد غادروها ، وبقيت حاميتها في قلعتها ، فاستولى الموحلون على المدينة ودمروها ، ثم هاجموا القلعة وضربوها بالنبال ضرباً شديداً ، حتى اضطرت الحامية بعد ليلة واحدة فقط من الاعتصام إلى التسليم ، واعتبر أفرادها أسرى بحكم مقاومتهم^(٢). ويقول صاحب الروض المعطار ، وهو يسمى (بلاسنتيا) بلسية ، إن الموحدين فتحوها عنوة ، وقبضوا على قائدها ، مع مائة وخمسين من أعيان النصارى ، وجهوا إلى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أسارى معركة الأرك^(٣). وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين بالعكس قتلوا الأسقف والرهبان وكثيراً من النصارى .

(١) وتسميها الرسالة الموحدية «شتقروس Santa Cruz» وتصفها بالقلعة «الحصية في الامتناع» ص ٢٢٢ .

(٢) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ، ص ٢٣٤ .

(٣) الروض المعطار ص ١٣ .

واستمر الموحدون في زحفهم شرقاً صوب مدينة طليطلة ، وهي أكبر مدن ولاية طليطلة ، وهم يشنون في أراضي قشتالة ، تخريباً ، وأسراً وسلباً ، فلما أشرفوا على طليطلة أنتسفوا زروعها ، وحدائقها وأشجارها ، ولكنهم لم يحاولوا اقتحام المدينة لمنعها ، ولعدم استعدادهم لضرب الحصار حولها ، إذ كانت تنقصهم آلات الحصار ، فقتلوا باجتياح كل ما حولها من مظاهر العمران ، وصبروا أراضيها قاعاً صفصفاً . كل ذلك وملك قشتالة محتجب داخل مملكته ، غير مجترئ على لقاء الغزاة في أية ساحة . ثم اتجه الموحدون شمالاً إلى مكادة^(١) ، وأنزلوا بأراضيها من التخريب ما أنزلوه بطليطلة . وهبطوا أخيراً إلى طليطلة من ناحيتها الشمالية ، وبرزت أمامها الحشود الموحدية فرساناً ومشاة في أكمل عددها وعدتها ، وقد امتنع النصاري بداخلها مستعدين للكفاح والدفاع ، ثم عبر الموحدون بعد ذلك نهر التاجه ، إلى ساحتها الجنوبية ، وانتسفوا زروعها ، وكرومها وحدائقها ، ولاسيما منبتها الشهيرة ، وهي التي كانت من قبل لبني ذي النون ، وورثها النصاري ، وامتدت أيامها حتى خربها الموحدون فيما خربوه من مرافقها وأراضيها ، وقضى الموحدون حول طليطلة بضعة أيام ، واقتصروا على تخريب ديارها ، وإبراز مظاهر قوتهم ، وروعة حشودهم الزاخرة^(٢) .

ويقدم إلينا المقرئ عن غزوة طليطلة رواية خلاصتها أن المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ، واشتد في ضربها بالمجانيق حتى أوشكت على السقوط ، خرجت إليه والدة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وبناؤه ونساؤه ، ومثلن بين يديه باقيات متضرعات إليه ، أن يبقى البلد عليهن ، فرق المنصور لضراعتن ، وكف عن ضرب المدينة ، ووهب لمن قدرأ من المال والجواهر الجلييلة ، ورددن مكرمات ، وهذه رواية يصعب علينا تصديقها لمجانبتها للمنطق والمعقول^(٣) .

وفي خلال الغزوة الموحدية لأراضي قشتالة ، بعث ملك ليون ، وهو ألفونسو التاسع إلى المنصور ، يرجوه أن يعاونه ببعض قواته ، على غزو قشتالة ، فاستجاب المنصور لرغبته ، لما كان من سالف موقفه قبيل معركة الأرك ، وتنحيه عن معاونة ملك قشتالة ضد الموحدين ، وجنوحه إلى مصادقتهم ومخالفتهم . وغزا ملك ليون ، ومعه قوة من الموحدين أراضي قشتالة من ناحية « تيرادي كامبوس » :

(١) وهي بالإسبانية Maqueda . راجع الروض المطار ص ١٣ .

(٢) الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثون ص ٣٣٦ و ٣٣٧ . والبيان المغرب ص ١٩٩ .

(٣) المقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٢٠٧ .

وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين الذين كانوا يقاوتون معه ، ضربوا الكنائس والأديار القشتالية بمنتهى القسوة ، وقام الليونيون بانتساف وتخريب الضياع . ووصل ألفونسو التاسع في غزوته هذه حتى مدينة كريون . وفي نفس الوقت أغار سانشو ملك نافارا من جانبه على أراضي قشتالة المتاخمة له ، واقتحم مدينة سُرّية ، وعاث في تلك المنطقة تخريباً ونهباً .

ولما انتهى المنصور من غزاته ، وألّخن ما شاء في أراضي عدوه ، وأبرزت حشوده أمام أعين النصارى كل مظاهر قوتها وروعها ، قرر العود بسرعة ، قبل أن يختل نظام القومين في الجيش ، فارتد بقواته نحو الجنوب ، واقتحم الموحدون في طريقهم بعض حصون منطقة طليطلة الجنوبية ، فاخترق أراضي قلعة رباح ، ثم انجه نحو جيان ثم إلى قرطبة ، وسار من قرطبة إلى إستجة فقرمونة ، ووصل إلى إشبيلية في أوائل رمضان (٥٩٢ هـ) بعد أن قضى في غزوته نحو ثلاثة أشهر (١) .

وما نود أن نلاحظه هو أن هذه الغزوة الموحدية التي استطاع الموحدون أن يدفعوها إلى صميم أراضي قشتالة ، وإلى تطويق العاصمة القشتالية ذاتها ، أعنى طليطلة ، لم تسفر عن أية نتائج مستقرة ، ولم يحرز الموحدون خلالها أية أراضي أو مواقع ذات شأن . ولأنه لما يلفت النظر أن يكنى الخليفة المنصور ، وهو الذي حطم قوى قشتالة قبل ذلك بأقل من عام في موقعة الأرك بالعيث والتخريب ، والسبي والنهب في أراضي العدو ، دون أن يتحرى غاية عسكرية جلية ، في وقت كان فيه في أوج قوته وأهباته العسكرية ، وفي وقت كان فيه عدوه الرئيسي ملك قشتالة في منتهى الضعف والاستسلام ، حتى أنه لم يحرك ساكناً للقاء الغزاة في أية مرحلة من مراحل الغزو . ولأنه يحق لنا أن نتساءل ألم يكن في وسع الخليفة الظاهر ، في مثل هذه الظروف المواتية ، أن يركز جهوده على محاولة الاستيلاء على طليطلة حصن الإسلام القديم على نهر التاجه ، وفي اعتقادنا أنه لو فعل ، لما كانت هنالك ثمة عقبات خطيرة تحول دون بغيته ، ولكن السياسة العسكرية الموحدية آثرت مع الأسف أن تقتنع بالمظاهرات العسكرية الخوفاء ، التي يستطيع العدو القديم الخالد دائماً أن يصبر عليها ، وأن يهضمها بسرعة ليعود إلى عدوانه .

(١) فصلت لنا الرسالة الموحدية المؤرخة في التاسع من شهر رمضان سنة ٥٩٢ هـ ، وهي الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية ، مراحل هذه الغزوة بإسهاب يغلب عليه الزخرف الأدبي ، وهي من إنشاء الكاتب أبي عبد الله بن عياش (ص ٢٢٨ - ٢٤١) .

وعنى المنصور خلال إقامته عندئذ بإشبيلية بأمرين ، الأول النظر في أحوال الأعمال والنفقات ومحاسبة بعض العمال والنظار ، الذين لحقت بهم ريب التقصير والاختلاس ، والثاني الاستعداد للغزوة القادمة بعد أن ينال الجند قسطهم من الراحة والاستجمام والضيافة والإحسان . وقد أمر المنصور فيما يتعلق بالأموال بمحاسبة أبي سليمان داود بن أبي داود ، وندب لمحاسبته لجنة من الكتاب ، فحققت في سائر أعماله وتصرفاته مدى ستة أشهر ، ثم انتهت بإدائته وإثبات ما في ذمته من أموال ، بلغت في الأعمال نحو مائة وخمسين ألف ، فاستصفيت أمواله ، ولكنه لم ينكب ولم يعاقب حتى عُنِيَ عنه . وأمر الخليفة في نفس الوقت بمحاسبة أبي علي عمر بن أيوب ، على ما كان تحت يده من أموال النفقات ، فتبين أن في ذمته قدراً كبيراً من المال ، فطوب به ، ولما عجز عن الوفاء ، اعتقل مع أبي سليمان حتى عُنِيَ عنه أمير المؤمنين .

وفي هذا العام أيضاً قام الخليفة ببعض التعيينات الهامة ، فقلد أبا زيد بن يوجان أشغال البرين (المغرب والأندلس) من الأعمال العلية والشئون السلطانية والوزارة ، وما يتعلق به من أشغال الموحدين وملزمة الخدمة ، فأبدى في تأدية مهامه المختلفة كفاية ظاهرة ، وقدم أبا القاسم بن نصير على الإشراف على عمل إشبيلية ، وقدم الكاتب المؤرخ يوسف بن عمر ، بعد أن ترك خدمة بني حفص ابن عبد المؤمن ، على المستخلص بمنطقة الشرف ومدينة لبلة .

وكان المنصور يعنى في نفس الوقت بالاستعداد لاستئناف الغزوة في أراضي قشتالة . فلما انتهى فصل الشتاء أمر بالحركة وتعبئة الحشود ، فاجتمعت مختلف الطوائف والقبائل حتى ضاقت إشبيلية بمجموعهم ، فلما استكمل الحشد والاستعداد ، خرج الخليفة في قواته من إشبيلية في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٩٣ (١٤ أبريل سنة ١١٩٦) وسار ميمماً شطر قرطبة ، وكانت سنة خصب ورخاء ، فسارت الجموع طول الطريق في دعة وعيش طيب . ولما وصل المنصور إلى قرطبة ، دخلها ونزل بها وقسم جيوشه لانتجاع الحصص ووفرة الأقوات ، حتى تحل الفترة التي تكثر فيها المؤن والأقوات بأراضي قشتالة^(١) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠١ و ٢٠٢ .

الفصل الرابع

ما بعد الأرك

حتى وفاة المنصور

إقامة الخليفة المنصور بقرطبة . الفيلسوف ابن رشد ومؤلفاته ومكانته العلمية . اجتراح الأسباب لتكبدته . سعى خصومه في الإيقاع به . تأويل آرائه ومسحها . إتهامه وبعض زملائه بالمروق . توجيه الاتهام إليه بالمسجد الجامع . إدانته ونفيه إلى بلدة البصرة . مصادرة كتبه وإحراقها . كتاب المنصور في تبرير تصرفه وفي شرح تهم المارقين . أسباب أخرى لنفسي المنصور على الفيلسوف . عفو المنصور عنه وعن زملائه . عودة ابن رشد إلى مراكش ثم وفاته . ما تكشف عنه ثكبة الفيلسوف من منزى . خروج المنصور إلى الغزو . سيره إلى طليطلة ثم إلى طليطلة . سيره إلى مجريط وحصارها . تخريبه لمنطقة وادي الحجرة . توجيه كتاب الغزو . عود المنصور إلى قرطبة ثم إلى شيبيلية . أمره بإتمام صومعة الجامع . أقوال ابن صاحب الصلاة في بناء الصومعة . تزويدها بالتفانج الذهبية . وصف لهذه التفانج وعلمية رفعها . قيام هذه الصومعة حتى اليوم . انتقال المنصور إلى حصن الفرج . تعيينه للعمال . تحالف قشتالة وأراجون ضد الموحدين . غزو قوات قشتالة وأراجون لمملكة ليون . عقد السلم بين المنصور وملك قشتالة . رفض المنصور معاونة ملك ليون . عبور المنصور إلى المغرب . وعوده إلى مراكش . أخذ اليممة لولده الناصر . عطلة على اليتامى . أمره بإلزام اليهود بزي خاص . بواعث هذا القرار . مرض المنصور وشعوره بذنو أجله . استدعاؤه للشيخ والقرابة . توصيته بولده وبمن يثق بهم من السادة . توصيته برعاية الأندلس والود عنها . توصيته بالأغزاز والعرب والطلبة . توصيته بقبائل الموحدين . ما ينسب إليه من آخر أقواله . وفاة المنصور . عظمت والإشادة بصفاته . عنايته بتنظيم الجيش وتقويته . شغفه بالجهاد . حزمه وعنايته بتوطيد العدل . ورعه وتقواه . عنايته بتطبيق أحكام الشرع وإقامة الصلاة والحفود . مطاردته لعلم الفروع والمذهب المالكي . اعتناقه للمذهب الظاهري . انتشار الظاهرية في عهده . إجلاله للعلامة ابن حزم . موقفه من إمامة المهدي وعصمته . ما ينسب إليه من فيته في انتباج مصر . قول المراكشي في ذلك . أقوال الرحالة ابن جبير عن أحوال المشرق وغلل أهل . أقواله عن صدى الدعوة الموحدية بمصر . الفكرة الموحدية في غزو مصر . الفكرة لم تكن سوى أمنية . عظمت مصر وقوتها أيام المنصور . صفات المنصور العلمية . عطفه على العلماء وطلبة العلم . أدبه وفصاحته . اجتماع الشعراء حوله . أبو العباس الجراوي يؤلف له كتاب « صفوة الأدب » . مدائح ابن جبير . مواهب المنصور الإدارية والإنشائية . عنايته بالشئون المالية . منشآته العمرانية . إنشاؤه لفصاحية الصالحة . تجديد لرباط الفتح وإنشاء مسجد العظم . إنشاؤه للبيمارستان بمراكش . منشآته بالأندلس . وزراؤه وكتابه . قضاته . أولاده . صفته .

- ٢٢٣ -

- ١ -

في خلال إقامة المنصور بقرطبة ، في تلك الفترة من شهر سنة ٥٩٣ هـ ، وقع حادث مؤسف ذومغزى عميق ، هو نكبة القاضي الفيلسوف أبي الوليد بن رشد . وقد سبق أن أشرنا إلى صلة ابن رشد بالبلاط الموحدى ، وإلى ما كان يتمتع به من عطف الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ولاسيما عن طريق أستاذه العلامة الفيلسوف الطبيب أبي بكر بن طفيل ، صديق هذا الخليفة وأستاذه الأثير لديه . وكان ابن رشد في هذا الوقت يتولى قضاء إشبيلية ، ويشغل في نفس منصب الطبيب الخاص للخليفة إلى جانب أستاذه ابن طفيل . ثم تقلب بعد ذلك في عدة من المناصب القضائية والإدارية الهامة ، أحياناً بقرطبة وأحياناً بإشبيلية ، وكان ينتقل في معظم الأحيان مع بلاط الخليفة ، سواء بالمغرب أو الأندلس . ولما توفى أستاذه ابن طفيل في سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) انفرد بمنصب الطبيب الخاص للخليفة ، واستمر على حظوته ومكانته لدى الخليفة يعقوب المنصور ، كما كان من قبل لدى والده الخليفة أبي يعقوب يوسف .

وكان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوياً عظيماً ، وكتب كثيراً من كتبه الفلسفية ، ومعظمها في تلخيص كتب أرسطو وشروحاتها ، وكتب كذلك كثيراً من الكتب الطبية ، ومعظمها تلخيص وشروح لكتب جالينوس . ومنها « شرح » لأرجوزة « الشيخ الرئيس ابن سينا » في الطب ، وكتب كذلك كتابه « الكليات » ، ليتناول فيه أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، مقابل التفاصيل الجزئية التي تناولها أستاذه العلامة الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر في كتابه « التيسير » . وهذا كله عدا ما كتبه في الأصول والفقه وعلم الكلام والحكمة والمنطق . وقد بلغت تصانيف ابن رشد في مختلف العلوم أكثر من سبعين كتاباً ورسالة اشتهرت كلها في المشرق والمغرب ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى اللاتينية ، ولاسيما شروحه لفلسفة أرسطو ، وهي التي جعلت لابن رشد أعظم مكانة في ميدان التفكير الأوربي .

وكان الخليفة يعقوب المنصور ، كأبيه عالماً متمكناً يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وكان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية ، ويعقد مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء ابن رشد وشروحه ، ولاسيما في علاقة الفلاسفة بالدين ، وهو

الموضوع الذى كتب فيه ابن رشد فيما بعد رسالة « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ». وكان الفيلسوف يقضى معظم أوقاته عندئذ فى البلاط الموحدى ، حيثما كان الخليفة ، وكان المنصور يعظم الفيلسوف ويقدره ، إلى حد أنه كان يجلس إلى جانبه مباشرة ، ويتعدى بموضعه مواضع أشياخ الموحدين الأكابر . ومن الغريب أن يقال لنا إن ابن رشد ، بالرغم مما كان يحيط بمقامه العلمى من ضروب التوقير والتكريم ، لم يكن يتمتع بالمظهر اللائق بمكانته من حيث اللبس والتجمل . وقد وصفه لنا القاضي أبو مروان الباجى فى قوله « كان القاضي أبو الوليد ابن رشد حسن الرأى ذكياً ، رث البزة ، قوى النفس » .

وقد شاء القدر أن يُنكب الفيلسوف ، فى تلك الفترة التى نزل فيها المنصور بقرطبة . وكان ابن رشد قد عاد إلى الأندلس فى ركاب الخليفة ، ونزل بدار أسرته فى قرطبة . وكانت أسباب هذه النكبة فى الواقع تتجمع منذ بعيد . وكانت قد نشأت من قديم بين الفيلسوف وبين أهل قرطبة وحشة . « أحدثها أسباب الحسد » . وكان الحفاظ والطلبة والفقهاء الموحلون فضلاً عن ذلك ، ينقمون على ابن رشد آراءه ودراساته الجدلية والفلسفية ، وينقمون بالأخص منزلته لدى الخليفة . ونحن نعرف ما كان يتمتع به أولئك الحفاظ والطلبة لدى الخليفة الموحدى من عظيم النفوذ ، ولا سيما وقد كانوا نصحاء ومستشاريه الروحيين . وكان كثير من هؤلاء وكثير من غيرهم من خصوم الفيلسوف ، يبثون حول آرائه ونظرياته دعاية مسمومة ، ويرمون بالمروق والخروج على أحكام الشريعة ، « وإثاره فيها لحكم الطبيعة » . وكانت الفاسفة ودراساتها بالرغم مما كان يتسم به البلاط الموحدى ، منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، من رعاية العلم والعلماء ، من الموضوعات المريبة المكروهة . وهكذا كان خصوم ابن رشد يجدون فى صميم دراساته وكتاباته ، مواد انهامهم . وأكثر من ذلك أنهم كانوا يدسون عليه ألفاظاً وعبارات محرجة . ومن ذلك وصفه فى أحد شروحه « الزهرة » بأنها « أحد الآلهة » وقد جمع أولئك الخصوم مقالات وأوراق كثيرة منسوبة إلى الفيلسوف ، وحملوها إلى مراكنش فى أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، وحاولوا أن يرفعوها إلى الخليفة . ولكن المنصور كان يشغل عندئذ بالأهبة للعبور إلى الأندلس . ومن ثم فقد فشل الساعون فى مسعاهم ، واضطروا للعودة خائبين .

ويقول لنا ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » وهو فيما يرجح ينقل عن

ابن صاحب الصلاة: « فلما كان التلوم من المنصور بمدينة قرطبة، وامتد بها أمد الإقامة، وانبسط الناس من مجالس المذاكرة، تجددت للطالبن آمالهم، وقوى تألبهم، واسترسالهم، فأدلووا بتلك الألقيات، وأوضحوا ما احتجونه من شنيع الهفوات الماحية لأبي الوليد كثيراً من الحسنات، فقرئت بالمجالس، وتؤولت أغراضها، ومعانيها وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج، وربما ذيلها مكر الطالبين، فلم يمكن عند اجتماع الملاء إلا المدافعة عن شريعة الإسلام: ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء، وأعمد السيف بالتماس جميل الخزاء، وأمر طلبة مجلسه، وفقهاء دولته، بالحضور بجامع المسلمين، وتعريف الملاء بأنه مرق من الدين، وأنه استحق لعنة الضالين»^(١).

ولم يكن الاهتمام بالمرقوق مقصوراً على الفيلسوف، ولكنه شمل عدة من زملائه وتلاميذه ممن يشتغلون « بالحكمة وعلوم الأوائل ». وكان من هؤلاء أبو جعفر الذهبي، والفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهري المشهور بالأصولي، وأبو الربيع الكفيف، وأبو العباس الحافظ الشاعر. وأحضر ابن رشد، والفقيه أبو عبد الله المهري وحدهما إلى جامع قرطبة، وتوارى الباكون. وتولى توجيه الاهتمام إلى الفيلسوف وزميله، القاضي أبو عبد الله بن مروان، والخطيب أبو علي بن الحجاج: ولم يقل لنا صاحب « التكلة »، ماذا كان موقف ابن رشد، ولكن المرجح أنه قام بالرد على أسانيد متهميه:

وعلى أى حال فقد انتهى الأمر بإدانة الفيلسوف، وقضى الخليفة المنصور بمعاقبته بالنفى من قرطبة، واعتقاله ببلدة « أليسانة » أو « اللسانة »، الواقعة في جنوبها على مقربة من نهر شكيل. وكانت هذه البلدة منذ عصور منزل اليهود في هذه المنطقة من الأندلس: وكانت بالأخص مدينة غنية زاهرة أيام دولة بني باديس أصحاب غرناطة^(٢): وقيل في اختيارها لاعتقال الفيلسوف « إنه يُنسب في بني إسرائيل، ولأنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس ». وكان من الواضح أن الخليفة قد راعى في الاقتصار على عقوبة الفيلسوف بالنفى، سته

(١) التكلة لابن عبد الملك المراكشي المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطاني. ونقله إلينا صاحب البيان المغرب مع الاختصار ص ٢٠٢.

(٢) وهي بالإسبانية Lucena. راجع الإدريسي، وصف المغرب والأندلس (طبعة دوزي)

وحالته الصحية . وكان ابن رشد يومئذ قد تجاوز السبعين من عمره . وقضى على زملاء الفيلسوف الذين تقدم ذكرهم كذلك بالنقلى إلى جهات أخرى ، وكان أبرزهم بعد ابن رشد ، هو إبراهيم الأصولى . وصودرت كتب الجميع ، وأمر بإحراقها أبنياً وجدت .

ولم يكتب البلاط الموحدى بتوقيع العقوبة المادية على المهتمين ، ولكنه رأى أن يقرنها بإعلان وجهة نظره ، وتبرير تصرفه ، فوجه المنصور كتاباً فى هذا الموضوع ، من إنشاء كاتبه أبى عبد الله بن عياش ، إلى مراکش وغيرها من قواعد المغرب والأندلس . وإليك بعض ما جاء فى هذا الكتاب المشهور ، الذى انفرد بتلويته ابن عبد الملك صاحب « الذيل والتكملة » :

« وقد كان فى سالف الدهر قوم ، خاضوا فى بحور الأوهام ، وأقر لهم عواقبهم ، بشغوف عليهم فى الإفهام ، حيث لاداعى يدعو للحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلطوا فى العالم صفحاً ، ما لها من خلاق ، مسودة المعانى والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون فى القضية الواحدة فرقاً ، ويشيدون فيها شواكل وطرقاً . ذلكم ما فى الله خالقهم للنار ، ويعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما ينرون . ونشأ منهم فى هذه [اللمة] البيضاء شياطين .. يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضمر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله .. لأن الكتابى يجتهد فى ضلال ، ويجد فى كلال ، وما ولاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم [الغمومة] والتخيل ، وبث عقاربهم فى الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم ، على رجال كان الدهر قد سالمهم على شدة حروبهم ، وأغنى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثمًا ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شئ علماً .

« وما زلنا وصل الله كرامتكم ، نذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويدنيههم . فلما أراد الله فضيحة عاينهم ، وكشف غوايتهم ، وقف لبعضهم على كتب مسطورة من الضلال ، موجبة أخذ

كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشَّحٌ بكتاب الله ، وباطنها مصرَّحٌ بالإعراض عن الله ، لُبَّسٌ منها الإيمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم ، مزلةٌ للإقدام ، وسمٌ يلدب في باطن الإسلام ، وأسيف أهل الصليب دونها مقلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فلهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيمهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وبهتانهم ، فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين ، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين ، نبذناهم في الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . وأبغضناهم في الله ، كما أننا نحب المؤمنين في الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن [الله] وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعدت أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام فلا . . في مجال ألسنتهم ، والإيقاظ [بجدة] من عقلهم ونصتهم ، ولا كنهم رفعوا بموقف الخزي والهوى ، ثم طردوا عن رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا ، لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان ، حذرکم من السموم السارية في الأبدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التي بها يُعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارثه ومآبه ، ومتى عثر منهم على مجتر في غلوائه ، عم عن سبيل الله استقامته واهتدائه ، فليُعاجل فيه بالتقييف والتعريف ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنتصرون . أو لا يرد الذين حبطت أعمالهم ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون . . . والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصصاعكم ، ويكتب في صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم » (١) .

هذا كله فيما يتعلق بناحية التكفير ، وناحية العقيدة ، وهي التي اتخذت ذريعة لاتهام الفيلسوف وإزدانته . بيد أنه كانت ثمة أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . منها توثق صلاته بالمسيد أبي يحيى أخى المنصور ووالى قرطبة ، وقد

(١) أورد ابن عبد الملك المراكشي نص هذا الكتاب المرحى في « الذيل والتكلة » في ترجمة ابن رشد (المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطاني) .

كان بين الأخوين موجدة وجفاء . ومنها أنه أى ابن رشد ، كان يجرى في أحاديثه مع الخليفة على مخاطبته دائماً بقوله « تسمع يا أخى » وكان المنصور يُسرّ له هذه المرأة في مخاطبته . ومنها أخيراً ، وهو ما يدخل في باب العيب في ذات الخليفة ، إن ابن رشد قال في شرحه لكتاب الحيوان لأرسطاطاليس ما يأتي : « ورأيت الزرافة عند ملك البربر مشيراً إلى المنصور ، وقد وجد ذلك مكتوباً بخطه ^(١) . فهذه الأسباب كلها قد اجتمعت لنهي لخصوم الفيلسوف ومنهميه فرصة النيل منه ، وإقناع الخليفة بصحة مانسب إليه من تهمة المروق والإلحاد .

ولبث ابن رشد في معتقله في «اليسانة» زهاء ثلاثة أعوام . ثم إن جماعة من أكابر أهل إشبيلية ، خاطبوا المنصور في شأن الفيلسوف وزملائه ، وتشفعوا لديه في سبيل إقالتهم والعفو عنهم ، ونفوا بالأخص عن الفيلسوف تهمة المروق والزيف ، وشهدوا بحسن إيمانه وسلامة عقيدته . ونفى ابن رشد عن نفسه من جهة أخرى ، تهمة العيب في حق المنصور ، بوصفه « ملك البربر » وقال إن صحة الوصف هي ملك « البرين » وإن ما وقع هو تحريف من الناسخ ، فاستجاب المنصور إلى شفاعتهم ، وعفا عن ابن رشد وزملائه ، وذلك في سنة ٥٩٤ هـ .

وهكذا استرد الفيلسوف حظوته ومكانته في البلاط الموحدى ، وعاد إلى مراکش ليلتحق ببلاط الخليفة : بيد أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفي في التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ (١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ م) ، وهو في الخامسة والسبعين من عمره . ودفن ابن رشد أولاً في مقبرة « باب تاغزوت » خارج مراکش ، ثم حمل منها بعد أشهر قلائل إلى قرطبة مسقط رأسه ، ومثل أسرته ، ودفن في روضة آباءه بمقبرة ابن عباس ^(٢) .

تلك هي أدوار المأساة المشجية التي اقترنت بحياة فيلسوف من أعظم أقطاب التفكير الإسلامى والتفكير العالمى . ولقد تكررت هذه المأساة ، التي اتخذت صورة الاضطهاد الفكرى ، غير مرة في ظل المرابطين ثم الموحدين ، وكانت مطاردة ابن رشد ومحاكمته ، بلا ريب وصمة في عهد خليفة عظيم عالم كالخليفة

(١) المعبج للمراكشى ص ١٧٤ و ١٧٥ .

(٢) راجع في نكبة ابن رشد « الذيل والتكلة » لعبد الملك المراكشى (المخطوط المشار إليه) ، والتكلة لابن الأبار في ترجمته (القاهرة) رقم ١٤٩٧ .

— ٢٢٩ —

المنصور . بيد أنها تكشف بالأخص عن روح التزمّت العميق التي كان يتسم بها التفكير الديني في عهد الموحدين .

— ٢ —

وكان الخليفة في تلك الأثناء يستكمل أهبة للغزوة المنشودة ، فلما تم له ما أراد من ذلك ، غادر قرطبة في قواته ، واخترق جبل الشارات (سيرا مورينا) ميمماً شطر طليطلة : فلما وصل إلى حدود قشتالة ، قصد إليه رسل ألفونسو الثامن في طلب المهادنة ، فصرفهم دون جواب ، وقد عقد العزم على اختراق أراضي قشتالة ، وغزوها وفقاً للخطة التي وضعها . ولما وصل إلى طليطلة ، سار إلى مكادة ، وضرب ما حوله من الأراضي دون أن ينال منها شيئاً ، ثم انعطف جنوباً نحو طليطلة وحاصرها ، وهناك علم أن ملك قشتالة قد حصل على عون زميله ملك أراجون ، وأنهما يرابطان بقواتهما عند قلعة مجريط^(١) في انتظار الاشتباك مع الموحدين ، فتحول المنصور نحو مجريط بسرعة ، بعد أن خرب أراضي طليطلة ، مؤملاً أن يلتقي بالقوات النصرانية . ولما وصل إلى مجريط ، حاصرها بضعة أيام ، ولكن الملكين لم يكونا بها ، بل كانا قد انسحبا في معظم قواتهما إلى جبال وادي الرملة^(٢) ، وتركوا في حصن مجريط قوة مختارة بقيادة دون دييجولوب دى هارو ، وهو الذي كان قد لجأ إلى حصن الأرك يوم الموقعة : فدافع القشتاليون عن مجريط بشدة ، فغادرها المنصور عندئذ ، وسار ميمماً شطر قلعة هنارس (قلعة النهر) ثم وادي الحجارة ، وهوينتسف الزروع ، ويخرب الضياع والقرى ، ولكن الموحدين لم يستطيعوا كذلك الاستيلاء على وادي الحجارة لمنعتها . وخرجت حاميتها ، وفاجأت قافلة المتاع والعتاد والخدم ، فأوقعت بها ، واستطاعت أن تنزع منها بعض الأسلاب ، قبل أن يتدأ ركها الموحدون ، ويردوا المغيرين على أعقابهم ، ويقتلوا عدداً منهم .

وفي اليوم التالي ، نظم الموحدون مظاهرة عسكرية ضخمة في ظاهر وادي الحجارة ، بدا فيها الجيش الموحدى بمختلف طوائفه وحشوده ، إظهاراً لقوتهم وإرهاباً للعدو ، وبعث المنصور من محله بتفاصيل الغزوة إلى مختلف الجهات .

(١) وهي التي غدا موقعها فيما بعد نواة لموقع مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة ، وتطور اسمها

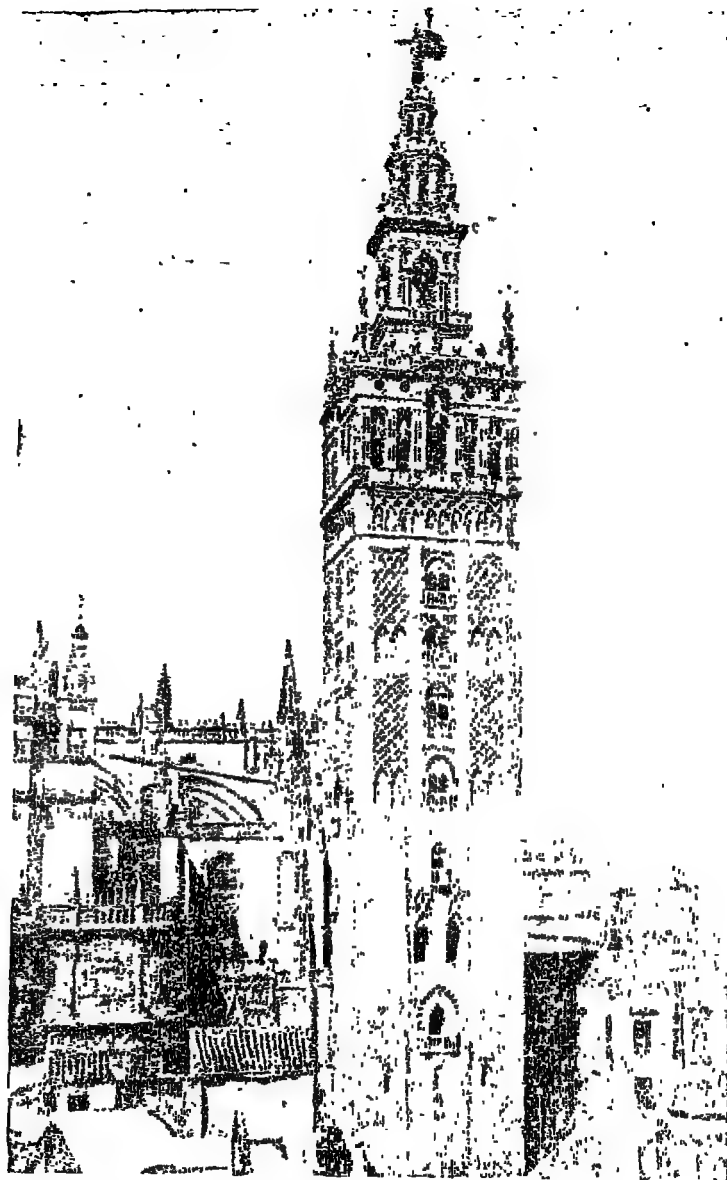
العربي من مجريط Magerit إلى Madrid

(٢) جبال وادي الرملة هي بالإسبانية Quadarrama .

ثم أمر بالحركة والعود ، وسار بطريق وبذة . وهنا اتجه المنصور ، وفقاً للرواية النصرانية شرقاً نحو قوتقة وحاصرها ، ثم ارتد نحو أقليمش وسار منها جنوباً نحو الكرس وبيتاسة ، ووصل إلى قرطبة في أواخر رمضان سنة ٥٩٣ هـ ، ثم غادرها في الحال إلى إشبيلية ، فوصلها في يوم عيد الفطر (أغسطس سنة ١١٩٧ م) وذلك بعد أن أنفق في غزوته الثانية لأراضى قشتالة أربعة أشهر (١) .

وماكاد المنصور يستقر في إشبيلية ، حتى غنى بإتمام الأعمال الأخيرة لصومعة الجامع الأعظم (المئارة) وهي التي كان أبوه الخليفة أبو يعقوب يوسف ، قد أمر ببنائها قبل خروجه إلى غزوة شنتين في سنة ٥٨٠ هـ . وكان المنصور قد أمر بالمضي في إنشائها عقب توليه الخلافة . ووضع العريف أحمد بن باسمة أسسها لصق الجامع ثم تعطل البناء حيناً لعزل بعض العمال المختصين ، أو لغير ذلك من الأسباب . وفي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) بعد أن فرغ المنصور من غزواته بإفريقية ، أصدر أمره بإصلاح ما اختل من الجامع الأعظم وإتمام بناء صومعته . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو حسياً أشرنا من قبل غير مرة مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، أنه شرع في بناء الصومعة بالآجر الذي يؤخذ من سور قصر ابن عباد ، ودام العمل في ذلك أعواماً ، يجرى البناء فيها بصورة متقطعة ، فإذا حضر الخليفة إلى إشبيلية ، ضوعفت المهمة في البناء ، وإذا غادرها إلى الحضرة تعطل البناء ، ثم يُستأنف متى حضر . وكان الخليفة المنصور كآبيه الخليفة أبي يعقوب ، شغوفاً بالبناء ، وكان وقت وجوده بإشبيلية ، يلزم في أوقات فراغه الإشراف على أعمال البناء بنفسه ، واستمر الأمر كذلك حتى عاد المنصور من موقعة الأرك مكللاً بغار الظفر ، وأصدر أوامره بمضاعفة المهمة لإتمام الصومعة ، ولما عاد إلى إشبيلية من غزوته الأخيرة ، كان بناء الصومعة قد تم ، ولم تبق سوى أعمال التجميل . وبالرغم من أن المنشآت الموحدية ، كانت حتى ذلك العهد تقتصر على مراعاة الروعة والمتانة ، ولا تميل إلى الزخرف والزينة ، فقد أصدر الخليفة أمره ، بأن تزود صومعة الجامع بتفانجها الذهبية الشهيرة . وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هذه التفانج ، ورفعها إلى أعلى المئارة ، في حفل كان من شهوده :

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . وراجع :



صورة جامع المصور بإشبيلية المبنية لآخر الدا La Giralda

« فلما وصل أمير المؤمنين ، وهزم الله أذفونش الطاغية ، أمر رضى الله عنه فى مدة إقامته بإشيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة ، الكبيرة الحرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الاسم والجسم ، فرفعت فى منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون فى إعلاها على رأيه ، وبلوغ وطره ، مركبة فى عمود عظيم من الحديد مرسى أصله فى بنية أعلى الصومعة أعلاها ، زنة العمود مائة وأربعون ربعا من الحديد ، موثقاً هناك فى تلاحك البنية ، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح ، وصدما الأمطار ، ما يطول التعجب من مقاومته وثباته . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى ، سبعة آلاف مثقال كباراً يعقوبية ، عملها الصباغ بين يدى أمير المؤمنين وحضوره . ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان ليلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة ، بالتبكير عليها والتهليل ، حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ، ووضعت فى العمود ، وحصلت فيه ، وحصلت بمحضر أمير المؤمنين أبى يوسف المنصور رضى الله عنه ، وبمحضر ابنه وولى عهده أبى عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضى وطلبة الحضر ، وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك فى يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من شهر مارس العجمى عام أربعة وتسعين وخمس مائة ، ثم كشف عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز وشعاع رونقها »^(١).

ويضيف صاحب روض القرطاس إلى ما تقدم ، أن الذى قام بالإشراف على صنع هذه التفافيح الذهبية ، ورفعها إلى أعلى المنار ، هو المعلم أبو الليث الصقلى ، وأن هذه التفافيح قومت يومئذ بمائة ألف دينار من الذهب^(٢) ونقول نحن ، إن هذه الصومعة أو المنارة العظيمة التى أمر بإنشائها الخليفة أبو يعقوب يوسف لجامع إشيلية الأعظم ، وأتمها ولده يعقوب المنصور ، وزودها بتفافيحها الذهبية الرائعة ، مازالت تقوم حتى يومنا ، وإن كانت قد فقدت تفافيحها الذهبية منذ بعيد ، وحولت طبقها العليا إلى برج للأجراس لكنيسة إشيلية

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧١ ، اوب) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥١ .

العظمى ، وهى التى قامت بدورها فوق أنقاض الجامع الأعظم . وهى تحمل اليوم اسمها الإسمائى « لآخر الدا La Giralda ، بيد أنها مازالت بالرغم من تحويلها إلى برج للأجراس ، تحتفظ بكثير من روحها الإسلامية القديمة ، ومازالت تعتبر من أعظم الآثار الأندلسية الباقية^(١) .

ولما تم الاحتفال بإتمام صومعة الجامع الأعظم على هذا النحو انتقل المنصور إلى حصن الفرج ، وقضى به فصل الصيف ، وكان يؤثره الجمال موقعه ، وطيب هوائه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، فأقام بها أربعين يوما أخرى ، وعنى خلال هذه الفترة بتنظيم الشئون ، وتعيين الولاة والعمال ، فأسند ولاية إشبيلية إلى ولده السيد أبى زيد ، وولاية بطليوس وجهاتها إلى السيد أبى الربيع بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وولاية منطقة الغرب إلى أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وندب العمال للنظر فى شئون الجباية فى مختلف الجهات ، ورتب الحاميات المختارة فى مختلف القواعد ، وأمر بتحصينها وإصلاح أسوارها^(٢) .

وكانت الأحوال قد تطورت عندئذ فى مملكتى قشتالة وليون ، وأنشئ حلف جديد لمقاومة الموحدين بين قشتالة وأراجون ، وتقدم ملك أراجون بيدور الثانى لمعاونة حليفه ألفونسو الثامن ، وظهر أثر هذه المعاونة فى اجتماع القوات المتحالفة لمقاومة الموحدين فى منطقة وادى الحجارة ، حينما قام المنصور بغزوه الثانية لأراضى قشتالة . ومع أنه لم يقع بين الفريقين اشتباك ذو شأن ، فإن المنصور لم يغفل من حسابه أمر ذلك التكتل الجديد بين القوى النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان لذلك التطور أثره فى موقف ألفونسو التاسع ملك ليون حليف الموحدين . ذلك أنه كان قد غزا أراضى قشتالة بمعاونة قوة من الموحدين ، ووصل فى زحفه حتى مدينة كـريون ، وذلك فى نفس الوقت الذى غزا فيه الموحدون أراضى قشتالة من الجنوب . فلما انتهى الموحدون من غزوتهم ، وانسحبوا إلى الجنوب ، قامت قوة مشتركة من القشتاليين والأرجونيين بغزو مملكة ليون ، واختارت أراضها حتى كويانسا (بلنسية دى دون خوان) ، وحاصرت ملك ليون وحلفاءه الموحدين فى قاعدة بناقتى ، فالتزم ملك ليون الدفاع ، ولم يحاول

(١) راجع تاريخ منارة المنصور ، وأوصافها القديمة والحالية فى كتاب « الآثار الأندلسية

الباقية » الطبعة الثانية ص ٥١ - ٥٦ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

أن يشتبك مع خصومه . ثم انسحب القشتاليون وحلفاؤهم من أراضي ليون مثقلين بالغنائم ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده وزال الخطر عن مملكة ليون . وقبيل مغادرة المنصور لإشبيلية ، وفدت عليه رسل ملك قشتالة مرة أخرى في طلب المهادنة والسلام ، فرأى المنصور على ضوء هذه التطورات ، أن يجيبه إلى رغبته بشروط اشترطها ، وهو مما يصفه صاحب البيان المغرب بأن التهادن عقد وفقاً لشريعة الإسلام^(١) . ومن جهة أخرى فإن ملك ليون ، بعد أن تخرج مركزه ، وأعلن البابا نفيه من الكنيسة ، باعتباره خارجاً على الدين ، وأذن للملك البرتغال بمحاربته متشجاً بالصفة الصليبية ، قصد بنفسه إلى إشبيلية ملتجئاً إلى المنصور ، وطالباً إليه معاونته بالحند والمال ، ولكنه لم يوفق في مسعاه هذه المرة ، نظراً لقيام التهادن والسلام بين الموحدين وبين مملكة قشتالة .

ولما انتهى المنصور من النظر في سائر الشؤون ، أصدر أوامره بالتأهب للعودة إلى حضرة مراكش . ثم غادر إشبيلية في أواسط جمادى الأولى سنة ٥٩٤ هـ (أواخر مارس سنة ١١٩٨ م) وعبر البحر في غرة جمادى الثانية ، وقصد أولا إلى فاس ، فأقام بها نحو عشرين يوماً طلباً للراحة والاستجمام ، ثم غادرها إلى الحضرة ، فدخلها في شعبان سنة ٥٩٤ هـ .

استقر المنصور في حضرته ، وهو متعب منهوك القوى ، من جراء ما اضطلم به من الغزوات والأعمال مدى أربعة أعوام متوالية . وكان أول ما عني به هو أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر ، وكان قد اختاره لولاية عهده ، حينما اشتد به المرض في سنة ٥٨٧ هـ ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فبايعه سائر أشياخ الموحدين ، وأخذت له البيعة في سائر القواعد والجهات .

وكانت تصرفات الخليفة في هذه الفترة الأخيرة من حياته ، تصطبغ بنوع من التقى والورع . فمن ذلك أنه أمر أن يجمع الأطفال الأيتام ، وأن يُختنوا ، وأمر لكل منهم بثوب ودينار من الذهب ودرهم من الفضة وحنة من الفاكهة ، توضع في يده تحفيماً لألمه . ويقول لنا المراكشي إن هذا الموسم لتختين اليتامى كان يقام كل عام^(٢) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . ويقول المراكشي إن الهدنة عقدت بين الموحدين وملك قشتالة لمدة عشرين سنة (المعجب ص ١٦٠) .

(٢) المعجب ص ١٦٢ .

ومن ذلك أنه أمر بتمييز اليهود بلباس خاص . ونحن نعرف أن السياسة الموحدية ، كانت منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، تجرى نحو الذميين على قاعدة التزمت وعدم التسامح ، وأن عبد المؤمن ، أمر في أواخر عهده بأن يعتنق النصراني واليهود والإسلام ، أو يغادروا الأراضي الموحدية ، وقرر الموت عقوبة للمخالفين . ولكن السياسة الموحدية جنحت من بعد عبد المؤمن إلى نوع من الاعتدال والتسامح ، فترك النصراني واليهود أحراراً يعيشون في البلاد الموحدية . وكانت النظرة إلى اليهود دائماً أكثر ترمناً وشدة منها إلى النصراني . وكان الذي حدا بالمنصور إلى تمييز لباسهم ، هو أنهم ازدهروا في عهده وتشبهوا بالمسلمين في اللباس ، وشاركوهم في مظاهرهم وأساليب حياتهم ، فرأى أن يفرض عليهم لباساً خاصاً يميزهم عن المسلمين . وكان هذا الزي عبارة عن قبض أزرق طوله ذراع وعرضه ذراع ، وبرنس أزرق ذو أكمام مفرطة السعة والطول ، وقلنسوة زرقاء يضعونها على الرأس مكان العمامة ، تصل إلى الأذنين . ويقول لنا المراكشي إن الذي حمل المنصور على هذا التصرف إزاء اليهود ، هو شكه في إسلامهم ، وأنه كان يقول لوصح عندي إسلامهم ، لتركهم يختلطون بالمسلمين في سائر أمورهم ، ولوصح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرايرهم ، وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، لكنني مررد في أمرهم ، وهم يظهرون الإسلام ، ويغشون المساجد ، والله أعلم بما تكن وصدورهم . وصدر قرار المنصور بتمييز اليهود في أوائل سنة ٥٩٥هـ . وقد نظم ابن تغرالة زعيم اليهود المغاربة يومئذ ، وهو فيما يبدو سليل أسرة بني تغرالة أوبني النغريلى التى ازدهرت في غرناطة أيام باديس بن حبوس ، أرجوزة يتكلم فيها على هذا القرار ، وما فرضه من اللباس الأزرق ، ويواسى مواطنيه اليهود ، هذا مطلعها :

لبس ذا الأزرق ليس فيه خساراً فافهموا يا قوم هذه الإشارة
ولما تولى الخلافة أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ولد المنصور ، استغاث به اليهود ، واستشفعوا لديه بكل من استطاعوا لإقالتهم من هذا الزي المرهق ، فأمر أن يستبدلوه بثياب صفر وعمائم صفر ، واستمروا على ذلك بقية عهد الموحدين ^(١) .

(١) المعجب ص ١٧٣ - والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، ودائرة المعارف اليهودية : Vol. I. p. 433 .

— ٢٣٦ —

— ٣ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى مرض المنصور مرضه الأخير ، وكان قد انتقل من الحضرة إلى ضاحية الصالحة المأكية التي كان قد أنشأها في بداية عهده ؛ ولما شعر بخطورة مرضه ، ودنو أجله ، استدعى شيوخ الموحدين ، ووجوه أهل بيته ، وأعيان بلاطه : وقد وصف لنا صاحب البيان المغرب ، ما وقع في هذا المجلس الأخير للخليفة الراحل ، وما أوصى به أشياخ دولته وأهل بيته ، فقال إنه لما استقر المجلس بالحضور ، اتجه الخليفة إليهم ببصره ، وقد اغرورقت عيناه بالدمع ، فسألهم عن أحوالهم وأعمالهم ، ثم قال : « أيها الناس رحمكم الله ، إن هذه العلل والأمراض قد توالى علينا ، وهدت قوانا ، وهتكت جوارحنا ، وأظن والله أعلم بغيه أن هذه العلة هي آخر عهدنا بهذه الدنيا ، وأنها القاضية علينا ، فانظروا رحمكم الله ، وأعانكم على طاعته ، من تقدمون على أنفسكم وعلى رقاب المسلمين » .

قال ، فغلب البكاء على الحاضرين ، وتكلم أبو موسى بن محمد بن الشيخ أبي حفص بن علي ، وقال « كأنكم يا أمير المؤمنين يا سيدنا تحرسنا بهذا القول ، أنتم أمير المؤمنين ، فإن توفيتم فإلى رحمة الله تعالى ، والجميع صائرون ومتقبلون إلى ما تصيرون إليه ، وكنتم قلدتمونا عهدكم الكريم لسيدنا الأمير الأجل أبي عبد الله ابنكم ، فنحن باقون عليه ، إلى أن تلحق نفوسنا بنفوسكم ، وهو خليفتم علينا بعدكم » .

ثم تعاقب الحضور في الكلام ، وأبدى الخليفة لهم قلقه لصغر سن ولده ، وطلب إليهم أن يدعوا الله تعالى باليمن والإقبال ، فيما انعقدت عليه النية ، وأن يتولوه بمعونتهم ، ولا يتركوه لرأيه ، حتى ينتبه ، ويكمل عقله . ثم التفت إلى السيد أبي الحسن ، وأخيه السيد أبي زيد ، ابني السيد أبي حفص . وقال لهما خير هذا البيت ، وإنه قد تمهما على الإخوان ، وعلى البلاد ، فليكونا على ما عهد منهما ، وعلى ما ربط لهما من قبل .

ثم أوصى الخليفة الحاضرين بالسادات ، وبعض الأشياخ ، وخص منهم بالذكر الشيخ أبا زكريا ، وأبا محمد عبد الواحد ، وأن يعتبر هذان الشيخان مستشارين لولده محمد ، لا يصدر إلا عن رأيهما ومشورتهما .

وقال الخليفة للحضور بعد ذلك وعينه تدرقان الدمع ، أوصيكم بتقوى الله تعالى ، وبالأيتام واليتيمة . فسأله الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، يا سيدنا يا أمير المؤمنين ، ومن الأيتام واليتيمة ؟ قال اليتيمة جزيرة الأندلس . والأيتام سكانها المسلمون ، وإياكم الغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها ، وتربية أجنادها وتوفير رعيها ، ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا أعظم من ههما ، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى ، وحسن نظركم فيها ، فانظروا من المسلمين ، وأجروا الشرائع على مناهجها .

وأوصى الخليفة أخيراً بالأغزاز (الغز) ومنحهم البركة التي أمر بها ، كما أوصى بملاطمة العرب والإحسان إليهم ، وشغلهم بالحركات ، وعدم تركهم للعطلة والراحة . وأوصى بطلبة الحضر ، وأن يكون لهم موضع خاص يشتغلون فيه بالمذاكرة . وأوصى أخيراً ببعض أصحاب المناصب ، والعمال الذين أولاهم ثقته .

واختتم المنصور حديثه بالتوصية بقبائل الموحدين ووجوب مزاورتهم ، وسهام قبيلة بعد قبيلة . وكرر حديثه إلى الأشياخ بأن يحفظوا الأمانة التي ألقيت إلى أعناقهم ، وأن يجروا الشرائع على سننها ، وأن يحرسوا على اجتناب الباطل . ثم دعا للناس ، وانفض المجلس ، وانصرف الموحدون . وكان هذا آخر العهد به^(١) .

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لما اشتد به المرض ، وشعر بدنو أجه ، قال لمن كان حوله من الأشياخ ، ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي ، إلا على ثلاث ، وددت أني لم أفعلها ، أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأني أعلم أنهم أهل فساد ، والثانية بناء رباط القنص ، أنفقت فيه من بيت المال ، وهو بعد لا يعمر ، والثالثة إطلاق أسارى الأرك ، ولا بد لهم أن يطلبوا بذأرهم^(٢) .

وفي ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩م) ، توفي الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور بقصره بالصالحية^(٣) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٦ - ٢٠٩ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٢ .

(٣) ويقول لنا صاحب روض القرطاس إنه توفي بقصبة مراکش (ص ١٥٢) وفي رواية أنه توفي في غرة جمادى الأولى سنة ٥٩٥هـ ، وفي أخرى أنه توفي غرة صفر (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣١) ويقول ابن الأثير إنه توفي ثامن عشر ربيع الآخر ، وأن وفاته كانت بمدينة سلا (ج ١٢ ص ٥٧) .

— ٢٣٨ —

ودفن مؤقتاً بمجلسه بالقصر ، وكنمت وفاته حيناً ، ثم نقل رفاته إلى تينمل ، ودفن بها ، وثارت حول اختفائه بعض الروايات والأساطير ، فزعم البعض أنه ترك الملك وأضحى مرابطاً بالأندلس ، وزعم آخرون أنه تزهد وساح في البلاد ، وقصد المشرق ومات خاملاً ، ودفن بالشام ، إلى غير ذلك^(١) . وبوفاة المنصور ينته عهده من ألع عهود الدولة الموحدية .

— ٤ —

كان الخليفة يعقوب المنصور أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، إذا استثنينا جده عبد المؤمن ، مؤسس الدولة وموطد دعائمها . وفي ظله بلغت الدولة الموحدية أوج قوتها وعظمتها ، وظهرت على يديه روعة الملك وفخامته ، في أبهى حللها .

ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « نجم بني عبد المؤمن » وهي كلمة قوية جامعة^(٢) . وتشيد الرواية الإسلامية بخلال المنصور ، وتفيض في استعراض مآثره ، وامتداح تصرفاته وسياسته ، سواء من الناحية الداخلية أو من الناحية الخارجية ، وتشيد بنوع خاص بغيرته في الجهاد ، وتفانيه في الدود عن قضية الإسلام بالأندلس ، ومن ثم كانت عنايته بتنظيم الجيش وتنميته ، وشحنه بالفرق الجديدة من الفرسان والرجالة ، ونزويده بموفور العتاد والسلاح ، والإنفاق عليه بسعة وبسخاء ، وإعدادة للجهاد بصفة مستمرة . وكان يعنى بتوفير أرزاق الجند ، ومنحها في مواعيدها المقررة . وكان نظام العطاء في الجيش ، أن يمنح الجند الموحدون العطاء ، (الجامكية) ثلاث مرات في العام بصورة منتظمة ، مرة في كل أربعة أشهر ، ويمنح الجند الغز أو الأغزاز ، وكذلك العرب عطاءهم كل شهر . وكان رأى المنصور في اختصاص الأجناد الغز والعرب بهذه المزية ، هو أن الموحدين من أهل البلاد الأصليين ولهم بها الإقطاع والأموال الكثيرة . أما الغز والعرب ، فهم غرباء لا شيء لهم في البلاد يعتمدون عليه سوى هذا العطاء الرسمي المنظم^(٣) . وكان لهذه العناية بتوفير إعطية الجيش أثرها القوي في رفع همم الجند ، وشحن

(١) البيان المغرب ص ٢١١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢١ .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة أبي يعقوب يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر - لوحة ٣٩٥) .

(٣) المراكشي في المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٨ .

الرغبة في الجهاد . والواقع أن الجهاد هو ألمع ما في حياة المنصور العامة ، وقد أسبغت عليه غزواته الموقفة للمالك النصرانية في شبه الجزيرة ، ولاسيما انتصاره الباهر في موقعه الأرك ، على شخصه وعلى جهاده ، هالة من العظمة والحلال غلبت على كل خلاله ومناقبه الأخرى :

وقد رأينا المنصور منذ بداية حكمه ملكاً حازماً . يعمل على إقامة العدل وتوطيد أسسه ، والنظر في الأحكام بنفسه ، ومراقبة أعمال الولاية والعمال ، ومحاسبتهم ، ومطاردة من ينحرف منهم عن جادة الحق والعدل وعزله ، ثم رأيناه ملكاً مصلحاً ، يضطرم بروح إنشائية قوية ، ويعنى بإقامة المنشآت العظيمة ، من مدن وحصون وجواميع وغيرها ، سواء بالمغرب أو الأندلس .

وأول ما تشد به الرواية من صفات المنصور هو ورعه وتقواه ، والتزامه أحكام الشريعة وسننها ، ومحاولة تطبيقها على حقيقتها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود ، حتى في أهله ، وعشيرته الأقربين ، وكان مثل جده عبد المؤمن يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، ويأمر بالمناداة عليها ، ويعاقب على تركها ، وكان يشتد كذلك في إقامة الحدود ، ويندب في ذلك أحياناً إلى حدود بعيدة ، حتى قيل إنه عاقب على شرب الخمر بالقتل ، وأمر بقتل بعض العمال الذين تشكو الرعية منهم^(١) .

وقد كان للمنصور من الناحية الدينية موقف خاص ، يمكن أن يوصف بأنه انقلاب في ميدان المذهب والعقيدة في الدولة الموحدية ، فهو أولاً قد طارد علم الفروع ، أعنى دراسة تفاصيل العبادات والمعاملات . وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي في سائر البلاد مثل مدونة مكنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب ، وأمر الناس بترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض فيه ، وأنذر من يفعل ذلك بشديد العقاب ، وأمر جماعة من العلماء المحدثين يجمع أحاديث من المصنفات العشرة في الصلاة وما يتعلق بها على نحو المجموعة التي جمعها ابن تومرت في الطهارة ، وذاع هذا المجموع في المغرب ، وأقبل الناس على حفظه . وكان قصد المنصور من ذلك أن يحو

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٨ ، ٤٣٣ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، والمقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٦ .

مذهب مالك وأن يزيله من المغرب^(١). وكان المنصور أيضاً من أشد دعاة المذهب الظاهري ، وهذا المذهب الذي اشتهر على يد الفيلسوف ابن حزم القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري ، يرجع إلى القرن الثالث ، ومؤسسه هو خلف ابن داود الأصفهاني المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، وقد وضع أسسه في نحو منتصف القرن الثالث ، وخلاصتها أنه يجب في صوغ أحكام الشريعة أن يُرجع فقط إلى ظاهر القرآن والسنة أي الحديث ، وألا يُؤخذ في ذلك بالرأي أو القياس ، وأن يبقى الإجماع محصوراً في إجماع صحابة رسول الله : ويبدى ابن حزم لإمام المذهب الظاهري بالأندلس تشدداً في تطبيقه على العقائد ، وهو لا يأخذ في تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين في صوغ الأحكام . وقد حمل الخليفة المنصور الناس على اعتناق المذهب الظاهري ، والتزام الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث . وكان المنصور يشكو من تعدد الآراء والأحكام المذهبية في المسألة الواحدة ، ويرى أن الأخذ بالمذهب الظاهري يحسم كثيراً من هذه الخلافات . ونستطيع القول إن المذهب الظاهري ، غداً هو للمذهب الرسمي في عهد المنصور ، وعظم أمر الظاهرية ، وانتشروا بالمغرب ، وكانوا يسمون بالحزمية نسبة إلى الفيلسوف ابن حزم عميد المذهب . وكان المنصور يجعل ابن حزم ، ويرتفع به ويعلمه إلى أسمى مكانة . وما يذكر في هذا الصدد ، ما يروى ، من أن المنصور ، مر في عودته من غزوه لأراضى البرتغال في سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، بشمال مدينة ولبة ، حيث توجد قرية منت ليشم ، وهي بلد بني حزم ، وبها قبر العلامة ابن حزم ، فوقف المنصور على قبره ، وهو يقول عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ، ثم قال « إن كل العلماء عيال على ابن حزم »^(٢) . ويقول لنا ابن الأثير إن المنصور عين في أواخر أيامه قضاة من الشافعية . وقد كان الجنوح إلى مذهب الظاهرية ، فيما يذكرنا المراكشي من صفات أبيه الخليفة أبي يعقوب يوسف ، وجده الخليفة الفقيه العالم عبد المؤمن بن علي ، إلا أنهم لم يفصحوا عن هذا الاتجاه بشكل ظاهر ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ ، والتكلمة لابن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٢ . وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ ، والنويري طبعة جسيار ويميرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٢٧٧ .

(٢) المقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ١٦٢ . وما زالت هذه القرية التي دفن بها العلامة الأندلسي الكبير ، قائمة حتى يومنا ، وهي تسمى اليوم باسمها الحديث « كاسا مونتيخو » Casa Montejo .

إذ كانت الدولة الموحدية ما تزال في بدايتها ، وكانت عقيدة التوحيد تملو على كل ما عداها . وكان من آثار هذا الاتجاه أن ازدهر علم الحديث في عهد المنصور ، وحظى طلابه بمنتهى التشجيع والرعاية^(١) .

ومن جهة أخرى فإنه يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن المنصور لم يكن من الغلاة في تصوير إمامة المهدي ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، وهو اتجاه تبلور فيما بعد ، واتخذ على يد خلفائه صورته العملية^(٢) .

وما يتصل بتق المنصور ، وورعه ، وحاسته الدينية ، ما ينسب إليه من أنه كان ينوى افتتاح مصر ، وضمها إلى الإمبراطورية الموحدية ، لأنها كانت في نظر الموحدين بلداً ينجح إلى البدع ، وتشيع فيه المنكرات : وقد نوه بمشروع المنصور هذا نحو مصر ، غير واحد من المؤرخين والرواة . فيقول لنا المراكشي ، وهو معاصر لعهد المنصور إنه قد بلغه عن غير واحد « أن المنصور صرح بالرحلة إلى المشرق ، وأنه كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول ، نحن لإنشاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات »^(٣) . وبقيض الرحالة ابن جبير ، وهو أيضاً معاصر المنصور ، في رحلته ، في الكلام عن هذه النية الموحدية في غزو مصر ، وصداها في مصر ذاتها ، ويبدأ حديثه بالحملة على أحوال البلاد المشرقية ، ولا سيما ما يقع ببلاد الحجاز من ظلم الحجاج وانتهاك أموالهم ، ويعرب عن أمله في أن تُقمع هذه البدع المخفة بالمسلمين « بسيوف الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين في إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته » .

ثم يقول ابن جبير في النديد بأحوال المشرق وضعف إسلامه : « وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادة واضحة لابنيات فيها ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية ، فأهواء وبدع ، وفرقة ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها ، كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه ، إلا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم أئمة العدل في هذا الزمان ، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان ، فعلى غير

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٦٤ .

(٣) المعجب ص ١٦٠ .

الطريقة ، يُعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها ، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين ، الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق .

وأهم من ذلك ما ينوه ابن جبير من صدى الدعوة الموحدية بمصر ، وانتشارها بصورة تدعو إلى الدهشة ، ومن أن أكثر أهل مصر ، بل كلهم « يرمزون بذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك إلى آثار حدثانية ، وقعت بأيدي بعضهم ، وأنذرت بأشياء من الكوائن . . ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صباحاً جلياً ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لا يمترون فى إنجاز وعدّها : شاهداً من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما مشافهة وسها ، أمراً غريباً ، يدل على أن ذلك الأمر العزيز ، أمر الله الحق ، ودعوته الصديق . ونحى إلينا أن بعض فقهاء البلاد المذكورة وزعمائهم ، قد حَبَر خطباً أعدّها للقيام بين يدي سيدنا أمير المؤمنين ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، والله عز وجل يسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير » (١) ،

ونستطيع أن نربط بين هذه الأقوال التى يصف فيها ابن جبير صدى الدعوة الموحدية بمصر خلال مروءة بها فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، أغنى قبيل عهد المنصور بقليل ، وبين ما ذكره أبو القاسم المؤمن المصرى فى كتابه المسمى « بالأنساب فى معرفة الأصحاب » ، ونقله اليزيدى ، عن أصحاب المهدي بمصر ، فقد ذكر لنا من هؤلاء واحداً وخمسين رجلاً بأسمائهم ، وقال إنهم كانوا من أعيان بلادهم « وإنهم كانوا سامعين لقوله ، مجيبين لأمره ، مؤمنين به ، مختارين صحبته ، مؤثرين لحقه ، معظمين لحرمة » (٢) .

ويستخلص مما تقدم ، ومن أقوال ابن جبير خاصة ، أنه كانت توجد ثمة فكرة موحدية لغزو مصر ، وأن هذه الفكرة ترجع إلى ما قبل عهد المنصور ، وأنها ربما تبلورت فى عهد المنصور ، واتخذت طابعاً قوياً ، وذلك لما أبداه

(١) رحلة ابن جبير (المنشورة بتناية الدكتور حسين نصار - القاهرة سنة ١٩٥٥)

ص ٥٢ و ٥٤ .

(٢) نقله اليزيدى فى « أخبار المهدي ابن تومرت » ص ٣٠ - ٣٢ .

المنصور من عزم و ضخامة في أهباته العسكرية ، وما وفق إليه من انتصارات باهرة ضد النصارى في شبه الجزيرة الإسبانية ، ولا سيما في معركة الأرك العظيمة . وربما كان من بواعث هذه الفكرة ومشجعاتها ، مثل الفاطميين ، الذين ساروا من المغرب ، قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وغزوا مصر ، واستولوا عليها بأيسر أمر . ولكن شتان بين العصرين ، وشتان بين ما كانت عليه مصر وقت الفتح الفاطمي ، وما كانت عليه أيام الخليفة المنصور . بيد أننا لانستطيع مع ذلك ، أن نعتقد أن الموحدين كانوا يحتضنون مشروع غزو مصر بصورة جدية . وأكبر الظن أنها ربما كانت أمنية ، وربما كانت مثل هذه الأمنية ترجع إلى عصر المهدي ذاته ، فقد رأينا المهدي أثناء مقامه بئر الإسكندرية يغضب لما رآه فيها من « البدع » ثم يقوم بها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى قيل بأنه خرج منها متفيا ، لما ترتب على دعايته من الشغب . بل قيل أكثر من ذلك ، وهو أن المهدي قال ذات يوم لبعض أصحابه فيما قال ووعدهم به ، وكانوا يجلسون تحت شجرة الحروب المواجهة لمسجد تينملل : « ليصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر ، مستظلين بهذه الشجرة ، قاعدين تحتها »^(١) كذلك يلوح لنا أن ما يذكره ابن جبير عن انتشار فكرة الغزو الموحدى بمصر ، وما كان يهمس به الناس من ذلك الأمر ، إنما هو مبالغة ترجع إلى ولاء ابن جبير للدولة الموحدية ، التي خدم في ظلها وتمتع برعايتها ، والأغلب أن ابن جبير تلقى أخباره من بعض الغلاة الماثمين من أتباع المهدي وأنصاره بمصر ، فصورها على أنها تعبر عن اتجاه أغلبية الأمة المصرية ، وهو ما يعتبر في نظرنا من ضروب الوهم المفرق .

ولاشك أن الموحدين ، وفي مقلدتهم الخليفة المنصور ، كانوا يعرفون ما كانت عليه قوة مصر في ذلك العهد ، التي نعمت فيه بقيادة الملك الناصر صلاح الدين ، وما أحرزته بقواتها العسكرية الضخمة البرية والبحرية ، من انتصارات باهرة على الصليبيين ، فلم يكن من المعقول أن يفكروا في غزو مثل هذه الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ، التي تحطمت على صخرة قوتها الرائحة حملات الصليبيين المتوالية ؛ ومن جهة أخرى ، فإن قصور الموحدين في هذا الوقت بالذات عن القضاء على ثورة بني غانية في إفريقية بصورة حاسمة ، واستمرار هذه الثورة العتيدة ، أيام المنصور ومن بعده أعواما طويلة ، يقطع بأن فكرة

(١) المراكشي في المعجب ص ١٦٤ .

غزو مصر، إن كانت ، لم تكن لدى الموحدين سوى أمنية خيالية بعيدة النال . وكان المنصور عالماً مستنيراً ، متقناً للحديث والفقه واللغة ، مشاركاً في كثير من العلوم ، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وقد أشرنا من قبل إلى شغفه بالجدل والمناقشات الفلسفية ، وما كان يعقده من مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء الفيلسوف ابن رشد . وقد كانت نكبة الفيلسوف العظيم ونفيه إلى الإسبانية من سقطاته البارزة ، ولكن كان متأثراً في ذلك بضغط الفقهاء والطلبة الموحدين . وكان المنصور يعنى بأمر طلبة العلم أعنى علم الحديث ، أعظم عناية ، حتى نالوا على يديه من الرعاية والنفوذ ما لم ينالوه أيام أبيه وجده . وكان الموحدون يتبرمون بالطلبة ، ويتقنون عليهم خطوتهم ونفوذهم لدى الخليفة ، حتى اضطرت المنصور ذات يوم ، أن يصرح أمام سائر الموحدين ، وقد بلغه موقفهم من الطلبة ، « يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فن نابه منكم أمر فرع إلى قبيلة ، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم سوى ، فهما نابه أمر ، فأنا ملجؤهم ، وإلى فرعهم ، وإلى ينتسبون » . يقول المراكشي ، فعظم من ذلك اليوم أمر الطلبة ، وبالف الموحدون في برهم وإكرامهم^(١) .

وكان المنصور أديباً فصيحاً ، جزل الألفاظ ، وكان يجتمع حوله شعراء العصر من العلوتين ، المغرب والأندلس ، يصنئ إلى مدائحهم ، ويغمرهم بصلاته ، وقد وضع له شاعره الأثير أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر^(٢) . وانتشر هذا الديوان بين أهل المغرب انتشاراً عظيماً ، وكان لديهم ككتاب الحماسة لأبي تمام عند أهل المشرق ، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى قصائد الجراوى ومدائحه للمنصور ، وأبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف ، فى مختلف المناسبات . وكان من شعراء دولته أيضاً أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مُجَبَّر المرسى الأندلسى ، وقد أشرنا إلى مدائحه كذلك من قبل غير مرة ، وقد ذكر لنا ابن خلكان أن مدائح ابن مُجَبَّر للمنصور جمعت فى ديوان ، وأورد لنا منها قصيدة رقيقة فى مطلعها :

أتراه يترك الغزلا وعليه شب واكتها

(١) المراكشي فى المعبج ص ١٥٨ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤ ، وروض القرماس ص ١٤٢ .

كلف بالغيد ما عقلت نفسه السلوان مذ عقلا

وإلى جانب هذه الصفات العلمية والأدبية اللامعة ، كان المنصور جواداً ، وافر البذل ، كثير الصدقات ، وكان يقدر قيمة البذل في أسر النفوس وترويضها ، وكان يؤثر بصلاته الوفيرة أجناد الغز (الأغزاز) والعرب الذين ينضمون لجيشه ، استبقاء وتأكيذاً لولايتهم^(١).

هذا وأما عن كفاية المنصور ومواهبه الإدارية والإنشائية ، فالدنيا من ذلك تفاصيل عديدة . فقد كان المنصور في الواقع من أقدر الخلفاء الموحدين في فهم شئون الدولة الإدارية وتنظيمها ، وكانت ولايته لوزارة أبيه مدرسة درس فيها هذه الشئون خير دراسة . وفيها « بحث عن الأمور بحثاً شافياً » ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور^(٢) . وقد رأيناه سواء في المغرب أو الأندلس يعكف على معالجة شئون الدولة بهمة ، ويتقصى شئون الولاة والعمال . وكان يولى شئون الأندلس في ذلك عناية خاصة ، ففي كل مرة يعبر فيها إلى شبه الجزيرة ، يعنى إلى جانب أهباته للغزو ، بتنظيم شئونها الداخلية ، وفي سنة ٥٩٢ هـ ، نراه بعد ظفريه في معركة الأرك ، يعنى خلال إقامته بإشبيلية ، بمطاردة العمال المقصرين والمختلسين ومحاسبهم ، واستصفاء أموالهم ، كما يعنى بتعيين غيرهم من الحائزين لثقتهم . ثم هو في نفس الوقت يولى شئون الدولة المالية اهتماماً خاصاً ، ويندب لأعمال الحياة رجالاً من ذوى الأمانة والزهامة . وكان من أهم مافعله المنصور في باب السياسة المالية ، هو تغييره للدينار الموحدي ، ومضاعفته لوزنه ، حسبما أشرنا إلى ذلك في موضعه .

وكذلك أبدى المنصور همة ظاهرة في إقامة المنشآت العمرانية العظيمة ، فأنشأ لأول عهده ضاحية الصالحة الملوكية في جنوبي مراكش ، فوق البسيط الممتد بين باب أنعمات شرقاً وباب الشريعة غرباً ، فجاء إنشاؤها دليلاً على ما كانت تجيش به نفسه من إظهار أهبة الملك وروعته ، على مثل ما كان عليه خلفاء الأندلس ، وعنى بتوسيع مدينة رباط الفتح ، التي كان قد اختطها جده فأبوه وتجديد قصبتها ، وإتمام أسوارها وأبوابها ، واستكمال أحيائها ومبانيها . وأنشأ

(١) المراكشي في المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٨ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، ونقله ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

بها مسجداً عظيماً واسع الفناء ، يقول المراكشي بأنه كان أكبر مسجد في المغرب ، وأنشأ له صومعة متناهية في العلو « على هيئة منار الإسكندرية » يُصعد إليها بغير درج . ولكن هذا المسجد لم يتم إذ انقطع العمل فيه بوفاة المنصور^(١) . ونزيد نحن على ذلك بأن معالم المسجد المشار إليه ، وقواعد أعمدته مازالت قائمة في مكانها ، تدل على عظم مساحته ، وما زالت صومعته الشاهقة التي لم يكمل بناؤها قائمة في مكانها ، على مقربة من شاطئ المحيط ، وهي التي تعرف اليوم بمنارة حسان (تورحسان) ، وهي على نمط صومعة جامع إشبيلية الشهيرة (لاخيرالدا)^(٢) .

يبد أن أهم منشآت المنصور في الحاضرة الموحدية - مراكش - كان هو البيارستان (المستشفى) العظيم ، الذي كان أول صرح من نوعه حظيت به مراكش . وقد اختار لإقامته ساحة شامخة ، وعنى بتخطيطه وبنائه أعظم عناية ، وغرست من حوله الحدائق ، وأجريت المياه إلى سائر أجنحته ، وزودت بنفيس الأثاث والرياش ، ومختلف صنوف الأدوية ، وعن له رهط من مهرة الصيادلة لإعداد الأدوية على اختلاف أصنافها ، ورصدت الأموال اللازمة للإتفاق على المرضى ، وإطعامهم وكسائهم ، وكان المريض الفقير إذا تم شفاؤه ، زُود عند خروجه بمال يعيش منه حتى يرزق بعمل ، وإن كان غنياً دُفع إليه ماله وترك شأنه ، وكان يوم هذا المستشفى الكبير سائر المرضى من المحليين والغريباء ، وكان المنصور يركب إليه في كل جمعة بعد الصلاة ، ويعود المرضى ، ويسأل عن أحوالهم وحاجاتهم ، وكانت هذه المأثرة الإنسانية من أعظم مآثر المنصور وأخلاقها^(٣) .

وأما عن منشأته بالأندلس فقد أشرنا إلى ما كان من إنشائه لحصن الفرج خارج مدينة إشبيلية ، وإنشاء قصوره وقبائه ، ثم إتمامه لصومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وهي التي كان أبوه قد أمر بإنشائها ، ولم تكمل في عهده ، فقام المنصور على إتمامها ، وتزويدها بتفانيها الذهبية حسبما أشرنا إليه في موضعه . وأنشأ المنصور في نفس الوقت بمدينة مراكش منارة الكُتبية العظيمة على نسق صومعة جامع إشبيلية ، كما أنشأ بمدينة الرباط صومعة مسجدتها على نفس الطراز ، وهي منارة حسان التي لم يكمل بناؤها ، حسبما تقدم . وقيل في شأن منارة الكُتبية إنه بدئ بإنشائها في عهد جده الخليفة عبد المؤمن ، وقام هو بالعمل على إتمامها ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٠ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٦٢ .

وطبقاً لهذه الرواية تكون منارة الكتبية سابقة على صومعة إشبيلية ، وتكون هي أم هذا الطراز من الصوامع الموحدية ، وعلى أى حال فقد تم إنشاء الكتبية في سنة ٥٩٤ هـ ، قبيل وفاة المنصور بقليل^(١) .

ووزر للخليفة المنصور في بداية أمره أخوه السيد أبو عبد الله . ثم خلفه في الوزارة أبو حفص عمر بن أبي زيد الهتاتى ، ولما توفى خلفه أبو يحيى أبو بكر ابن عبد الله بن أبي حفص عمر الكبير ، واستمر في منصبه إلى أن قُتل في موقعة الأرك وهو يقود الصفوف . فتولى الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الشيخ أبي حفص ، وهو ابن عم أبي يحيى الشهيد المتقدم الذكر ، ولكنه لم يلبث في الوزارة سوى أيام يسيرة ، ثم تركها مختاراً وهام على وجهه في بعض نواحي إشبيلية ، وتزهد ، فأرسل الخليفة إليه من استرده وأعفاه من الوزارة ، وخلفه في الوزارة أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهتاتى ، فلم يزل في منصبه حتى توفى الخليفة المنصور ، فتولى الوزارة بتوصية الخليفة ، لابنه محمد الناصر مدى حين^(٢) .

وكتب للمنصور عدة من أكابر الكتاب منهم أبو الفضل جعفر ابن محشرة من أهل مدينة بجاية ، وكان تلميذاً لأبي القاسم القالى ، كاتب أبيه الخليفة أبي يعقوب ، وكان كاتباً مجيداً ، بارع الأسلوب ، واسع الرواية غزير الحفظ ، تشهد له بذلك رسائله العديدة التي انتهت إلينا ، واستمر في منصب الكتابة حتى توفى . فكتب من بعده للمنصور أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن عياش ، وهو أندلسى من أهل بُرْشانة من أعمال ألمرية ، واستمر في منصبه حتى توفى المنصور ، فكتب من بعده حيناً لابنه محمد الناصر ، ثم لحفيده يوسف : وكان من ألمع كتاب الدولة الموحدية وأبرعهم أسلوباً . وقد انتهت إلينا كذلك عدة من رسائله الصادرة عن الخليفة المنصور ، ومنها الرسالة التي وضعها في إتمام ابن رشد وزملائه بالخروج على شريعة الإسلام ، وكلها تشهد بروعة بيانه^(٣) .

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، والحلل الموشية ص ١٢١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٩ .

(٣) راجع في مجموعة الرسائل الموحدية الرسالة السادسة والعشرين إلى الرسالة الرابعة والثلاثين وهي جميعها من إنشاء ابن محشرة ، وراجع الرسائل الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وهي من إنشاء أبي عبد الله بن عياش .

وتولى القضاء في عهد المنصور ، أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة ، وكان يتولاه من قبل في عهد أبيه الخليفة أبي يعقوب ، ولما توفى خلفه في القضاء أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل وهران ، ثم عُزل وتولى القضاء من بعده أبو القاسم أحمد بن محمد من ولد بني بن مخلد فقيه الأندلس الأشهر ، واستمر في منصبه حتى وفاة المنصور ، ووقتا من عهد ولده محمد الناصر^(١).

وترك المنصور من الولد ستة عشر من الذكور ، هم محمد ولي عهده والخليفة من بعده ، وإبراهيم ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين . وقد تولى الخلافة منهم غير محمد ، اثنان آخران هما أبو محمد عبد الله العادل ، وأبو العلاء إدريس المأمون . وترك المنصور كذلك عدة من البنات .

هذا ، وأما عن شخص الخليفة يعقوب المنصور ، فقد وصفته الرواية المعاصرة ، بأنه كان شديد السمرة ، طويل القامة ، جميل الحيا ، أعين ، أفوه ، أفنى الأنف ، شديد الكحل ، مستدير اللحية ، ضخيم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جزل الألفاظ^(٢).

تلك هي مآثر الخليفة الموحدى ، الظافر في معركة الأرك العظيمة ، وتلك هي صفاته وخلالاله الوضاعة اللامعة .

(١) المعجب ص ١٤٩ .

(٢) المعجب ص ١٤٧ و ١٤٨ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

الفصل الخامس

عصر الخليفة محمد الناصر

جلس الخليفة محمد الناصر . وزيره ومستشاروه . أعماله الأولى . أحوال إفريقية . استيلاء يحيى بن غانية على قابس . ابن عبد الكريم وظهوره . خلافة مع والي المهدي . القبض عليه ثم إطلاق سراحه . استيلاءه على المهدي واستبداده بها . سيره لغزو تونس . اشتباكه مع الموحدين وهزيمتهم . لومه وعوده إلى المهدي . الخلاف بينه وبين يحيى الميوق . استيلاءه على قفصة . اشتباكه مع الميوق . هزيمته والتجاءه إلى المهدي . محاصرة الميوق له . تسليمه للمهدي . قبض الميوق عليه هو وولده ثم اغتياله . استداد سلطان يحيى إلى معظم أنحاء إفريقية . سيره إلى باجة واتحامها . سير الموحدين بقتاله . هزيمة الموحدين وسقوط محلتهم . سير يحيى إلى بركه واتحامها . عوده إلى المهدي . فتح البلاط الموحدى لحوادث إفريقية . تجهيز حلة كبيرة لقتال الميوق وتوقعها . ثورة أبي قنصة ببلاد قسوس . سير الموحدين لقتاله . هزيمة الدسى ومقتله . وقوع الليل العظيم بإشبيلية . تآهب الموحدين لافتتاح الجزائر الشرقية . عبد الله بن إسماعيل حاكم الجزائر . مسالته للدول النصرانية وتماونه معها . انتراعه لمدينة ميورقة من الموحدين . إعداد الحملة الموحدية لافتتاح الجزائر . خروجها من دانية إلى يابسة ثم إلى ميورقة . استيلاء السفن الموحدية على ميورقة . نزول الموحدين في ميورقة . القتال بينهم وبين عبد الله بن إسماعيل . هزيمة عبد الله ومقتله . اقتحام الموحدين لمدينة ميورقة واقتحامها . تعيين ابن طاع الله الكومي لولايتها . صدق هذا الفتح في أراجون والدول النصرانية الأخرى . تأثيره في خطط يحيى بن إسماعيل . عزم يحيى على فتح تونس . سيره إليها في قواته . قطع اتصالها بالبحر ومحاصرتها . اقتحام يحيى لها . قبضه على واليها السيد أبي زيد وأولاده وأشباه الموحدين . يحيى يفرض غرامة فادحة على تونس . خروجها إلى جبل نفوسة وتغريم أهلها . وقع سقوط تونس في بلاط مراکش . انصار يعين ولاية الأندلس . عزمه على سحق الميوق . سير الحملة الموحدية والأسطول الموحدى إلى إفريقية . حركات يحيى بن إسماعيل في الجنوب . وصول الأسطول الموحدى . وصول الحملة الموحدية بقيادة الناصر . عودة يحيى إلى تونس . إرساله لأمواله وذخائره إلى المهدي . إخلاؤه لتونس وسيره في قواته إلى قفصة . احتلال الموحدين لتونس . سير الحملة الموحدية في أثر الميوق . تحصن الميوق بحل دمر . تحصينه للمهدي . سير الناصر لمحاصرة المهدي . سير حملة موحدة بقيادة الشيخ أبي حفص إلى حل دمر . معركة دموية في رأس تاجرا . هزيمة الميوق ومقتل أصحابه . فراره في فلوله . إنقاذ السيد أبي زيد وصحبه . اشتداد المقاومة بالمهدي . الممارك المستمرة . طلب الغاني حاكم المهدي التسليم بالأمان . موافقة الناصر . خروجه من المهدي مع صحبه . دخوله في طاعة الموحدين . سحق بني غانية وتحرير إفريقية . مثل بني غانية في محاربة الموحدين . تحولها إلى معامرة في سبيل السلطان والثراء . مثالب حكومة الميوق وأساليبها المسجية . بعض المحكومين لها . التجاء يحيى للميوق إلى الصحراء الجنوبية . مطاردة الموحدين نظوائف المفسدين . تعيين الشيخ ابن محمد عبد الواحد لولاية إفريقية . اعتذاره وشرطه لقبول . موافقة الناصر ومغادرته لتونس . سيره إلى تلمسان ثم إلى فاس . أعماله ومطاردته لعامل فاس وبكناسة .

مسيره إلى رباط الفتح ثم إلى مراكش . نظره في الأعمال السلطانية ومراجعتهم لأعمال العمال . وفاة السيد أبي الربيع والى بجاية . تعيين السيد أبي عمران موسى والياً لتلمسان . عود يحيى الميورقي إلى الحركة . تحول بعض طوائف العرب عن مخالفته إلى الموحدين . مسير يحيى إلى الشال . خروج الشيخ أبي محمد إلى لقائه . معركة تبيشة . هزيمة الميورقي وفراره . جمعه لقواته ومسيره غرباً صوب واحات سجلماسة . اقتحامه لسجلماسة ونهبها . اهتمام الموحدين في إفريقية ومراكش . عوده صوب تلمسان . مفاجأته لوالها السيد أبي عمران وقواته . هزيمة الموحدين ومصرع السيد وصحبه . اقتحام الميورقي لمدينة تاهرت . عيث الميورقي في أحواز تلمسان . إجماع المدينة وتأييدها . مسير حلة جديدة لمقاتلة الميورقي . ارتداده صوب طرابلس . عوده إلى الحركة . تضخم جيشه بالعرب والأغزاز . خروج الشيخ أبي محمد لقتاله . مسيره نحو جبل نفوسة . اشتباك الفريقين . هزيمة الميارقة وحلفائهم . مقتل أشياخ العرب . فرار يحيى وقله . عود القائد الظافر أبي محمد . كتابه إلى الخليفة بالفتح . معاملة الشيخ أبي محمد لشئون إفريقية . فضله في إخماد ثورة بني غانية . توطيده لسلطان الموحدين في إفريقية . التجاء سير اخي يحيى إلى الشيخ أبي محمد . أعمال الناصر وتمييزاته للولاة والكتاب والقضاة . بعض حوادث المغرب في تلك الفترة . حريق مراكش . وفد المسلمين الصقليين إلى تونس . أحوال السملص صقلية منذ افتتاح النصارى للجزيرة . أقوال الرحالة ابن جبير عن ذلك .

لما توفي الخليفة يعقوب المنصور ، في ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩ م) ، خلفه في صباح اليوم التالي ولده أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر لدين الله ، وأخذت له البيعة العامة بعد ذلك بأسبوع في نهاية شهر ربيع الأول . ولم يعارضه أحد من الإخوة ولا العمومة . وكان المنصور قد اختاره لولاية عهده ، وعقد له البيعة بذلك في أواخر سنة ٥٨٧ هـ ، حينما دهمه المرض الشديد ، عقب عوده إلى المغرب ، من جوازه الأول إلى الأندلس . ثم أخذت له البيعة بعد ذلك في سائر أقطار المغرب والأندلس . وكان الخليفة الجديد حين جلوسه ، في نحو السابعة عشر من عمره ، إذ كان مولده في أواخر سنة ٥٧٦ هـ . ويقول لنا المراكشي إن أمه أم ولد رومية تدعى زهر . ولكن صاحب روض القرطاس ، يقول إن أمه بالعكس كانت حرة اسمها أمة الله ، وأنها ابنة السيد أبي إسحق بن عبد المؤمن^(١) .

وتولى الوزارة للخليفة الجديد ، وزير أبيه أبو زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، وهو ابن أخى الشيخ أبي حفص^(٢) ، وتولى مهمة الاستشارة والتوجيه ، الشيخ أبو زكريا وأخوه الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، إبن الشيخ

(١) المعجب ص ١٧٥ ، وروض القرطاس ص ١٥٢ .

(٢) وقد ورد في بعض الروايات « أبو زيد بن يوجان » (راجع رحلة التنجاني ص ٣٦٣) .

- ٢٥١ -

أبي حفص عمر الهنتاتي ، وتولى رئاسة البيت المالك السيد أبو الحسن وأخوه السيد أبو زيد ، ابنا السيد أبي حفص عم الخليفة الراحل ، وذلك كله ، وفقاً لوصية المنصور في مرض موته حسبما أشرنا إليه من قبل .

وأقام الخليفة الجديد عقب ولايته بحضرة مراکش بضعة أسابيع ، حتى آخر شهر ربيع الثاني من سنة ٥٩٥ هـ ، وتمت البيعة خلال ذلك في سائر النواحي ، ووصلت إلى الحضرة ، وخرجت البركات للموحدين والأجناد كالعادة ، وقدم الشعراء تهنيتهم بتجديد البيعة . ثم غادر الخليفة مراکش في أول شهر جمادى الأولى ، وقصد إلى مدينة فاس ، فأقام بها حتى نهاية هذا العام . وعنى الخليفة خلال ذلك بتصريف الشئون ، بمعاونة وزيره عبد الرحمن بن يوجان ، وكان في مقدمة المراسم الجديدة ، أن عين الخليفة السيد الحسن بن السيد أبي حفص والياً لبلجاية وأعمالها ، وأمله بالرجال والأموال ليستطيع مواجهة الحوادث في تلك المنطقة المضطربة ، وعين أخاه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور والياً على إشبيلية مكان أخيه السيد أبي زيد^(١) .

وكانت الأحوال في إفريقية قد ساءت في أواخر عهد المنصور ، ولا سيما حين شغل بأمر الجهاد في الأندلس ، ولم تسعف الظروف حين عودته بعد ذلك إلى المغرب ، ليعنى بالنظر في شئون إفريقية ، وتدارك مآذمها من الحوادث ، حيث فاجأه المرض وتوفى . فكان على ولده الخليفة الفتي محمد الناصر ، أن يواجه هذه الظروف ، وأن يقوم بتداركها .

- ١ -

وقد وصلنا فيما تقدم من سرد حوادث إفريقية ، إلى ظفر يحيى بن إسماعيل ابن غانية الميورقي ، بخصمه شرف الدين قراقوش ، وفراره إلى الجبال ، وانزاع طرابلس من يده نائبه . ولما تم ليحيى ما تقدم سار إلى قابس ، وكان نائب قراقوش قد غادرها على أثر هزيمة سيده ، ووجه إليها الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص وإلى تونس ، حافظاً من الموحدين يسمى ابن تفرجين . فقصد إليها يحيى بقواته ووجه إلى أهلها كتاباً ينذرهم فيه بالتسليم ، ويحذرهم من المخالفة ، ويحدد لهم ثلاثة أيام لإجابة مطلبه ، فلما انتهى هذا الأجل دون أية إجابة ، زحف

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٢ و ٢١٣ .

يحيى على المدينة ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وقطع غابات النخيل القريبة منها ،
 إلا نخلة واحدة تركها للعبرة . فأذعن أهل المدينة إلى التسليم ، على أن يؤمن واليهم
 ابن تفرجين ، ويُسمح له أن يغادر المدينة بأهله من طريق البحر ، فأوفى لهم يحيى
 بذلك ، وفرض على المدينة إتاوة قدرها ستون ألف دينار . وكتب كاتبه أبو محمد
 عبد البر بن فرسان كتاباً بهذا الفتح ، يشيد فيه بعود المدينة إلى الدعوة العباسية^(١) .
 وبينما كان الميورقي يتابع مغامراته ، ويعمل على توطيد سلطانه في بلاد
 الجريد ، إذ ظهر بإفريقية عامل مقلق جديد بثورة ابن عبد الكريم . وكان محمد
 ابن عبد الكريم الرجراجي هذا ، من زعماء الحند ، الذين امتازوا بالشجاعة
 والنجدة ، وأبوه جندي من أهل المهديّة ، ينتمى إلى قبيلة كومية الموحدية . وكان
 قد ظهر في مقاتلة الأعراب وغيرهم من العناصر المشاغبة المفسدة ، واستطاع في
 كثير من المواطن أن يقمع شغبهم وضررهم ، بمن التف حولهم من الحند والأنصار ،
 فلما قوى أمره ، وظهرت كفايته ، قدمه الوالى لتلك المهمة ، وأطلق يده في محاربة
 الخوارج والمعتدين ، فكان يطاردهم وينكل بهم ، ويقتل من يقتل ، ويعتقل
 من يعتقل ، فلا يطلقه إلا بعد دفع الأموال الكثيرة ، وإعطاء العهود المؤكدة
 على التزام الطاعة والسكينة .

فلما وثى الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص ، من قبل الخليفة المنصور ، على إفريقية ،
 قدم على المهديّة ، أخاه أبا علي يونس بن أبي حفص ، فطالب ابن عبد الكريم
 أن يُشركه فيما يغنمه من أموال الأعراب المخالفين ، فرفض ابن عبد الكريم تحقيق
 رغبته ، وطلب إليه أن يتركه على ما كان عليه الولاية من قبل . فقبض عليه أبو علي
 وأهانته ، وزجه إلى السجن ، فاستغاث ابن عبد الكريم بالشيخ أبي سعيد والى
 إفريقية فلم يسعفه . وحدث عندئذ أن اشتد عيث الأعراب بالساحل ، وكثرت
 الشكوى منهم ، وألح الناس على أبي علي أن يطلق ابن عبد الكريم ، فاضطر
 إلى إطلاقه خشية الفتنة ، ورد إليه منصبه وجنده ، وأمره بالعمل على كف
 عيث أولئك الأعراب . فخرج ابن عبد الكريم في صحبه ، وأقام محلة في ظاهر
 المهديّة ، وشكا إلى جنده ما لحقه من ظلم الوالى ، وتفاهم معهم على الغدر بأبي علي
 والاستيلاء على المدينة . ويقدم إلينا ابن الأثير تفسيراً آخر لتصرف ابن عبد الكريم ،
 خلاصته أن جماعة من عرب بني عوف نزلوا على مقربة من المهديّة ، فخرج

(١) راجع رحلة التجاني ص ١٠٥ - ١٠٨ .

إليه ابن عبد الكريم ، فخافوا وفروا تاركين عيالهم وأموالهم ، فاستولى ابن عبد الكريم على المال والعيال ، وسلم العيال وجزءاً من المال والأسلاب إلى الوالى واحتفظ بالباقي ، فسار رؤساء بنى عوف إلى الشيخ أبي سعيد ، وقدموا الطاعة ووجدوا واستغاثوا به ، أن يرد إليهم أموالهم وعيالهم ، فاستدعى ابن عبد الكريم وطالبه برد ما أخذ من أسلابهم ، فاعتذر ابن عبد الكريم بأن أعطاه إلى الجند ولا يستطيع رده . فأغلظ له الشيخ أبو سعيد القول ، وهم أن يبطش به ، فاستمهلته حتى يعود إلى المهديّة ، ويحاول أن يسرد من الجند ما استطاع . فلما عاد إلى المهديّة ، نبأ صحبه بما حدث ، واتفق معهم على الثوب بأبي على يونس . وعلى أى حال فقد نفذ ابن عبد الكريم مشروعه ، ودخل المدينة في أواخر الليل في ثلة مختارة من صحبه ، وبادر إلى قصر الوالى ونفذ إليه ، وقبض على أبي على ، وحبسه في موضع من القصر ، ولم يطلقه إلا بعد أن وصل فدأؤه من قبل أخيه الشيخ أبي سعيد ، فارتد إلى أخيه مخدولاً ، وبسط ابن عبد الكريم بذلك حكمه على المهديّة ، وكان استيلائه عليها في شهر شعبان سنة ٥٩٥ هـ^(١) ، لأشهر قلائل من ولاية الناصر .

واستبد ابن عبد الكريم بحكم المهديّة ، وتسمى « المتوكل على الله » ، واستفحل أمره . وفي تلك الأثناء وصل السيد أبو زيد ابن السيد أبي حمزة من قبل الناصر والياً على إفريقية ، مكان الشيخ أبي سعيد ، ومعه جماعة من الأسيّاح والأجناد . فاعتزم ابن عبد الكريم أن يحاصره بتونس ، قبل أن يستعد لقتاله ، فسار إلى جهة قرطاجنة وعسكر عند مدخل البحر إلى البحيرة ، فسير السيد أبو زيد السفن في البحر ، والجند في البر لقتاله ، وكان ابن عبد الكريم قد رتب كمائنه في بعض المواضع ، فلما أقبل إليها الموحدون ، خرجت عليهم تلك الكمائن ، فأوقعت بهم الهزيمة وفتكت بمعظمهم ، وانتشر عسكر ابن عبد الكريم في أحواز تونس ، وعاثوا فيها نهباً . وعندئذ بعث السيد أبو زيد والشيخ أبو سعيد إلى ابن عبد الكريم ، أشياخاً من الموحدين يسوقون إليه اللوم ، ويذكرونه بآثامه إلى الموحدين ، وأن ما يفعله مروق ونكران لا يليق به ، وأنه من الخير أن يعود إلى طائفته ، فوعدهم ابن عبد الكريم خيراً ، ثم عاد إلى المهديّة . وكانت قد حدثت في تلك الأثناء وحشة بين ابن عبد الكريم ، ويحيى الميورقي

(١) رحلة التجاني ص ٣٥٠ - ٣٥٢ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ .

لما دب بينهما من عوامل التنافس والحسد ، وفكر ابن عبد الكريم في محاربته ومحاصرته ، وهو يومئذ بقابس ، فاستخلف على المهدية ولده عبد الله وسار إلى قابس ، ولكنه لما أشرف عليها بمجموعه هالته منعها ، فارتد منها إلى قفصة واستولى عليها . وعندئذ خرج الميورقي من قابس لمطاردته ومحاربته ، فخرج ابن عبد الكريم بقواته من قفصة ، والتقى الفريقان في مكان يعرف بقصور لالة ، فهزم ابن عبد الكريم ، وفر إلى المهدية ناحياً بنفسه ، وتبعه إليها من نجا من فلوله ، واحتوى الميورقي على معسكره وجميع أسلابه . وكان ذلك في بداية سنة ٨٥٩٧ .

وأراد الميورقي أن يقضى نهائياً على خصمه ، وأن ينتزع منه المهدية ، فبعث إلى السيد أبي زيد بتونس يسأله المهادنة والسلام ، ويطلب منه أن يعينه بعدة سفن يستطيع بها محاصرة المهدية من البحر ، والقضاء على ابن عبد الكريم . وكان السيد أبو زيد يتوق إلى التخلص من هذا الثائر الذي استفحل أمره ، فبعث إلى الميورقي سفينتين ، فعندئذ أدرك ابن عبد الكريم أنه لا مفر من التسليم ، وبعث إلى الميورقي ولده عبد الله يعرض التسليم على أن يؤمن في نفسه وماله ، فأجاب الميورقي إلى ذلك ، وخرج ابن عبد الكريم وولده من المهدية وتوجها إلى الميورقي للسلام عليه ، فلما رآهما أمر في الحال بالقبض عليهما متفرقين ، واستولى على المهدية وعلى سائر ما كان بها لابن عبد الكريم من الأموال والذخائر . ثم زج بابن عبد الكريم وولده إلى السجن ولم تمض أيام قلائل حتى أخرج ابن عبد الكريم ميتاً من سجنه ، ثم أخرج ولده عبد الله وحمل إلى السفينة ، بزعم إرساله إلى ميورقة ، ولكن السفينة ما كادت تصل إلى مقربة من قسنطينة ، حتى ألقي به مكبولا إلى البحر ، فابتلعه المياه^(١) .

وهكذا بسط يحيى بن إسحاق الميورقي حكمه على سائر إفريقية ، ما عدا شاطئها الشمالي ، واستولى على سائر قواعدها ، طرابلس وقابس وصفاقس والمهدية والقيروان وسائر بلاد الحريد ، ووصلت دعوته إلى بونة ولم يبق بيد الموحدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة ، وقد أصبحت كذلك في خطر السقوط . وبينما كان السيد أبو زيد والي إفريقية ، ما يزال يعتقد أن الميورقي يرغب حقاً في السلم ، وأنه ينوى أن يضع حداً لأعماله العدائية ، إذا بالميورقي

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن رحلة التجاني ، وهي فيما يبدو أوثق الروايات عن هذه الحوادث ص ٣٥٢ - ٣٥٤ . وراجع ابن خلدون في كتاب البرج ٦ ص ١٩٤ و ١٩٥ ، وهو فيما يرجح ، ينقل عن إيتجاني .

يسير فجأة إلى بلدة باجة الواقعة غربي تونس ، وقد كانت من أخصب بلادها هذه المنطقة وأوفرها حنطة وطعاماً^(١) ويقتحمها عنوة ، ويستولى عليها ، ويقتل حاكمها الموحدى على الفور . فبعث السيد أبو زيد في الحال جيشاً ، تحت إمرة أخيه السيد أبي الحسن وإلى بجاية ، لكي يعمل على إنقاذ باجة وحماية سكانها الذين عادوا إليها ، وكان الميورقي قد عاد لحصارها ، فلما علم بمقدم الموحدين ، رفع الحصار عن المدينة وسار للقاء خصومه ، وعسكر في موضع حصين بالقرب من قسنطينة ، وهناك أشرف عليه السيد أبو الحسن بجموعه ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها الموحدون ، واستولى الميورقي على معسكرهم وأسلمهم . وارتد أبو الحسن في بعض فلوله إلى بجاية وهو في أسوأ حال^(٢) .

وكانت مدينة بسكرة التي استولى عليها الميورقي من قبل قد خلعت طاعته ، وعادت إلى طاعة الموحدين ، فسار إليها يحيى ، واقتحمها عنوة ، وعاقب السكان على نكثهم ، بقطع أيدي الكثير منهم ، وقبض على عاملها الموحدى وزجه إلى السجن . وخشى أهل بونة أن يصيبهم ما أصاب أهل بسكرة ، فبعثوا إلى الميورقي بطاعتهم . ووقعت هذه الحوادث في سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) . وعاد يحيى بعد ذلك إلى المهديّة فاستقر بها بعض الوقت^(٣) .

وفي خلال ذلك كان البلاط الموحدى بمراكش يتتبع أنباء الحوادث في إفريقية بمنتهى الجزع ، ويحاول أن يجمع العدوان بالحملات المحلية المتوالية . فلما توالى فشل هذه المحاولات ، جهز الخليفة الناصر ، أوبالخرى مستشاروه من أشياخ الموحدين ، حملة كبيرة ندب لقيادتها الوزير ابن يوجان ، وسارت هذه الحملة إلى تلمسان ثم إلى بجاية ثم إلى قسنطينة ، ولكنها لم تقم بأية محاولة لمقاتلة الميورقي ، وعاد الوزير إلى تلمسان ، وهناك وصله الأمر بالنظر في أعمالها ، ثم ندب إلى ولاية فاس ، وأقام بها حتى ندبه الناصر للسير معه إلى إفريقية^(٤) .

وكان هذا التردد في مطاردة الميورقي ، راجعاً إلى اضطراب ثورة جديدة في منطقة السوس . وذلك أن دعياً من أصل أندلسي ، ينتمى إلى قبيلة جزولة ،

(١) وهي طبعاً غير باجة بالأندلس . راجع الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١٦٠ .

(٢) المعجب ص ١٧٩ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ohania. p. 113.

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٤ ، والمعجب ص ١٧٩ . هذا وتراجع خريطة إفريقية في ص ١٦٢ ، حيث وضعت بها سائر المواقع التي كانت مسرحاً لتلك المارك المتوالية .

يسمى عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن القرس ، ويعرف بالمهر وبأبي قصبة ، كما يعرف عند البربر بما معناه « ابن الجزارة » ثار بالسوس . وكان هذا الدعي من طبقة العلماء بالأندلس . وحضر ذات يوم مجلس الخليفة يعقوب المنصور وبدرت منه بعض أقوال جدلية خشي عاقبتها ، فاختنى حيناً ، ثم ظهر بعد وفاة المنصور ، في السوس في منازل جزولة ، وانتحل الإمامة ، وادعى أنه « القطحاني » الذي ورد ذكره في الحديث ، بأنه لا تقوم الساعة ، حتى يخرج رجل من قطحان ، بقود الناس ، ويملا الأرض عدلاً كما ماثت جوراً ، ومما ينسب إليه في مصير بي عبد المؤمن شعر يقول فيه :

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن علي تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعالمها ومنهى القول والغلاب للدول

وذاعت دعوة أبي قصبة في أرجاء بلاد السوس ، والتفت حوله جموع غفيرة ، فبعث إليه بلاط مراکش عدة حملات صغيرة متوالية ، كان يهزمها تباعاً ، وأخيراً اضطر الناصر أن يجهز لقتاله حملة كبيرة من الموحدين والغز وغيرهم ، وسار الموحدون إلى بلاد السوس ، وأتدروا المصامدة وغيرهم من القبائل المجاورة ، بأن الدعي يعتمد على تسامحهم وتغافلهم ، وبذلك يقوى أمره ، ولوشاءوا لقضوا عليه ، فعند ذلك تحركت ، القبائل وانضمت إلى الجيش الموحدى القادم ، في مقاتلة الدعي ، فانفض عنه معظم جموعه ، وقتل منهم من وقف إلى جانبه ، وقُبض على الدعي وقتل ، واحتز رأسه ، وأرسل إلى مراکش ، وكان مصرع أبي قصبة وانهيار ثورته ، على هذا النحو سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م)^(١) .

وكان من حوادث الأندلس في تلك الفترة أن عزل الناصر أخاه السيد أباحمد عبدالله بن المنصور عن ولاية إشبيلية ، ولكنه عاد فاستبقاه في منصبه تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك في سنة ٥٩٧ هـ . وفي أوائل هذا العام بالذات ، وقع بإشبيلية حادث مفرع هو وقوع السيل العظيم ، الذى لم يسمع بمثاه من قبل ، فاجتاح أجزاء كبيرة من سور المدينة ، ولاسيما ما بين باب طريانة وباب المؤذن ، وغمرت المياه المدينة بأسرها ، وسقط عدد كبير من دورها قيل إنه ستة آلاف ، وكان من رحمة القدر أن وقع هذا السيل ظهراً ، وكان وقوعه يوم الاثنين ١٩ من جمادى الأولى سنة ٥٩٧ هـ

(١) ابن خلدون في العبر ح ٦ ص ٢٤٦ و ٢٥٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٥ ، والمعجب ص ١٨٠ .

— ٢٥٧ —

(٢٦ مارس ١٢٠١ م) واستمر ثلاثة أيام ، ولو حدث وقوعه بالليل لغرق آلاف من أهل المدينة . واجتاح هذا السيل وادى النهر الكبير كله من قرطبة إلى إشبيلية ، وحتى ثغر قادس ، ومات من جرائه الكثيرون غرقاً . وكان من أشنع الحوادث التي شهدتها إشبيلية من عهد طويل^(١) .

— ٢ —

وكان الخليفة الناصر ، وأشياخ الموحدين ، يتأهبون في نفس الوقت لمشروع ضخم ، هو افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) . وكان استمرار يحيى ابن إسماعيل الميورقي في عدوانه ، وتفاقم أمره في إفريقية ، وفشل الحملات الموحدية المتوالية في القضاء على سلطانه ، قد حمل البلاط الموحدى على أن يفكر في افتتاح ميورقة ، والقضاء على سلطان بنى غانية فيها ، وضربهم بذلك في موطن قوتهم الأصلى ، ومصدر مواردهم وأمدادهم البحرية ، فيكون ذلك الفتح ذاته ، وسيلة لضرب سلطان يحيى الميورقي في إفريقية ، والتهديد للقضاء على حركته .

وقد سبق أن فصلنا ظروف استيلاء بنى غانية على الجزائر الشرقية ، وقيام حكمهم في ميورقة ، ومحاولة الخليفة أبى يعقوب يوسف أن يخضع عبيدهم لإسماعيل ابن غانية لسلطان الموحدين ، وما كان من إرساله سفيره علياً البربري إلى ميورقة ، ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وإخفاق البربري في مهمته ، ثم قيام علي بن إسماعيل بافتتاح بجاية ، وبداية تلك الحركة المضطربة ، وتلك الحملات الخربة المتوالية ، التي قام بها بنو غانية في إفريقية ، واستيلائهم تباعاً على معظم قواعدها .

وكان على حكم ميورقة في ذلك الوقت الذي اشتدت فيه حركة يحيى بن إسماعيل بإفريقية ، أخوه عبد الله بن إسماعيل بن غانية . وقد سبق أن أشرنا إلى الظروف التي استطاع فيها عبد الله أن ينتزع حكم ميورقة من أخيه محمد بن إسماعيل وذلك في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، واستبد عبد الله بحكم ميورقة ، كبرى الجزائر ، وازدهرت في عهده ، واستمر على رياستها طوال هذه الأعوام دون منازع . وكان عبد الله ، يتبع سياسة أبيه إسماعيل بن غانية في مسألة الدول النصرانية القريبة ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٤ . والذيل والتكلة لابن عبد الملك (الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطاني ، في ترجمة محمد بن أحمد بن تمام العنزي .

ولاسيما جنوة وبيزة ، ويعقد معها الصلات الودية ، وكان ذلك مما يساعد على رواج التجارة بين ميورقة وبين هذه الدول البحرية . وفي سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨ م) عقد عبد الله مع جمهورية جنوة معاهدة صلح وتجارة لمدة عشرين عاما ، وذلك بواسطة نيقولا لكانوتزى سفير جنوة إلى ميورقة . وكان التجار النصارى في الجزيرة ، يعيشون في دعة وطمأنينة آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وتعاون جهودهم في ترويج تجارة الصادر والوارد بين الفريقين . وكان من الواضح أنه منذ اضطربت الحصومة بين بنى غانية والموحدين ، لم يكن في وسع الجزائر أن تعتمد في تموينها ومواردها الحيوية على الأندلس العادية ، ومن ثم فقد كانت تسعى للحصول على مواردها من النصارى ، وكان هؤلاء يمدونها بالسفن والسلاح والذخائر ، مقابل الحبوب ومنتجات الجزيرة الأخرى . ومن جهة أخرى ، فقد كان النصارى يجنون ثمار هذه الصلات الودية مع ميورقة ، وذلك بامتناع عبد الله عن الإغارة على شواطئهم . على أن عبد الله كان ما يزال ينظم غاراته البحرية على شواطئ الدول التي لم يكن يرتبط معها بعهود الصداقة والمودة ، مثل فرنسا ، وكانت هذه الغارات ، توطد من مكانته لدى شعبه وتزيد في ثرائه . وبالرغم من أن عبد الله لم يكن في وسعه دائماً ، أن يمد أخاه يحيى بالسفن والجنود ، في مغامراته الإفريقية ، فإن ميورقة كانت تعتبر مع ذلك بالنسبة لبنى غانية ، مركزهم الرئيسى وموطن قوتهم الحقيقية^(١) .

كانت هذه أحوال ميورقة ، حينما وصلت غزوات يحيى بن غانية للثغور الإفريقية إلى ذروتها ، وحينما اعتزم البلاط الموحدى أن ينفذ مشروعه لغزو ميورقة ، كوسيلة لضرب بنى غانية في صميم مئوى قوتهم وسلطانهم . وكان الموحدون يرون أنه متى سقطت ميورقة في أيديهم ، فإنهم يستطيعون عندئذ أن يفرغوا لمطاردة يحيى بن غانية والقضاء على سلطانه في إفريقية ، دون أن يكون أمامه ملاذاً وملجأ أخيراً يتجه إليه .

وبذل الخليفة الناصر وأعوانه من أشياخ الموحدين جهوداً مضاعفة لإعداد حملة بحرية عظيمة توجه لغزو ميورقة . وفي تلك الأثناء ، وقبل أن يتم إعداد الحملة ، عمده عبد الله بن إسحاق بن غانية إلى مهاجمة جزيرة يابسة الواقعة جنوب

غربي ميورقة محاولا انتزاعها من الموحدين ، وكان ذلك في أوائل سنة ٥٩٧ هـ ، خلال فصل الشتاء ، حينما تكون الأساطيل الموحدية راسية في سبتة ، فقاومته السفن الموحدية المرابطة بقيادة ابن ميمون ، وانتزع ابن ميمون منه سفينتين وأحرقهما ، فارتد إلى ميورقة خائياً . ولكنه سار في العام الثاني (٥٩٨ هـ) ، وهاجم جزيرة منورقة وانتزعها من أيدي الموحدين ، وولى عليها من قبله رجلاً اسمه الزبير بن نجاح . والظاهر أن عبدالله كان قد ترامت إليه الأخبار عن مشروع الموحدين في غزو ميورقة ، فأراد أن يبادر بإبعادهم عن هذه المياه ، وتأمين ميورقة بالسيطرة على منورقة وبإسبة جناحها من الشرق والغرب .

وأخيراً تم إعداد الحملة البحرية المنشودة ، مكونة من أسطول سبتة بقيادة السيد أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومن جيش من الفرسان والرماة والرجالة ، بقيادة الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص . والتقت القوتان بئر دانية ، أقرب قواعد الأندلس البحرية إلى الجزائر . وكانت القوى البرية تتألف من ألفي ومائتي فارس ، وسبعائة من الرماة ، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة غير غزاة القطع (أي السفن) . وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن (سفينة) منها سبعون غراباً ، وثلاثون طريدة ، وخمسون مركباً كبيراً ، ومائة وخمسون قارباً من مختلف الأنواع ، وكانت الحملة مزودة بكميات كبيرة من العدد والسلاح والمخانيق والسلام ، ومختلف الأدوات ، وكذلك من الدروع والسيوف والرمح والبيضات والدرق ، والقسي ، وصناديق الشباب ، وكانت بالأخص مزودة بكميات وافرة من الطعام استعداداً لطول المقاومة أو طول الحصار . وأقلعت الحملة من بئر دانية في أواخر سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) ، فوصلت بعد أيام قليلة إلى جزيرة ياسة ، فصلوا بها الجمعة ، ثم أقلعت منها يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة (٣ سبتمبر سنة ١٢٠٣) قاصدة إلى ميورقة^(١) . ويبدو مما يقوله صاحب البيان المغرب ، أن السيد أبا العلاء ، قد انحرف أولاً بجزء من الأسطول نحو جزيرة منورقة ، وانتزعها من ابن نجاح ، وقبض عليه ، وأرسله مع بعض صحبه مصفداً إلى الحضرة ، وهناك أعلم وعلمت رأسه^(٢) . وبذلك تم تأمين جناحي الحملة الموحدية ، وتطويق ميورقة كبرى الجزائر . ثم أقبلت

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن صاحب الروض المعمار (ص ١٨٩) وهو يتفرد بها .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٦ .

السفن الموحدية إلى ميورقة واحتلت مرساها ، وأنزل العسكر المهاجم بالقرب من مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، فخرج إليهم عبد الله بن إسماعيل في جموعه ، واضطرم القتال بين الفريقين ، واستمرت المعارك بينهما سبعة أيام ، وعبد الله وجنوده يدافعون بمنتهى الشدة ويقاتلون قتال اليأس ، وأخيراً دارت عليه الدائرة فهزم وقتل ومعظم أصحابه . وأغلق المدافعون في الداخل أبواب المدينة فطوقها الرماة وغزاة البحر ، واقتحموها ، ودخلها الموحدون وبدأوا نهبها ، ودخل السيد أبو العلاء والشيخ أبو سعيد المدينة ، وأمامهما رأس عبد الله مرفوعة على قناة ، فأمر في الحال بمنع النهب ، وتأمين الناس ، وقبض على أولاد عبد الله وأهله ، فخرج الناس ، وقد آمنوا واطمأنوا ، وكُتِب في الحال بالفتح إلى الخليفة الناصر . وكان فتح ميورقة على هذا النحو في شهر ربيع الأول سنة ستمائة (شهر ديسمبر سنة ١٢٠٣ م)^(١) .

تلك هي تفاصيل الفتح الموحدى لميورقة حسبما يوردها لنا صاحب الروض المعطار ، وحسبما تقصها علينا رسالة الفتح الصادرة عن الخليفة الناصر ، والمدرجة بقلم كاتبه أبي عبد الله بن عياش . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الحملة الموحدية لفتح ميورقة كانت بقيادة الخليفة الناصر نفسه ، وأنه خرج من مدينة فاس فوصل إلى جزائر بني مزغنة ، وجهاز من هنالك الأساطيل والعساكر لفتح ميورقة ، ففتحها وانتزعها من أيدي المرابطين^(٢) . بيد أنه لا توجد أية رواية أخرى تؤيد هذا القول ، فضلاً عن أن رسالة الفتح الرسمية صريحة قاطعة في عدم صحته . ويقدم إلينا ابن خلدون إسمي قائد الحملة وهما كما تقدم السيد أبو العلاء إدريس قائد الأسطول ، والشيخ أبو سعيد بن أبي حفص قائد القوى البرية^(٣) . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن الناصر كان في الوقت الذي سارت فيه الحملة الموحدية إلى الجزائر مقياً بحضرة مراکش^(٤) .

ونذب السيد أبو العلاء لولاية الجزائر عبد الله بن طاع الله الكومي ، فكان

(١) الروض المعطار في روايته السابقة الذكر ص ١٨٩ ، وراجع الرسالة السادسة والثلاثين من رسائل من موحدية ، وهي خاصة بفتح ميورقة (ص ٢٣٥ وما بعدها) ، وكذلك روض القرطاس ص ١٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ ، ويتابعه في ذلك الأستاذ الثرد بل: Les Benou Ghains, p. 167 .

(٣) ابن خلدون في العبر ج ٦ ص ٢٤٧ .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٨ .

أول ولايتها من الموحدين ، وعين لقضاها الفقيه المحدث عبد الله بن حوط الله . ثم ولي الناصر عليها عمه السيد أبا زيد بن أبي يعقوب يوسف ، وندب ابن طاع الله لقيادة البحر .

وكان فتح الموحدين لميوزقة ضربة شديدة لبني غانية ، قضت نهائياً على سلطانهم في الجزائر ، ومن جهة أخرى فقد كان له وقع عميق لدى الممالك النصرانية القريبة ، ولاسيما مملكة أراجون المواجهة في شبه الجزيرة . وإلى هذا تشير رسالة الفتح صراحة بقولها « ولأخذ ميوزقة على صاحب أرغون وبرشلونة ، أشد من رشق النبل وأهول من وقع السيف ، وأوحش من القطع بحلول المات » . وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتبعه بنو غانية من سياسة المسالمة والمودة نحو الدول النصرانية المجاورة ، ولاسيما مملكة أراجون وجمهورية جنوة وبيزا . وكانت تجمع بين بني غانية أصحاب الجزائر وبين أراجون بالأخص فكرة مشتركة ، هي خصومة الموحدين والكفاح ضدهم . وكانت أراجون وحليفاتها من الدول النصرانية كذلك ، تنظر إلى سيادة بني غانية للجزائر بعين الإغضاء ، ما ألزم بنو غانية سياسة المودة والمسالمة . أما الآن ، وقد احتل الموحدون الجزائر ، فإنه كان لابد للدول النصرانية ، وفي مقدمتها أراجون أن تتخذ نحو الجزائر موقفاً آخر . ومن المحقق أن أراجون ومن ورائها جنوة وبيزا كانت تطمع دائماً ، إلى انزعاج الجزائر من المسلمين . وقد جاء استيلاء الموحدين على الجزائر عاملاً جديداً ، يذكى هذه الرغبة ويؤكد لها . على أن ظفر الموحدين بالاستيلاء على الجزائر ، كانت تقابله من الناحية الأخرى ، ضربة جديدة مؤلمة للموحدين في إفريقية . ذلك أن يحيى بن إسماعيل بن غانية ، كان يشعر حين ترامت إليه أنباء الحملة الموحدية ، التي سيرت إلى الجزائر ، أن مصير ميوزقة قد بت فيه ، وأنه لم يبق لبني غانية إلا أن يعملوا على توطيد أمرهم بإفريقية ، وأنه لابد لتحقيق هذه الغاية أن يسحق سلطان الموحدين نهائياً في تلك المنطقة . وكان يحيى قد ظفر عندئذ بالاستيلاء على المهديّة ، والقضاء على خصمه ابن عبد الكريم . ففكر عندئذ في الاستيلاء على تونس عاصمة إفريقية . وكانت سائر الثغور الشرقية ، وسائر القواعد الجنوبية القريبة من تونس قد سقطت في يد يحيى ، وجردت العاصمة من سائر مواردها المعتادة ، وكان إلى إفريقية السيد أبو زيد لا ينجح على قوى كافية للدفاع . ومن جهة أخرى ، فإن انشغال الموحدين في نفس

هذا الوقت بالذات ، بتسيير حملتهم الكبيرة إلى الجزائر ، كان يحول دون إرسالهم
الأمداد العاجلة إلى إفريقية . ومضى ثم فإن الظروف كلها كانت مؤاتية لمشروع
يحيى الميورقي . فاستعمل على المهدي ابن عمه على بن الغاني بن عبد الله بن محمد
أبن غانية ويعرف بالكافي . وسار في قواته وعُده صوب تونس ، وذلك في أوائل
شهر ذي الحجة سنة ٥٩٩ هـ ، ونزل بالجبل الأحمر في ظاهر تونس ، ونزل أخوه
الغازي بن إسحق بالموضع المعروف بخلق الوادي حيث يتصل البحر بالبحيرة
شرقي المدينة ، فردم المجرى الموصل بينهما وجعله أرضا يابسة ، ورتب عليه
الحرس ، وقطع بذلك سبيل القوارب الداخلة إلى المدينة والخارجة منها ، ثم تحول
إلى قبلي المدينة ، على مقربة من باب الجزيرة وردم الخندق المواجه له ، ونصب
أمام الباب المجانيق وآلات الحرب ، وضرب الميوريون حول تونس حصاراً
صارماً ، ولم يجرؤ الموحدون على الخروج من المدينة ، والاشتباك مع العدو في أية
معركة ، لقلّة عددهم ، وضآلة مواردهم . واستمر هذا الحصار المرهق أربعة أشهر .
وفي يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر سنة ستائة (١٥ ديسمبر سنة ١٢٠٣ م) ،
اقتحم يحيى في قواته البلد ، وقبض على واليها السيد أبي زيد وولديه ، وجماعة
من أشياخ الموحدين ، وثقفوا بمكان بداخل القصبية تحت حرس قوى ، وأعلن
يحيى الأمان لأهل تونس في أنفسهم وأموالهم ، ولكنه فرض عليهم غرامة قدرها
مائة ألف دينار ، قال إنها هي مقدار ما أنفق في الاستيلاء عليها ، وقسّطت هذه
الغرامة على أهل المدينة وفق أحوالهم المالية ، وعهد باقتضاؤها إلى كاتبه الأثير
ابن عصفور ، وإلى أبي بكر من عبد العزيز السكاك من أهل المدينة ، فاشتطا
في تحصيل المال ، ولحق الناس من ذلك منتهى الإرهاق والعنت ، وقتل منهم
كثير بسبب ذلك ، وانتحر إسماعيل بن عبد الرفيق المقدم على قبض مال المخزن
وغيره من الناس ، فلما علم الميورقي بذلك ، أمر برفع ما بقي من الغرامة عن
الناس ، ونودي فيهم بالأمان . وعلم الميورقي بعد ذلك أن أهل جبل نفوسة
توقفوا عن أداء الإتاوة المفروضة عليهم ، وكان أهل هذه المنطقة معظمهم من
الخوارج ، وكانوا يبغضون نير الموحدين ونير بني غانية معا ، ويثرون
من آن لآخر محافظة على استقلالهم . فخرج إليهم يحيى بنفسه ، واستصحب
معه السيد أبا زيد وزملاءه من الموحدين المعتقلين ، مبالغة في التحفظ عليهم ،
وفرض على أهل نفوسة ألف دينار . ولما انتهى من اقتضاها منهم

— ٢٦٣ —

بوسائله المروعة ، عاد إلى تونس واستقر بقصبتها^(١) .

— ٣ —

وهكذا تم ليحيى بن إسحاق الميورقي الاستيلاء على عاصمة إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية ، بعد أن سقطت جميع قواعدها الشرقية والداخلية في يد الميورقي ، سوى ثغر بجاية ، وما يليه غرباً . وكان لسقوط تونس ، وما اقترن به من أسر والها وزملائه من أشياخ الموحدين ، وقع عميق في بلاط مراکش : وكان مما يضاعف هذا الوقع ، ما يرتكبه الميورقي باستمرار من ضروب العيث والقمع والقسوة ، في مختلف القواعد التي يسيطر عليها . وكان الموحدون ، بعد أن ظفروا بالاستيلاء على ميورقة ، وجردوا بني غانية بذلك من ملاذهم ومركز سلطانهم في الأندلس ، يرون أن الوقت قد حان للقضاء على سلطانهم بإفريقية ، وتحريرها من نيرهم ومن عيثرهم ، واسترداد سلطان الموحدين ، والعمل على توطيد هيبتهم في تلك الأنحاء . بيد أن الموحدين كانه شعرون في نفس الوقت بقداحة هذه المهمة ، ومن ثم فإن الخليفة الناصر حينما شاور الأشياخ في ذلك الأمر ، رأى معظمهم أن يكتفى بمسألة ابن غانية والاتفاق معه ، ولكن أبا محمد بن الشيخ أبي حفص أشار بوجوب السير إلى إفريقية ، ومحاربة ابن غانية ، ووافق الناصر على هذا الرأي .

وكان الناصر في الوقت الذي سار فيه الموحدون لفتح ميورقة ، أعنى في سنة ستائة ، يقيم بحضرة مراکش ، ويعنى بشئون الأندلس الإدارية والعسكرية ، وكان من أهم ما عنى بذلك إرسال الأوامر المؤكدة إلى سائر ولاة الأندلس بالنظر في صنع الآلات الحربية . ففي شهر المحرم من هذا العام ، وصل الأمر إلى إشبيلية بضرب الآلات وشراء الدروع المحكمة . وفي شهر ربيع الأول ندب الناصر عمه السيد أبا إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن لولاية إشبيلية ، مكان الشيخ أبي عبد الله ابن يحيى ، الذي نقل إلى ولاية بسطة . وولّى السيد أبا محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن على مدينة شلب وبلاد غربي الأندلس ، والشيخ أبا يحيى بن أبي سنان على مدينة بطليوس وجهاتها . وندب أبا عبد الله بن عبد السلام الكوي لقيادة أسطول ستة . وفي نفس العام وصل إبراهيم بن الفخار اليهودي رسول

(١) رحلة الصحابي ص ٣٥٤ - ٣٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ و ٢٤٨ .

ألقونسو التاسع ملك قشتالة ووزيره ، إلى مراکش ، يطلب تجديد المهادنة . فلما ترامت الأنباء بسقوط تونس في يد الميورقي ، واشتداد عيئه وبطشه بأنحاء إفريقية ، وعقد الخليفة الناصر عزمه على محاربته والقضاء على سلطانه ، أعدت حملة موحدية جديدة للسير إلى إفريقية ، وصدرت الأوامر إلى الأسطول بالسير من سبتة إلى مياه إفريقية ، وعين لقيادة وحداته أبو يحيى بن أبي زكريا الهزرجي . وكان يحيى الميورقي في ذلك الوقت بالذات ، ما يزال ينزل ضرباته بمختلف أنحاء إفريقية ، وكان بعد أن قام بإخماد ثورة أهل جبل نفوسة ، قد سار إلى ناحية طرّة قاعدة بلاد نفزاوة لإخماد ثورتهم أيضاً ، فاقتحم أحياءهم ، واشتد في معاقبتهم ، وقتل جنده كثيراً منهم ، وأضرمو النار في دورهم ، ثم سار إلى حمة مطاطة ، ففعل بأهلها مثل ذلك ، وضجت هذه الأنحاء كلها من سفكه وشديد عيئه^(١) .

هذا وبينما الميورقي سادر في هذا العيث والسفك ، إذ باغته الأنباء باقتراب القوات الموحدية ، وعلى رأسها الخليفة الناصر . وكان الناصر قد غادر مراکش على رأس قواته في أواسط جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ (فبراير سنة ١٢٠٥ م) وسار إلى رباط الفتح قاعدة تجمع الجيوش الموحدية . ثم غادر رباط الفتح في قواته متجهاً صوب إفريقية ، وكانت وحدات الأسطول الموحدي ، تسير في نفس الوقت بحذاء الشاطئ ، صوب بجاية وتونس ، بقيادة أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجي . فلما علم الميورقي باقتراب الأسطول الموحدي من تونس ، ووصول الجيش الموحدي إلى بجاية ، وأدرك أنه لا قبل له بالصمود أمام هذه القوى الحارقة جمع أمواله وذخائره ، وأرسلها إلى المهديّة ، لتكون تحت حراسة ابن غمه على ابن الغاني ، ثم بادر بإخلاء تونس ، وارتد في قواته جنوباً ، فوصل إلى القيروان وأقام بها أياماً ، وهو يجد في الأهبة ، ثم سار إلى قفصة ، وهناك استدعى طوائف العربان ، وبذل لهم الأموال والوعود ، وأخذ موافقتهم ورهائهم على مناصرته والقتال معه . ووقف الموحدون على انسحاب الميورقي من تونس ، فزلتها القوات البحرية الموحدية ، وقتلوا كل من وجدوه بها من أتباع الميورقي ، وأصدر قائد الأسطول الأمان لأهلها . ولما علم الناصر باستيلاء قواته على تونس ، وفرار الميورقي في قواته نحو الجنوب ، سار في أثره

(١) رحلة التجاني ص ٣٥٦ .

صوب قفصة . فسار الميورقي في قواته إلى جبل دمر ، وتحصن به . وسار الناصر إلى قفصة ، فأقام بها أياما ، ثم توجه إلى قابس وندب لها عاملا من قبله . وكان يحيي الميورقي قد قرر أن يركز مقاومته الأخيرة في المهدية ، فضايف تحصيناتها ، وشحنها بطائفة من قواته المختارة ، ووكل الدفاع عنها لابن عمه علي بن الغازي . واستعد هو للقاء القوات الموحدية بمكانه الحصين من جبل دمر ، وقرر الموحدون من جهة أخرى مطاردة الميورقي في مركزى مقاومته في وقت واحد ، فسار الناصر بنفسه لمحاصرة المهدية ، وطوقها بقوات كثيفة من الموحدين والعرب ، ونصب عليها المجانيق ، وسار إليها الأسطول الموحدى ليحصرها من ناحية البحر . وبعث الناصر في نفس الوقت جانباً من القوات الموحدية يحتوى على أربعة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص لمقاتلة الميورقي في جبل دمر ، فلما أشرف الموحدون على محلته ، وشهد ضخامة عددهم ، أراد الفرار بقواته في البداية ، ولكن ضباطه شجعوه على الثبات وخوض المعركة ، فنشبت بين الفريقين فوق جبل صغير يعرف برأس تاجراً ، على مقربة من وادى مجسر ، جنوب شرقي قابس^(١) معركة دموية عنيفة ، استمرت نحو ثلاث ساعات ودارت فيها الدائرة على الميورقي وأصحابه ، فقتل وأسر معظمهم ، وكان بين القتلى أخوه جبارة ، وكتبه علي بن اللمطي ، وعامله الفتح بن محمد ؛ وفر يحيى مع جماعة قليلة من صحبه ، وكان قد ترك والده وأهله في موضع بعيد عن مكان المعركة فصحبهم في فراره ، وأنقذوا بذلك من الأسر ؛ واستطاع الشيخ أبو محمد القائد المظفر أن يتخذ السيد أبا زيد وأصحابه أحياء من أسر الميورقي ، وكان الموكل بالسيد أبي زيد علي وشك أن يجهز عليه ، واستولى الموحدون على محلة الميورقي ، ورايته العباسية السوداء ، وسائر ما كان بالحلة من الأموال والأسلاب والإبل ، وكانت غنيمة وافرة تحتوى على ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والآلات ، وحمل ذلك كله إلى الخليفة الناصر ، وهو تحت أسوار المهدية ، وكان بين الأسرى الأمين الموكل بثقاف السيد أبي زيد ، فشهر به فوق جبل عال ، ويده الراية السوداء ؛ ووقعت هذه الهزيمة الساحقة بالميورقي بجبل تاجراً في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م)^(٢) .

(١) تراجع خريطة إفريقية المنشورة في ص ١٦٣ ففيها بيان لمواقع هذه المعركة .
(٢) رحلة التجاني ص ٣٥٧ - ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٢٣ و ١٢٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ ، وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ohania, p. 129

وكان الموحدون في تلك الأثناء يضاعفون جهودهم للضغط على المهديّة ، وإرغامها على التسليم . وكان يحيى الميورقي ، توقعاً لهذا الحصار ، قد بالغ في اتخاذ الأهبة ، وشحن المهديّة بالرجال والمؤن . وكان حاكم المدينة على بن الغازي جندياً جريئاً ، ومدافعاً قوى الشكيمة ، فبذل جهوداً عنيفة لرد المحاصرين ، وخرج لقتالهم عدة مرات ، وفي كل مرة يوقع بهم ويحرق مجانية بهم وآلاتهم ويسبب لهم خسائر شديدة ، واضطر الموحدون إزاء ذلك إلى الإكثار من المجانيق والآلات ، وإعداد السلام والأبراج العالية للإشراف على المدينة ، وضاعفة الحشود حولها ، واستمر الأمر على هذا المتوال ، حتى وقعت معركة رأس تاجراً ، وهزم يحيى وألجئ إلى الفرار ، وحمل الموحدون الغنائم والعلم الأسود إلى الناصر تحت أسوار المهديّة ، وقاموا بتبريز الغنائم ، وتوزيعها بمشهد ظاهر من أهل المدينة المحصورة . ومع ذلك فإن بن الغازي وصحبه لبثوا حيناً غير مؤمنين بهزيمة يحيى ، واستمرت المعارك بينهم وبين المحاصرين وقتاً ، وجمع الناصر المجانيق على جهة واحدة من السور ، وشدّد في ضرب المدينة ، فكثّر القتل والجرح من أهلها ، واضطرب بن الغازي وصحبه أخيراً إلى طلب الأمان والتسليم ، على أن يُسمح لهم باللاحق بيحيى ، فوافق الناصر على طلبهم ، وسامت المدينة للناصر في اليوم السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٠٢ هـ (١١ يناير سنة ١٢٠٦ م) وغادر على بن الغازي - وكان الموحدون يسمونه بالحاج الكافر - المدينة مع صحبه ، ونزل بموضع قريب منها بنية اللحاق بيحيى ، ولكنه عاد في اليوم التالي ، فعدل عن هذه النية ، وبعث إلى الناصر يعلن طاعته ودخوله في الدعوة الموحدية ، فاغتنب الناصر بتوجيهه ، واستدعاه إليه ، وغمره بعطفه وإكرامه ، وصحبه معه فيما بعد إلى مراكش ، ولما عبر الناصر البحر بعد ذلك إلى الأندلس بقصد الجهاد ، سار على معه ، واشترك مع الموحدين في معركة العقاب ، وقتل ضمن من قتل منهم (١) .

وفي يوم عشرين من جمادى الآخرة ، غادر الناصر المهديّة ، بعد أن عفا عن سائر أهلها ، من المقاتلين وغيرهم ، وأمر بترميم أسوارها ، وتنظيم أمورها ، وعين لها والياً هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن يغمور الهنتاني ، وعين لولاية طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع . ثم سار إلى تونس ، ومنها أصدر كتب الفتح ، واستقر بها بقية عام اثنين وسبائة ، ومعظم العام التالي .

(١) رحلة التجاني ص ٢٥٨ و ٢٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٣ و ١٥٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٢ .

- ٢٦٧ -

- ٤ -

وهكذا انتهت هذه المعركة العنيفة الشاملة، بسحق يحيى بن إسحاق الميورقي ، وسحق سلطان بنى غانية فى إفريقيا ، واسترداد الموحدىن لسلطانهم وهيتهم ، فى تلك المناطق الغنية الآهلة . وكان قد مضى نحو ربيع قرن ، منذ نفذ بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، مشروعاتهم فى مهاجمة إفريقيا ، واتخاذها مسرحاً للصراع ضد الموحدىن خصوم الدولة المرابطية والمنزعين لثرائها ، ومنذ استولى عميدهم على بن إسحاق بن غانية الميورقي ، على ثغر بجاية فى سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) فى أوائل عهد الخليفة المنصور . وقد تتبعنا حركات بنى غانية ومغامراتهم فى إفريقية من ذلك التاريخ ، وأنينا على فتوحاتهم المتوالية للقواعد والثغور الإفريقية ، وعلى ما نشب بينهم وبين الموحدىن ، فى مختلف المواطن والتواريخ ، من معارك مريبة مستمرة . ولقد كان بنو غانية رجال حرب وسياسة معا ، ييغون افتتاح الأقطار ، وبسط السيادة والسلطان على ما يفتتحونه من الأراضي ، ولكن كانت تحفزهم إلى خوض هذه المعارك مع الموحدىن مشاعر ومنل خاصة ، فقد كانت تجثم وراء هذه المعارك والفتوحات المتوالية ، إلى جانب شهوة السلطان والملاك ، رغبة مضطربة فى تقويض أسس الدعوة الموحدية ، والقضاء على سلطان الموحدىن . وكانوا يرون الدعوة الموحدية ، دعوة ختل وخداع ، ويعتبرون الموحدىن غاصبين آثمىن ، استولوا بغير حق ولا سند شرعى ، على تراث الدولة المرابطية غدرأ وظلما ، ويعتبرون المرابطين سادتهم وحماهم الأوائل ، وبنى قبيلهم وجلدتهم ، مجاهدين شهداء ، يجب الانتقام لهم ، والانتصاف لحقهم المغصوب .

كانت هذه العواطف والمثل هى التى تحرك بنى غانية فى البداية إلى شهر صراعهم ضد الموحدىن فى إفريقية ، ولكنهم بعدما تحقق لهم الظفر فى ذلك الصراع ، وبعد أن استولوا على معظم القواعد والثغور الإفريقية ، ونعموا بالملك والسلطان ، وامتلاأت أيديهم من الأموال والغنائم ، تحولوا إلى فئة من المغامرين ، تقصد قبل كل شىء إلى تحقيق الغنم والسلطان بأى الوسائل ، وتضائل لون المعركة المذهبي والمثالى شيئاً فشيئاً ، واستحال إلى صراع مادى على امتلاك تلك المنطقة الغنية الآهلة - إفريقيا - وانتزاعها من أيدي الموحدىن ، لتغزو غنما لبنى غانية . وقد أسفر هذا الصراع عن تحقيق أمنية بنى غانية كاملة ، واستطاع

يحيى بن غانية ، بعد فترة قليلة من مصرع أخيه على بن غانية ، أن يفتح سائر القواعد والثغور الإفريقية - القيروان وسوسة والمهدية وصفاقس وقفصة وبلاد الجريد ، وجبل نفوسة وطرابلس وغيرها ، وانتهى أخيراً بأن افتتح تونس ذاتها ، وتغلب على خصومه من الغز في المنطقة الشرقية ، وبحق سائر الحملات الموحدية التي وجهت لقتاله ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية سوى بجاية ، وما يليها من الشاطئ .

على أن هذه المملكة العظيمة ، التي استطاع يحيى بن غانية أن يسيطر عليها سلطانه ، لم تكن وحدة مباسكة متناسقة ، فقد كان سكانها يتألفون من عناصر مختلفة متنافرة ، من العرب والبربر ، وكان من بينها في الجنوب في جبل نفوسة ، وما يليه ، طوائف من الخوارج لاتدين بالولاء لأحد . ولم يكن يحيى بن غانية بالرغم من براعته وبسالته كجندى وقائد ، يتصف بشيء من المقدرة الإدارية والنظامية ، ولم يستطع بالرغم من ظفوره على خصومه في معظم المعارك التي خاضها ، أن ينشئ في البلاد التي افتتحها أية نوع من الحكومة المنظمة ، بل كان يجرى في حكمها على نوع من الارتجال الخطر ، وكانت أساليبه في الحكم هي أساليب الطاغية المطلق ، أعنى حكم عسف وهوى ، لا يعرف معنى للحق والعدل ، فلم يكن ثمة في ظله ضمان للنفس أو الأموال أو الحرم ، بل كان يتميز قبل كل شيء بالقتل والغصب واستباحة الحرم ، وعلى الحملة ، فلم تكن حكومة الميورقي ، وعماله في تلك الأقطار ، سوى حكومة عصابات ناهية تعتمد في تدعيم سلطانه على الإرهاب المطبق . وكان يحيى لا يدخر وسعاً في استلاب المال بكافة الوسائل ، ينفق منه على حملاته ومشاريعه الحربية التي لا تنتهى ، ويبدل الوفير لأحلافه من طوائف الإعراب القلّيب الذين لا يحبوهم جشع . وقد رأينا ما كان من بالغ جشعه واشتطاطه في فرض الغرامات على أهل تونس ، وجبل نفوسة ، وما اقترن باقتضائها من رائع السفك والتقتيل .

وقد كان حريّاً يمثل هذا الحكم أن يثير بغض سائر الحكوميين ومقتهم وأن يحفزهم إلى ترقب انهياره والخلاص منه . وهكذا كان سلطان بنى غانية ، يقوم على بركان من البغض الخطر ، الذي لا يطفئ منه أى عطف أو ولاء . وبالرغم من أن حكم الموحدين لإفريقية لم يكن حكماً مثالياً ، فقد كان على الأقل حكماً نظامياً ، في معنى من المعاني ، وكان بعيداً عن مثل هذه القذائع ، التي كانت تصم حكم

- ٢٦٩ -

بنى غانية باستمرار ، ومن ثم فإنه لم يكن غريباً أن يتوق أهل المدن الإفريقية إلى عودة الحكم الموحدى ، وأن يستقبلوا الجيوش الموحدية بالترحيب والرضى ، وأن يتنهجوا لسقوط الميورق وانهار سلطانه .

تلك هى الظروف والعوامل التى اجتمعت لتقوض سلطان بنى غانية فى إفريقية ، ولتحول انتصارات يحيى الميورق وفتوحاته ، إلى حملات ناهية غير مستقرة الدعائم ، ولتجعل من حكمه لتلك المملكة الغنية الشاسعة ، حكم عصابة مغامرة ، ولتحمل إليه فى النهاية عوامل الانهيار والسقوط .

على أن يحيى الميورق ، بالرغم من هزيمته الساحقة فى جبل تاجرا ، ومن فقدته لأمواله وعتاده ، ومعظم صحبه ، وفراره فى فلوله شريداً إلى الصحراء الجنوبية ، لم ييأس مع ذلك ، ولم تتكسر نفسه الوثابة ، ولم تحب قواه المعنوية ، ولم يعتبرها كلمة الفصل النهائية ، فى معركته مع الموحدين ، وسوف نراه مجاً قريب ينزل إلى ميدان النضال والصراع مرة أخرى ، مزوداً بقوى جديدة ، وآمال جديدة .

- ٥ -

كان أهم ما عنى به الناصر خلال إقامته بتونس ، هو أن يتخذ كل إجراء ممكن ، لتأمين إفريقية ، وتوطيد سلطان الموحدين بها ، والحيلولة دون قيام أمر بنى غانية مرة أخرى . وكان يحيى الميورق على أثر هزيمته الساحقة فى موقعة تاجرا ، قد فر فى فلوله حسباً تقدم إلى الواحات الجنوبية ، بيد أنه لم يكن ثمة ما يدل على أنه قد سحق بصورة نهائية . ومن جهة أخرى فقد كانت توجد ثمة طوائف أخرى من البربر والأعراب فى الجهات الجنوبية ، دائبة الشغب والعصيان . فى شهر صفر سنة ٦٠٣ هـ ، وجه الناصر وهو ما يزال بتونس حملة موحدية جديدة ، تحت إمرة أخيه السيد أبى إسحق ، إلى الأطراف الجنوبية لاستئصال أهل الشر والفساد، فسارت هذه الحملة ، وهى تنقى آثار الأشقياء ، شرقاً وغرباً ، حتى وصلت إلى أحواز طرابلس ، وقامت بردع بنى دمر ، ومطماطة ، ووصلت إلى آخر جبال نفوسة ، وهى تعمل على مطاردة العناصر المشاغبة وسمقتها ، ثم عادت إلى تونس بعد أن قامت بتأدية مهمتها ، دون أن تلقى معارضة أو مقاومة^(١) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٢ و ٢٢٥ .

على أن أنجع إجراء اتخذته الناصر لتأمين إفريقيا هو إسناده ولايتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاني ، وهو الظافر في معركة تاجرا . وكان أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين ، وأعلام مكانة ، وأشد هم نفوذاً لدى الخليفة . وكان يمت إلى الخليفة بصلة النسب الوثيق ، إذ كان متزوجاً أخته ابنة الخليفة المنصور : وكان الناصر يثق بحكمته ، وسديد رأيه ووافر مقدرته . وقد اعتلر أبو محمد بادى ذى بدء عن قبول هذا المنصب ، وشعر أنه نوع من الإبعاد له عن البلاط ، والمشاركة في الحليل من الشئون ، فبعث الناصر إليه ابنه وولى عهده الفتى يوسف ، ليقنعه بالقبول : ويفصل لنا التجاني في رحلته ، ما قاله ولى العهد للشيخ ، وما نوه به من أهمية إفريقية ، وماضحى به الموحلون في سبلها من المال والرجال ، وأن الخليفة لم يجد عن اختيار الشيخ معدلاً ، وقد أكبر الشيخ حركة الخليفة ومقدم ولى عهده ، فأبدى قبوله لولاية إفريقية ، بشروط خلاصتها أنه لا يبقى في منصبه إلا بقدر ما تصاح أحوال إفريقية ، وينتفع خطر الميورقي عنها ، وهو يقدر لذلك ثلاث سنين ، وأن يختار من قوات الجيش من يرى بقاءهم معه ، وألا يسئل عن تصرفاته كائنة ما كانت ، وأن يُخير في أمر الولاة الذين اختارهم الخليفة لبلاد إفريقية ، فيبقى من يشاء ويعزل من يشاء ، فقبل الناصر كل شروطه . ثم أزمع الرحلة إلى المغرب ، فغادر تونس في السابع من شهر شوال سنة ٦٠٣ هـ ، وصحبه الشيخ أبو محمد مدى ثلاثة أيام . وحدث عند خروج الناصر أن مثل بين يديه أهل تونس وأبلوا له خوفهم ، من أن يعود الميورقي إلى عدوانه ، بعد سفره ، فاستدعى الناصر أعيانهم ، وطمأنهم بوجود الشيخ أبي محمد على رأس الولاية ، وأنه آثرهم بوجوده رغم شدة حاجته إليه ، فاطمأن الناس لقوله واستبشروا بولاية الشيخ^(١) .

وسار الناصر أولاً إلى تلمسان ، فوصل إليها في أوائل شهر ذى الحجة ، واستقر بها وقتاً ، وأنفذ منها الأوامر إلى ولاية إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبسطة وألمرية ومرسية ، لموافاته مع أتباعهم : وكان عند خروجه إلى غزوته في إفريقية ، قد أمر بعزل السيد أبي إسحق عن ولاية إشبيلية ، وقدم عليها أخاه السيد أبا موسى . وقضى أيام عيد النحر بتلمسان ، وبقي بها حتى نهاية ذى الحجة ، ثم غادرها إلى مدينة فاس ، ونزل بها في أوائل شهر المحرم سنة ٦٠٤ هـ ، واستأنف بها النظر في

(١) رحلة التجاني ص ٣٦١ و ٣٦٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

الأعمال ، وشكا إليه أهل فاس من مظالم عاملهم أبي الحسن بن أبي بكر ، كما شكا إليه أهل مكناسة من مظالم عاملهم أبي الربيع بن أبي عمران ، فأمر بالقبض عليهما ، واستصفاء أموالهما . ثم رحل إلى مكناسة ، ونزل بها في صفر ، وأصابته هنالك وعكة ، يبدو أنها كانت من أثر مرض وبائي فشا ببلاد الأندلس وانتقل إلى العدوة . فلما تماثل للشفاء ، غادر مكناسة إلى رباط الفتح ، فوصل إليها في شهر ربيع الأول ، ثم رحل منها مباشرة ، إلى مراكش ، فوصلها بعد أيام قلائل^(١) . وماكاد الناصر يستريح من وعاء السفر ، حتى عاد إلى النظر في الأعمال السلطانية ، فقدم أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد على الأشغال بالعلوتين المغرب والأندلس : وكان أبو سعيد بن جامع متولياً للوزارة ، فبقى على ما كان عليه ، وكانت تربطه بعبد العزيز بن أبي زيد روابط الصداقة . ووصل معظم العمال مع أتباعهم وكتابهم ، وفقاً للأمر الصادر بذلك ، وأخذ في تصفح أعمالهم ومراجعتها ، وكان ممن وصل من العمال بالأندلس ، يوسف بن عمرو الكاتب ومؤرخ الخليفة المنصور ، وكان يتولى النظر على بعض الأشغال الخزنية والسهام السلطانية ، وكان قد لحقت بتصرفاته بعض الريب ، فأكاد يقترب من الحضرة حتى أحيط بأحواله ومتاعه وقبض عليه وثقف ، ثم فتحت أحواله وأتمنته بحضور الشهود وروجعت ، فلم يوجد بينها شيء مما يدينه ، فأمر الخليفة بإطلاق سراحه ، ورد ماله ومتاعه إليه ، وكان مما شفع له في ذلك عند الناصر ، كتابه الذي ألّفه في محاسن والده المنصور^(٢) .

وفي هذا العام توفي السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وإلى بجاية ، وكان قد قام بتجديدها عقب الحريق الذي أصابها وخرب كثيراً من ربوعها . وفي العام التالي أعنى سنة خمس ومائة أقال السيد أبو الحسن بن عمر وإلى تلمسان لمرضه وعجزه عن ضبط الأمور ، واضطراب قبائل زناتة في تلك المنطقة ، وعين مكانه في الولاية السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة ، فقدم إلى تلمسان ومعه عسكر من الموحدنين ليستعين بهم في ضبط الأمن والسكينة في تلك المنطقة . وفي تلك الأثناء كانت الحوادث في إفريقية قد عادت إلى اضطرابها ، وعاد يحيى الميورقي إلى استئناف نشاطه ومغامراته . وكان مذ لحقت به

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، والبيان المغرب ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

الجزيرة الساحقة ، بجبل تاجرا ، وارتد بقلوله إلى الجنوب ، يرقب القرص للانتقام واسترداد شيء من سلطانه الضائع . وكان ما يزال يلتف حوله بعض طوائف من حلفائه الأعراب ، الذين بقوا إلى جانبه بالرغم من محنته . وقد أشرنا من قبل غير مرة إلى الدور الذي كانت تقوم به طوائف العرب في أرجاء إفريقية ، من احترام الحرب ، والتقلب في محالفة مختلف الجهات . وكان بنو غانية يعتمدون بالأخص على معاونة العرب في سائر مشاريعهم الحربية . وكان يحيى الميورقي يجمع حوله كثيراً من حشودهم ، ويأسرهم بوافر بذله ، وإطلاق أيديهم كلما سنحت القرص ، في أعمال السلب والنهب . وكذلك كان الموحدون يعتمدون على بعض طوائف العرب في تزويد جيوشهم بفرق المرتزقة . فلما حلت الهزيمة ببجي وتحطم سلطانه ، تركه كثير من حلفائه العرب السابقين ، وانضموا إلى جانب الموحدين الظافرين ، وكان من هؤلاء بنو مرداس وبنو عوف من بطون بني سليم ، وكانت أحياءهم تقع في المنطقة الممتدة من قابس نحو بونة ، أما بنو زغبة فقد كانوا أصلاً من خصوم بني غانية ، ولم ينقطعوا عن محاربتهم قط ، وكانوا دائماً إلى جانب الموحدين ، ثم تحالفوا بعد ذلك مع بربر زناته الضاربين في المغرب الأوسط ، واستمرت المصادمات بينهم وبين بني غانية . بيد أن يحيى استطاع بالرغم من محنته أن يستبق إلى جانبه بالأخص ، حشوداً كبيرة من رياح وسليم ، ومن الزواودة من بطون رياح ، وشيوخهم محمد بن مسعود الباط لم يفارقه في ضرائه .

فلما غادر الخليفة الناصر ، تونس ، وسار في معظم قواته صوب المغرب ، في أواخر سنة ٦٠٣ هـ ، أخذ يحيى الميورقي يتأهب للنهوض والحركة مرة أخرى ، ثم سار على رأس جموعه نحو الشمال ، وهو يعيث حياً حل ، وكان الشيخ أبو محمد الحفصي وإلى إفريقية ساهراً ، يرقب عن طريق عيونه حركات الميورقي ، فلما ترامت إليه الأخبار بتحركه ، خرج في جيش من الموحدين والعرب ، من بني عوف وسليم ومرداس ، وسار توا للقاءه . والتقى الفريقان في منطقة تيشة على ضفة وادي شبرو ، واقتتل الفريقان بشدة وعنف ، واستمرت المعركة طول اليوم ، وأسفرت في النهاية عن ظفر الموحدين وهزيمة المرابطين الميورقيين ومن معهم من العرب ، فارتد يحيى في قلوله وهو جريح ، والموحدون في أثره ، ولكنه استطاع أن يلحق بالصحراء في اتجاه طرابلس ، واستولى الموحدون على

محلته وسائر عتاده وأسلابه ومتاعه ، وكانت غنيمة وافرة ، وتمت هذه الهزيمة على يحيى الميورقي في ٣٠ ربيع الأول سنة ٨٦٠٤ (٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧ م) . ورجع أبو محمد إلى تونس مكلا بغار الظفر ، وكتب إلى الناصر بالفتح ، واستنجزه وعده في الإقالة من منصبه ، فبعث إليه الخليفة يشكره ويعتذر له بانشغاله بشئون المغرب ، ويرجوه الاستمرار في النظر ، وبعث إليه بالمال والخيل والكسب للإتفاق والعطاء ، وبلغ ما أرسله من المال وحده مائتي ألف دينار^(١) .

على أن هذه الهزيمة الثانية لم تفت في عضد يحيى بن غانية ، ولم تحمد المدينة عرم التوثب والنضال ، فجمع أشنات قواته مرة أخرى ، ورأى تلك المرة ، تجنباً للصدام مع أبي محمد ، وتفادياً لضربات القاصمة ، أن يتجه نحو المغرب ، فسار في جموعه من المرابطين وطوائف العرب ، متجهاً صوب الجنوب الغربي ، وهو يبعث قتلاً ونهباً أينما حل ، وتحالف مع بطون زناتة الضاربة في تلك الأنحاء ، واستمر في سيره حتى وصل إلى واحات بجلماسة ، ثم هاجم بجلماسة واقتحمها ، ونهبها ، وفرق الغنائم في أصحابه ، وكانت وفيرة ، فانتعشت نفوسهم . وكان وصول الميورقي على هذا النحو إلى أعماق المغرب ، واقترابه من العاصمة الموحدية ، مثار الدهشة والروع بين الموحدين ، ونهض الشيخ أبو محمد في قواته مرة أخرى للقاء الميورقي عند العود ، وبعث إلى والي تلمسان السيد أبي عمران موسى يحلّره من مفاجآت الميورقي ، وأن يتجنب لقاءه ، وكان السيد أبو عمران قد خرج من تلمسان بجوس بين قبائل زناتة الضاربة في جنوبها ، يسترضيهم ، ويستميلهم إلى أداء الجبايات ، والزام الطاعة والسكينة . وكان بين قوات الميورقي كثير من بطون زناتة ، الخوارج على طاعة الموحدين ، فاتصل بهم زملاؤهم زعماء زناتة المقيمين في جنوبي تلمسان ، وعرفوا الميورقي بظروف السيد أبي عمران ، وعدم استعداده وضعف قواته ، وابتعاده عن مدينته المحصنة ، فسار الميورقي نحو الشمال حتى اقترب من جنوبي تلمسان . وعلم السيد أبو عمران

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ . وقد جاء في « البر » أن مبلغ ما أرسله الخليفة من مال كان « مائة ألف ألف دينار ثنتان » . ومعنى ذلك أن المال بلغت مائة مليون دينار . وهذا رقم يصعب تصديقه ، ولا يتفق بأى حال مع تقديرات العصر وموارده . وربما كان هناك تحريف في النص .

بمقدمه وتردد وقتاً في لقائه . ولكن الميورقي لم يلبث أن فاجأه بجموعه من المرابطين والعرب . واضطر السيد أن يلقاه في قواته القليلة ، وتكاثر المرابطون والعرب على القوات الموحدية ، وفتكوا بها ، وصعد السيد أبو عمران ومن معه ، فقتلوا جميعاً ، وأسر بعض بني السيد ، والكاتب أبو الحسن بن عياش ، وبعض طلبة تلمسان ، واستولى الميورقي على المحلة الموحدية وسائر ما فيها من العتاد والسلاح والخيول ، واقتحمت مدينة تاهرت ونهبت وخربت حتى غدت أطلالاً (٦٠٥هـ - ١٢٠٩م) ، وانتشرت جنود الميورقي من المرابطين والعرب في أحواز تلمسان ونهبوها ، وانتسفوا زروعها ، فارتاع أهل المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، وهم يتوقعون أسوأ مصير ، وبادر السيد أبو زكريا يحيى والى فاس في قوة من الموحدين ، فوصل مسرعاً إلى تلمسان ، وطعن أهلها وسكن روعهم . وأمر الناصر في نفس الوقت بتجهيز حملة كبيرة من قوات مختارة ، زودت بوافر العدد والأقوات ، وعين لولاية تلمسان الوزير أبا زيد بن يوجان ، وقدمه على العسكر ، فسار ابن يوجان في قواته إلى تلمسان ، وعلم يحيى الميورقي بهذه الاستعدادات الضخمة كلها ، فغادر منطقة تاهرت في قواته ، وقصد إلى الصحراء متجهاً نحو طرابلس ، ومعه محمد بن مسعود شيخ الزاودة ، وطوائف رياح وسليم وغيرهم^(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اعزم يحيى بن غانية أن يستأنف غاراته . وكانت نفسه قد قويت بما أحرز من نصر في تاهرت ، وانتعشت جموعه لما أحرزت من المال والغنائم ، وكان حلفاؤه العرب من جهة أخرى يتوقون إلى استئناف العيث والنهب ، وهو قوام أطباعهم ، ومورد عيشهم ، وقد تضخم جيش يحيى بما انضم إليه من طوائف جديدة من الغز والعرب ، جاءت لتبحث عن طالعها ، ولتغنم فرص الكسب ، وكان من هؤلاء رياح وزغبة وعوف ودباب ونعات وغيرهم ، هذا إلى الزاودة وشيوخهم محمد بن مسعود . وكان يحيى بنوى هذه المرة أن يعود إلى مهاجمة أراضي إفريقية ذاتها . ولم تكن نيات التأثير بخافية على أبي محمد بن أبي حفص والى إفريقية اليقظ الحازم . فبادر بحشد قواته ، معتزماً أن يبادر المبارقة وحلفاءهم قبل أن يخترقوا إفريقية ، وخرج من تونس

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٩ و ٢٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ و ٢٧٨ .
وراسع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania p. 148 & 149 .

سنة ست وستائة ، في جيش كثيف وافر العدة ، وسار جنوبا نحو قابس ، ثم انجه نحو جبل نفوسة ، حيث كان يحتشد المرابطون وحلفاؤهم العرب . والتقى الفريقان في موضع من جبل نفوسة ، وأقام أبو محمد محله مزودة بالقسايط والأبنية ، حتى لا تكون ثمة أية فكرة في التراجع . ثم اشتبك الفريقان في معركة عنيفة دامية ، فانكشفت ميسرة الموحدين في البداية ، وولى من كان بها من الغز والأعراب منهزمين ، وثبت الشيخ أبو محمد في القاب مع الموحدين والحفاظ ، وانحازت إليه بعض طوائف من بني عوف وبني سليم ، واستمر القتال طول اليوم على أشده ، وأسفر في النهاية عن هزيمة المرابطين وحلفائهم ، وطارد الموحدون الجيش المنهزم ، وأمعنوا فيه قتلا وأسرأ ، ولم يتقدم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، واستولى الموحدون على محلة الميورقي ، وسائر ما بها من الأسلاب والغنائم ، واستولوا كذلك على ضعائن العرب وغنائمهم التي كانوا يحتفظون بها ، وذكر ابن خلدون نقلا عن ابن نجيل كاتب أبي محمد أن أحمال الغنائم في هذه الموقعة بلغت ثمانية عشر ألفا ، وكان بين القتلى محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وابن عمه حركات بن أبي الشيخ ، وشيخ بني قرة ، وشيخ مغراوة ، ومحمد بن الغازي ابن غانية ، وكثيرون من أنجاد بني رياح وبني هلال . وكانت ضربة ساحقة ليحيى ابن غانية ، وحاقاته ، تضارع في عنفها وأهمية نتائجها ضربة جبل تاجر ، وفر يحيى في قل من صحبه ، وقد هدته النكبة ، وأوقعت في قلبه اليأس ، وارتد أبو محمد في قواته إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الخليفة الناصر بالفتح ، فقرأ كتابه بالمسجد الجامع : وجلس الناصر لتقبل الهناء والاستماع لمدايح الشعر (١) ، وكان منها قصيدة لأبي عبد الله بن خلفن الفازازي هذا مطلعها :

هذه فتوح تفتحت أزهارها وتدفتت ملء الملا أنهارها
وتأرجت نفعاتها وتبرجت صفحاتها وتبلجت أنوارها
وأنت بشائرها إليك سوافرا عن أوجه يا حبذا إسفارها

ولم ينس أبو محمد ما قام به عرب سليم من مخالفة الميورقي والقتال إلى جانبه ، فاخترق ديارهم خلال عوده ، وأمر بالقبض على زعمائهم ، وأرسلهم مصفدين إلى تونس ، فكان لتصرفه وقع عميق في تلك المنطقة ، التي كثر فيها تقلب

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣١ و ٢٣٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ .

الأعراب وفسادهم . وبالعكس عومل العرب الذين وقفوا إلى جانب الموحدين بالرعاية والإحسان ، ووزعت عليهم أراض شاسعة خصبة في وادي القيروان . وكان أهل جبال نفوسة قد أرقهم ابن عصفور نائب يحيى بجوره ، وأثقل كاهلهم بالمظالم والفروض ، فما كادت تقع الهزيمة على الميورقي ، حتى وثبوا بابن عصفور فقتلوه ومعاونيه من المرابطين ، كما قتلوا ولدين ليحيى :

وعكف أبو محمد بعد نصره الحاسم على معالجة شئون إفريقية ، بما عرف عنه من الحزم والبراعة ، فجمع كل صنوف الفساد والشغب ، ووطد دعائم السكينة والنظام ، واستوفى فروض الجباية من سائر الطوائف ، فازدهرت في ظله بلاد إفريقية ، وعمها الأمن والرخاء ، وذاع اسم أبي محمد ، واشتهر أمره ، وسمت مكانته ، حتى غدا ثاني رجل في الدولة بعد الخليفة ذاته ، وكان العمل الذي اضطلع به ونجح في تحقيقه ، وهو إخماد ثورة بني غانية ، وتحرير إفريقية من نهرهم ، وردّها إلى سلطان الموحدين ، وذلك في فترة يسيرة لا تتجاوز خمسة أعوام أرسى ، من أعظم الأعمال العسكرية والسياسية ، التي استطاعت الدولة الموحدية أن تقوم بها في مدى ربع قرن ، مذ نزل بنو غانية بإفريقية لأول مرة . ولم يكن ذلك عملاً هيناً ولا ميسوراً إزاء ما كان يتصف به على بن غانية وأخوه يحيى ، وبقية هذه العصابة ، من الجرأة والبسالة وشدة المراس . وكان توطيد سلطان الموحدين بإفريقية على هذا النحو ، عمل إنقاذ وتي الدولة الموحدية كثيراً من أخطار التمزق والتفكك ، التي كانت تتعرض لها ، من جراء تغلب بني غانية على جزء من أهم أراضى الدولة ، وعجزها عن رد عدوانهم . واستمر أبو محمد بن أبي حفص عدة أعوام أخرى حتى وفاته في سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) يسيطر على مصابير إفريقية ، ويسهر على سلامتها وأمنها ، ويوطد شئونها بمقدرة فائقة ، فهل كان عندئذ يظن أو يدور بخله أنه إنما يمهّد لهذا التوطيد أسلطان عقبه ، وتأسيس أسرته المملوكية المستقلة ، التي قامت بعد ذلك بقليل ، في هذا القطر من أقطار الإمبراطورية الموحدية^(١) .

أما يحيى بن غانية فقد لبث بعد نكبته الأخيرة في جبل نفوسة ، ملتجئاً مع فلوله إلى الصحراء الجنوبية ، يلوذ مؤقتاً بأهداب السكينة ، ويرقب الحوادث . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى انفصل عنه أخوه سير بن إسحاق بن غانية ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٩ . وراجع أيضاً ١٥٤ - ١٥٢ p. A. Bel : Les Benou Ghania

وكان ممن شهد معه غزوة تلمسان ، وسار إلى تونس ملتجئاً إلى الشيخ أبي محمد ،
لائذاً بطاعة الموحدين ، فأكرم الشيخ مثواه ، ثم استأذنه في السفر إلى الحضرة
فأذن له ، واستقبل هناك بالمودة والترحاب (سنة ٦٠٧ هـ) .

وفي خلال ذلك كان الخليفة الناصر عاكفاً على معالجة الشئون الإدارية ،
والنظر في أعمال الولايات . وكان كثير التغير والتبديل للولاة ورجال الدولة .
ومن ذلك أنه في سنة خمس وستائة ، أقال أبا يحيى بن الحسن بن أبي عمران من
الوزارة ، وألزمه أن يبقى في داره ، ثم عينه بعد ذلك والياً لميورة مكان السيد أبي
عبد الله بن أبي حفص ، وعين السيد أبا عبد الله والياً لبليسية ، وقدم للوزارة أبا سعيد
ابن أبي إسحاق بن جامع مكان أبي زيد بن يوجان . ثم عين أخاه السيد أبا إسحاق والياً
لإشبيلية ، وأخاه السيد أبا محمد والياً لشرقي الأندلس ، والشيخ أبا عمران بن ياسين
المتنقي والياً لمرسية ، مكان أبي الحسن بن واجاج ، وعين السيد أبا زيد والياً
لجيان ، وأبا عبد الله بن أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص والياً لغرناطة . وعين
لكتابة الديوان الكاتبين أبا محمد بن الحسن ، وأبا عبد الله بن منيع ، وكان كلاهما
من الكتاب المجيدين ، واختص الأول بكتب التوقيعات والظواهر ، واختص
الثاني بديوان العسكر ، والتنفيذات السلطانية . وكذلك تناوت هذه التعيينات
شئون القضاء فعزل القاضي أبو عبد الله الباجي عن قضاء لإشبيلية ، وعين مكانه
أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق . وعين لقضاء قرطبة ابن حوط الله ، مكان
أبي علي بن أبي محمد المالقي ، واستدعى أبو علي إلى الحضرة حيث قدم على طلبه
الحضر ، وهو المنصب الذي كان يتولاه أبوه وإخوته من قبل . وعين أبو إبراهيم
ابن يغمور لقضاء بلنسية . وندب القائد أبو عبد الله بن عيسى المرسي لقيادة قوات
الغرب بشلب ، وندب أبو الجيش محارب لاستقبال ملوك الروم وسفرائهم ،
والاشتغال بإنزالهم وضيافتهم ، والترجمة عنهم ، مكان ابن عوييل ، وهي وظيفة
مستحدثة في البلاط الموحدي ، ولم يسبق أن وقفنا على ذكرها من قبل ضمن
مناصب الإدارة الموحدية . ووقعت هذه التغيرات والتعيينات كلها في عام واحد ،
هو سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م)^(١) .

ووقعت بالمغرب في هذا العام عدة حوادث أخرى تستحق الذكر ، منها

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ و ٢٣٤ ، وابن خلدون

مصرع ابن عطية الزناتى ، أحد رؤساء زناتة الخوارج فى منطقة تلمسان الجنوبية ، وكان ممن تحالف مع ابن غانية حين غزوته لمنطقة تلمسان ، قدس إليه ابن يوجان والى تلمسان من اغتاله بمقره . وفى هذا الحادث ما يدل على أن الاغتيال السياسى . كان من وسائل الموحدين فى القضاء على خصومهم . ومنها أن الشيخ أباعحمد قام بغارة على أحياء الخوارج والمشايخين من بنى سليم ، واستاق أشياءهم وأموالهم ، وجعلهم رهينة لديه فى تونس ، حسباً لفسادهم وشغبهم ، ولإرغامهم على قطع إمدادهم ومعاونتهم لابن غانية ، ومن جهة أخرى فقد قام محمد بن عبد السلام عامل طرابلس بغارة على منطقة جبل نفوسة واقتحم بها قصرأ ، ألغى فيه جملة من ثمين المتاع والأموال لبني غانية ، ووطد أسباب الهدوء فى تلك المنطقة .

وكان من أهم الحوادث فى هذا العام أيضاً ، الحريق الكبير الذى وقع بمراكش ، وكان وقوعه فى ليلة يوم الخميس الثالث عشر لجمادى الأولى ، والناس يرقلون فى مضاجعهم : وشبت النار أولاً فى حى القيسارية ، وانتشرت بسرعة ، وأتت على الحى كله ، فشب الناس مذعورين من نومهم ، وكثر الصراخ والاستغاثة ، ونهض الخليفة الناصر على انزعاج و غادر قصره مسرعاً ، واعتلى صومعة الجامع ليشهد تغلغل النار عاجراً . واقتحم الغوغاء كثيراً من الدروب ، وسلبوا ما استطاعوا سلبه مما سلم من الحريق ، واستمر الحريق حتى صباح اليوم التالى ، وقد أتى على كثير من أحياء المدينة . وأمر الناصر فى اليوم التالى ، بتتبع السفلة الناهيين ، واسترداد ما يمكن استرداده منهم ، فقبض على كثيرين من هؤلاء وأعلموا على الأثر . وهلك فى تلك النكبة كثير من الأموال والدور ، وافتقر كثير من ذوى اليسار ، وفقدوا دورهم وثرواتهم . وأمر الناصر بأن يعاد تشييد الأحياء المحترقة بأحسن مما كانت عليه ، خصوصاً وقد كانت تواجه القصر الخلقى يسبح عليها أضواءه^(١) .

هذا ويذكر لنا صاحب البيان ضمن حوادث هذا العام ، أعنى عام ٦٠٧ هـ ، حادثاً يستوقف النظر ، وهو أن بعض أعيان جزيرة صقلية ووجوها ، وفدوا على الشيخ أبى محمد بن أبى حفص بتونس ، وتباؤوه بأن المسلمين فى صقلية انتزعوا كثيراً من المعازل من أيدي الروم ، وأقاموا الخطبة فى بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية ، وقطعوا ما سواها من الدعوات من عباسية وغيرها .

(١) البيان المغرب ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .

ويبدو من تتبع تاريخ صقلية ، في تلك الفترة أن الأقلية الإسلامية التي كانت بالجزيرة حتى هذا العهد ، كانت تعاني من الضغط والاضطهاد . وكان المسلمون منذ سقطت الجزيرة في أيدي الأمراء النورمان في سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، يتمتعون بطائفة من الحقوق والامتيازات ، ومنها السكنى في بعض الأحياء ، والأراضي ، في مسيني ، وبلرم ، وتراباني ، وجرجنت ، ومازرة ، وغيرها من المدن ، ومزاولة شعائرهم الدينية في مساجدهم القليلة الباقية ، ومزاولة مهنتهم وأعمالهم السلمية . واستمر الأمر على ذلك نحو قرن ، في ظل عدة متعاقبة من الأمراء النورمان ذوى التسامح المستنير ، وفي مقدمتهم ولد فاتح الجزيرة ، الدوق روجر (رجتار) الثاني ، وهو الذى أسبغ رعايته على الشريف الإدريسي ، وعهد إليه بوضع موسوعته الجغرافية الشهيرة « نزهة المشتاق » . فلما توفى في سنة ١١٥٤ م ، خلفه ولده وليم الأول (غليام) ، فولده وليم الثاني . وفي عهد هذا الملك ، اشتدت وطأة الحكم على المسلمين وأراد أن ينزع منهم بعض الأراضي التي يحتلونها ليعطيها لبعض الأديرة المجاورة ، فقام المسلمون ببعض ثورات محلية ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية ؛ والظاهر أن الملك وليم ، عدل بعد ذلك عن سياسة الضغط والقمع التي حاول أن يتخذها إزاء المسلمين ، وعاد الصفاء يحيم على علائق المسلمين والنصارى .

وقد أورد لنا الرحالة الأندلسي ابن جبير وصفاً دقيقاً لأحوال مسلمي صقلية في عهد الملك وليم (ويسميه غليام) مما وقف عليه حين زيارته للجزيرة في شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ (يناير سنة ١١٨٥ م) ، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه ، وبلارمه (بلرم) ، واطرابنش ، واجتمع فيها بالمسلمين ، ووقف على أحوالهم : وهو يقول بصفة عامة ، إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وأن النصارى قد أحسنوا السيرة في استقبالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاة يؤدونها في فصلين من العام ، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يملكونها ، ثم يقول لنا ، إنه لم يكن في مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن . وأما بلرم ، وهي عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم في الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين في بلرم رسم باق من الإيمان يعمرن به أكثر مساجدهم ، ويقومون الصلاة بأذان

مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكنائهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ؛ ولا جعة لهم بسبب الخطبة المخطورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى . ولهم بها قاض ، يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر للمعلمى القرآن ، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل^(١) .

وهذه العبارة الأخيرة من أقوال ابن جبير ، تلخص لنا حقيقة أحوال المسلمين فى صقلية فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . ذلك أنه بالرغم من تلك الامتيازات الشكلية فى السكنى والتجارة ومزاولة الشعائر ، فإنه لم يكن ثمة شك فى أن الأقلية المسلمة كانت تعيش داخل الجزيرة ذليلة مضطهدة . وهذا ما يفصله لنا ابن جبير بعد ذلك ، إذ يقول إنه خلال إقامته ببلدة إطرابنش ، « تعرف ما يؤلم تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها ، وما هم عليه من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهد الذمة ، وغلظة الملك ، إلى طوارئ دواعى الفتنة فى الدين » . ثم يقول لنا ، إنه التقى فى هذه البلدة بزعيم مسلمى صقلية ، وهو القاسم بن حود المعروف بابن الحجر وهو من ورثة أهل السيادة ، وكان من خيرة مسلمى الجزيرة كرماء ومآثر ، وكان قد اتهم بمخاطبة الموحدين ، واضطهد من أجل ذلك ، وغرم أموالا طائلة . ويزيد ابن جبير على ذلك ، أنه وقف من هذا الزعيم ، على بواطن أحوال مسلمى الجزيرة مع أعدائهم « مما يبكى العيون دما ، ويذيب القلوب ألماً »^(٢) .

ويحدثنا ابن جبير عن الملك ولیم (غليام) ، فيقول إنه عجب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، وإنه كثير الثقة بهم ، وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله جملة من العبيد المسلمين وعليهم قائد منهم . ثم يصف لنا فخامة قصوره ، وتناهى فى الترف ورفاهة العيش ، وشغفه بانحاذ الفتيان والجوارى ، وأنه يقرأ العربية ويكتبها ، وأهل عاملته فى ملكه منهم مسلمون .

ولما توفى الملك ولیم الثانى فى سنة ١١٨٩ م ، وخلفه فى حكم صقلية الإمبراطور فردريك الثانى ، أول حكامها من آل هوهنشتاوفن ، عاد فانتزع من المسلمين

(١) رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) ص ٣١٤ و ٣٢٢ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٢٢ و ٣٢٣ .

كثيراً من أراضيهم وأعطاهما للكنيسة : وكان ذلك في سنة ١٢٠٨م (٦٠٥ هـ)^(١).
والظاهر أن المسلمين عادوا يومئذ إلى الثورة ، وانتزعوا بعض الحصون النصرانية
مرة أخرى . ويبدو من مقارنة التواريخ ، أن هذه هي الحوادث التي يشير إليها
وقد المسلمين الصقليين إلى الشيخ محمد الحفصي . على أنه يبدو كذلك أنه لم يترتب
على مسعى هذا الوفد أي أثر ، وأن الموحدين لم يفكروا في التدخل في حوادث
صقلية بأية صورة . وسرى فيما بعد أن هذا الصراع يتجدد في صقلية بين المسلمين
وحكامهم النصارى ، ثم ينتهي بإخماد كل نزعة تحريرية للمسلمين ، وإخراجهم
من ديارهم :

(١) راجع : M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Firenze 1879)

الفصل السادس

موقعة العقاب

انشغال الموحدين بحوادث إفريقية عن شئون الأندلس . سكوت الممالك النصرانية منذ الأوك . شعورها بسنوح الفرصة لاستئناف الغزو . انتهاء الهدنة بين قشتالة والموحدين . إغارة ألفونسو الثامن وفرسان قلعة رباح على أراضي الأندلس . إغارة ملك أراجون على أراضي بلنسية . اهتمام الناصر لتلك الحوادث . اعتزامه العبور للجهاد واحتفاره للقبائل . خروج الناصر في قواته إلى رباط الفتح . سيره إلى قصر كتامة . صعوبة تموين الجيش . مؤاخنة المال المقصرين . عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة . عبور الناصر ومسيره إلى إشبيلية . الاستعداد وحشد الجند في سائر الكور . خروج الناصر في الجيوش من إشبيلية إلى قرطبة . سيره إلى قلعة شليطرة . أحوال الممالك النصرانية عندئذ . الصلح والتهادن بينها . عدوان ملك قشتالة على الأندلس . اتخاذ قلعة شليطرة قاعدة لهذا العدوان . غارات أراجون في الشرق . البابوية والصيغة الصليبية لحروب النصارى ضد الأندلس . صعى البابا إفونسان لمعاونة ملك قشتالة . صدق مقدم الجيوش الموحدية . حصار الناصر لقلعة شليطرة . عجز ألفونسو عن إنجهاها وتسليمها بالأمان . رواية صاحب روض القرطاس عن الحصار . ما ينتقض هذه الرواية . عود الناصر إلى إشبيلية . أهبة ملك قشتالة . معاونة البابا والأخبار النصارى . احتشاد جماعات الفرسان . مقدم المتطوعة الصليبيين من سائر الأنحاء . اجتماع جيوش قشتالة وأراجون وناقارا . الصوم والابتهاال في رومة . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الأهبة . ما ورد في كتاب الخليفة . أهبة الناصر . مقدم الحشود الجديدة . خروج الجيوش النصرانية من طليطلة . خروج الناصر في جيوشه من إشبيلية . سير النصارى إلى قلعة رباح ومهاجمتهم إياها . بأس حاكمها ابن قانس من النجدة وتسليمه بالأمان . ما أثاره هذا من خلاف بين القشتاليين وحلفائهم الأجانب . مناداة معظم المتطوعة الأجانب للمعسكر النصراني . إشارة الرواية الإسلامية إلى ذلك . وصول الناصر إلى جيان . مقدم ابن قانس إليه . اتهامه وصهره بالخيانة وإعدامهما . سحق الأندلسيين لذلك . إصلاح ما حدث بالمعسكر النصراني . سير سائر الجيوش النصرانية إلى الجنوب . صعودها إلى جبل الشارات ونزولها في مر مورادال . سير الجيوش الموحدية للاقاة العدو . أسام الجيش الموحدى وعدده . مبالغة الرواية الإسلامية في تقديره . عبور الموحدين لنهر الوادى الكبير . احتلالهم لممرات جبل الشارات . نزولهم في السهل المواجه لممر تولوسا . توقف الناصر للقاء النصارى . وصف عيان لميدان الموقعة . حصن العقاب . الطريق الرومانى والنهر . بويرتودل مورادال . مائدة الملك . استيلاء النصارى على قلعة فيرال أو حصن العقاب . تعذر عبورهم لجبل الشارات من تلك الناحية . قصة الراعى والممر السهل . تحوّل الجيش النصراني واحتلاله لمرتفع « مائدة الملك » . وقوف الموحدين على تلك الحركة . تعبئة الجيوش الموحدية لقتال . المناوشات الأولى . ترتيب الجيش الموحدى لخوض المعركة . موقع قبة الخليفة وحرسه . تنظيم الجيش النصراني وقيادته . استعداد الفريقين للمعركة . بدء النصارى بالهجوم . هجوم ثلاثتهم على مقدمة الجيش الموحدى . هجوم جناحي النصارى على جناحي الموحدين . المعركة الهائلة . ارتداد المتطوعة المسلمين . ثبات الموحدين ورد جناحي النصارى .

قزول ملك قشتالة بالقوات الاحتياطية . اشتداد هجوم النصارى . ارتداد ميمنة وميسرة الجيش الموحدى . فرار الأندلسيين والعرب . هجوم النصارى على القلب . مقاومة الحرس الخليلى العنيفة . ثبات الخليفة الناصر وحش جنده على الثبات . اختراق النصارى للقلب . اختراقتهم للدائرة الخليفة المدركة . تمزق الجيش الموحدى وكثرة ضحاياه . صعود الناصر . مصرع الآلاف من حرسه الأسود . اضطرابه فى النهاية إلى الفرار . سيره صوب يباسة ثم جيان . فرار الموحدى فى كل ناحية . المطاردة المروعة والقتل الذريع لهم . الاستيلاء على المحلة الموحدية وانتهاج سائر ما فيها . مختلف أساءه الموقعة . خسائر المسلمين فى الموقعة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقديرها . اعتدال الرواية النصرانية فى ذلك . مبالغتها فى التقليل من خسائر النصارى . ما يمكن أن يقال فى ذلك . وفرة السلاح والفتنم التى استولى عليها النصارى . خيمة الناصر والعلم الموحدى . الأسباب المادية والمعنوية لتلك النكبة . آثار النكبة بالنسبة للأندلس والمغرب . تأكيد التفوق السياسى والعسكرى لإسبانيا النصرانية . الفرع فى أرجاء الأندلس . شبح السقوط والفتناء . فناء الجيوش الموحدية والقروسية المغربية . تضعف الدولة الموحدية وتفككها . مقارنة بين الأرك والعقاب . كتاب الناصر عن الموقعة . ألفونسو الثامن يتبع نصره بالاستيلاء على الحصون الإسلامية . مهاجمته ليباسة وحصاره لأبدية . اقتحام أبدة وقتل وسبى أهلها . ظهور الوباء وارتداد النصارى إلى أراضيهم . وصول الناصر إلى إشبيلية ، ثم عبوره إلى مراكش . أخذه البيعة لولده أبى يعقوب يوسف . احتجاجه بقصره . مرضه ووفاته . ما قيل فى وفاته . الناصر وعهده . يدايته بالحسنة . استبداده بالأمر . خلق عهده من الأعمال الإنشائية . عطلة عن أنواع العلوم والمعرفة . صفات الناصر وفقاً لقول المراكشى وروض القرطاس . وزراء الناصر . قضائه وكتابه . أبنائه .

شغل الخليفة محمد الناصر لدين الله ، منذ ارتقائه العرش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ ، بحوادث إفريقية واستيلاء بنى غانية على قواعدها وثغورها ، والعمل على تحريرها واسترداد سيادة الموحدى بها ، عن سير الحوادث فى الأندلس ، ولم يستطع خلال هذه الفترة التى استطلت زهاء اثنتى عشرة عاما ، أن يعنى بشيء من شئون الأندلس الجوهرية ، أو يعبر إليها بنفسه ، وحتى اهتمامه بافتتاح الجزائر الشرقية ، لم يكن سوى نتيجة مباشرة لصراعه مع بنى غانية فى إفريقية .

بيد أن شئون الأندلس ، كانت خلال ذلك تثير قلق الموحدى ، وتوجسهم من العواقب . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية ، وفى مقدمتها قشتالة ، قد لزمت السكينة حينما منذ موقعة الأرك ، ولبت بضعة أعوام تهيب الاشتباك مع القوات الموحدية فى شبه الجزيرة ، وفضلا عن ذلك فقد كانت قشتالة وليون ، ترتبط كل منهما بعقد الهدنة مع الموحدى . فلما شغل الموحدون بصراعمهم مع بنى غانية فى إفريقية ، ولما استطل أمر هذا الصراع أعواما ، واتسع نطاقه وانقطع عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، أدركت الممالك النصرانية أن الفرصة قد سنحت مرة أخرى ، لاستئناف غزواتها للأراضى الإسلامية ، ولم يعقها

عن انتهاز هذه الفرصة على الفور سوى منازعاتها الداخلية .
فلما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة وبين الموحديين ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، يتأهب لغزو الأندلس . وكان منذ هزيمة الأرك الساحقة ، يتوق إلى الانتقام لهزيمته ، ورفع الوصمة التي لحقت من جرائها الجيوش النصرانية . وفي أوائل سنة ١٢٠٩ م ، خرج ألفونسو الثامن من قشتالة في قواته ، واحتشد فرسان قلعة رباح ، في قلعة شلبطرة ، على مقربة من قلعة رباح ، وكانوا قد لجأوا إليها منذ انتزع الخليفة يعقوب المنصور قلعة رباح من أيديهم عقب معركة الأرك . وسار ألفونسو صوب جيان وبياسة ، فانتسف الحقل وخرب الضياع ، وقتل وسبي ، وعاث الفرسان في أحواز أندوجر ، واستولوا على عدة حصون ، وأصاب المسلمين من جراء تلك الغارات ، بمن وخسائر فادحة . وفي العام التالي خرج ألفونسو إلى الأندلس مرة أخرى ، وعاث في أراضي جيان وبياسة ، ووصل في عيئه إلى أراضي ولاية مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

وفي نفس الوقت ، وقعت في شرق الأندلس حوادث مماثلة ، وكان السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف قائد الأسطول الموحدى وفاتح الجزائر الشرقية ، قد سار في جميع وحدات الأسطول الموحدى إلى مياه برشلونة ، وعاثت سفنه في شواطئ قطلونية ، وأنزل بها خسائر فادحة ، واستولى على كثير من الأموال والغنائم ، وكان ذلك في صيف سنة ١٢١٠ م (٨٦٧ هـ) . فاستشاط بيدرو الثاني ملك أراجون لذلك غضبا ، وجمع قواته وخرج من منشون ومعه فرقة من فرسان المعبد (الداوية) ، وسار جنوبا نحو أراضي ولاية بلنسية الشمالية وعاث فيها ، واستولى على عدة من الحصون الإسلامية في تلك المنطقة (١) .

وكان لاستئناف النصارى لغزواتهم المخربة ، في أراضي الأندلس ، على هذا النحو ، أعمق صدى ، وكان من الواضح أن الحاميات الموحدية الصغيرة التي ترابط في مختلف القواعد ، لم يكن في مقدورها أن تقوم برد الجيوش النصرانية الغازية ، ولم يك ثمة مندوحة من أن يعبر أمير المؤمنين بنفسه ، في جيوشه الحرارة ، إلى شبه الجزيرة ليضطلع بنفسه بجهاد النصارى ، على نحو ما فعل أبوه وجده . وقد عبر بالفعل وجوه شرق الأندلس ، على أثر غارات ملك أراجون ، إلى العدو ، وقصبلوا إلى الناصر ، مستغيثين به ، متضرعين إليه أن يسعفهم بعبوره ، فاهتز

الناصر لهذه الأنباء المزعجة ، وخصوصاً لما أبداه ملك قشتالة من الإصرار على خطته العدوانية ، بالرغم من احتجاج رسل الناصر إليه ، على خرق الهدنة . وبما هو جدير بالذكر أن الناصر كتب إلى الشيخ محمد بن أبي حفص وإلى إفريقية يستشيرهم في ذلك الأمر ، وفيما ينتويه من استئناف الجهاد والغزو ، فأبدى له الشيخ رأيه بوجوب التريث ونصح بعدم العبور واستئناف الغزو في تلك الآونة . ولكن الناصر لم يستمع إلى رأيه^(١) ، وقرر الاستجابة لداعي الجهاد ، وأخذ بالفعل في الاستعداد ، ونفذت كتبه إلى سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة باستنفاذ الناس إلى الجهاد ، فاستجابت سائر الجهات والقبائل إلى الدعوة ، وكتب الناصر في نفس الوقت ، إلى ولاية إشبيلية وقرطبة ، بوجوب تجديد حشد الجند ، وإعداد المون ، وتمهيد السبل في جميع المناطق^(٢) .

ولما كملت الأهبة ، وأقبلت الحشود من سائر الأنحاء ، وجهزت بما يلزم من العتاد والسلاح والكسب والمون ، خرج الناصر في قواته الجارية من حضرة مراكش في يوم السبت عشرين من شعبان سنة ٦٠٧ هـ (٥ فبراير سنة ١٢١١ م) وسار إلى رباط الفتح ، وعسكر في الضاحية المحاورة المسماة ببرج الحمام ، وقضى هنالك نحو شهرين وهو يعمل على استيفاء الأهبة ، وتنظيم الشؤون ، ونفذت كتبه مرة أخرى إلى الأندلس ، يطلب إلى ولائها حث الناس على الجهاد ، واتخاذ ما يجب من ضروب الاستعداد ، فعكف الولاة على تنفيذ تلك الأوامر ، بكل ما وسعوا من غيرة وجهد :

وخرج الناصر في جيوشه من رباط الفتح ، في يوم الاثنين الثامن عشر من شوال (٤ أبريل سنة ١٢١١ م) ، قاصداً إلى قصر كتامة (القصر الصغير) ، ونحن نعرف أن هذه المنطقة الممتدة من رباط الفتح شمالاً حتى البحر ، وهي طريق الجيوش الموحدية إلى الأندلس ، كانت مزودة بمراكز هامة لتكوين الجيوش للمسافرة ، سواء في الذهاب والإياب ، وأن هذه المراكز كانت تزخر دائماً بالمون والعلوفات اللازمة . ولكن الجيوش الموحدية لقيت هذه المرة خلال مسيرها ، صعاباً مرهقة في التمرين ، ونضبت الأقوات ، وغلت الأسعار بصورة لم تعهد

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

وروض القرطاس ص ١٥٤ .

من قبل ، ولحق الجند والناس من جراء ذلك ضيق وشدة . ووقف الناصر على ذلك ، فاستشاط غضباً ، وأدرك ما هنالك مما يرتكب من ضروب الإهمال والاختلاس ، فأمر بمواخلة سائر العمال المقصورين ومعاقبتهم ، وطلب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي علي بن منفي صاحب الأعمال الخزفية والأشغال العملية ، بالقبض على عامل فاس ، وهو عبد الحق بن أبي داود ، فقبض عليه وعلى سائر نوابه من العمال المحليين ، واستصفيت أموالهم . وكذلك أمر الناصر ، حينما وصل إلى تصر كرامة بالقبض على عامل سبتة محمد بن يحيى المسوّى ، لما بدا من إهماله وفساده ، والقبض كذلك على سائر نوابه ، وتوجيههم جميعاً مصفدين إلى صاحب الأعمال بفاس (١) .

وحشدت السفن من سائر الأنحاء ، لعبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، واستمر عبورها بضعة أسابيع ، واستمر الناصر مقيماً بالقصر ، حتى تم عبور ساقته وأثقاله وحاشيته وحرسه . وركب البحر في يوم الاثنين أول شهر ذى الحجة (١٥ مايو) ونزل بساحل طريف ، وهناك استقبله قواد الأندلس وقههاؤهم ، وأقام بطريف ثلاثة أيام ، ثم سار في جيوشه الحرارة إلى إشبيلية ، فوصلها يوم الاثنين منتصف ذى الحجة (آخر مايو) ونزل بقصور البحيرة الواقعة إزاء باب جهور ، وتم استقرار الجيوش الموحدية بالحاضرة الأندلسية ، وذلك في نهاية سنة ٦٠٧ هـ (منتصف يونيو سنة ١٢١١ م) .

وماكاد الناصر يستقر بإشبيلية حتى أمر باستنفاذ الحشود الأندلسية ، وصنع الآلات الحربية ، واستدعاء الجند والغزاة ، من سائر الكور ، ووصولهم مع العمال والولاة ، فلما تم تنفيذ هذه الأوامر ، وتم حشد الجند ، واستكمال الأمداد من سائر الجهات ، وأصبحت الجيوش الموحدية في حالة تعبئة كاملة ، شرع الناصر في الحركة ، وخرج من إشبيلية في جيوشه من الموحدين والعرب وأهل الأندلس والمطوعة والأغراز وغيرهم من طوائف الجند ، وسار جنوب الوادي متجهاً نحو قرطبة ، ثم سار منها إلى جيان وبباسة ، وكان النصاري هم الذين حددوا بتصرفهم ، الهدف الذي يقصد إليه الناصر بجيوشه ، وهو قلعة شلبطرة (٢)

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٧ ، وروض القرطاس ص ١٥٥ .

(٢) شلبطرة حسبما يسمها صاحب الروض الممتع (ص ١٠٩) هي بالإسبانية *Salvaterra* ويرسمها صاحب روض القرطاس (ص ١٥٦) وابن خلدون (ج ٦ ص ٢٤٩) سربطرة أو شربطرة . ويرسمها المراكشي (المعجب ص ١٨٢) شلب ترة ، ويقول إن معناها « الأرض البيضاء » ويتابعه في هذا الرسم النويري (طبعة ربيع و ج ٨ ص ٢٧٩) :

التي تقع على مقربة من جنوبي غربي قلعة رباح ، بينها وبين جبال الشارات (سييرا مورينا) : وكان الخليفة يعقوب المنصور ، قد انتزع قاعدة قلعة رباح المنيعية ، حسباً تقدم ، من أيدي فرسان جمعية قلعة رباح الدينية في سنة ١١٩٥ م ، عقب هزيمة القشتاليين في معركة الأرك ، ونزل أولئك الفرسان في قلعة شلبطرة القريبة منها . وكانت هذه القلعة المنيعية ، فضلاً عن مضايقتها لقلعة رباح باستمرار ، يتخذها النصارى قاعدة لغزواتهم المخربة داخل الأراضي الإسلامية ، ومنها سار القشتاليون والفرسان بالفعل للقيام بغاراتهم المخربة في أحواز جيان وبياسة وأندوجر قبل ذلك بقليل ، في سنة ١٢٠٩ م . ومن ثم فقد آلى الناصر على نفسه أن يفتح غزاته بالاستيلاء على تلك القلعة المنيعية .

- ١ -

ومجدد بنا بادئ ذي بدء أن نلم بطرف من أحوال اسبانيا النصرانية في تلك الآونة ، التي أخذت فيها طوابع الصراع الحاسم ، بين الموحدين والنصارى ، تبدو في الأفق مرة أخرى . وذلك أنه حينما وقعت معركة الأرك العظيمة في سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، لم يكن الوثام سائداً بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وخاضت قشتالة المعركة وحدها ضد الموحدين . ولم تجد قشتالة بعد هذه الهزيمة الساحقة ضامناً إسلامياً ، سوى عقد الهدنة مع الموحدين ، وارتضى الخليفة المنصور يومئذ ، أن يعقد السلم مع النصارى ، بعد أن بلغ غايته من سحق قواهم ، وقمع عدوانهم .

وقضت اسبانيا النصرانية منذ معركة الأرك فترة قصيرة من الهدوء والسلام ، وعقد الصلح أخيراً بين قشتالة وليون ، وذلك بزواج ألفونسو التاسع ملك ليون بالأميرة برنجيلا ابنة ألفونسو الثامن ملك قشتالة . بيد أن هذا الصلح لم يطل أمده ، إذ اضطر ملك ليون أن يطلق هذه الأميرة ، بعد ذلك بخمسة أعوام ، بناء على تدخل البابا وضغطه المستمر . ومن جهة أخرى فإن شريفاً قشتالياً كبيراً ، هودون ديجولوبث دى هارو ، سيد بسكاية ، وهو أخ لزوجة ملك ليون الأولى ، دونيا أوراسكا ، قد ثار لما لحق بأخته من غبن وإهانة ، وارتد في أصحابه إلى أراضي نافارا ، وأخذ يغير منها على أراضي قشتالة ، فسار ألفونسو الثامن في قواته صوب نافارا ، فخشى ملكها سانشو الثامن العاقبة ، وقام بإخراج دون ديجو من مملكته ، فلبجاً دون ديجو إلى بيدرو الثاني ملك أراجون ، فنكل عن غوثه ، فاضطر أن يلتجئ عندئذ إلى

المسلمين في ولاية بلنسية ، وأخذ يغير من هنالك في صحبه على أراضي أراجون . وكانت أول نتيجة لهذه الحوادث أن عقدت بين نافارا وقشتالة في سنة ١٢٠٧ م الهدنة لمدة خمسة أعوام . ثم تدخل ملك قشتالة بعد ذلك ، بين زميله ملك نافارا وملك أراجون ، فعقدت بينهما الهدنة ، وذلك في سنة ١٢٠٩ م ، وانعقد بذلك نوع من الوثام والتفاهم ، بين الممالك الإسبانية النصرانية خلا مملكة ليون .

وكان أجل الهدنة المعقودة بين ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وهو سنة ١٢١٠ م ، يدنو عندئذ من نهايته ، وكان ملك قشتالة ، بعد أن شعر بنوع من الطمأنينة والأمل في عون زملائه ، يضطرم رغبة في استئناف الحرب ضد الموحدين ، فبدأ بالقيام بغاراته الخربة التي أشرنا إليها في منطقة جيّان وبياسة وأنلوجر ، وذلك خلال سنتي ١٢٠٩ ، ١٢١٠ م ، ولم يحفل باحتجاج رسل الخليفة الموحدى ، على هذا الخرق لنصوص الهدنة المعقودة ، وكانت قلعة شابطرة ، التي يحتلها فرسان قلعة رباح ، قاعدة لهذه الغارات الدموية التي ضج لها المسلمون يومئذ . وحذا بيدرو الثاني ملك أراجون حذو زميله ملك قشتالة ، فغاث في منطقة بلنسية ، انتقاماً لغزو السفن الموحدية لشواطئه ، واستولى على عدة من حصون هذه المنطقة ، وكان من الواضح أن ملك قشتالة يستطيع أن يعتمد على مؤازرة حليفه ملك أراجون ، إذا ما اضطربت الحرب بينه وبين الموحدين :

وكان على رأس البابوية يومئذ حبر يضطرم بروح صليبية عميقة ، هو البابا إنوسان الثالث ، الذى اعتلى الكرسي الرسولى في سنة ١١٩٨ م ، وقد سبق أن أشرنا في غير فرصة إلى ما كان يتمتع به الكرسي الرسولى لدى الممالك الإسبانية النصرانية ، من مكانة راسخة ونفوذ قوى ، وإلى ما كان يعلقه الملوك الإسبان ، من أهمية بالغة ، على الصفة الصليبية لحروبهم ضد المسلمين ، ولا سيما عند اضطرام الحرب الشاملة بين الفريقين ، وذلك استدراكاً لعطف الأمم النصرانية المجاورة ، واستجلاباً للمتطوعة والمرترقة النصارى من سائر الأنحاء . وكان ملك قشتالة ، حينما اعتزم أن يشهر الحرب على الموحدين ، قد بعث جرهاارد أسقف شقوبية إلى البابا إنوسان ، ليرجوه أن يدعوهم أوروبا النصرانية لمؤازرته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين في اسبانيا ، وأرسل كذلك رديك مطران طليطلة^(١) وعدة آخر

(١) هو رديك الطليطل صاحب التاريخ المشهور المنسوب إليه المكتوب باللاتينية *Anales Toledanes* ، والمتضمن لتاريخ اسبانيا النصرانية حتى أوائل القرن الثالث عشر . وقد طبع بفرانكفورت -

من أكابر الأحرار إلى فرنسا ، وإلى الأمم المجاورة ، للدعوة إلى قضيته واستئثاره حاسة التصارى للعبور إلى اسبانيا ، وموازرة الجيوش النصرانية في قتالها ضد المسلمين . ونزل البابا عند رغبة ملك قشتالة ، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا في يناير سنة ١٢١٢ ، بأن يعظوا رعاياهم بأن يسبروا بأنفسهم وأموالهم لموازرة ملك قشتالة ، وأنه أى البابا يمنح كل من لى هذه الدعوة الغفران التام . وكان الإنفانت الفتى دون فرناندو ولى عهد قشتالة ، وولد ألفونسو الثامن قد توفى عندئذ ، فبعث إليه البابا يعزيه عن فقد ولده ، وكذلك عن فقد حصن شاطرة الذى استولى عليه الموحلون حسباً نفصل بعد ، ويعرب عن خوفه بأن الحرب ضد « الألبين »^(١) في جنوب فرنسا قد تحول دون كثرة المتطوعين ، وأنه يمتنى له الفوز في جميع الأحوال . بيد أنه يعرب عن نصحه له بأنه إذا استطاع أن يعقد الهدنة مع « أمير المؤمنين » فليفعل ، حتى تسنح فرصة أفضل لفهم النصر المنشود .

كانت هذه هى أحوال قشتالة والممالك الإسبانية النصرانية ، حينما عبر الناصر في جيوشه الحرارة إلى شبه الجزيرة الأندلسية ، في شهر ذى الحجة سنة ٦٠٧ هـ (مايو ١٢١١ م) . ويعلق صاحب روض القرطاس على عبور الخليفة الموحدى بقوله : « واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه في قلوب ملوكهم ، وأخلوا في تحصين بلادهم ، وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم . وكتب إليه أكثر أمراءهم يستلون سلامته ويطلبون منه عفو » ، ثم يقدم إلينا قصة غامضة عن مقدم ملك « بيوتة » على الخليفة بإشبيلية « مستسلماً خاضعاً مستصغراً ، يطلب صلحه ، ويسأل منه عفو » وصفحه « وكيف أن الناصر وافق على مهادنته إلى الأبد ، وأعطاه تحفاً جلييلة »^(٢) . ويرجع نحوض هذا النص ، إلى أن مدينة بيوتة ، وهى تقع في الطرف الآخر من البرنيه على خليج بسكونية ، قرب مملكة نافارا ، لم تكن يومئذ داخلية في حظيرة اسبانيا النصرانية ، بل كانت من أملاك جون ملك

سنة ١٦٠٦ ضمن سلسلة *Hispana Illustrata* ونشر أيضاً مع الطبعة العربية لتاريخ المكين بن العميد المطبوع بلندن سنة ١٦٢٥ .

(١) الألبين *Albigences* هم فرقة من الملاحدة ظهرت في جنوب فرنسا في أوائل القرن الحادى عشر ، واتخذوا مدينة « ألبى » مركزاً لهم ومنها اشتق اسمهم . وشبهوا على الكثرة ومبادئها ورسومها حرباً شديدة ، واستمروا يبتون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سيمون دى مونفور في أوائل القرن الثانى عشر عليهم حرباً صليبية انتهت بتنزيقهم .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

انجلترا (ولد هنرى الثانى) ، وذلك بالوراثه عن أمه دوقه أكويتين . وقد تربى على ذلك أن بعض الباحثين ، رأوا ، بالاستناد فى نفس الوقت إلى مؤرخ لإنجليزى عاش فى القرن الثالث عشر ، أن صاحب روض القرطاس ، يشير بذلك إلى سفارة وردت إلى محمد الناصر من قبل ملك إنجلترا يومئذ ، وهو الملك جون . ولكننا نلاحظ أولاً أن صاحب روض القرطاس يتحدث عن مقدم « ملك بيوتة » بنفسه ، وليس عن مقدم سفيره ، ومن جهة أخرى فإن كلمة « بيوتة » هذه التى وردت فى طبعة تورنبرج التى نعتمد عليها قد وردت مكانها كلمة « بنبلونة » فى النص الذى نقله السلاوى (عن روض القرطاس)^(١) . ومعنى ذلك أن الذى ورد على الناصر ، أثناء مقامه بإشبيلية هو ملك نافارا (نبرة) ، وهو حدث مفهوم معقول ، يتفق مع ما سبق عقده من علائق المودة والتحالف بين سانشو السابع ملك نافارا الملقب « بالقوى » وبين البلاط الموحدى . وتسجل لنا التواريخ النصرانية نفسها أن سانشو السابع ، كان قبل ذلك ببضعة أعوام ، حينما شعر بالخطر يهدد مملكته من جراء تحالف جاريه ملكى قشتالة وأراجون ضده ، قد عبر البحر إلى المغرب ملتجئاً إلى عون الخليفة الموحدى ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وأنه قد أقام بمراكش فى ضيافة الخليفة الناصر ، زهاء عامين ، توطدت فيهما الصداقة والتحالف بين الملكين^(٢) . يضاف إلى ما تقدم أن الألفاظ التى صيغ بها نص روض القرطاس ، والقصة كلها التى يوردها عن كيفية استقبال الناصر للملك المذكور ، لا يمكن أن تنصرف إلى أية سفارة واردة من خارج شبه الجزيرة الإسبانية . وإذا فن المرجح المعقول أن يكون ملك نافارا حليف الموحدين القديم هو الذى ورد على الناصر ، وهو ملك « بنبلونة » . وهناك دليل آخر يؤيد هذا رأى ، وهو ما ورد فى كتاب الناصر عن موقعة العقاب من إشارته إلى صاحب نبرة ونكته بحلفه وكونه « كان متعلقاً من الموحدين بزمام ، فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكراً ، ولسواد أهل ملته مكثراً ، فالحق بتلك الجموع مرهباً »^(٣) ، ويقول لنا ابن خلدون إن الذى ورد على الناصر فى تلك المناسبة ، هو ملك ليون المعروف « بالبيوج » ، قدم عليه عام العقاب « فداخله » ، وأظهر له

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 345-346 .

(٣) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

التنصيح ، فبذل له أموالاً ثم غدر به ^(١) . ونستطيع أن نلاحظ أخيراً أنه لم تكن ثمة أية علاقات سياسية ومصلحية ، بين الموحدين وبين ملك إنجلترا ، تستدعي أن يأتي ملك إنجلترا بنفسه إلى الخليفة الموحدى : « مستسلماً خاضعاً مستصغراً » وليس من الممكن أن ينسب مثل هذا التصرف إلا إلى ملك من ملوك اسبانيا النصرانية ^(٢) .

وخرج الناصر في جيوشه من إشبيلية ، حسباً تقدم في الأيام الأولى من سنة ٨٦٠٨ (أواخر يولييه ١٢١١ م) متجهاً إلى جيان ، فأبدت وبياسة ، ثم سار شمالاً نحو قلعة شلبطرة . وكانت هذه القلعة تقع على ربوة عالية على مقربة من جبل الشارات ، وكانت من أكبر وأمنع قلاع تلك الناحية . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن الناصر كان يقصد السير توتاً إلى غزو قشتالة ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع ، أقنعه بوجوب الاستيلاء أولاً على قلعة شلبطرة ، نظراً لمناعتها الفاتكة ، وأهمية موقعها ^(٣) . بيد أنه يبدو من الروايات الأخرى أن غزو أراضي قشتالة ، لم يكن قد تقرر لدى الخليفة بعد ، وأنه كان يقصد الاستيلاء على شلبطرة بادئ ذي بدء . ويؤيد ذلك ما ورد في كتاب الفتح الخاص بشلبطرة على لسان الخليفة ، بأنه وإن كان صاحب قشتالة أقرب من تبعت حربه دارا ، فإن فصل الغزو ، كان قد ذهب جلّه ، واستحالت الأرض من جراء الأمطار الغزيرة إلى غلور وأوحال ، تحول دون مسير الخيل ، وذهبت معظم الجسور ، وأنه قصد إلى معقل شلبطرة لقيامه في قلب الإسلام ، وكون النصرانية قد جعلته جناحاً أكمل غاية ، تخدمه ملوكها ورهبانها ، وتتخذ منه عاصماً يعصمها ^(٤) . وعلى أى حال فقد طوق الموحدون قلعة شلبطرة ، بعد أن استولوا على أرباضها ، وقتلوا بها من النصارى أربعائة ، وأضرمو النيران فيها ، واستولوا على حصن آخر قريب منها تسميه الرواية « بحصن اللج » ثم نصبوا حولها أربعين قطعة من المجانيق الهائلة ، وضربوها بالحجارة الضخمة ، ورموها

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٦ و ١٥٧ .

(٤) البيان المغرب - القمم الثالث ص ٢٣٩ ، وراجع أيضاً المعجب ص ١٨٢ ، وتضع

بعض الروايات النصرانية سقوط القلعة في أيدي الموحدين في شهر سبتمبر سنة ١٢١٠ راجع :

La Orden de Calatrava (Ciudad Real 1969) (p. 18)

بالنبال والسهام الممطرة ، حتى اضطر النصارى إلى تسليم القلعة ومغادرتها . وقد استمر الحصار وفقاً لرواية صاحب الروض المعطار واحداً وخمسين يوماً . وكانت حامية القلعة ، وفقاً للرواية المذكورة ، حينما اشتد بها البلاء من جراء الضرب المروع المتواصل ، وتساقط الحجارة الهائلة ، قد طالبوا من الموحدين أجلاً يتصلون فيه بملكهم ألفونسو الثامن ليستأذنه في تسليم القلعة ، إذا لم يستطع إنجادهم ، وكان ألفونسو الثامن عندئذ بجوار طليعة يجد في أهباته ، فاتصل به رسلهم ، واضطر أن يوافق على تسليم القلعة لعجزه عن إمدادهم ، ولأنه لم يكن قد استكمل أهباته بعد . فعادوا وسلمت شلبطرة للموحدين ، فدخلوها وحولوا كنيسها في الحال مسجداً ، ووفى الخليفة بوعده في ترك الحامية النصرانية تعود إلى بلادها ، وكان ذلك في أوائل ربيع الأول سنة ٦٠٨ هـ (أواخر أغسطس سنة ١٢١١م)^(١) . ويقول صاحب روض القرطاس إن الحصار قد طال بالعكس ثمانية أشهر ، واستمر بذلك حتى دخل الشتاء واشتد البرد ، وقلت المؤن وكلت عزائم الحند ، وفسدت لياتهم التي قصدوا بها للجهاد ، ونضبت المواد من الحملة ، وأن ملك قشتالة لما وقف على ذلك وعلم أن شوكة المسلمين قد انكسرت ، والحدة التي قاموا بها قد خمدت ، تأهب لأخذ الثأر ، وجاءته ملوك الروم وهم في غاية الاستعداد ، ثم جاء ألفونسو بقواته وهاجم قلعة رباح واستولى عليها . ويضع تاريخ تسليم شلبطرة في أواخر ذي الحجة سنة ٦٠٨ هـ ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة ، لما وقف على سقوط القلعة ، سار وسائر من كان معه من ملوك الروم ، وحشودهم والتي بالموحدين في موضع يسمى « حصن العقاب »^(٢) . بيد أن هذه الرواية التي يستخلص منها أن سقوط شلبطرة في أيدي الموحدين ، وسقوط قلعة رباح في أيدي القشتاليين ، ثم نشوب معركة العقاب بين الفريقين ، قد حدثت كلها متتابعة في حلقة واحدة ، ينقضها أولاً كتاب الفتح الصادر عن الخليفة ذاته بفتح شلبطرة ، وهو مؤرخ في الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ ، ولا بد أنه كتب بعد سقوط القلعة بأيام قلائل^(٣) ، ثم تنقضها أكثر من رواية وثيقة . فصاحب الروض المعطار يقول لنا ، إن الناصر بعد افتتاح شلبطرة « رجع إلى إشبيلية ظافراً غانماً ، ثم استغاث الأذفونش

(١) الروض المعطار ص ١١٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٨ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٨ .

بأهل ملته وحشهم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، وانثالوا عليه من كل مكان » . ويقول لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، إنه بعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر (أعنى فتح شلبطرة) إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاليم البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة^(١) . وإذن فن الواضح أن غزوة شلبطرة كانت غزوة مستقلة ، اقتضت على فتح هذه القلعة المنيعه ، وأن القوات الموحدية التي قامت بفتحها ، لم تكن هي تلك الجيوش الحمر التي عادت بعد ذلك بأشهر ، لتلتقي مع الجيوش النصرانية في « مرتفعات » العقاب ، وأن الموحدين والنصارى ، قد انتفع كلاهما بتلك الفترة لمضاعفة الأبهة والاستعداد .

ففي الوقت الذي حل فيه الناصر بإشبيلية ، بعد عودته من غزوة شلبطرة ، كان ملك قشتالة ، يبذل أقصى جهوده في استكمال أهباته لمقاتلة الموحدين . ولم تكن هذه الأبهة تقتصر على قشتالة وحلفائها من ملوك اسبانيا النصرانية ؛ ولكنها كانت تمتد بعيداً إلى ما وراء ذلك . وقد سبق أن أشرنا إلى مسعى ملك قشتالة لدى البابا ، ليسخف الصفة الصليبية على محاربه المسلمين ، وأن البابا قد استجاب إلى رغبته ، وكتب إلى الأساقفة بدعوة النصارى في جنوبي فرنسا وغيرها إلى التطوع لمقاتلة المسلمين ، وكان سقوط شلبطرة وهي مركز فرسان قلعة رباح في أيدي الموحدين على النحو المتقدم ، نذيراً جديداً بتفاقم الخطر على مصابيح اسبانيا النصرانية ، وبتأكيد هذه الصفة الصليبية^(٢) . وكان المطران المؤرخ رديك الطليطي ، وعدة من أكابر الأقباط عندئذ يجوبون جنوبي فرنسا لجمع المتطوعين . واستمرت هذه الجهود الصليبية تبذل خلال عام ١٢١١ م ، وكانت الوفود المتطوعة تأتي تباعاً إلى طليطلة ، التي تقرر أن تكون مكاناً لاجتماع الجيوش ، والوفود المختلفة . وفي أوائل سنة ١٢١٢ م ، عاد المطران رديك ومعه جمهرة كبيرة من المتطوعة الفرنسيين ، ثم اجتمعت بعد ذلك وفود المدن الإسبانية ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وفرسان الجمعيات الدينية ، وهم فرسان قلعة رباح ، وشت ياقب ، والأسبترية ، والداوية (فرسان المعبد) ، واجتمع كذلك سائر القواميس والفرسان القشتاليين ، وفي مقدمتهم رؤساء أسرة لارا وفرسانها ، والكونت ديجولويث ، ولوبي دياث دي هارو ، ومن معهم من الفرسان . وكان

(١) الروص المطار ص ١٢٧ ، والمعجب ص ١٨٢ .

(٢) La Orden de Calatrava ; p . 18

يرأس فرسان قلعة رباح جوميث راميريس ، وفرسان شنت ياقب بيدرو آرياس ، ويرأس فرسان الأسبانية ولد جوتيرو هرمجلد ، وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من مختلف المدن ، ويتولون الإنفاق على حشودهم . وقدم فوق ذلك عدة من أحجار فرنسا يقود كل منهم جماعة من المحاربين ، وفي مقدمتهم مطران أربونة وأسقف بوردو ونانت وغيرهم من أكابر رجال الدين .

ولم يأت شهر مايو سنة ١٢١٢ م ، حتى اجتمع في قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمعاونة اسبانيا النصرانية ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشيتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان والمقاتلة ، وخمسين ألفاً من الرجالة ، أو بعبارة أخرى اجتمع من هذه الوفود الصليبية المختلفة جيش ضخم يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل ، لموازرة الجيوش الإسبانية النصرانية ، وكانت تتألف من جيوش قشتالة وأراجون ونافارا ، ومن أمداد من جليقية والبرتغال . وتلقى ملك قشتالة ، فوق ذلك ، مقادير عظيمة من الأموال والسلاح ، والمؤن ، أرسلت إليه من أنحاء فرنسا وإيطاليا . ولم يأت شهر يونيو سنة ١٢١٢ م ، حتى بلغ عدد الجيوش الوافدة على قشتالة أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من الرجالة . وأمر البابا إنوسان الثالث في رومه بالصوم ثلاثة أيام ، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية في اسبانيا على المسلمين ، وأقيمت الصلوات العامة . وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب الدينية في الطرقات خاضعة متمهلة ، من كنيسة إلى أخرى ، وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإيبانيين^(١) .

وتشير الرواية الإسلامية إلى هذه الاستعدادات الضخمة كلها ، وإلى ما سعى إليه ملك قشتالة من صبغ محاربه للموحدين بالصبغة الصليبية . وكان المراكشي أكثرهم إلاماً بذلك ، إذ يقول : « وخرج الأذفثن لعنه الله إلى قاصية بلاد الروم ، مستنفرأ من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان ، حتى بلغ نغيره إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشونى لعنه الله »^(٢) . ويقول صاحب

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح (الترجمة العربية ص ٣٥٨ - ٣٦٠) .

(٢) المعجب ص ١٨٢ .

البيان المغرب » فاستعد له (أى للقاء الناصر) وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفين^(١) . ويقول أيضاً صاحب الروض المطار » ثم استغاث الأذقونش بأهل ملته وحشهم على حماية دينهم ، فاستجابوا له واثالوا عليه من كل مكان^(٢) . وأبلغ من ذلك ماورد في كتاب الخليفة الناصر ذاته عن موقعة العقاب إذ يقول » إن صاحب قشتالة رأى أن يضرع الملوك أهل ملته ، ويصانعهم على معونته بالتالد والطريف . . فبث القسيسين والرهبان من يرتقال إلى القسطنطينية العظمى . . فجاءه عباد الصليب من كل فجج عميق ومكان سحيق . . وكان أولهم سبقاً الأفرنج المتوغلون في الشرق والشمال^(٣) فهذه الفقرات الموجزة تدل دلالة واضحة ، على أن الموحدون كانوا يعلمون بحقيقة الوسائل والاستعدادات البعيدة المدى ، التي لحأ إليها ألفونسو الثامن ليقود إلى ميدان الحرب أكبر قوة نصرانية يمكن حشدها ، وليسبح صبغة الحرب المقدسة على المعركة التي يضطلع بها ، مثلما كان المسلمون يسبقون صفة الجهاد في سبيل الله ، على المعارك التي يخوضونها ضد النصارى .

وكان الموحدون من جانبهم يقومون بمثل هذه الاستعدادات ، وقد استنفر الناصر عقب عوده من غزوة شلبطرة إلى إشبيلية ، الناس من سائر الجهات ، ليضاعف حشوده ، وليدعم جيوشه ، فاجتمعت له قوات جديدة كثيفة ، وكان من الواضح أن الفريقين يرى كل منهما أن أجل اللقاء الحاسم يدنو بسرعة ، ففي يوم ٢٠ يونيه سنة ١٢١٢ م ، خرجت الجيوش النصرانية ، من طليطلة قاصدة إلى الجنوب . وكانت مقسمة إلى ثلاثة جيوش رئيسية ، جيش الطليعة ويتألف من قوات الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف مقاتل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ، وكان يقوده القائد القشتالي ديمجولبيت دى هارو يعاونه عدد من أكابر الأحبار والقوامس . ويتألف الجيش الثانى من قوات أراجون وقطلوونية وفرسان الداوية ، ويقوده بيدور الثانى ملك أراجون . ويتألف الجيش الثالث ، وهو جيش المؤخرة من قوات قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشتت ياقب والأسبتارية ، ويقوده ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، يعاونه

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الروض المطار ص ١٣٧ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٤١ .

عدة قواد من الأحيار والسادة ، وفي مقدمتهم رديك مطران طليطلة ، وتقدر الرواية عدد القُرسان في هذه الجيوش بثلاثين ألفاً ، وذلك غير المشاة .

وخرج الناصر في جيوشه من إشبيلية في العشرين من محرم سنة ٦٠٩ هـ (٢٣ يونيو سنة ١٢١٢ م) متجهاً صوب جيان ، وقاصداً لقاء النصارى . وكانت الجيوش النصرانية تسير في نفس الوقت نحو الأراضي الإسلامية ، فوصلت ثلاثتها في اليوم الرابع والعشرين من يونيو ، إلى حصن مَلْجُون ، وهو من حصون الحدود الإسلامية ، فاستولت عليه ، وقتلت حاميته الإسلامية الصغيرة ، ثم استمرت الجيوش النصرانية في سيرها صوب قلعة رباح أكبر وأمنع القواعد الإسلامية في تلك المنطقة . وكان الخليفة المنصور قد انتزعها عقب موقعة الأرك من فرسان قلعة رباح حسبما تقدم وحول كنيسها إلى مسجد ، وعين لقيادتها أباً الحجاج يوسف بن قادس ، وهو من أنجاد القُرسان والقادة الأندلسيين ، وكان يسهر على حمايتها ، والدفاع عنها ، من ذلك التاريخ ، وكان لديه وقت مقدم النصارى حامية من سبعين فارساً^(١) . ولقي النصارى في عبور نهر وادي يانه الذي تقع قلعة رباح على مقربة من ضفته الجنوبية صعاباً ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبيه الصنابير والخوازيق الحديدية ، فلما عبروا النهر ، طوقوا القلعة في الحال ، ولكن القلعة كانت فضلاً عن مناعتها الطبيعية بوقوعها جنوبي النهر ، تتمتع بأسوار وأبراج في منتهى المناعة ، ومن ثم فقد تردد النصارى في مهاجمتها بادئ ذي بدء ، ولبثوا تحت أسوارها ثلاثة أيام يبحثون فيما إذا كان من الأفضل الاكتفاء بتطويق القلعة ، وترك افتتاحها لما بعد وقوع النصر ، ولكن غلب الرأي في النهاية بوجوب مهاجمتها ، فهوجمت بشدة في يوم ٣٠ يونيو ، واستطاع النصارى أن يحتلوا قسمها الخارجي الذي يحاذي النهر ، وهو أضعف قسمها من حيث المناعة . وهنا تنفق الروايتان النصرانية والإسلامية ، فيما تلا من تفاهم المسلمين والنصارى على تسليم القلعة ، ومنح الأمان لحاميتها ، وتركهم أحراراً في مغادرتها إلى بلادهم ، وذلك على نحو ما حدث في شلبطرة بالنسبة لحاميتها النصرانية . وكان ابن قادس قد انتهى إلى هذا الرأي ، بعد أن حاول الاستنجاد عيئاً بالناصر ، وهو بمحلته القريبة ، وبعد أن أيقن بعبث الدفاع ، وتعريض رجاله لموت محقق ، إذا هو أصر على القتال . وكان ألفونسو ملك قشتالة ، يؤيد هذا الحل السلمى الذي يمكنه

من الاستيلاء على قلعة رباح دون تأخير ودون سفك دماء . ولكن حلفاءه من الأرجونيين والأجانب الوافدين ، عارضوا في أية تسوية تحقق بها دماء الحماية الإسلامية . ولكن غلب الرأي بقبول هذا الحل في النهاية ، خصوصاً ، وقد صمم ابن قادم على الدفاع ، إذا لم يجب إلى ما طلب من منح الأمان والحرية لرجاله . واتفق على أن يغادر الفرسان المسلمون القلعة دون سلاح ، ومعهم خمسة وثلاثون من الخيل . وهكذا استولى ألفونسو الثامن على قلعة رباح ، وسلمها في الحال إلى « فرسان قلعة رباح » أصحابها السابقين ، قبل أن يفتحها الخليفة المنصور^(١).

وكان افتتاح قلعة رباح مثار التناوب والخلاف بين القشتاليين وحلفائهم الوافدين . ذلك لأن الوافدين الصليبيين ، رأوا في إفلات المسلمين من القلعة أحراراً أحياء ، عمالاً مبرر له ، ولا يتفق مع أغراض الحرب الصليبية ، وثانياً لأن ألفونسو وجد في قلعة رباح مقادير وافرة من المؤن قسمها بالتساوي بين الجند الوافدين وزملائهم المحاربين الأصليين ، ولكن سرت الإشاعة بين الجند الوافدين ، أن ملك قشتالة ، قد عثر بالقلعة على تحف و ذخائر كثيرة استأثر بها لنفسه . ومن ثم فقد أبدت طوائف كثيرة من الجند الوافدين تبرمها وبخطها ، واحتج كثير منهم بأنهم لا يحتلون جو إسبانيا الحار ، وأنهم وفوا بعهودهم في مقاتلة المسلمين في ملجون وقلعة رباح ، وأبدوا عزمهم على الرجوع إلى بلادهم ، وأيدهم في ذلك مطران بورجو أعظم أجبارهم ، ولم تنجح جهود ملك قشتالة وزملائه الإسبان ، في إقناعهم بالعدول عن قرارهم ، وغادرت معظم الطوائف الوافدة المعسكر القشتالي ، ولم يبق منهم سوى أرنولد أسقف أربونة في رجاله ، والكونت تيوبالد بلاسكون وهو قشتالي المنبت ، وكانت عدة رجالهم مائة وثلاثون فارساً ، وبلغ من غادر المعسكر القشتالي على هذا النحو زهاء خمسين ألف مقاتل ، اخترقوا قشتالة ، صوب جبال البرنيه عائدين إلى بلادهم ، وقد أغلقت سائر المدن الإسبانية أبوابها في وجوهم خوفاً من اعتدائهم وعيهم^(٢).

(١) المعجب ص ١٨٣ ، وروى القوطاس ص ١٥٧ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة ، وكان مشتركاً في الموقعة ، وقد أوردما Hulci Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956) p. 242, 244 & 245 وكذلك أنباخ في تاريخ المرابطين والموحدين « الترجمة العربية » ص ٣٦١ و ٣٦٢ .
(٢) أنباخ في تاريخ المرابطين والموحدين الترجمة العربية ص ٣٦٢ و ٣٦٣ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة H. Miranda : ibid ; p. 245 .

— ٢٩٨ —

وإنه لما يلفت النظر أن الرواية الإسلامية ، لم يفتها أن تشير إلى هذا الشقاق الذى وقع فى المعسكر النصرانى ، على أثر افتتاح قلعة رباح ، فترى المراكشى يقول مشيراً إلى افتتاح القلعة « فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا إنما جئت لنفتح لنا البلاد ، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ، مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه » (١) .

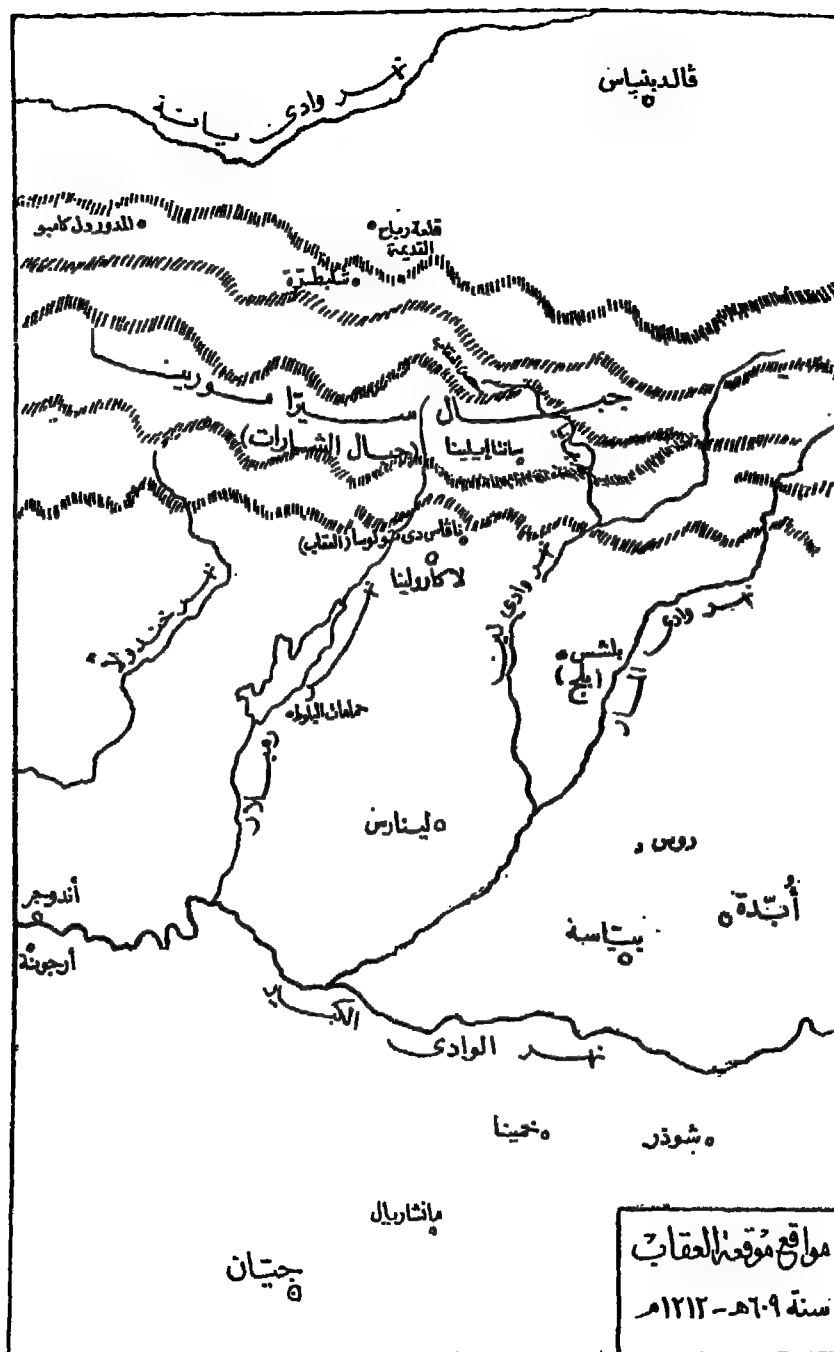
— ٢ —

وفى ذلك الحين كان الناصر قد وصل فى جيوشه الحرارة إلى جيان ، وهناك استقر بظاهاها أياماً ، منتظراً عبور النهر ، ووقف على ما وقع من أحداث على الحدود ، من سقوط قلعة رباح فى يد العدو ، وما حدث على أثر ذلك فى المعسكر النصرانى من الشقاق ، وما عمدت إليه طوائف الحند الوافدين من العود إلى بلادها . وقدم ابن قادس قائد قلعة رباح عندئذ ، إلى المحلة الموحدية ، مع صهره ونفر من أصحابه ، ليقص أمره على الخليفة ، فنعاه الوزير أبوسعيد بن جامع من ذلك ، وصور موقفه للخليفة أسوأ تصوير ، واتهمه بالخيانة وتسليم القلعة للنصارى ، فأمر الناصر بإعدامه هو وصهره ، دون أن يستمع إليه ، أو يستوضح أمره ، فأعدما طعناً بالرمح ، وكان لمصرع هذا القائد الأندلسى الباسل على هذا النحو ، وقع عميق بين مواطنيه الحند الأندلسيين ، ولما شعر الوزير ابن جامع بما حدث من تغير نفوس الأندلسيين ، استدعى قادتهم ، وطلب إليهم أن يعتزلوا جيش الموحدين ، وأنه لاجابة للموحدين بهم . وكانت هذه إحدى البوادر المقلقة فى المعسكر الموحدى (٢) .

وكان لسقوط قلعة رباح فى أيدي النصارى أسوأ وقع فى نفس الخليفة الناصر ، وكان ألفونسو الثامن عقب استيلائه على القلعة ، قد استطاع أن يتغلب بسرعة على ما حدث فى المعسكر النصرانى ، من جراء ذلك من خلل ، بسبب رحيل بعض طوائف المحاربين الوافدين ، وأن ينظم ما تبقى من قواته المكونة من قوات قشتالة وأراجون وجليقية والبرتغال . وكان ملك نافارا ، قد ارتضى

(١) المعجب ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، واثروض المطارص ١٣٧ .



أخيراً بالرغم من خصومته القديمة لقشتالة ، ومهادنته للموحدين ، أن يشترك في تلك الحملة الصليبية بقوة صغيرة من الفرسان ، وذلك نزولاً على نصيح البابا وإلحاحه^(١) ، وهكذا استأنفت القوات النصرانية المتحدة سيرها إلى الجنوب نحو الأراضي الإسلامية ، ومرت بشلبطة دون أن تتعرض لها ، حتى أشرفت ثلاثهما على مرتفعات جبال الشارات (سييرا مورينا) ، ثم لحقت بها سائر القوات الأخرى ، واحتلت البسيط العلوى المقفر المسمى ممر مورادال ، وذلك في يوم ١٣ يولييه (العاشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ) .

وفي خلال ذلك كان الخليفة الناصر ، قد تحرك في جيوشه الحرارة نحو الشمال لملاقاة العدو ، وكانت الجيوش الموحدية ، قد قسمت كالعادة إلى وحداتها العنصرية والقبلية ، فكانت خمسة أقسام ، يتكون القسم الأول من طوائف العرب ، ويتكون القسم الثاني من القبائل المغربية مثل صنهاجة وزناتة والمصامدة وغمارة وغيرها ، والقسم الثالث من الجنود المتطوعة ، والقسم الرابع من جند الموحدين النظامية ، والقسم الخامس من جنود الأندلس . أما عن عدد الجيوش الموحدية التي كان يقودها الناصر ، فقد بولغ في شأنه مبالغة كبيرة . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الناصر قد خرج في جيوش لا تحصى وأمم كالجراد المنتشر ، قد ملأت السهل والوعر ، وضاق بهم المتسع والنجد والغور . ثم يقدم إلينا في موضع آخر أرقام الجيوش الموحدية مفصلة ، فيقول إن عدد المتطوعة بلغ مائة وستين ألفاً بين فارس وراجل ، وبلغ عدد الرجال الخشودين ثلاثمائة ألف راجل ، وبلغ عدد العبيد الذين يمشون بين يدي الخليفة بالحرايب ويدورون حوله ثلاثون ألف عبد ، ومن الرماة والأغزاز (الغز) عشرة آلاف . وذلك كله دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم . ومعنى ذلك أن الجيوش الموحدية بلغت مجتمعة نصف مليون مقاتل غير المرتزقة^(٢) . وفي رواية أخرى لا تقل مبالغة وإغراقاً أن الجيوش الموحدية كانت تضم ستمائة ألف مقاتل^(٣) ، وهذا تقدير لا يمكن أن يسيغه العقل ، إذ كان من المستحيل مادياً أن يكفل تموين مثل هذا الجيش ، وخصوصاً في مثل هذه المنطقة الوعرة التي كان يحترقها الجيش الموحدى للقاء

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٠ .

(٣) المقرئ في فتح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ ، ونقله السلاوي في الإستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

أعدائه . ونحن نعرف أن مسألة التكوين بالذات كانت من أعقد مشاكل الجيش الموحدى ، وكانت تسبب له دائماً أزمات ومتاعب عديدة . ونحن نعتقد أننا لو قدرنا الجيش الموحدى بمختلف وحداته بمائتى ألف مقاتل ، لكننا أقرب كثيراً إلى الحقيقة والمعقول .

واختيرت الجيوش الموحدية نهر الوادى الكبير ، واتجهت صوب يباسة ، وكانت قد تخلفت أياً ما عن عبوره لارتفاع مائه ، ثم عبرته حين نصب الماء ، واحتلت سريات من خيرة أنجادهامرات جبل الشارات المؤدية إلى يباسة وأبدية ، ومنها ممر « لوسا » الوعر ، الذى تستطيع قوة صغيرة باحتلاله أن تمنع جيشاً كبيراً من جوازه ، ثم نزلت الجيوش الموحدية فى البسيط الواقع تجاه هذا الممر وهو يقع اليوم أمام الطرف الغربى لقرية سانتا إيلينا Sta. Elena وتسميه رسالة الغزو الرسمية « بالمرشة » .

واعترى الخليفة الناصر أن يصعد فى هذا المكان للقاء النصارى . وكان الناصر يعتمد على ما بلغه من حوادث الانشقاق فى الجيوش النصرانية ، وما تلقاه من متاعب التكوين ، لانتهاز الفرصة فى لقاءها ، وهى متعبة ، فائرة الهمم . ويبدو من أقوال سائر الروايات الإسلامية ، أن الناصر كان واثقاً من النصر ، معترفاً غاية الاعزاز بضخامة حشوده ، وتفوقه العددي .

ولابد لنا قبل أن نعرض إلى تحركات الجيشين المتحاربين ، أن نحاول أن نرسم للقارئ صورة واضحة من أوضاع هذه المعركة الشهيرة ، والأمكنة التى وقعت فيها . ذلك أن دراسة ميدان معركة العقاب ، وخواصه الطبوغرافية ، مما يساعد على إيضاح كثير من الروايات التى وردت بشأن المعركة ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا أن نقوم بهذه الدراسة الشاقة ، وأن نتجول فى هضاب جبال سيرا مورينا (جبال الشارات) وأن نصعد إلى قممها الشاهقة ، وأن نشهد الأمكنة التى اجتازتها وعسكرت فيها الجيوش النصرانية ، وأن ندرس طبيعة المكان الذى كان يحتله الجيش الموحدى فى أسفل الجبال .

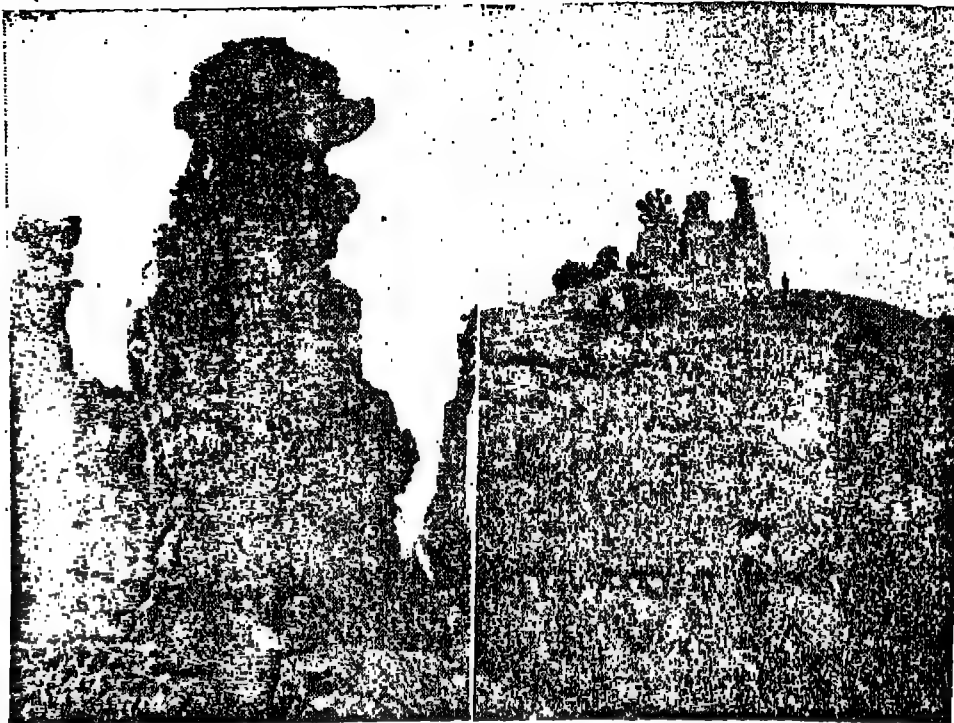
ويجب أن نذكر أولاً أن المعركة تعرف فى التواريخ النصرانية ، بمعركة نافاس دى تولوسا Navas de Tolosa ، وهذا الاسم مازال يطلق حتى اليوم على محلة أضيعة صغيرة ، تقع فى سفح جبال الشارات على مقربة من شمال شرقى بلدة « لاكاروليناه الواقعة على الطريق الكبير الممتد من مدريد جنوباً إلى الأندلس .

— ٣٠٢ —

يبد أن هذا الاسم القديم الذى يعنى « هضاب تولوسا » أو « عقاب تولوسا » قد فقد مدلوله القديم : وتدل سائر المعلومات والوثائق التاريخية ، وكذلك البحوث الحديثة ، على أن المعركة لم تقع فى هذا المكان الذى أطلق اسمه عليها ، بل وقعت شمالى هذا المكان بنحو عشرة كيلومترات ، فى الهضاب والبساتط ، الواقعة غربى قرية « سانتا إيلينا » فيما بينها وبين قرية « ميرانده دل رى » وفى أسفل الأكمة المسماة « مائدة الملك » Mesa del Rey التى سوف نذكرها فيما بعد ، وذلك حسبما يوضح لنا الرسم التخطيطى ، الذى نقدمه نتيجة لدراستنا لمعالم الموقعة . ونستطيع من جهة أخرى أن نقدم دليلاً على صحة هذا التحديد الطبوغرافى لميدان الموقعة ، ما يعثر عليه الباحثون فى هذا المكان ، من آن لآخر ، من السهام الموحدة الأرضية التى كانت تنصب للخيول ، وقد عثرنا نحن على خمسة منها بالحفر بأنفسنا فى هذه الساحة ، وهى التى نقدم صورتها بعد .

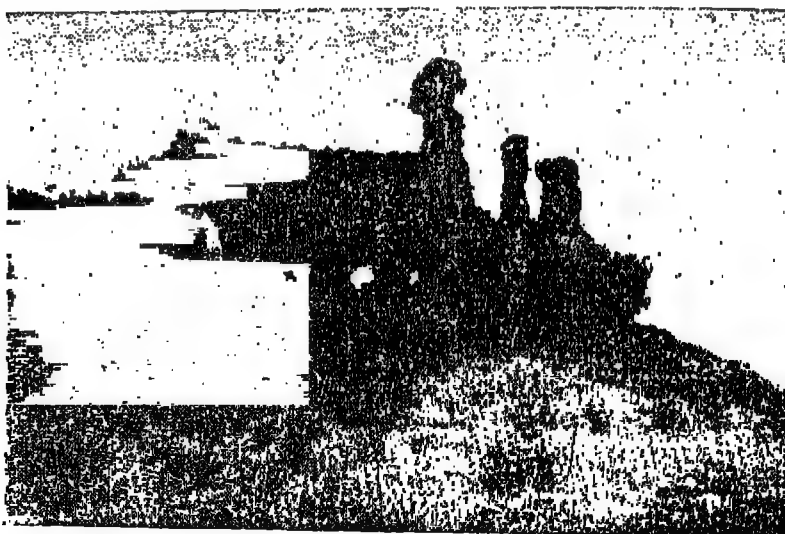
حصن العقاب

وجبال الشارات ، التى لبثت عصوراً تفصل بين الأندلس ، وإسبانيا النصرانية ، فى هذه البقعة ، عبارة عن عدة متعاقبة من الجبال السوداء العالية ، تفصلها هضاب وعرة أو بعض السهول المتدرجة . وقد بدأنا بعد رحلة شاقة فى أعماق الجبال ، استغرقت بضع ساعات ، بالصعود إلى موقع الحصن ، الذى يسمى بالإسبانية حصن كسترو فرال Castro Ferral ويسميه صاحب روض القرطاس ، حسبما يأتى بعد ، بـ حصن العقاب أو حصن العقبان . وهو يقع فوق قمة أحد الجبال فى الصف الثالث أو الرابع تجاه بلدة سانتا إيلينا . وهو يحتل أعلى قمة فى الجبل ، ويقع شمال غربى سانتا إيلينا ، إلى يسار المنحدر الجبلى الشهير المسمى دسبتيابروس Despeñaperros (أو منحدر الكلاب) . ولم تبق اليوم من هذا الحصن سوى أطلال دارسة هى عبارة عن بقايا جدارين عاليين متوالين . ويبلغ ارتفاع الجدار الأول نحو ثمانية أمتار ، وبه ثغرة كبيرة فى وسطه . ويبلغ ارتفاع الجدار الثانى نحو عشرة أمتار ، وهو يليه ويبعد عنه نحو خمسة أمتار . وتوجد كذلك بقية جدار جانبي إلى يمين الداخل ، طولها نحو عشرة أمتار وارتفاعها نحو ستة ، وفيه ثغرتان من أسفل ، ومساحة هذا الطلل كلها تبلغ نحو عشرين متراً فى خمسة عشر . وما زالت أسس الجدران ظاهرة فى أرض المكان .



الجدار الأوسط لأطلال حصن العقاب

أطلال حصن العقاب كما تبدو عن بعد فوق الجبال



الواجهة الخلفية لأطلال حصن العقاب

الطريق الرومانى والنهر

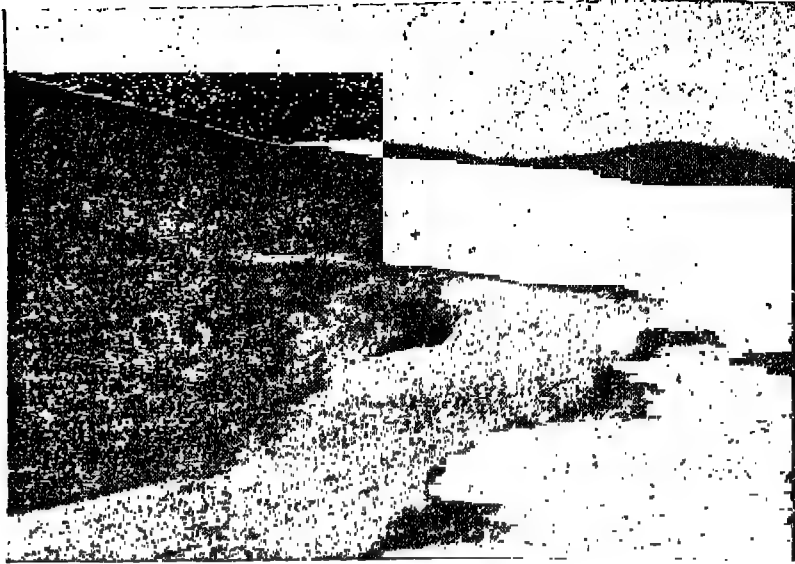
وإنه لما يسترعى النظر فى أعماق هذه الجبال الوعرة ، هو طريق عبورها ، سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب أعنى من الأندلس إلى الشمال (أراضي قشتالة) . وقد تتبعنا هذا الطريق المسمى «كارثادا» Carzada ، وهو الطريق الرومانى القديم ، وهو يوجد وراء الجبال فى المنحدرات النازلة نحو النهر الصغير الذى يقع فى سهل خفيض فى أسفل الجبل ويسمى نهر مجانيا Magaña وهو عبارة عن فرع صغير من نهر وادى لين المتفرع من نهر الوادى الكبير ، وكان الطريق الهابط يستمر حتى النهر ، ثم بعد عبوره ، يعود فيصعد الصف الثانى من الجبال نحو الشمال . أما النهر ذاته فهو يقع خلف الصف الأول ، وأسفل الصف الثانى من الجبال ، وهو نهر صغير لا يزيد عرضه عن خمسة عشر متراً ، وقد رأينا به قليلاً من الماء . وكان المسلمون يعبرون هذا الطريق الذى كان يعبره الرومانيون من قبل ، إلى أراضي قشتالة .

بويرتو دل مورادال

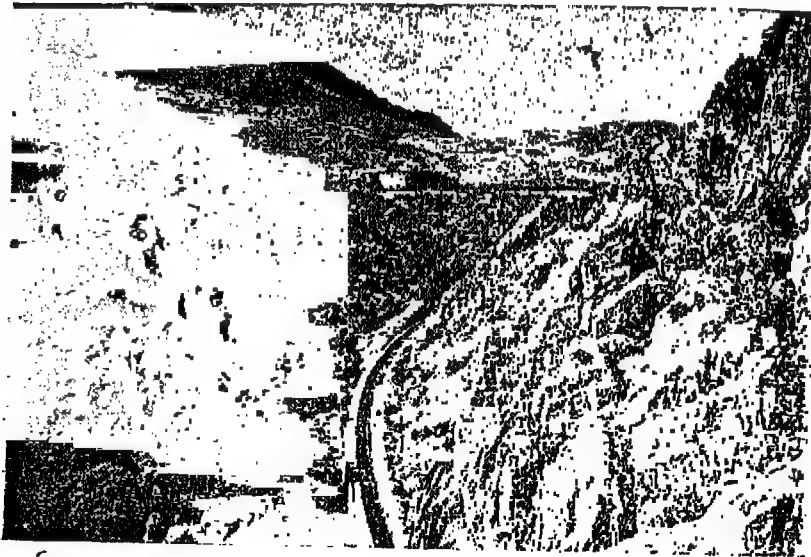
وهذا الطريق المسمى «كرثادا» يسير من ناحية أخرى صاعداً نحو القمة الكبيرة الواسعة من السفح المسماة Puerto del Moradal (بويرتودل مورادال) أو ثغر مورادال ، وكان هذا هو أهم ممرات جبل الشارات . والطريق الصاعد إليه فيما يبلو من آثاره الحجرية ، كان طريقاً عريضاً ، يبلغ عرضه نحو العشرة أمتار . وكذلك يبدو من بعض أجزائه القليلة الباقية ، المعبدية بالحجر الأسود ، أنه كان طريقاً معبداً كله ، وهذا الممر يحتل فوق قمة جبل الشارات مساحة كبيرة منبسطة ، ثم ينزل من الناحيتين صاعداً وهابطاً ، ويسمى منزل هذا الممر وما حوله باسم «الإمبدراديلو» Empedradillo . وقد شاهدنا فوق قمة مورادال ، وأمام الممر ، أنقاض أحجار كثيرة ، قبل لنا إنها كانت أنقاض محلة رومانية Venta خلال الطريق القديم ، ومنها ينزل نحو نهر مجانيا . ويوجد على مقربة من ممر مورادال جبل مطل على النهر يسمى «جبل المسلم» Cerro del Moro .

مائدة الملك

وإلى يسار ممر مورادال ، على مسافة نحو ساعة منه ، توجد قمة أخرى تشغل بسيطاً كبيراً بيضاوياً ، يمتد نحو اليمين ونحو اليسار إلى مسافة عدة كيلومترات ،



نہر مجانیا کا یبدو فی أسفل الجبال



منجہار دسیفیپروس

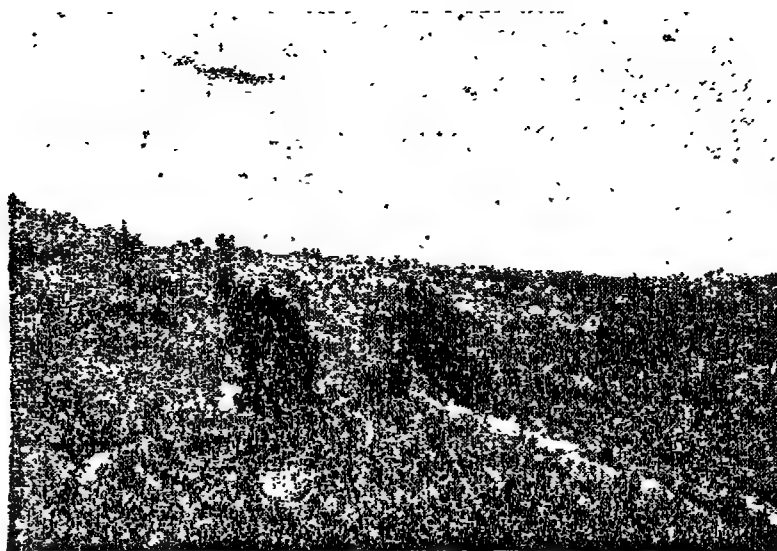
- ٣٠٦ -

وهو البسيط الذى يسمى « مائدة الملك » Mesa del Rey ، وقد شهدناه من بعد أولا ، ولاح لنا أنه بالفعل ، مستدير أويضاوى كالمائدة ، ومن ثم كان الاسم الذى أطلق عليه . وتنحرف جوانب هذه القمة إلى أسفل الوادى ، مغطاة بالخضرة ، وإلى جانبها الأيمن مرتفعات متعددة صاعدة ونازلة . وهذا المرتفع المستدير يمتد كما قلنا من الجانبين إلى مسافات شاسعة يطلق عليها جميعا نفس الاسم « مائدة الملك » ، ويبدو من انبساطها وضخامة مساحتها ، أنها كانت بالفعل تصلح محلة للجيش الغازية .

* * *

ونحن نستطيع بعد تتبع هذا الوصف لأوضاع المعركة وأماكنها المختلفة ، أن نتبع تحركات الجيشين القشتالى والموجدى ، وأن تكون فكرة واضحة عن مسرح معركة العقاب الحقيقى .

وكان النصارى بعد احتلالهم بسيط مورادال الواقع فوق الجبل ، قد استطاعوا أن ينتزعوا قلعة كسترو فيرال الإسلامية الواقعة فى قمة الجبل والى وصفناها من قبل ، وهى التى تسمى أحيانا بـ حصن العقاب ، وكانت بها حامية موحدية صغيرة ، ولكنهم شعروا مع ذلك بخرج موقفهم فى ذلك المكان نظراً لوعورته ، ونقص وسائل التموين والمياه فيه ، وكان لابد لهم بأى حال أن يعبروا جبل الشارات إلى الناحية الأخرى ، وكان ذلك متعذراً عليهم نظراً لاحتلال الموحديين سائر ممراته بقوات كافية ، ولاسيما ممر لوسا الواقع جنوب غربى الحصن ، وهو الذى يفضى إلى سهول تولوسا ، والذى لا يمكن لجيش عظيم بأسره اقتحامه . عندئذ اجتمع الملوك النصارى مع قوادهم للبحث عن مخرج لهذا المأزق ، وكان رأى الغالب ، هو أن يعود الجيش النصرانى أدراجه إلى السهل ، ثم يحاول دخول أراضي الأندلس من طريق آخر ، ولكن ملك قشتالة عارض فى هذا رأى ، لأن أية حركة ارتداد كانت فى نظره خطراً على روح الجيش المعنوية ، فضلاً عن اعتبارها من جانب الأعداء فراراً ونكولاً عن خوض المعركة . وهنا تعرض لنا الرواية النصرانية قصة يطبعها لون من الأسطورة ، وهى أن راعياً من رعاة هذه الأنحاء ، تقدم إلى القادة النصارى ، وأخبرهم أنه يستطيع إرشادهم إلى طريق آخر لعبور الجبل ، يقع فى مرفق آخر ، ويفضى إلى سهل أبدية ، ويمكن أن يسلكه الجيش دون أن يفتن العدو إلى ذلك . فسار معه القائدان لوبث دى هارو ،



مر پورتو دل مورادال كما يبدو من أسفل الجبل



بسيط مائدة الملك Mesa del Rey كما يبدو من أسفل الجبل

وغرسية روميرو لمعينة هذا الطريق ، ولما تحققت صحة كل ما قاله الراعي ،
بادر الجيش النصراني في نفس اليوم - وهو يوم السبت ١٤ يولييه - بالسير إلى
ذلك المرتفع الجديد ، واحتلوا بسيطه - وهو البسيط الذي يطلق عليه اليوم اسم
« مائدة الملك » Mesa del Rey وهو الذي وصفناه ، وبينما موقعه فيما تقدم .
وحصنوا ما حوله ، وبقيت بقية الجيش النصراني مرابطة من ورائه ، واعتبر
هذا الراعي المرشد متقدماً أرسله الله^(١) .

ولم يخف أمر هذه الحركة التي قام بها الجيش النصراني على الموحدين ، وقد
وقفوا في الحال على مكان عدوهم الجديد ، وحاولت فرقة من الفرسان الموحدين
عبثاً أن تنتزع هذا المرتفع الجديد من أيدي النصارى . وصدرت أوامر الخليفة
الناصر بتعبئة الجيوش الموحدية لخوض المعركة في الحال ، ولكن الملوك النصارى
آثروا الاعتصام مؤقتاً بمركزهم المنيع ، ولم يريدوا بالأخص أن يخوضوا المعركة
في يوم أحد ، واقتصر الأمر على بعض المناوشات البسيطة بين سرايات الفرسان
من الفريقين . بيد أنه لم يكن من اليسور على النصارى أن يؤخروا خوض المعركة
لأكثر من يوم ، أولاً لقلّة مؤنهم ، وخوفهم أن تنضب بسرعة ، وثانياً لكون
الجيش الموحدى ، لبث منذ يوم السبت في حالة تعبئة مستمرة للقتال ، وقد
يفاجئ الجيش النصراني بالمهجوم . وكان الناصر على علم مستمر بأحوال الجيش
النصراني ، وكانت كل تدبيراته تؤكد له تحقيق الظفر المنشود .

وليس لدينا في الرواية الإسلامية تفاصيل شافية ، عن التنظيمات التي وضعت
للجيوش الموحدية لخوض المعركة ، بيد أنه يبدو مما ذكره لنا صاحب روض
القرطاس ، وكذلك ما يذكره لنا رديك الطليطي ، وهو من شهود المعركة ،
أن الجيش الموحدى ، قُسم وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق ، تتألف
الفرقة الأمامية من القوات المتطوعة من مختلف الطوائف ، وتتألف قوات القلب
والقوات الاحتياطية من الحند الموحدين ، وهم أغلبية الحند النظامية ، وتتألف
الميمنة من القوات الأندلسية ، والميسرة من قوات البربر من مختلف القبائل .

(١) وردت هذه التفاصيل وهذه القصة في معجم التواريخ النصرانية الإسبانية . ويراجع في ذلك
Primera Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II, p. 698 ونقلها الأستاذ هويثي في كتابه :
Las Grandes Batallas de la Reconquista ; p. 250 . ونقلها أيضاً أشباح في تاريخ
المرابطين والموحدين (الترجمة العربية) ص ٣٦٥ .

وضربت قبة الخليفة الحمراء ، فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذى تحتله الحيوش الموحدية ، والذى يواجه مواقع الجيش النصرانى. ودارت العبيد ، وهم أغلبية الحرس الخلفى حول القبة من كل ناحية ، وكلها مزودة بالسلاح والعدة ، وضرب فى نفس الوقت حول القبة الخليفة سياج من الأعمدة وعدة من السلاسل الحديدية الضخمة ، وشهر جند الحرس حراهم فى اتجاه العدو ، فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ، وجلس الناصر فى قبة مستنداً إلى درقته ، ومعه أشياخ الموحدين ، وربطت فرسه مسرجة أمامه ، ووضعت الساقات والبندول والطبول أمام العبيد ، تحت إمرة الوزير أبى سعيد بن جامع . وكان بوسع النصارى أن يروا من مواقعهم العالية ، جموع المسلمين التى لا تحصى ، وفى قلبها قبة أمير المؤمنين الحمراء^(١).

أما عن تنظيم الجيش النصرانى فلدينا تفاصيل كثيرة ، يقدمها إلينا ردرىك الطليطلى وغيره من شهود المعركة ، خلاصتها أن الجيش النصرانى قسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يترعم كل قسم منها ، ملك من ملوك النصارى الثلاثة ، الأول يتكون من القلب ويقوده ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، هذا إلى جانب احتفاظه بالقيادة العليا . ويتكون الثانى من الجناح الأيمن ، ويقوده سانشو ملك نافارا ، ويضم فضلاً عن القوات النافارية ، جند سرية وآبله وشقوبية ومدينة سالم ، وفرسان فرنسا الذين يرأسهم مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال . ويتكون القسم الثالث من الجناح الأيسر ، ويقوده بيدرو الثالث ملك أراجون ، ويشتمل على قوات الطليعة والقوات التى يقودها أشراف أراجون . وقد وزع كل قسم من هذه الأقسام إلى وحدات عديدة ، فوضع فى القلب فرسان الداوية والأسبترية وفرسان قلعة رباح كل منها تحت إمرة قائده الخاص ، وكذلك الصفوف التى يقودها مطران طليطلة وخمسة من الأساقفة القشتاليين^(٢).

وفى ليلة يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ (ليلة ١٦ يولية سنة ١٢١٢ م) ، استعد الفريقان لخوض المعركة ، وقضى النصارى شطراً من

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ ، وراجع أيضاً أتياخ فى تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ص ٣٦٧ ، وكذلك :

Huici : cit. Anales Toledanes, Las O. Batallas de la Reconquista p. 257

(٢) أتياخ الترجمة العربية ، ص ٣٦٦ ، وكذلك : Huici : ibid; p. 253 & 254 .

الليل في الصلاة والدعاء ، وتلقى البركة والغفران البابوي على يد الأساقفة ورجال الدين . ولم نجد في الرواية الإسلامية ما يشير إلى أنه وقع الجيش الموحدى في تلك الليلة ، شئ من تلك المناظر المؤثرة ، التي وقعت به قبيل اضطرام معركة الأرك ، من تبادل الاستغفار بين الخليفة والناس ، ومن وعظ وبكاء وحث على الجهاد ، فقد كان الخليفة الناصر حسبما تشير سائر الروايات ، واثقاً من النصر ، واثقاً من تفوقه العددي الهائل ، ولم يكن ينتظر سوى بدء المعركة لإحراز النصر المنشود .

وبدأت المعركة في الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من صفر ، وكان كل من الجيشين على أهبة لحوضها ، وقد رتبت صفوفه وفقاً للأوضاع التي سبق وصفها . وبدأ النصارى بالمعجوم ، فهبطت طلائعهم بسرعة من المرتفع الذى تحتله الجيوش النصرانية في بسيط « مائدة الملك » Mesa del Rey إلى السهل الأسفل الذى يحتله الجيش الموحدى ، والذى يشغل بسيطاً شاسعاً ، يقع عند الطرف الغربى من بلدة « سانتا إيلينا » ، ويستند من الخلف إلى سلسلة من المرتفعات المنخفضة ، وانقضت على مقدمة الجيش الموحدى ، فلقيتهم صفوف المتطوعة بقوة وثبات ، واقتتل الفريقان بشدة حتى بدأ النصارى فى التراجع ، فأدركتهم الأمداد ، وعادوا إلى الثبات تعززهم فرق الفرسان ، التى صعب على المتطوعة الموحدين اختراقها ، وهجم فى نفس الوقت جناح الجيش النصرانى على جناحى الجيش الموحدى ، واحتدمت بين الجيشين معركة هائلة عامة ، وكانت طبول الساقة الموحدية ، تهز الآفاق بدويها الرائع . ويستفاد من أقوال الروايين الإسلامية والنصرانية ، أن المتطوعة المسلمين بعد ثباتهم الأول ، قد ارتدوا تحت ضغط النصارى الهائل ، وكثر القتل فيهم ، بل يقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنهم لبشوا يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم « وعساكر الموحدين والعرب وقواد الأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك منهم أحد »^(١) . ولكن النصارى حين تقدموا بعد التغلب على فرق المتطوعة إلى قلب الجيش الموحدى ، لقوا من الجند الموحدين أشد مقاومة ، وردوا على أعقابهم . ومن جهة أخرى ، فإن قوات الميمنة والميسرة الموحدية استطاعت بعد قتال عنيف أن ترد جناحى الجيش النصرانى ، وأخذ النصارى حسبما تقول لنا الرواية النصرانية ذاتها ، فى الارتداد

والفرار^(١)، ولاح للفريقين أن لواء البصر سوف يعقد للموحدين . ولكن هذه البارقة لم يطل أمدّها . ذلك أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، حينما شهد من فوق المرتفع ما آلت إليه المعركة ، من تراجع القوات النصرانية في القلب والجنّاحين ، وما ينذر به ذلك من هزيمة محققة ، اعتزم في الحال أن ينزل إلى الميدان بقواته الاحتياطية المختارة ، من قوات قشتالة وليون ، ليقاتل قتال اليائس ، واندفع بالرغم من اعتراض المطران والأساقفة والقوامس على مسلكه الخطر ، في قواته إلى الصف الأمامي . وتبعه في نفس الوقت ملكا أراجون ونافارا كل في قواته ، نحو جناحي الجيش الموحدى ، وهجمت القوات النصرانية كلها في وقت واحد ، بمنتهى العنف والشدة ، حتى بدأت ميمنة الجيش الموحدى وميسرته في الارتداد أمام ضغط الفرسان النصارى ، وفرّ الأندلسيون والعرب ، وأحدث فرارهم اضطرابا في الصفوف . وهنا تركز هجوم النصارى على قلب الجيش الموحدى ، المكون من الجنود النظامية والاحتياطية ، والذي تتوسطه قبة الخليفة الحمراء ، ومن حولها الحرس الخليقي الأسود ، وكان النصارى قد انتعشوا ، بما شهدوا من تطور المعركة في صالحهم ، فشدّوا الهجوم على الموحدين . وصمد الموحدون ، ودافعوا بمنتهى الشدة ، ومن ورائهم الحرس الأسود شاهراً رماحه ، من وراء السلاسل الحديدية الضخمة ، وكان الخليفة الناصر قد أدرك حقيقة الموقف ، فنهض من مجلسه وجلس أمام خبائه على درقته ، وهو يبحث جنوده على الاستبسال ، واستطاع النصارى أخيراً أن يخترقوا قلب الجيش الموحدى إلى دائرة الحرس الأسود ، فردّتهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد المشهورة حيناً ، وهم كالبنيان المرصوص حول القبة الخليفية . واكنّ النصارى « ردوا أكفال الخيل المدرعة إلى رماح العبيد »^(٢) فاخترقوا الدائرة المدرعة ، وكان أول من دخلها منهم الكونت أبارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين ، وفي يده علم قشتالة الأبيض ، ودخلها في نفس الوقت ملكا أراجون ونافارا كل من ناحيته ، وبذلك مزق الجيش الموحدى من كل ناحية ، وكثر القتل فيه كثرة مروعة ، ولبت الخليفة الناصر حتى آخر لحظة في مجلسه الجرج ، وهو يحاول

(١) وهذا ما تقولنا لنا رواية ألفونسو العالم . وتراجع في : *Primera Crónica General* :

(Ed. Pidal) Vol. II p. 701 .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ .

حث جنده على الصمود . وتنوه الرواية الإسلامية بثبات الناصر وصموده اليأس في تلك اللحظة الراهية ، التي تناثر فيها الجيش الموحدى ، والحرس الخليفى من حوله أشلاء دامية ، وشراذم فارة في كل ناحية ، وتقول لنا إنه لبث في مكانه لا يتزحزح ، حتى كادت الروم أن تصل إليه ، بل كاد أن يهلك ، وقتل حوله من العبيد أكثر من عشرة آلاف عبد ، وأنه لولا ثباته على هذا النحو لاستوصلت جموع الجيش الموحدى كلها قتلا وأسرا^(١) . واضطر الناصر في آخر لحظة أن يمتطي صهوة فرس قدمها إليه أعرابي كان إلى جانبه ، وأن يفر مع نفر من خاصته على جناح السرعة جنوبا نحو بياسة ، ثم اتخذ طريقه منها إلى جيان ، وكانت فلول الجيش الموحدى عندئذ تفر في كل ناحية ، ومن ورائها القرسان النصارى يمعنون فيها قتلا وإفناء . واستمرت هذه المطاردة المروعة على مدى ثلاث مراحل حتى دخل الليل ، وكانت أشنع ما وقع من ضروب السفك والتقتيل ، إذ هلك فيها عشرات الألوف من الحند الفارين ، وانقض الحند النصارى على الحملة الموحدية ينتزعون منها ما استطاعوا من المتاع والأسلاب ، بالرغم من تحذير مطران طليطلة . وقبيل مغيب الشمس ، كان الماوك النصارى ، والمطران ، والأساقفة ، وجزء كبير من الجيش النصارى ، قد دخلوا محلة الجيش الموحدى ، واستقروا بها ، وأضحى الجيش الموحدى العظيم الذى كان بها منذ ساعات قلائل فقط ، أثراً بعد عين .

وكان وقوع هذه النكبة المروعة بالجيش الموحدى في يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ الموافق يوم ١٦ يولييه سنة ١٢١٢^(٢) ، وهي تعرف في التواريخ النصرانية حسبا قدمنا بموقعة هضاب أو عقاب تولوسا Las Navas de Tolosa لوقوعها فوق مجموعة من الوديان الصغيرة ، التي تحيط بها الربى ، تقع في سفح جبل الشارات الجنوبى ، وتعرف أيضاً بموقعة أبدة لوقوعها على مقربة من شمال غربى هذه المدينة . وأما في التواريخ الإسلامية فإنها تعرف

(١) روض القرطاس ص ١٥٩ ، والمرايشى في المعجب ص ١٨٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) هذا هو التاريخ الذى تأخذ به معظم الروايات الإسلامية ، وهو الذى يتفق بالفعل مع الروايات الصراية (راجع المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٩ ، والروض المظفر ص ١٣٨) . ولكن ابن خلدون يضع تاريخها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (كتاب العبر ج ٦ ص ٢٤٩) . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخها في يوم الاثنين ٨ صفر سنة ٦٠٩ هـ - القسم الثالث ص ٢٤١ .

بموقعة العقاب ، من مفردتها عقبة ، وذلك فيما يرجح لوقوعها بين الربى والتلال المانعة^(١) ، وليس بمعنى المعاقبة على الذنب ، وإن كان بعض الكتاب والشعراء قد نسبوا إليها مثل هذا المعنى ، في معرض التلويح بغضب الله وعقابه للموحدين ، لأنهم حادوا عن جادته ، وبغوا وتجبروا ، واعتمدوا على كثرتهم ولم يعتمدوا على عونه . وينفرد صاحب روض القرطاس إلى جانب تسميتها بموقعة العقاب بتسميتها بموقعة « حصن العقاب » أو « حصن العقبان »^(٢) وهو باسمه الإسباني حصن فرآل أوكاستروفرال Castro Ferral الواقع في قمة جبل الشارات ، والذي استولى عليه القشتاليون قبيل المعركة ثم تركوه ليعبروا الجبل من الناحية الأخرى التي أرشد عنها الراعى .

ومن المسلم أن خسائر المسلمين في معركة العقاب كانت فادحة جداً . والروايات الإسلامية تجمع كلها على أن الجيش الموحدى ، قد هلك معظمه . بيد أنها تذهب أحياناً إلى تقديرات لا يستسيغها العقل ، ومن ذلك مايقوله صاحب روض القرطاس أنه لم ينج من الجيش الموحدى إلا الواحد من الألف ، فإذا ذكرنا أنه يقدر جموع الجيش الموحدى بأكثر من نصف مليون ، فعنى ذلك أنه لم ينج من الموحدين في المعركة سوى خمسمائة جندي ، وهذا منتهى الإغراق . ثم هو من جهة أخرى يقول لنا بأن سبب هذه الكثرة الفادحة من القتل ، يرجع إلى أن ملك قشتالة أمر أن ينادى في جيشه بأن لا أسر إلا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره^(٣) . ويصف صاحب الحلل الموشية الموقعة « بالهزيمة العظمى » التي فنى فيها أهل المغرب والأندلس . ويقول صاحب « الذخيرة السنية » مشيراً إلى الموقعة أنه قتل من المسلمين خلق كثير لا يحصر ، وفيها فنى جيوش الغرب والأندلس^(٤) ، ولكن المراكشى وهو مؤرخ معاصر يقول لنا في نوع من الاعتدال ، إنه قتل من الموحدين خلق كثير ، ويتابعه في هذا الوصف صاحب الروض المعطار ، ويقول لنا إنه قد هلك في الموقعة جملة من الأعيان والطلبة ، منهم أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص ، وعلى بن الغاني الميورقي . وسقط كذلك في المعركة عدة من أكابر

(١) جاء في القاموس المحيط أن عقب بالتحريك هي مرق صعب من الجبال والجمع عقاب (بكر العين) .

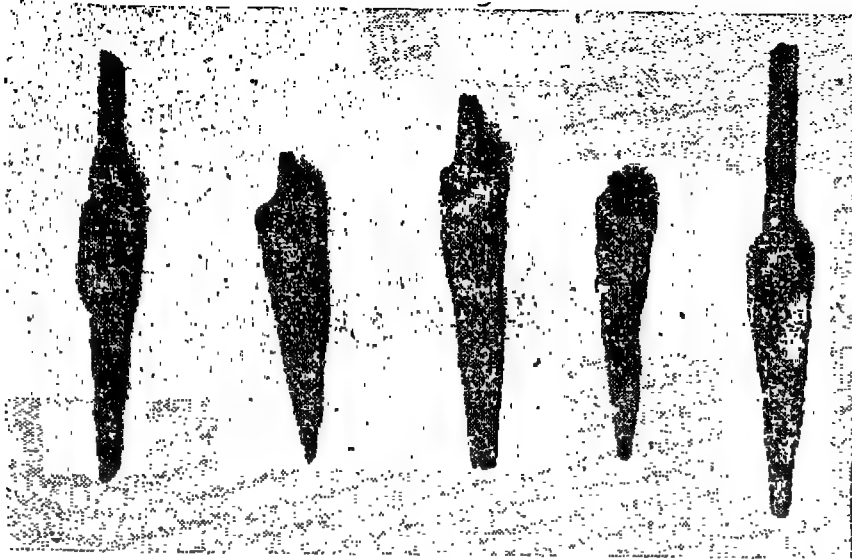
(٢) روض القرطاس ص ١٥٩ و ١٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٩ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٢٢ ، والذخيرة السنية ص ٤٨ .

العلماء والحفاظ ، منهم أحمد بن هارون بن عات النفزي ، وإسحاق بن إبراهيم الجهابري ، ومحمد بن حسن الأنصارى المعروف بابن صاحب الصلاة ، ومحمد ابن إبراهيم الحضرمي ، وأيوب بن عبد الله بن عمر الفهري ، والشاعر الزاهد تاشفين بن محمد المكتب وغيرهم^(١) . بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أن الرواية النصرانية مع ما يؤثر عنها من المبالغة في مثل هذه المواطن ، تقدم إلينا عن خسائر الموحدين في الموقعة ، أرقاما يطبعها نوع من الاعتدال ، يكونها ثقل كثيراً عما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية ، بيد أنها من جهة أخرى تبالغ في التقليل من خسائر النصارى . ذلك أن ردرىك الطليطلى يقدر من قتل المسلمين في الموقعة بمائتي ألف ، وذلك من مجموع الحيوش الموحدية التي يقدرها بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة ، ويقدر الملك ألفونسو الثامن قتل المسلمين في خطابه إلى البابا بمائة ألف ، ويقدرهم أرنولد مطران أربونة بستين ألفاً ، ثم يقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من هذا العدد أثناء الفرار ، وتقدر الأميرة برنجاريا القشتالية في خطابه إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتل المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً . بيد أن الروايات النصرانية تقدم إلينا في نفس الوقت عن خسائر النصارى في المعركة أرقاما لا يمكن أن يصدقها العقل ، ومن الغريب أن شهود العيان الذين تقدم ذكرهم هم الذين يقدمون هذه الأرقام . فالمطران ردرىك يقول لنا إنه لم يقتل في الموقعة من النصارى سوى خمسة وعشرين ، والملك ألفونسو يذكر في خطابه إلى البابا أنهم لم يتجاوزوا الثلاثين ، وأرنولد مطران أربونة يقول إنهم لم يتجاوزوا الخمسين ، ولاريب أن مثل هذه الأرقام الضئيلة لم عملها سوى أثره الرواية النصرانية ، ومحاولتها أن تسبغ ثوب المعجزة ، على النصر الذي أحرزه النصارى . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت شديدة أيضاً ، في مثل هذه المعركة التي التحم فيها الجيشان بأسرهما ، وردت فيها هجمات النصارى الأولى بخسائر كبيرة لاريب ، ولم ينجحوا في اختراق قلب الجيش الموحدي إلا بعد جهود فادحة ، وبعد أن ألقوا في المعركة بقواتهم الاحتياطية ، ولا يمكن أن تقل هذه الخسائر عن الألوف العديدة ، في جيش لم يكن يقل تعداده عن ثمانين ألف أو مائة ألف من الفرسان والمشاة . ويقدم إلينا الراهب ألبريكوس الذي عاش

(١) المعجب ص ١٨٣ ، ولروض المطار ص ١٢٨ ، وابن الأبار في التكلة (القاهرة) في



سهام خيل أرضية عثر بها المؤلف بالحفر في بعض زواحي السهل الذي كانت به المحلة الموحدية

قريباً من هذا العصر تفسيراً لهذا الرقم الضئيل ، الذي تقدمه الرواية النصرانية عن خسائر النصارى ، فيقول إنه قد هلك في الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك في نفس الوقت من النصارى خلال التحام المعركة عدد كبير ، بيد أنه لم يهلك منهم خلال مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين^(١) .

واستولى النصارى في محلة الجيوش الموحدية على مقادير وافرة من الغنائم من العتاد والسلاح والخيام والذهب والفضة ، والنقود الذهبية والبسط والآنية الثمينة والثياب والأقمشة الفخمة ، وكذلك على مقادير عظيمة من المؤن ، وعلى ألوف مؤلفة من دواب الحمل ، فكانت من أعظم الغنائم التي ظفر بها النصارى^(٢) .

(١) تراجع الروايات النصرانية عن خسائر المسلمين والنصارى في أشباج (الترجمة العربية) . ص ٣٧٠ و ٣٧١ . وكذلك في :

Huici: Las Grandes Batallas de la Reconquista p. 266 & 267

(٢) راجع في تفاصيل موقعة العقاب ، المعجب ص ١٨٣ - ١٨٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٠ - ٢٤٢ ، وروض القرطاس ص ١٥٦ - ١٦٠ ، والروض المطار ص ١٣٧ و ١٣٨ والنويرى (طبعة ريمبرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٣٧٩) والحلل المشوية ص ١٢٢ ،

وكان من أهم الغنائم التي أحرزها النصارى خيمة الناصر الحربية الموشاة بالذهب ، وعَلِمَ موحدى ضخّم مازال يحفظ حتى اليوم بن ذخائر اسبانيا النصرانية . وقد أرسلت الخيمة مع طائفة أخرى من نفيس الهدايا إلى البابا برسم كنيسة القديس بطرس ، لتعرض بها تذكراً للنصر ، واستولى ملك نافارا على السلاسل الحديدية التي كانت تحيط بقبة الخليفة . وأما العَلَمُ الموحدى فما زال يحفظ حتى اليوم بالدير الملكي بمدينة برغش^(١) ، وقد شهدناه وقت زيارتنا لهذه المدينة التاريخية ، وهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣,٣٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً . وبها في الوسط دائرة كبيرة صفراء يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة ، وقد ملئت الدائرة والمربع بتقوش عربية جميلة ، ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة أحزمة بنية ، نقش عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفي ذيلها دوائر نقش فيها أدعية مختلفة . والظاهر أن هذا العلم لم يكن من الأعلام التي كانت تحمل خلال المواقع ، وإنما كان من الأعلام التي تعلق بخيمة الخليفة . ومن ثم كان الاسم الذي يعرف به وهو « مُعلق معركة العقاب » Pendón de las Navas ، وكذلك الوصف الذي سطر تحته بالإسبانية وهو « غنيمة انتزعت من العدو في موقعة العقاب »^(٢) .

ولابد لنا أن نحاول بعد ذلك أن نتلمس الأسباب المادية والمعنوية ، التي أدت بالحليش الموحدى إلى تلك الكارثة المروعة . فالحقيقة أنه إلى جانب الأسباب التقليدية المعروفة ، من اختلال نظام الجيوش الموحدية الكبيرة العدد ، وعدم اتساق تنظيماتها ، وتنافر العناصر المكونة منها ، وعدم توحيد قيادتها بأيدي قادة يتسمون بالبراعة العسكرية ، واختلال نظام التكوين بها ، نظراً لابتعادها عن قواعدها مسافات شاسعة ، إلى جانب ذلك توجد عدة أسباب أدبية عاونت

= وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ وراجع الروايات النصرانية P. Crónica General (Ed. Pidal) P. 690-704. Huici: Las Grandes Batallas de la Reconquista; p. 231-303 والمراجع . وكذلك أدباخ (الترجمة العربية) ص ٢٦٥ - ٢٧٨ .

(١) واسمه بالإسبانية Real Monasterio de las Huelagas .

(٢) راجع وصف هذا العلم وما نقش عليه من آيات في كتابنا الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال (الطعة الثانية) ص ٢١٣ و ٢١٤ . وراجع أيضاً : A. de los Rios : Trofeos Militares de la Reconquista, Enseñas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos). (Madrid 1893) p. 27 - 48.

على وقوع الكارثة . وتشير الرواية الإسلامية إلى طرف من هذه الأسباب ، وتلخصها في تغير قلوب الموحدين ، ومخطئهم على الوزراء والقادة ، وذلك بسبب حبس أعطينهم وتأخرها ، وقد كان المتبع منذ أيام المنصور ، أن يُمنح العطاء للجنود مرة في كل أربعة أشهر دون تأخير ، ولكن العطاء كان يؤخر في عهد الناصر ولاسيما في هذه الحملة الكبيرة ، فنسب الجنود أسباب التأخير للوزارة ، وخرجوا إلى الغزو وهم كارهون ، وقد خبت قواهم المعنوية ، وهكذا خرج الناصر إلى الغزو « بحشود لاغرض لهم في الغزو ، وقد أمسكت أرزاقهم ، وقتر عليهم » ، ويقول لنا المراكشي فضلاً عن ذلك ، أنه بلغه من جماعة منهم « أنهم لم يسئلوا سيفاً ولا شرعوا رعا ، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك »^(١) . أضف إلى ذلك ما حدث قبيل نشوب المعركة في العسكر الموحدى ، من حوادث كان لها نذير . منها قتل الخليفة الناصر للقائد الأندلسي الباسل ابن قادس قائد قلعة رباح هو وصهره ، دون أن يستقبله أو يستمع إلى عنده ، ومنها إهانة الوزير أبي سعيد بن جامع للقواد الأندلسيين وإنذارهم بمغادرة الجيش ، وقد كان لهذه الحوادث أسوأ وقع في نفوس الأندلسيين ، وفي تثبيط همهم في القتال ، وكان الأندلسيون بالرغم من قتلهم العديدة ، عنصراً هاماً في جيوش الغزو الموحدية المقاتلة بالأندلس ، لأنهم كانوا أكثر خبرة بقتال النصارى الإسبان ، وأكثر دراية بطريقتهم في الحرب^(٢) . وقد رأينا كيف كان اعتماد الخليفة المنصور على نصيح ابن صناديد قائد الأندلس ومشورته ، من أسباب نصره في معركة الأرك . وأخيراً فإن ما أبداه الناصر من العجب والاعتداد بكثرة جموعه ، واعتماده على تفوقه العددي البالغ ، والتقليل من شأن العدو ، كان له أكبر الأثر في بدا من الرعونة ، وعدم الحرص والتحوط في لقاء العدو ، ومن ثم فقد كان ظفر القشتاليين باختراق قلب الجيش الموحدى بتلك السرعة ، مفاجأة هائلة لم تخطر للناصر ولا للقادة الموحدين . وترى بعض الروايات الإسلامية أن نكبة الناصر في العقاب كانت عقوبة من الله على ما أبداه من العجب والاعتزاز بكثرة جموعه ، واعتقاده أنه لا غالب له من الناس ، فأراه

(١) المراكشي في المعجب ص ١٨٣ ، والروض المطار ص ١٣٨ .

(٢) روض القرباس ص ١٤٦ و ١٤٧ ، والروض المطار ص ١٣٨ ، وراجع أيضاً

نفع الطيب ج ٢ ص ٣٨ .



العلم الموحى الذى غنمه الإيبان فى معركة العقاب ويحفظ الآن بدير برغش الملكى (لاس هويلباس)

الله تلك الآية ليعلم أن النصر من عند الله ، وأن القدرة والحول والقوة بيد الله^(١) . وقد أسفرت هزيمة العقاب الساحقة ، عن أفدح وأروع الآثار التي يمكن تصورها ، سواء بالنسبة للأندلس أو المغرب أو الدولة الموحدية . فأما بالنسبة للأندلس ، فقد قضت هذه الهزيمة نهائياً ، على سمعة الموحدين العسكرية في شبه الجزيرة ، وتحطم ذلك الدرع الذي كانت تسبغه الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، على الأندلس وعلى دولة الإسلام بها ، وتضعف سلطان الحكم الموحدى بالأندلس ، وأخذت الأندلس من ذلك الحين تتحدرد إلى يرثن القوضى الطاحنة ، وانتشرت غير بعيد إلى أحزاب وشيع جديدة ، قامت لتضرب بعضها بعضاً ، ولتبدأ عهداً جديداً من المعارك الانتحارية الصغيرة التي لانهاية لها ، والتي تذكرنا بعهد الطوائف . وضمن ذلك النصر الباهر الذي أحرزته الجيوش النصرانية المتحالفة في هضاب تولوسا ، لإسبانيا النصرانية ، تفوقها السياسي والعسكري في شبه الجزيرة ، وفتح الباب واسعاً لغزو الاسترداد *La Reconquista* النصراني المنظم ، الذي سوف يستمر من ذلك الحين في اجتناء ثماره ، بانزاع القواعد الأندلسية ، واقتطاع أشلاء الأندلس الكبرى بصورة متتابعة ، وفي فترات قصيرة مذهلة .

وقد تردد هذا الفرع الذي سرى إلى الاندلس يومئذ ، وما كان ينفوح لها من من شبح القناء ، من جراء كارثة العقاب ، واضحاً في الأدب والشعر . فمن ذلك ما قاله أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي :

وقائلة أراك تطسل تفكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقات لها أفكر في عقاب غداً سيباً لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب^(٢)

وأما بالنسبة للمغرب ، والدولة الموحدية ، فقد كانت كارثة العقاب ضربة شديدة للمغرب ، ولأهل المغرب ، بما هلك فيها من حشود القبائل البربرية ، وزهرة جنودهم ، ومن الجيوش الموحدية النظامية ، ولم يعد في مقدور هذه القبائل أن تقدم للغزو الكثير من حشودها ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية أن تجد مثل

(١) روض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) نفع النيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

هذه الحملات العسكرية العظيمة ، التي كان يقودها خلفاء مثل عبد المؤمن وأبي يعقوب يوسف والمنصور والناصر . وكما أن الرواية الإسلامية تنوه بخطورة آثار الهزيمة في مصير الأندلس ، وتصفها بأنها كانت سبباً في « هلاك الأندلس »^(١) ، فلأنها تنوه كذلك ، وبنوع خاص ، بالخسارة الأدمية الهائلة ، التي وقعت من جرائها بالمغرب والأندلس ، وتصف الموقعة بالهزيمة العظمى « التي فني فيها أهل المغرب والأندلس »^(٢) ، أو التي خلا بسببها أكثر المغرب^(٣) ، أو حسبما تقول لنا في عبارة أوضح وأشمل « إن المغرب قد باد أهله ورجاله وفني خيله وحماته وأبطاله ، وقتلت قبائله وأقباله ، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب »^(٤) . ويلخص لنا ابن الأبار ، نتائج الموقعة المدمرة بالنسبة للأندلس في قوله إنها « أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تحييف الروم بلادها ، حتى استولت عليها »^(٥) . وأما بالنسبة للدولة الموحدية ، فقد هزت كارثة العقاب أركانها إلى الأعماق ، وقضت على كل عوامل التوطد ، التي أسبغها عليها المنصور بانتصاره في معركة الأرك ، والتي تأيدت بإخماد ثورة بني غانية في إفريقية . ومما لا ريب فيه أن تضعف الدولة الموحدية على هذا النحو ، كان أكبر مشجع لبني حفص على اقتطاع إفريقية وإقامتهم غير بعيد لدولتهم المستقلة بها . ويلخص لنا صاحب الروض المطار أثر الهزيمة في الدولة الموحدية بقوله « وكانت هذه الواقعة أول وهن دخل على الموحدين ، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة »^(٦) .

ونستطيع بعد أن استعرضنا آثار هزيمة العقاب أن نقول في معرض المقارنة بينها وبين معركة الأرك ، إن انتصار الموحدين في الأرك ، بالرغم من عظمتهم ولعائهم ، لم يسفر بالنسبة لإسبانيا النصرانية عن آثار عميقة ، ولم يصب قشتالة بأكثر من ضعف عسكري مؤقت ، استطاعت أن تنهض منه في فترة قصيرة ، ولم يستطع الموحدون أن يقوموا في أعقابها إلا بغزوات عابرة لمنطقة إستمادورة ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الحلال الموشية ص ١٢٢ .

(٣) المقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٢٤ .

(٥) ابن الأبار في « التكلة » (القاهرة) ج ١ ص ١٠٢ .

(٦) الروض المطار ص ١٣٨ .

ثم لمنطقتي طليطلة و طليطلة ، وقد حاصروا طليطلة بالفعل ، ولكنهم لم يحاولوا
أولم يستطيعوا الاستيلاء عليها . أما هزيمة العقاب ، فقد رأينا بالعكس مما تقدم ،
ما كان لها من الآثار الهدامة العميقة .

ومن الغريب المدهش حقاً ، أن الناصر لم يرد أن يلوذ بالصمت إزاء هذه
الكارثة القادحة ، بل أراد أن يقدم عنها اعتذاره في رسالة رسمية ، وجهت
من إشبيلية إلى حضرة مراكش وإلى غيرها من قواعد المغرب والأندلس ، وذلك
في أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ . وقد نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض فصول
هذه الرسالة ، وهي من إنشاء الوزير الكاتب أبي عبد الله بن عياش ، وفيها يقص
علينا الناصر قصة استعدادات ألفونسو الثامن لمحاربة المسلمين ، واهتمام البابا ،
والأخبار النصرانية بمعاونته وشد أزره ، وما كان من انضمام ملكي أراجون ونافارا
إليه . ثم يصف لنا سيره للقاء النصراني ، ويقول لنا إنه نشب بين الفريقين في
الموضع المعروف « بالرشة » معركة « اشتد فيها الكفاح ، وأرخصت الأرواح » .
ثم يقول « ولكن الله أراد أن يحصى المؤمنين ، ويبيد الكافرين ، فكانت عاقبة
اليوم على الحصص لأهل الصليب ، والعاقبة المطلقة هي لأهل الإسلام والإيمان ،
وتحاجز الفريقان ، والمسلمون عزيزة جوانبهم ، محروسة بقدره الله كتابهم ،
لم تصب الحرب منهم أحدا ، ولا نقصت لهم عدداً . وهي الحروب قضى الله
أن تكون سجلاً ، وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالا » . ثم يقول في ختام رسالته :
« وإذا كانت وفقكم الله الجيوش موفورة ، والرايات منشورة ، والعزائم باقية ،
وكفريات الله وافية ، فلا تهنوا فإننا لا نهن ، وانتظروا الكرة على الكفار ، والإمداد
عليهم ، بجند الله الذين هم خير الأنصار ، فما كان الله ليترك المؤمنين ، حتى
يأخذ أعداءهم أخذاً ويبيد ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً .
وعرفناكم لتكون عندكم هذه الواقعة على وجهها ، والنازلة على كنهها ، ولتعلموا
أنه لم يدر للموحدين قتيل ، ولا أصيب منهم كثير ولا قليل والسلام » (١) .

وإذا كان من الصعب أن يعلق المؤرخ على مثل تلك الرسالة ، التي يصفها
صاحب الروض المطار بأنها من قبيل « الزخرف الكاذب » ، فإنه يمكن القول
بأنها محاولة جريئة من الخليفة المهزوم ، للاعتذار عن نكبته وتهوين شأنها في
نفوس أمته ، واستدراج عطفهم ، والتخفيف من سخطهم .

حاول ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، على أثر ظفـره العظـيم في موقـعة العقاب أن يجتـنـى ثـمـار نصـره باقـتـطـاع ما يـسـتـطـاع من الأراضـى الإـسـلامـية ، فاستولى في أيام قلائل على معظم الحصون الإسلامية في تلك الناحية ، وكان من بينها حصن فرآل (حصن العقاب) ، الذي كان قد أخلاه قبل الموقعة ، وبلغ ، وبانيوس ، وتولوسا . ثم سار إلى مدينتي يباسة ، وأبدة ، اللتين لا تبعدان عن مسرح المعركة سوى بضعة مراحل . وكانت يباسة قد غادرها معظم أهلها ، ولكن كان بها كثير من الجرحى والضعاف والفارين ، فأحرق دورها ، وخرب مسجدها الجامع ، وقتل معظم من وجده بها ، وأخذ بعضهم أسرى . ثم سار إلى مدينة أبدة ، القرية منها ، وكانت تموج بأهلها ، وبمن وفد عليهم من أهل يباسة ، ومن الفارين ، ولكنها كانت في حالة دفاع وأهبة ، وقد امتنعت وراء أسوارها الحصينة ، فحاصرها ألفونسو ثلاثة عشر يوما ، وصمد المسلمون ، ولحقت بالنصارى بعض الخسائر ، ثم عرض المسلمون في النهاية أن يدفعوا فدية قدرها ألف ألف دينار على أن تترك المدينة حرة ، وأن يتمتعوا بدينهم وشعائهم ، فقبل ألفونسو وزميلة ملكا أراجون ونافارا هذا العرض ، ولكن الأبحار عارضوا في تنفيذه ، وأصرروا على تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط ، فزل الملوك عند هذا الضغط ، ونقضوا العهد المقطوع ، واقتحم الجنود النصارى المدينة ، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفاً ، وسبوا منهم مثل هذا القدر . وتعترف الرواية النصرانية نفسها بهذه الشناعات ، وتقدر من قتل وسبي من أهل أبدة ، بمائة ألف ، ويقدر بعضها السبايا وحدهم بمائة ألف^(١) ، ويقول لنا المراكشي ، وهو المؤرخ المعاصر ، إن ألفونسو دخل أبدة عنوة ، فقتل وسبي وفصل هو أصحابه من السبي من النساء والصبيان ، بما ملثوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من المزيمة^(٢) . ثم هدم النصارى دور المدينة ، بعد أن خلت من سكانها حتى أصبحت خراباً ياباً .

ولم يكن بين النصارى الظافرين وبين مدينة جيان سوى بضعة مراحل ، وكان من الطبيعي أن يقصد ملك قشتالة إلى انتزاع هذه القاعدة الأندلسية الهامة .

(١) راجع أشاخ - الترجمة العربية ص ٣٧٢ ، وكذلك :

. Hualci : Imperio Almohade, Vol. II p. 427

(٢) المعجب ص ١٨٤ .

ولو حاول ذلك لكان من المحقق أن يفوز ببغيته، في تلك الظروف التي انهار فيها خط الدفاع الأمامي بالأندلس. ولكن مصاعب التكوين كانت تتفاقم، وقد سادت القوضى بين جنود الجيش الظافر، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم، ثم كانت الطامة بانتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة، وتعفن الحش التي غصت بها تلك الوديان، فارتد الملوك النصاري في قواتهم نحو الشمال، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة في موكب ملوكي ضخيم، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر، وتقرر أن يغدو يوم ١٦ يولييه، وهو اليوم الذي تحقق فيه النصر، عيداً قومياً يحتفل به في طليطلة وسائر أنحاء قشتالة، ويسمى عيد «ظفر الصليب».

هذا وأما الخليفة الناصر لدين الله، فإنه بعد أن فرّ من ميدان المعركة في آخر لحظة، حسباً أشرنا من قبل، سار إلى جياناً ثم غادرها مسرعاً إلى إشبيلية فوصلها في أيام قلائل، في أواخر شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ، ووجه منها كتابه بالاعتذار عن الكارثة، إلى قواعد المغرب والأندلس. وليث مقياً بإشبيلية حتى شهر رمضان من هذا العام، وهو لا يحرك ساكناً ولا يبالى بأمر، ثم عبر البحر إلى العدو، قافلاً إلى حضرة مراکش، وماكاد يستقر بها حتى أخذ البيعة بولاية العهد لولده السيد أبي يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر، فبايعه كافة الموحدين، وخطب له على جميع المنابر بالمغرب والأندلس، وذلك في أواخر شهر ذي الحجة سنة تسع وستمائة. ثم لزم الناصر بعد ذلك قصره، واحتجب عن الناس. يقول صاحب روض القرطاس: «وانغمس في لذاته، فأقام فيه مصطبجاً ومغتبجاً» أي صباح مساء. وفي أوائل شهر شعبان سنة ٦١٠ هـ، مرض الناصر، وتوفي في مساء يوم الأربعاء العاشر من شعبان (٢٢ ديسمبر سنة ١٢١٣ م)^(١). وقد اختلف في أسباب وفاته، فقيل إنه توفي غماً وألماً من آثار نكبتة في العقاب^(٢). وقيل إنه توفي من عضمة كلب^(٣)، وقيل إنه مات مسموماً، بتدبير بعض وزرائه، ممن خشوا من نغمته وانتقامه، لما بلغه عنهم من سوء فعلهم ودسائسهم، فأغروا

(١) اختلف في يوم وفاته، فذكر إنه اليوم الخامس من شعبان أو اليوم العاشر (النويري- طبعة ريمبروج ٨ ص ٢٨٠)، وذكر أنه اليوم الحادي عشر (روض القرطاس ص ١٦٠). ولكن المراكشي وهو أقرب من عاصره يضع تاريخ وفاته في يوم الأربعاء العاشر من شعبان (المعجب ص ١٨٤).

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢. (٣) الروض المطار ص ١٣٨.

بعض جواريه بوضع السم له في قدح من الخمر فأت من حينه^(١). ولكن المراكشي وهو في ذلك أكثر اطلاعاً وأقرب إلى الثقة ، لمعصرته لتلك الحوادث ؛ يقول لنا إن أصبح ما بلغه عن وفاة الناصر « أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه ، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان ، فأقام ساكناً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك ، وتوفي يوم الأربعاء لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ، وصلى عليه خاصة الحشم^(٢).

وكان الخليفة محمد الناصر لدين الله ، آخر ذلك الثبت من الخلفاء الموحديين الذين اقترنت بعصرهم بعض الأحداث الضخمة الحاسمة ، وكان أهم تلك الأحداث أولاً تحطيم ثورة بنى غانية في إفريقية ، وهو المبع حادث في عهده ، ويقترن بذلك فتح الموحديين لميorque ، وثانياً نكبة العقاب المشتومة التي هزت أركان الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس . ولم يكن ثمة في بداية عهده ما يؤذن بأنه صائر إلى ذلك الانهيار ، الذي انتهى إليه في فترته القصيرة ، بل كانت صولة أبيه العظيمة ، وذكريات نصر الأرك الباهر ، مازالت تظلل الخلافة الموحدية . وقد بدأ الناصر عهده بداية حسنة ، وأبدى همة ظاهرة في إدارة الشؤون وتنظيم الإدارة ، ومطاردة الفساد ، وإقصاء العمال الظلمة والمرتشين ، ولكنه لم يتلرع في ذلك بالروية وبعد النظر ، بل كان يغلب في ذلك النزق والاستبداد . وكان الناصر في البداية ، وهو ما يزال في شرح فتوته يسترشد بأراء أشياخ الموحديين ، في تسير الشؤون الكبرى ، ولا سيما بأراء الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، وفقاً لوصية أبيه المنصور ، ولكنه لما اشتد ساعده ، استبد بالأمر ، ولم يعد يقبل نصيحاً أو مشورة من أحد ، حتى أنه رفض نصيح الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، حينما استشاره في شئون الأندلس ، بالألا يسير إلى غزوته الكبرى ، التي انتهت بنكبه في موقعة العقاب . ولم يقع في عهد الناصر شيء يذكر من الأعمال الإنشائية ، التي امتاز بها عهد أبيه وجده ، ولم يكن الناصر على شيء خاص من أنواع العلوم أو المعرفة ، ولم يجتمع في بلاطه أحد من أولئك العلماء المبرزين ، الذين اجتمعوا حول أبيه ، وإنما كان يلوذ ببلاطه فقط بعض الشعراء الملقين ، الذين عرفناهم فيما تقدم ، مثل أبي العباس الجراوى ، ووزيره خالد اللخمى وغيرها .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) المعجب ص ١٨٤ ، ونقله التويرى (طبعة ريمبرج ٨ ص ٢٨٠) .

وقد وصف لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، وربما شاهد عيان ، صفات الناصر في قوله : « كان كثيراً الإطراق ، شديد الصمت ، بعيد الغور ، كان أكبر أسباب صمته لثغراً كان بلسانه ، حليماً ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لا يعنيه ، إلا أنه كان بخيلاً »^(١). ونحن نعتقد أن وصف الناصر بالعفة عن الدماء ، وصف في غير موضعه ، لما رأيناه ، فيما تقدم ، من تسرعه في سفك دماء بعض العمال ، ودماء القادة الأندلسيين . ويقول صاحب روض القرطاس « إنه كان كبير المهمة ، غليظ الحجاب ، لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد ، مصيب برأيه ، مستبد في أموره وتدبير مملكته بنفسه »^(٢) وأما عن شخصه ، فيوصف الناصر ، بأنه كان أبيض ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، نحيل الجسم ، حسن القامة .

ووزر للناصر في البداية وزير أبيه عبد الرحمن بن يوجان ، ثم استوزر من بعده أخاه إبراهيم بن الخليفة المنصور ، ثم ولي الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد ابن علي بن أبي عمران ، فسار فيها سيرة حسنة ، وكان يحض الخليفة على فعل الخير ، ونشر العدل ، والإحسان إلى الرعية والجند ، ثم عزله الناصر ، وولى الوزارة من بعده ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع . وإبراهيم هو جد هذه الأسرة من الوزراء ومن صحب المهدي ابن تومرت حسبما سقت الإشارة إليه . وتولى القضاء للناصر ، أبو القاسم أحمد بن بقي قاضي أبيه ، ثم أبو عبد الله محمد بن مروان ، فلبث في منصبه حتى توفي في سنة ٦٠١ هـ ، فخلفه في القضاء أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران ، واستمر بقية عهد الناصر وشرطاً من عهد ابنه المستنصر . وكان من كتاب الناصر اثنان من أسرة بني عياش اللامعة ، هما الكاتب الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش كاتب أبيه من قبل ، وأبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش ، وكان أبوه من كتاب عبد المؤمن ، وأبو عبد الله محمد بن يخافتن الفازازي .

وكان من كتاب جيشه أبو الحجاج يوسف المراني وهو أندلسي من أهل شريش ، وأبو جعفر أحمد بن منيع . ولم ينجب الناصر لدين الله من الولد سوى ثلاثة من البنين ، هم يوسف المستنصر ولي عهده ، والخليفة من بعده ، ويحيى وقد توفي في حياة أبيه في سنة ٦٠٨ هـ ، وإسحاق ، وعدد من البنات .

(١) المعجب ص ١٧٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ .

الثالث
الدولة الموحدة
في طريق الانحلال والتفكك

الفصل الأول

عصر الخليفة يوسف المستنصر بالله

وأوائل ظهور بني مرين

يوسف المستنصر يحلف أباه الناصر . بيعته الخاصة ثم بيعته العامة . وزراؤه وكتابه . ميله إلى حياة الدنيا . عماله على الولايات . السيد أبو إسحق والى غرناطة . السيد أبو العلاء أمير تونس . ثورة القاطمى العبيلى . تفاصيل حركته . إخماد ثورته وإعدامه . مقدم سفير قشتالة في طلب السلم . عقد السلم مع قشتالة . بواعث إثارة قشتالة للسلم . طلائع بني مرين عند أحواز فاس . أصول بني مرين ومنازلهم . اقتسامهم إلى العرب . أمراؤهم الأوائل . صراعمهم مع القبائل الخصمية . اللقاء الأول بينهم وبين الموحيدين . هزيمتهم ومقتل أميرهم . اشتراكهم في الجهاد مع الموحيدين . انحلال قوى الموحيدين عقب موقعة العقاب . نهوض بني مرين لانتهاز الفرصة . إغارتهم على أطراف المغرب . تأهب الموحيدين لردهم . اللقاء بين الفريقين . موقعة المشغلة . هزيمة موحدية أخرى في رباط تازة . الخلاف بين بني مرين . خروج بني حماسة منهم . أميرهم عبدالحق . تحالف المنشقين مع الموحيدين والعرب . القتال بين الفريقين . مقتل عبد الحق وولده إدريس . تجدد الحرب وهزيمة بني حماسة . أبو سعيد عثمان يتولى رئاسة بني مرين . حوادث الأندلس . مهاجمة البرتغاليين والصليبيين لثغر القصر . محاصرة النصارى لثغر . مبادرة الموحيدين إلى إنجاده . اللقاء بين المسلمين والنصارى . هزيمة المسلمين . صمود حصن القصر ثم تسليمه . استيلاء النصارى على حصن القصر . محاصرة ملك ليون لقاصرش وصمودها . تكرار الهجوم عليها ومعاودة حصارها . سقوطها في أيدي النصارى . أحوال المغرب في هذا الوقت . ركود بلاط مراكش وتواكله . اضطراب الأمن . الأحوال الاقتصادية وانتشار المجاعة . كتاب الخليفة المستنصر إلى الولاة والأعيان والكافة . تجدد الهدنة بين الموحيدين وقشتالة . كتاب البلاط الموحى إلى ملكة قشتالة . مصرع المستنصر العجائى . ركود عهده واضطراب الأحوال فيه . أقوال المؤرخين في ذلك . أحوال المغرب حينما يصورها ابن عبد الملك . صورة أخرى للمستنصر وخلاله . حكومة المستنصر . وزراؤه وكتابه وقضاته .

تدخل الدولة الموحدية ، بعد وفاة الخليفة محمد الناصر لدين الله ، في العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، في مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، مرحلة انحلال مضطرب ، وصراع داخلي مستمر على انتزاع العرش ، وتنتشر أسرة بني عبد المؤمن الشاذلية ، إلى شيع وأحزاب ضعيفة متخاصمة ، وينتشر شمل القبائل الموحدية ، حول تأييد هذا الفريق أوذاك ، وتنهال قوى الدولة الموحدية ومواردها الضخمة تباعاً ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، في معارك انتحارية مستمرة ، وتتخذ هذه

المرحلة في الأندلس بالأخص ، طابعاً مشنوفاً ، لم يسبق للأندلس أن تكبت بمثله ، فتغلبوا من جديد مسرحاً مضطرباً للحرب الأهلية ، أولاً فيما بين الموحديين المتنافسين على العرش ، وثانياً فيما بين أبناء الأندلس أنفسهم ، وفي خلال هذه الموجة الغامرة من المحنة القومية ، تتحفز اسبانيا النصرانية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، وتنظم متعاونة متفاهمة ، أخطر برنامج لفتوح « الاسترداد » ، وتهتز مصابير القواعد الأندلسية الكبرى ، ومصابير الأمة الأندلسية كلها.

خلف المستنصر بالله ، أبو يعقوب يوسف ، أباه محمد الناصر ، في اليوم التالي لوفاة ، في الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٣ ديسمبر سنة ١٢١٣م) ، وأمه حرة ، هي فاطمة بنت السيد أبى على بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقيل إنها أم ولد نصرانية تدعى قمر^(١) . وكان المستنصر حين ولايته فتى في السادسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده في أول شوال سنة ٥٩٤ هـ^(٢) ، وهناك أقوال أخرى بأنه كان في العاشرة من عمره^(٣) ، ولكننا نفضل الأخذ بالرواية الأولى ، إذ هي رواية المؤرخ الموحدي المعاصر ، وهو الذى يقدم لنا تاريخ مولده ، ويأخذ بهذه الرواية مؤرخان كبيران هما ابن خلكان وابن خلدون^(٤) .

وكان يوسف المستنصر فتى وسبياً ، حسن القدر ، جميل الحيا ، صافى السمرة ، شديد الكحل ، ولم يكن على قول المؤرخ في بنى عبد المؤمن أحسن وجهاً منه ، ولا أبلغ في المخاطبة^(٥) . وكان أبوه الناصر لدين الله قد أخذ له البيعة بولاية عهده عقب عودته من الأندلس ، على أثر موقعة العقاب ، في أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٩ هـ ، قبيل وفاته بأشهر قلائل ، وكان أول من أخذ له البيعة الخاصة ، عم جده أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، وأبو زكريا يحيى بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومن أشياخ الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى زيد الهنتافى ، وأبو على عمر بن موسى عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان

(١) يقول بالرواية الأولى صاحب روض القرطاس (ص ١٦٠) ، وبالثانية المراكشى (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) المراكشى في المعجب ص ١٨٤ .

(٣) هذه هي رواية ابن عذارى في البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وصاحب

الحلل الموشية ص ١٣٣ .

(٤) ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ ، وابن خلدون في العبر ج ٦ ص ٢٥٠ .

(٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ .

عبد الملك بن يوسف من أهل تينملل ، وكان هؤلاء النفر من القرابة والأشياخ هم الذين نصبوا أنفسهم للوصاية على الخليفة الصبي وتوجيهه ، وذلك بتوصية من والده الخليفة المتوفى ، واستغرقت البيعة الخاصة بيوم الخميس والجمعة ، الحادى عشر والثانى عشر من شعبان ، وفى يوم السبت أذن بأداء البيعة العامة . ويقول لنا المراكشى ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، أن أبا عبد الله بن عيَّاش الكاتب كان قائماً يقول للناس « تَبَايعُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا بَايَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رَسُولُ اللَّهِ ، مِنْ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَالنَّصِاحِ لَهُ وَلَوْلَاتِهِ وَلِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ . هَذَا مَا لَهُ عَلَيْكُمْ . وَلَكُمْ عَلَيْهِ أَلَّا يَجْمَعَ بَعُوثُكُمْ ، وَأَنْ لَا يَدْخُرَ عَنْكُمْ شَيْئاً مِمَّا تَعْمَلُكُمْ مَصْلَحَتُهُ ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ عَطَاءَكُمْ ، وَأَنْ لَا يَحْتَجِبَ دُونَكُمْ ، أَعَانَكُمْ اللَّهُ عَلَى الْوَفَاءِ ، وَأَعَانَهُ عَلَى مَا قُلِدَ مِنْ أُمُورِكُمْ » . وكان يعيد هذا القول لكل طائفة إلى أن انقضت البيعة^(١) . وأخذت بعد ذلك بيعات الأعيان والوفود القادمين من مختلف الأنحاء ، ثم وردت بيعات مختلف البلاد بالمغرب والأندلس . واتخذ الخليفة الجديد لقب المستنصر بالله ، وفى بعض الروايات أنه لُقِبَ أيضاً بالمستنصر بالله^(٢) .

ولم يتأخر فى تقديم البيعة سوى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى إفريقية ، وذلك لصغر سن المستنصر . وأكن الوزير أبا سعيد بن جامع بذل سعيه لدى الشيخ لتسوية هذا الأمر ، فوصات بيعته فيما بعد^(٣) .

وتولى الوزارة للمستنصر وزير أبيه من قبل ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله ابن إبراهيم بن جامع ، فاستمر فى الوزارة حتى سنة ٦١٥ هـ ، ثم عُزِلَ وخلفه زكريا ابن يحيى بن إسماعيل الهزرجى . وهو ابن بنت الخليفة يعقوب المنصور ، أعفى ابن عمه المستنصر ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتب أبيه وجده من قبل أبو عبد الله بن عيَّاش ، وأبو الحسن بن عيَّاش .

وكان الخليفة الجديد ميالا إلى حياة الدعة والبطالة مشغلا عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشباب^(٤) لا يعنيه شىء من مهام الملك ، أو بعبارة أخرى لا يمكن من العناية بشىء منها . وكانت الأمور تجري وفقاً لما يراه ويرمه الأشياخ

(١) المعجب ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٠ ، وتاريخ الدولتين لفرزكشى (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ١٤ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٠ .

الأوصياء . وكان عهده على العموم ، يمتاز بالهدوء والركود ، لم تقع خلاله حوادث ذات شأن ، ولم تنظم غزوات ما ، ولم تُحشد الجيوش الموحدية ، ولم تعبر البحر إلى شبه الجزيرة ، وفقاً لما جرى عليه الأمر ، منذ عهد أول الخلفاء الموحدين عبد المؤمن بن علي .

وعقد المستنصر لأول ولايته للسادة ، على عمالات الولايات بالمغرب ، والأندلس . فولّى على مدينة فاس السيد أبا إبراهيم إسحق الملقب بالأمر الظاهر ابن يوسف بن عبد المؤمن وكان والياً على غرناطة ، وهو أبو الخليفة المرتضى . وقد اشتهر السيد أبو إبراهيم إسحق هذا أيام ولايته لغرناطة في آخر عهد الناصر ، بمنشأته العمرانية بها ، وكان من أهمها وأجلها القصر الذي أنشأه خارج غرناطة على مقربة من ضفة نهر شليل ، وهو القصر الذي عرف فيما بعد أيام ملوك غرناطة « بقصر السيد » . والظاهر أن السيد إسحق ولي حكم غرناطة في عهد المستنصر مرة أخرى ، إذ يقول لنا صاحب « الحلال الموشية » إنه أنشأ أمام هذا القصر ، رابطة في سنة ٦١٥ هـ . وقد استعمل « قصر السيد » أيام ملوك غرناطة منزلاً للضيافة الملكية ، وما زالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله ، في ضاحية غرناطة المسماة « أرملة »^(١) .

وولي على إشبيلية عمه السيد أبا إسحاق بن يعقوب المنصور ، وهو المعروف بالأحول ، وبعث عم أبيه أبا العلاء الكبير لإدريس بن يوسف بن عبد المؤمن إلى تونس ليستقر في قصبته ، وأن يكون أميراً عليها ، يعنى بتدبير شئونها ، والدفاع عنها ضد المورقي ، إلى جانب الشيخ أبي محمد بن أبي خفص والى إفريقية . والسيد أبو العلاء هذا هو الذي أنشأ البرجين على باب المهديّة ، وأنشأ باب سبتة الحديد ، ثم أنشأ بإشبيلية برج الذهب الشهير أيام ولايته لها^(٢) .

وكان أول حادث ذو شأن وقع في ولاية المستنصر ، هو إخماد ثورة الفاطمي العبيدي . وقد روى لنا المراكشي قصة هذا الدعي كاملة ، وقد عرفه

(١) راجع في ذكر « قصر السيد » وصفه ، الحلال الموشية ص ١٢٦ ، والإحاطة في أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٥ ، ٣٢٤ و ٥٦١ . وراجع كتاب « الآثار الأندلسية الباقية » (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٣ و ١٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٦١ .

واجتمع به . وكان اسمه عبد الرحمن ، ويدعى أنه من بني عبيد ، وأنه ولد الخليفة العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين . وكان قد ورد على المغرب ، أيام الخليفة المنصور ، وسعى إلى الاجتماع به فلم يأذن له ، واستمر يطوف بالبلاد ، إلى أن قبض عليه بأمر الخليفة الناصر ، واعتقل في سنة ٥٩٦ هـ ، فلم يزل في سجنه إلى أن تحرك الناصر إلى إفريقية في سنة ٦٠٨ هـ ، فشفع له فيه أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الهزرجي ، فوافق على إطلاق سراحه ، على أن يلتزم السكنية ، وألا يشتغل بأى أمر غير مرغوب فيه . ولكن الدعى ماكاد يسترد حريته ، حتى غادر مراكش إلى بلاد صنهاجة ، وهناك اتف حوله كثيرون ممن جذبهم دعوته ، وكانوا يعظمونه ويبجلونه . يقول المراكشي « وكان هذا الرجل كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقيته مرتين ، فلم أر في أكثر من شهادته من المشبهين بالصالحين ، مثله في الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس ، وسكون الأطراف ، ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ، ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة » . ثم خرج هذا الرجل في جموعه متجهاً صوب مدينة بلماسة ، فخرج إليه والها السيد أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العبيدي ، واضطر أن يرتد في قلوله إلى بلماسة ، ومازال العبيدي ينتقل بين قبائل البربر ، من موضع إلى موضع ، دون أن يستقر في مكان ، أوتبت حوله جماعة ، إذ كان وفقاً لقول المراكشي « غريب البلد واللسان ، لا عشرة له ولا أصل بالبلاد يرجع إليه » حتى رمت به المقادير إلى أحواز فاس . وكانت السلطات الموحدية تطارده أينما حل ، فقبض عليه بظاهر المدينة ، وأودعه حاكم فاس ، وهو السيد إسحاق ، المطبق ، وكتب إلى الخليفة المستنصر بأمره ، فكتب إليه المستنصر يأمر بقتله وصلبه ، فضرب عنقه ، وصلب جسده ، وأرسلت رأسه إلى مراكش ، حيث علقت هنالك إلى جانب عدة أخرى من رؤوس الثوار والمتغلبين^(١) .

ويضع ابن عذارى تاريخ ثورة العبيدي في سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، ويقول إنه قام بثورته في بلاد جزولة ، من إقليم السوس ، وكان يزعم أنه فاطمي من ذرية عبد الله الشيعي ، ولم يزل يبيت دعوته حتى ظفر به الموحدون فقتل وعلق رأسه على باب فاس^(٢) . بيد أننا نؤثر الأخذ برواية المراكشي ،

(١) المراكش في المعجب ص ١٨٦ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣ .

وهو معاصر وشاهد عيان ، وهو يتفرد بما يقدمه إلينا من التفاصيل .

وفي نفس هذا العام ، سنة ٨٦١٢ م (١٢١٥) وصل إلى مراکش إبراهيم ابن الفخار اليهودي وزير ملك قشتالة ، سفيراً إلى الخليفة الموحدي في شأن التهادن وعقد السلم ، فرحب المستنصر وأوصياؤه ، بهذه الرغبة ، ووجه كتابين إلى الأندلس ، أحدهما إلى السيد أبي الربيع والي جيان ، والثاني إلى الشيخ أبي العباس بن أبي حفص والي قرطبة ، يطلب إليهما عقد التهادن والسلم مع ملك قشتالة ، على جميع بلاد الموحدين بالأندلس ، وفقاً للشروط التي اتفقت عليها بين الخليفة وبين ابن الفخار ، والتزم بها السفير القشتالي نيابة عن ملكه ، وكان عقد السلم مع قشتالة على هذا النحو ، خطوة طيبة ، حققت للأندلس فترة من الهدوء والسلام^(١) .

ويجب لكي نفهم البواعث التي حملت قشتالة ، على أن تسعى إلى عقد السلم مع الموحدين ، ولما عمض سوى ثلاثة أعوام على انتصارها الساحق في معركة العقاب ، أن نذكر أنه لما توفي ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وهو الظافر في معركة العقاب ، في أكتوبر سنة ١٢١٤ م ، خلفه على العرش ولده الطفل هنري (إنريكي) ، ولم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره ، فتولت أمه الملكة إليونور ، الوصاية عليه ، ولكنها توفيت بعد أشهر قليلة ، فخلفتها في الوصاية أخته دونيا برنجيلا ، زوجة ألفونسو التاسع ملك ليون المطلقة ، وكان آل لارا الأقوياء يطمحون إلى انتزاع الوصاية لأنفسهم ، فتنازلت عنها إليهم دونيا برنجيلا بشروط تعهدوا باحترامها ، أهمها ألا يعلنوا الحرب على أي ملك ، أو يتنازلوا عن الأراضي للأتباع ، أو يفرضوا أية ضرائب ، دون موافقة الملكة (برنجيلا) . وسارت الأمور في قشتالة على هذا النحو حيناً ، حتى توفي الملك الصبي هنري بعد ذلك بقليل من جرح أصابه خلال اللعب مع بعض الصبية الآخرين ، وذلك في يونيو سنة ١٢١٧ . فعندئذ بادرت الملكة برنجيلا باستئجار ولدها فرناندو وهو الذي رزقت به من ألفونسو ملك ليون ، وكان صبياً في الثانية عشرة من عمره ، واستدعاء صحبها المخلصين ، وسارت إلى بلد الوليد ، وهناك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة ، بيد أنها تنازلت في الحال عن العرش لولدها

(١) البيان المغرب - القسم الثالث من ٢٤٤ .

فرناندو فأصبح ملكاً على قشتالة (أول يولييه سنة ١٢١٧ م) وهذا الملك الصبي ، هو الذى غدا فيما بعد فرناندو الثالث ، أو فرناندو المقدس (١).

وفضلاً عما كان يحيق بعرش قشتالة من عوامل التقلقل والضعف ، فإن أحوال قشتالة العامة لم تكن يومئذ تدعو إلى الرضى ، فإن آثار الوباء كانت مازال متفشية في معظم الأنحاء ، وكان الإنتاج الزراعى قد انخفض من جراء ذلك ، وهلكت المحاصيل ، وانتشرت المجاعة بين السكان .

نستطيع على ضوء هذه الظروف التى كانت تجوزها قشتالة عندئذ ، أن نفهم كيف جنحت قشتالة إلى المسألة ، وآثرت أن تجوز فترة هدوء وسلام ، نستطيع خلالها أن ننظم شئوننا ، وأن توطد عرشنا ، وأن تعمل على إنعاش مواردها وأحوالها الزراعية والاقتصادية .

وفي العام التالى أعنى في سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وقع حادث ضئيل في ظاهره ، كبير في مغزاه ، ونتائج المحتملة ، هو ظهور طلائع بنى مَرين في أحواز مدينة فاس . وقد شرح لنا ابن خلدون أصل أولئك القوم ، الذين كتب لهم ، أن ينتزعوا ملك الموحدين فيما بعد ، فهم من شعوب بنى واسين من بطون قبيلة زناتة الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل البربرية التى لعبت أدواراً بارزة في تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ، ومغيلة ، ومديونة ، وبنى يفرن ، وبنى دمر ، وزواغة ، وجراوة ، وبنى عبد الواد ، وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مَرين ، كمعظم الأسر البربرية التى شادت بالمغرب دولاً شامخة ، يرجعون نسبهم إلى العرب . وقد رأيت أن هذا كان شأن المرابطين حيث تُرجع صنهاجة التى تنتمى إليها لمتونة نسبتها إلى العرب المالكية ، وشأن الموحدين ، حيث ينتسب صاحب دعوتهم المهدي ابن تومرت ، إلى آل البيت ، ويُرجع مؤسس دولتهم عبدالمؤمن نسبته إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وإلى هذا الفرع أيضاً ينتسب بنو مَرين ، فيقولون إنهم من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وجدهم الأعلى جرماط بن مَرين بن ورتاجى بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدّر . ابن ينجفت بن يصيلين بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سبيك ابن واسين (٢) . وكانت منازل بنى مَرين ، وإخوانهم من بنى مديونة وبنى يلوى

(١) M.Lafuente : Historia General de Espana. T. III. p. 380 & 381

(٢) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (طبع الجزائر ١٩٢٠) ص ١٠ ، ١١ ، ١٦ -

وبني يادين بن محمد في المغرب الأوسط ، ما بين وادي ملوية شمالا وسجلماسة جنوباً . وكانت المعارك كثيراً ما تنشب بين بني مرين وجيرانهم من بني يادين ، وهم الذين ينتمى إليهم بنو عبد الواد ، أصحاب مملكة تلمسان فيما بعد ، وكانت الغلبة في معظم الأحيان على بني مرين ، لكثرة خصومهم من بني يادين ، وكان بنو مرين كعظم البطون البربرية في تلك المنطقة ، من البدو الرحل ، يتجولون في هاتيك القفار شرقاً وغرباً ، وربما وصلوا في ظعنهم شرقاً إلى بلاد الزاب . وقد كانت الرياسة فيهم ، حسبما تذكر الرواية قبل ذلك بعصور ، لحمد بن وزير ابن فكوس بن كرمات بن مرين . ولما توفي محمد قام بأمر بني مرين من بعده أكبر أولاده حمادة ، ثم خلفه أخوه عسكر ، فلما توفي قام مكانه في الرياسة ولده أبو يكي الملقب بالخضب ، فلم يزل أميراً عليهم حتى ظهر أمر الموحدين ، وزحف عبد المؤمن إلى تلمسان في أثر تاشفين بن علي ، ليخوض معه المعركة الحاسمة (٥٣٩ هـ) ، وبعث قوة من الموحدين بقيادة الشيخ أبي حفص عمر المهناني ، لمحاربة الخوارج من بطون زناتة ، فاجتمع لقتاله بنو يادين وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة ، فزق الموحدون جموعهم ، وأذعن بنو يلومي وبنو يادين وبنو عبد الواد إلى الطاعة . ولكن بني مرين لحقوا بالصحراء في اتجاه الزاب . ولما دخل عبد المؤمن وهران ، على أثر مصرع تاشفين وتبدد قواته ، واستولى على أموال المتونة وذنخائرها ، عهد بهذه الأموال والذخائر إلى قوة من الموحدين لتحملها إلى تينملل ، فعلم بنو مرين بذلك ، واعترضوا تلك القوة ، وانزعجوا الغنائم من أيدي الموحدين . فحشد عبد المؤمن أوليائه من بطون زناتة ، وبعثهم مع الموحدين لاستنقاذ الغنائم . والتقى الموحدون وبنو مرين في مكان يعرف بقحص مسون ، فهزم بنو مرين ، وقتل شيخهم الخضب بن عسكر ، وذلك في سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) . ولجأ بنو مرين على أثر ذلك إلى الصحراء ، وعادوا إلى القفر يرقبون الفرص .

وقام بأمر بني مرين بعد الخضب بن عسكر ، ابن عمه أبو بكر بن حمادة ابن محمد . ولما توفي في سنة ٥٦١ هـ ، قام بأمرهم ولده محيو ، فلم يزل في

١٧٠ ، وابن خلدون في كتاب العبر ج ٧ ص ١٦١ . ويقدم لنا صاحب الذخيرة السنية شرحاً طويلاً لكيفية تحول نسل برن قيس عيلان بالمغرب من العروبة إلى البربرية .

(١) الذخيرة السنية ص ١٨ و ١٩ .

رياستهم ، حتى استنفرهم الخليفة يعقوب المنصور للجهاد معه بالأندلس ، فاشتركت معه منهم جماعة كبيرة في موقعة الأرك ، وأبلوا فيها البلاء الحسن (٨٥٩١ - ١١٩٥ م) ، وأصيب عميدهم يحيى في المعركة بجرح توفي منه بعد بضعة أشهر ، فخلفه في الرياسة أكبر أولاده أبو محمد عبد الحق ، وكان من خيرة أمرائهم ، وعلى يديه أخذ نجم بن مرين يبرز في الأفق (١) .

ولما وقعت كارثة العقاب ، وفنى معظم الجيوش الموحدية ، في شبه الجزيرة الأندلسية ، أخذت بوادر التفكك والضعف تبدو على سلطان الموحدين ، في معظم العائلات والأطراف . ولم يكن ذلك يخاف على القبائل المتوثبة مثل بنى مرين . ولما توفي الخليفة الناصر ، وخلفه ولده الصبي يوسف المستنصر ، وشغله نزوات الحداثة والشباب ، عن تدبير شئون الدولة ، وغلب التواكل والراخي ، على السادة والأشياخ ، في مختلف النواحي ، لاح لبنى مرين أن فرصتهم قد سنحت . وكانوا لا يأبؤون إلا إلى القفار ، ولا يخضعون لأى حكم ، ولا يؤدون الجزية لأحد ، ولا يعرفون الحرث والزرع ، ولا شاغل لهم غير الصيد والغارات ، وجل أموالهم من الإبل والحيل (٢) . وكانت منازلهم ما تزال في جنوبي وادى ملوية ، وكانوا يترددون في تلك الأنحاء ، ولاسيا في المنطقة الممتدة ما بين وادى ملوية ومكناسة ، ويأنسون بمن بها من عسائر زناتة ، وينتجعون المرعى أيام الربيع والصيف ، ويجمعون الحبوب لأقواتهم طيلة الشتاء ، ثم يرتدون إلى منازلهم في القفر فوق التلال والربى . فلما شهدوا من تضعف الدولة الموحدية ، وتخاذل أطرافها ماشهدوا ، اعتزموا أن يهجروا القفر ، وأن ينتجوا العمران ، فنقلوا إلى نواحي المغرب المجاورة ، واكتسحوا بجيلهم البسائط ، وملأوا أيديهم بالغارة والنهب ، وكان ذلك بداية عهد الخليفة المستنصر . فثار لذلك بلاط مراکش ، وأمر المستنصر بتجهيز الحشود ، وندب أبا على بن وانودين للقيادة ، وبعثه إلى السيد إبراهيم إسماعيل والى فاس ، وأمر بأن يخرج السيد لغزو بنى مرين ، وأن يشحن فيهم وأن يستأصل شأقتهم ، وكان بنو مرين حينما علموا بأمر هذه الأبهة قد اجتمعوا وتشاوروا ، وافق رؤسهم على التأهب للحرب والزال ، فتركوا أموالهم وحريمهم في حصن تاروطا بأرض عمارة ، وساروا جنوبا صوب فاس ،

(١) ابن حلدون في البرج ٧ ص ١٦٧ .

(٢) الذخيرة النية ص ٢٣ .

وكانوا في نحو أربعمائة فارس غير الرجال ، وخرج الموحدون إليهم بقيادة السيد أبي إبراهيم ، وكانوا في عشرين ألف مقاتل أو في عشرة آلاف وفقاً لرواية أخرى . والتقى الفريقان بوادي نكور ، فكانت الهزيمة على الموحدين ، واستولى بنو مرين على أسلابهم ودوابهم ومتاعهم بل وثيابهم ، وأسروا السيد أبا إبراهيم ثم أطلقوا سراحه بعد ذلك ، وارتدت فلول الموحدين إلى فاس ، وبعضهم نحو رباط تازة ، وكثير منهم يسترون أنفسهم بورق النبات المعروف « بالمشعلة » حتى لقد سميت هذه الموقعة بموقعة المشعلة ، بل سمي هذا العام (سنة ٦١٣ هـ) بعام المشعلة^(١) ، وسار بنو مرين بعد ذلك شرقاً نحو بلدة رباط تازة ، وبعث أميرهم أبو محمد عبد الحق إلى عاملها الموحدى ، يطلب إليه أن يقيم في خارجها سوفاً لبني مرين ، يتزودون منها بما يحتاجون إليه ، فأنف العامل الموحدى ، وثار لذلك الطلب ، وخرج في جمع غفير من الموحدين والعرب وأبناء القبائل المجاورة ، ونشبت بينه وبين المرينيين معركة شديدة هزم فيها وقتل ، ونهبت محلته . فكان ثاني نصر لبني مرين على الموحدين في ظرف بضعة أشهر^(٢) :

ثم وقع الخلاف بين بني مرين أنفسهم ، وانقسموا إلى فرقتين ، الأولى يزعمها بنو عسكر بن محمد ، والثانية يزعمها بنو حمامة بن محمد ، وقد كانت الرياسة في البداية في بني عسكر ، ثم انتقلت إلى بني حمامة ، ففص بذلك فريق بني عسكر ، وخرجوا على أميرهم أبي محمد عبد الحق ، وتحالفوا مع أولياء الموحدين من عرب رياح ، وكان الخليفة المنصور قد أنزلهم بتلك المنطقة . وفي سنة ٦١٤ هـ ، نشبت بين بني عسكر وحلفائهم من أولياء الموحدين ، وبين بني حمامة في وادي سبو ، موقعة هزم فيها بنو حمامة في البداية ، وقتل أميرهم عبد الحق وولده الأكبر إدريس ، فاضطرم بنو حمامة سخطاً ، واستجمعوا قواهم ، وحملوا على خصومهم من الموحدين والعرب حملة عنيفة ، كثر فيها القتل من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الموحدين والعرب وتمزيق جوعهم ، وانتهاب سائر أسلابهم . (جمادى الآخرة سنة ٦١٤ هـ) . وقام برياسة بني مرين بعد مقتل أميرهم عبد الحق ، والده أبو سعيد

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٤ و ٢٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٨٨ ، والذخيرة السنية ص ٢٦ - ٢٨ .
(٢) الذخيرة السنية ص ٣١ و ٣٢ .

عثمان ، وهو الذى بزغ على يديه نجم بنى مرين ، وأصبحوا قوة لها خطرها (١) .

* * *

ولقد أشرنا فيما تقدم إلى عقد التهادن والسلم بين الموحدين ومملكة قشتالة ، ولكن هذا التهادن لم يتحقق بالنسبة لباقي الممالك الإسبانية النصرانية ، ومن ثم فقد وقعت بالأندلس ، فى قطاع الغرب ، حوادث هامة ، كان من نتائجها ، أن نكبت الأندلس بفقد طائفة جديدة من الأراضى والحصون .

وكان أول ضربة أصابت الأندلس من جراء العدوان النصراني ، فقد ثغر القصر أوقصر أبي دانس (٢) ، وهو أمنع قاعدة دفاعية اسلامية فى منطقة الغرب . وكانت القصر قد سقطت فى أيدي البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، على أثر اضطراب الحوادث فى منطقة الغرب ، ولما عبر الخليفة المنصور إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، لاسترداد شلب التى استولى عليها البرتغاليون بمعاونة النصارى الصليبيين ، فى سنة ٥٨٥ هـ ، غزا منطقة الغرب واستطاع أن يسترد حصن القصر من النصارى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ (يونيو ١١٩١ م) ، وولى عليه أبا بكر محمد بن وزير . ويقع ثغر القصر جنوب شرق أشبونة على مصب نهر شطوبر Sadoa ، على مقربة من المحيط الأطلنطى ، ويتسع مصب هذا النهر لدخول السفن الكبيرة ، تشقه حتى أسوار المدينة ، ويتصل قبل مصبه فى المحيط بخليج واسع يصلح لتجمع السفن الغازية . وكانت مناعة القصر تقف سداً منيعاً ضد تقدم البرتغاليين نحو الجنوب . فى أوائل سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) وصل إلى شواطئ البرتغال أسطول من الصليبيين الألمان فى طريقه إلى المشرق ، ورسا فى مياه أشبونة (لشبونة) ، فأنهز البرتغاليون تلك الفرصة ، ودعوا إلى إشهار الحرب الصليبية ، ضد مسلمى الأندلس ، وسار البرتغاليون وحلفاؤهم الصليبيون الألمان إلى ثغر القصر ، وضربوا حوله الحصار من البحر ومن البر ، وذلك فى ٣٠ يولييه سنة ١٢١٧ م ، فامتنع المسلمون داخل ثغره ، وبادر إليها عبد الله ابن وزير ، وهو ولد إليها السابق أبى بكر بن وزير ، يطلب الإنجاد من الموحدين ، ووصل صريحه إلى بلاط مراکش ، فبعث المستنصر إلى ولاية قرطبة وإشبيلية ، وجيآن وولاية الغرب ، بحشد جيوشهم ، والمبادرة إلى إنجاد الثغر المحصور ،

(١) الذخيرة السنية ص ٢٢ - ٣٤ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) وهى بالبرتغالية Alcácer do Sal

وسارت الجيوش الموحدية المجتمعة صوب القصر ، فوصلت إليه في أوائل شهر سبتمبر ، وكان المسلمون مازالوا صامدين في ثغرهم ، وقد استطاعوا أن يردوا عدة هجمات للمحاصرين . وسارت في نفس الوقت طائفة من السفن الموحدية إلى مياه القصر ، لتسد الطريق على السفن المحاصرة . ونشب القتال بين الجيوش الموحدية المتحدة وبين النصارى . والظاهر أن البرتغاليين كانوا يتفوقون في الكثرة على المسلمين ، إذ كان جيشهم يضم وفقاً للرواية النصرانية ذاتها ، عشرين ألفاً من الرجالة وعدداً من الفرسان . فهزم المسلمون ومزقت صفوفهم . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المسلمين ماكادوا يرون النصارى حتى أدركهم العرب ، وولوا الأدبار ، وذلك لسابق رعبهم منذ هزيمة العقاب ، فطاردتهم النصارى وقتلوه عن آخرهم^(١) ، ويقول صاحب الروض المطار ، إنه قد اجتمع من الأمداد جيش عظيم ، لكنهم تخاذلوا على عادتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا مدبرين ، ووقع القتل والأسر ، ولم يبرز للمسلمين من الروم إلا نحو سبعين فارساً ، ورأى أهل الحصن ذلك فأيقنوا بالتغلب عليهم^(٢) .

ويضع ابن الأبار تاريخ الواقعة في شهر جمادى الأولى سنة ٦١٤ هـ (أغسطس ١٢١٧ م) ، وفي موطن آخر في أحد شهرى ربيع سنة ٦١٤ هـ متقدماً قليلاً عن الرواية النصرانية ، ويقول إنه فقد فيها آلاف من المسلمين يتخاذل رؤسائهم ، يوم التقى الجمعان ، وأن الواقعة كانت « إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آلى إليه أمر الأندلس »^(٣) .

ومع ذلك فقد بقيت حصن القصر صامدة ، فلما رأى النصارى أنهم لم يستطيعوا ثلم الأسوار ، صنعوا برجين عاليين من الخشب ، يضارعان في ارتفاعهما أبراج المدينة ، وشحنوهما بالرماة ، وركبوا في جوانبهما آلات الرمي ، وضربوا الأسوار من هذين البرجين ضرباً شديداً ، حتى أيقن المدافعون أنه لا أمل في الصمود ، فعرضوا التسليم . على أن يسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ، ووافقوا فقط أن يسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئاً معهم . ففتحوا الأبواب ، وانطلقوا إلى حال سبيلهم . وسلمت المدينة بعد أن لم تبق أية وسيلة

(١) روض القرطاس ص ١٦١ . (٢) الروض المطار ص ١٦٢ .

(٣) الرواية الأولى في الحلة السراء ص ٢٤٢ . والثانية في التكملة (القاهرة) ج ٢ في

البرجة رقم ١٥٧٧ .

للدفاع ، وذلك في ١٨ أكتوبر سنة ١٢١٧ م (١٤ رجب ٦١٤ هـ) ، بعد شهرين ونصف من بدء الحصار . وسلم قائد الثغر ، وهو عبد الله بن وزير ، نفسه للنصارى ، وتظاهر باعتناق النصرانية طلباً للسلامة ، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى استطاع الفرار ، والوصول إلى الأراضى الإسلامية . ولجأ فيما بعد إلى مدينة إشبيلية . ودخل النصارى مدينة القصر أوقصر أبي دانس ، وقتلوا كل من كان بها ، وبالضيق المجاورة ، من المسلمين . وفتح سقوط هذا الثغر المنيع ، الطريق إلى زحف البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين نحو الجنوب ، نحو باجة وميرتلة وشلب . ولكن ملك البرتغال ألفونسو الثاني (ألفنش) ، وهو لم يشترك في حصار القصر ، آثر أن يتمهل بعض الوقت لتعمير الأراضى المفتوحة : ومن جهة أخرى فإن الصليبيين لم يستطيعوا الزحف إلى الجنوب ، بعد أن وصلهم أوامر البابا قاطعة بأن يستأنفوا سيرهم إلى المشرق^(١) .

ومن الغريب أن ابن عذارى ، وهو في معظم ما يكتبه ، يقظ متنبه للأحداث ، يقول لنا إنه لم يتحقق خبراً يذكره في سنة أربع عشرة أو خمس عشرة ، هذا في حين أن صاحب روض القرطاس ، يذكر واقعة سقوط القصر ، وتاريخ وقوعها في سنة ٦١٤ هـ ، ويصفها بأنها كانت من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب . ولم تمض بضعة أعوام على نكبة مدينة القصر ، حتى منيت الأندلس بفقد قاعدة أخرى من حصونها الأمامية المنيعة هي قاصرش^(٢) . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون غير مرتبط مع الموحيدين برباط التهادن والسلم ، وكان يطمح إلى الاستيلاء على قاصرش ، الواقعة شمالاً ماردة وغرباً ترجاله ، وذلك لكي يضمن سلامة حصن القنطرة الواقع على نهر التاجه في شمالها الغربي ، والذي كان مركز جمعية فرسان القنطرة ، فسار إليها في شهر نوفمبر سنة ١٢١٨ م (٦١٦ هـ) وضرب حولها الحصار ، ولكن حاميتها الإسلامية صمدت ، واضطر أن يرفع الحصار عند حلول الميلاد ، وفي سنة ١٢٢١ م (٦١٩ هـ) استولى فرسان القنطرة على قاعدة « بلنسية »^(٣) الإسلامية . وفي العام التالي ، اشترك فرسان شنت ياقب

(١) راجع في سقوط حصن القصر ، روض القرطاس ص ١٦١ ، والروض المعطار ص ١٦١ .
و ١٦٢ وكذلك : A. Huici : Historia Política del Imperio Almohade, p. 442 & 443

(٢) وهي بالإسبانية Cáceres

(٣) هي المعروفة ببلنسية القنطرة الواقعة غرب قاصرش ، وهي طبعا غير ثغر بلنسية الكبير ، في الشرق .

- ٣٤١ -

وملك ليون في حصار قاصرش ، ولكن ألفونسو التاسع عاد ورفع الحصار للمرة الثانية ، عن القاعدة الإسلامية . وفي الأعوام التالية ، تكرر هجوم الليونيين على قاصرش ، معاونة جماعة من القشتاليين ، وانتهى الأمر بسقوطها في أيديهم ، وذلك في صيف سنة ١٢٢٣ م (٦٢٢ هـ) ، بعد وفاة الخليفة المستنصر بنحو عامين .

ومن جهة أخرى فإنه بالرغم من عقد المهادنة بين قشتالة ، والخليفة الموحدى ، كانت العناصر النصرانية المتعصبة التي لا يروقها الكف عن محاربة المسلمين تربص الفرص ، لتجديد غزو الأندلس ، وكان في مقدمة هؤلاء الحبر المتعصب ، رديجو خمينث دى رادا مطران طليطلة ، فإنه قام بتجهيز حملة صليبية ، وعبر إلى الأراضي الإسلامية من ناحية الشرق ، واستولى على عدة من حصون المسلمين ، ووصل في زحفه إلى بلدة ركانة الواقعة غربي بلنسية ، وحاول النصارى الاستيلاء على ركانة فضربوها بالحمايق ، وهاجموها مراراً ، وهدموا بعض أبراجها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق بغيتهم ، وارتدوا عنها خائبين . وكان ذلك في أواخر سنة ١٢١٩ م (٦١٧ هـ) .

* * *

وكانت الأمور خلال ذلك كله ، تسير في العاصمة الموحدية رتبة راكمدة ، وبلاط مراکش على ما هو عليه من التواكل والسكون ، والخليفة الفتي يوسف المستنصر ، مكب على حياة اللهو والمرح ، وأشياخ الموحدين المضطلعين بتدبير الأمور ، غير حافلين بشيء ، ولم توقظهم نهضة بني مرين وفورتهم الخطيرة ، التي لم يحدها سوى خلافهم فيما بين أنفسهم ، ولم تهزهم حوادث الأندلس وسقوط ثغر القصر ، وما اقترن به من الحوادث المؤلمة ، ولم يفكروا في العمل على تعزيز معاقل الأندلس ، وخطوطها الدفاعية ، تحوطاً للحوادث . ثم جاءت سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) ، وقد هلك الزروع ونضبت الحبوب ، وانتشرت المجاعة ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلاً . وكانت الأحوال الاقتصادية قبل ذلك ، تسير من سيئ إلى أسوأ ، وقد سجلت لنا الرواية عن أحوال المغرب في هذا الوقت صورة قائمة ، حيث كثرت الفتن بين قبائل المغرب ، ونبذ أكثرها الطاعة ، وقطعت السابلة ، واشتد الخوف في الطرقات ، وكثر اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ، وانكمش الأخذ والعطاء لاختلال الأمن ، وإغارة القبائل

البربرية وجموع العرب على مختلف الأنحاء^(١). كل ذلك والحكومة الموحدية جامدة لا تفكر في اتخاذ أى إجراء لإصلاح الأحوال . فلما اشتدت المجاعة وعلم المستنصر بما يقاسيه الناس من أهوالها ، أمر بفتح المخازن السلطانية ، المعدة لاختزان الحبوب والمؤن ، ففتحت وفرقت منها مقادير عظيمة على العامة والضعفاء دون ثمن ، وفرق منها على الأقوياء والميسورين بالثمن ، وفرق الخليفة كذلك مبالغ كبيرة من المال على الناس ، فكان لذلك أثر طيب في تخفيف الضيق . ومن الغريب أنه طافت بالأندلس في العام التالى سنة ٦١٧ هـ ، مثل هذه الشدة ، فقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ولكن الأزمة لم تطل ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعى^(٢) .

وفى هذا العام ، سنة ٦١٧ هـ (١٢١٩ م) ، وجه الخليفة المستنصر بالله كتابا إلى قواعد المغرب والأندلس ، على نمط الكتب التى كان يوجهها الخلفاء الموحدون ، منذ عبد المومن ، إلى الولاة والأعيان والكافة ، فى مختلف المناسبات ، بوجوب التمسك بالدين ، واتباع أحكام الشرع ، والتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما إلى ذلك من النصائح والوصايا ، وربما كان لذلك أيضاً علاقة باختلال الأحوال ، ومحاولة تطمين الرعايا ، وإلقاء السكينة فى روعهم . وقد نقل إلينا ابن عذارى فصلا من ذلك الكتاب ، ونحن ننقل بعض فقراته فيما يلى :

« وإلى هذا ، وصل الله توفيقكم ، فقد علمتم أن الدين هو الأساس الوثيق ، والبناء العتيق ، والفسطاط المضروب ، والعلم المنصوب ، والتجر الذى لا يبور ، والطريق الذى لا يمحور ، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن تحصن به ، فقد تحصن بالمعقل الأحصن الأرقى ، فإذا وقفتم على كتابنا هذا ، فجددوا للناس به الذكرى ، وعرفوهم أن الدنيا مطية إلى الدار الأخرى ، وحضوهم على العمل الصالح ، والتجر الرابع ، عسى أن يجعلهم الله تعالى فى الدارين ، من الذين لهم البشرى ، وبثوا فى جهاتكم كلها ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . واستحفظوا الكافة صلواتهم ، فإنها الكتاب الموقوف على على المؤمنين ، وخذوهم باعتياد المساجد ، فإنها الشاهد الأزكى بشهادة خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والأسواق ،

(١) الدخيرة السنية ص ٣٥ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٥ .

فإنه الخير المألوف ، والشعار المعروف ، والرسم الذى عليه العمل ، والعهد الذى لا يجب فيه التغيير والخلل .

« ونحن قد قلدنا الله قلادة نعلم لوازمها ، ومحفظ مراسمها ، ومن جعلها التذكير بالدين ، فهو الشافع الذى لا يغفل ، والوسيلة التى لانضاع ولا تهمل ، فاعلموا أعزكم الله هذا المقصود علماً ، وكونوا فى القيام به لانخالفون نقطة ، ولا نوماً ، وللناس عليكم ما نأمركم به من العدل الثام ، والإنصاف العام ، وكف الأيدى ، وقبضها عن التعدى . وهذا خطاب قد أرشدنا فيه إلى مناهج سوية ، وحضضنا فيه على أمور ضرورية ، وأتينا فيه بما يجب البدار إليه ، وخير العمل ما دووم عليه ، والله معكم والسلام عليكم ، وكتب فى عاشر ربيع الأول سنة سبع عشر وستمائة (١) .

والظاهر أن توجيه هذا الكتاب ، لم يكن إلا محاولة من الخليفة الفتى ، للعمل على إحياء تقليد من تقاليد آباءه الخلفاء الموحدين ، فى تذكير الناس من وقت إلى آخر بدستورهم الدينى ، والتنبيه إلى توقيره ، والحفاظة عليه .

وفى العام التالى ، سنة ٦٢٨ هـ (١٢٢٠ م) ، قدم سفير قشتالة إلى مراکش مرة أخرى ليسعى فى تجديد المهادنة والسلام . وكانت المفاوضات الأولى قد تمت بين القشتاليين ، وولاة الأندلس من السادة الموحدين ، وتم تجديد المهادنة بين الفريقين ، وفقاً لتوجيه الخليفة المستنصر . ثم كتب وزير المستنصر ، أبو يحيى بن أبى زكريا ، إلى « ملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطيطة » كتاباً من إنشاء الكاتب ابن عيَّاش بما أبرم بينه وبين رسولها من عقد السلم . ومن الواضح أن ملكة قشتالة المشار إليها هنا ، لم تكن سوى الملكة برنجيلا بنت ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ومطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، وكانت يومئذ تتولى الوصاية على ابنها الصبى فرناندو ، الذى أعلن ملكاً على قشتالة فى سنة ١٢١٧ م ، وكانت بذلك تعتبر هى الملكة الأصبيلة فى نظر الموحدين .

وقد أورد لنا ابن عذارى نبذة من الكتاب المشار إليه ننقلها فيما يلى :

« وقد انقلب إليكم رسول منكم ، بما تعرفونه فى السلم المنعقد ، النير شهابه ، المتقد بين الموحدين وبينكم ، بالمخاطبة الكريمة ، التى حملها إليكم ، وحمل نحوكم

من الإتحاف ما يبلغكم على يديه ، الذى هو عنوان المخالصة ، وثمرة المواصلة ، وكل ما يكون من هذا بيننا وبينكم ، ينبغي أن يكون متقبلاً ، وعلى أحسن المتأولات متأولاً ، ان شاء الله ، وأنتم بحول الله تقفون عند حدود السلم ، وتحافظون عليها ، وتعاقبون كل من هم بإذابة المسلمين ، فإن الوفاء شعار الملوك ، وعليهم فيه يجب السلوك . وكتب فى سادس رمضان سنة ثمان عشرة وسمائة (١) .

وكان من تصرفات المستنصر الأخيرة ، أن عين عمه أبا محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور والى غرناطة ، وهو الذى تسمى بالعدل فيها بعد ، والياً على مرسية ، وذلك فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) .

ولم يك ثمة ما يؤذن بوفاة الخليفة المستنصر فى سن مبكرة ، وقد كان فى فى عنفوانه ، لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وكان متين البنية ، حسن التكوين . ولكن حياة اللهو الصاحب المستمر ، التى انهمك فيها ، حطمت بنيته ، ومهدت الألعاب والرياضات العنيفة ، التى كان يشغف بها لوفاته الفجائية . ويقص علينا صاحب روض القرطاس قصة هذه الوفاة الفجائية ، فىقول لنا إن يوسف المستنصر ، كان مولعاً بالبقر والخيل ، وكان يستجلب الأبقار من الأندلس ، ويربها فى رياضه الكبيرة بمدينة مراكش ، فى عشية ذات يوم ، ركب المستنصر قنشياً (مهرًا) ، وذهب إلى الروض ليتأمل خيله وأبقاره فى ضوء القمر ، فبينما هو يسير بين البقر ، إذ قصدت إليه بقرة شرود منهن ، فضربته بقرنها يعنف ، ضربة أصابته فى القلب ، وأودت بحياته على الأثر . وكان ذلك فى مساء يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ (٤ يناير ١٢٢٤ م) (٢) . ولكن هذه الرواية ، التى ينقلها بعض المؤرخين المتأخرين ، ليست هى الوحيدة فى شرح ظروف وفاة الخليفة المستنصر الفجائية ، فإن هناك رواية أخرى ، مفادها ان المستنصر توفى مسموماً ، بتدبير وزيره أبى سعيد بن جامع والفتى مسرور ، وهذا ، نقله إلينا الزركشى عن « ترجمان العبر » (٣) .

والآن فلنلق نظرة عابرة على هذه الأعوام العشرة ، التى شغلها خلافة المستنصر ، وعلى شخصية هذا الخليفة الفتى ، وهى شخصية لم تتميز بشيء من الخلال العظيمة ، والأعمال البارزة .

(٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٦

(٢) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ .

ان سائر التواريخ المعاصرة والقريبة من العصر ، تحدثنا عما كان عليه عهد الخليفة المستنصر ، من التعطل والركود ، وعما كان عليه المغرب يومئذ ، من اختلال الأحوال ، واضطراب السكينة والأمن ، وذيوع التوجس والقلق ، وضعف الموارد العامة والخاصة ، وانتشار الضيق والفقر ، وفقر همهم أولى الأمر ، ونكولهم عن القيام بأية إجراءات ناجعة ، لتنظيم شئون الدولة ، أو معالجة الأحوال العامة ، أو معاونة الشعب على اجتياز أزماته الاقتصادية والاجتماعية . ولم يكن ثمة شك في أن هذه كلها ، كانت علامات مزعجة ، تؤذن ببديب الوهن والانحلال إلى الدولة الموحدية العظيمة ، وبانحدارها إلى المصير ، الذي لا بد أن تنحدر إليه دولة يصيبها مثلاً أصاب الدولة ، في عهد المستنصر بالله .

وإنا لنقرأ في وصف المؤرخين لشخصية المستنصر ، وفي تعليقاتهم على عصره ، تلك الصور المروعة ، لدولة تنحدر بسرعة إلى هاوية السقوط .

فمثلاً يقول لنا ابن عذارى : « ولم تكن للمستنصر بالله حركة ولاغزوة ، ولاخرج من حضرته إلا المدينة تينمل ، على العادة في التبرك بالمهدى . فما وقفت له على خبر أذكره إلا ما رأيت في بعض الرسائل ، والله يوتى ملكه من يشاء »^(١) . ويقول صاحب روض القرطاس : « ولم يخرج من حضرة مراکش طول خلافته إلى أن توفي ، وكانت أوامره لا يتمثل ، أكثرها لضعفه وليانته ، وإذماته على الخلاعة ، وركونه إلى اللذات . وتفويضه أمور مملكته ، ومهمات أموره ، إلى السفلة »^(٢) .

ويقول ابن خلدون : « وقام بأمر الموحدين من بعده (أي بعد الناصر) ابنه يوسف المستنصر ، فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم ، وشغلته أحوال الصبا وجنونه ، عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ، فأضاع الخزم ، وأغفل الأمور ، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه ، ونفس عن مخنقهم ، من قبضة الاستبداد والقهر ، فضاعت الثغور ، وضعفت الحامية ، وتهاونوا بأمرهم وفشلت ربحهم »^(٣) .

على أن أبلغ ما وقفنا عليه من هذه التعليقات يتمثل في تلك الفقرة التي يوردها ابن عبد الملك المراكشي ، في ترجمة أبي الحسن بن القطان ، تعليقاً على اختلال

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٧ . (٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ .

الأحوال في المغرب وقطع السبل ، ووقوع النهب على التجار وغير ذلك :
 « واستمرت الأمور على هذه الحال ، وهذه السبل زمانا ، والمستنصر في
 غفلة عن كل ما يجري ، غير سائل عن رعيته التي يسئل عنها ، وزن بدمه نه سؤال
 عن أحوال الناس والبلاد ، أجاب الوزير أبو سعيد ، أن الجميع في سبوغ نعمه ،
 وشمول عافية ، واتساع أحوال ، وبسط أموال ، فيقنعه ذلك ، ويعود إلى أنهما كه
 في لذاته . وأهل مع ذلك جانب الأجداد الذين هم آله الملك وأعوانه ، فأرجل
 فرسانهم ، وصرفت رجالاتهم ، فتفاقم الأمر ، واستشرى شرى المفسدين وكثر
 أضرارهم ، وعم عدوانهم . ولما تبادى ظهور الفساد ، واشتدت شوكة أهله ،
 أجرى أبو الحسن (المترجم) ذكر ذلك بمجلس الوزير أبي سعيد ، وأشار عليه
 بإنفاذ جيش إلى بعض نواحي مراكش لردع من نيج من أهل البغي ، فأجابه
 بأن ذلك لا يحتاج إليه ، وأنه سيكتب إلى أهل تلك الناحية ، بالنفوذ إلى من تعرض
 إلى أرضهم ومرافقهم ، والقبض عليهم وقتلهم ، ونحو هذا » (١) .

في تلك الفقرة ، التي يقدمها لإينا مؤرخ عاش فيها قريباً من العصر ، تبدو
 أصدق صورة للمستنصر وأحوال عصره ، وهي صورة تنطق بنفسها ، عما يمكن
 أن يترتب على مثلها بالنسبة للدولة التي تجوزها من النتائج الخطيرة .

على أنه توجد لدينا في نفس الوقت بعض نصوص تقدم لإينا المستنصر ، هذا
 الفتى المتعطل المستهتر ، في صورة أخرى ، هي صورة الطاغية القوى المستبد ،
 الذي يستأثر بالأمور ، وإليك ما يقوله لنا في ذلك مؤرخ موحدى معاصر وشاهد
 عيان ، هو عبد الواحد المراكشي ، وقد عرف المستنصر شخصياً واتصل به .

يقول عبد الواحد خلال حديثه عن المستنصر : « ولم يغير أبو يعقوب هذا على
 الناس شيئاً من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عن كان قبله ، خلا أني رأيت
 كل من يعرفه من خواص الدولة : قد ملئ قلبه رعباً لما يعلمون من شهامته
 وشدة تيقظه . لقيته وجلست بين يديه خالياً به ، وذلك في غرة سنة ٦١١ ، فرأيت
 من حدة نفسه ، وتيقظ قلبه ، وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق ، فكيف
 الملوك ، ما قضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع » (٢) .

(١) كتاب الذيل والتكلة لابن عبد الملك المراكشي (السفر الخامس من مخطوط المتحف البريطاني
 لوحة ١٩) في ترجمة علي بن محمد بن عبد الملك بن ساحة الحميري الكتاني ، أبي الحسن بن القطان .
 (٢) المعجب ص ١٨٧ .

ويؤيد هذه الصورة في بعض نواحيها صاحب روض القرطاس حين يقول في حديثه عن المستنصر : « فضعت دولة الموحدين في أيامه ، واعتراها النقص ، وأخذت في الإدبار ، إلا أن أيامه كانت أيام هدنة ودعة وعافية . فلما كبر ، واشتغل بأموره ونهيه ، واستبد بملكه ، جعل يفرق أعمامه ، من حواليه الذين كانوا يدبرون أمر دولة وأقاموها ، وأشياخ الموحدين الذين أسسوها ، وقرب أناسا وتمسك بهم ، لم يكن لهم أصل فيها » (١) .

هذا وقد كانت حكومة الخليفة المستنصر ، تتألف من معظم الأشخاص الذين عملوا مع أبيه الناصر ، فكان وزيره وزير أبيه أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إدريس بن إبراهيم بن جامع ، وهو سليل تلك الأسرة التي استأثرت بوزارة الخلافة الموحدية زهاء نصف قرن ، وكان عميدها إبراهيم بن جامع من أصحاب المهدي ، واستمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ هـ ، ثم صرفه المستنصر ، واستوزر من بعده أحد اقربائه ، وهو زكريا بن يحيى بن اسماعيل المزرجي ، فاستمر في الوزارة حتى نهاية عهده ، بيد أن هناك ما يدل على أن المستنصر ، عاد فاستدعى الوزير أبا سعيد للعمل مرة أخرى ، وذلك في أواخر عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتباً أبيه وجده من قبل ، وهما أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش ، ولما توفيا متعاقبين في شهور سنة ٦١٩ هـ ، استدعى للكتابة أبو عبد الله محمد ابن مخلف بن الفزازي ، كاتب الناصر من قبل ، وكان عندئذ يشغل منصب القضاء بمرسية ، وعين معه للكتابة أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش ، وبقى كاتب الجيش أحمد بن منيع ، وهو كاتب الناصر من قبل ، في منصبه دون تغيير . وتولى الحجابة للمستنصر ، مبشر الخصى حاجب أبيه ، ولما توفي خلفه في الحجابة فارج الخصى المعروف بأبي السرور ، واستمر في الحجابة حتى وفاة المستنصر . وتولى القضاء للمستنصر ، أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضي أبيه ، فلم يزل في منصبه حتى نهاية عهده ، وهذا القاضي هو أيضاً ، حفيد أسرة استأثرت بمناصب القضاء منذ أيام عبد المؤمن ، وكان عميدها أبو عمران موسى الضريير صهر عبد المؤمن .

ولم ينجب المستنصر ولداً ، ولم يعقب إلا حملاً من جارية ، لم تذكر لنا الرواية مصيره (١) .

(٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

(١) روض القرطاس ص ١٦١ .

الفصل الثاني

أبو محمد عبد الواحد والعاذل

وثورة البياسى بالأندلس

ولاية الخليفة أبي محمد عبد الواحد . نشأته وصفاته . تصرفاته الأولى . اعتراض السيد أبي محمد عبد الله والى مرسية على خلافته . قيامه بالدعوة لنفسه وتلقبه بالعاذل . انضمام إخوته ولاية قرطبة وغرناطة ومالقة إليه . تأييد أبي محمد عبد الله البياسى والى جيان له . مخالفة السيد أبي زيد والى بلنسية . استوزاره لابن يوجان ونزوحه إلى إشبيلية . القيام بدعوته في مراكش . مصرع الخليفة أبي محمد عبد الواحد . تطور الحوادث بالأندلس . خروج البياسى على العادل ودعوته لنفسه . مسير أبي العلى إدريس لقتاله . استنصار البياسى بملك قشتالة . تحاذل أبي العلى عن قتاله وارتداده . العادل يرسل جيشاً آخر لقتال البياسى . هزيمة هذا الجيش وفراره . استيلاء البياسى على قرطبة . إغارة النصارى على أحواز إشبيلية . خروج أهلها لرد الغزاة . هزيمتهم وتمزيق صفوفهم . إغارة النصارى على أحواز مرسية . هزيمة المسلمين . مناداة العادل للأندلس ومسيره إلى مراكش . العادل ونشأته وصفاته . اهتمامه بشئون الأندلس وكتابه في ذلك . تفاقم الحوادث في الأندلس . أعمال البياسى والقشتاليين في أواسط الأندلس . تحالف البياسى وملك قشتالة . محاصرة ملك قشتالة لجيان . فشل الحصار وارتداد النصارى . افتتاح القشتاليين للقبذاق وباعة . غزوهم للوشة والحامة . محاصرتهم لغرناطة ثم جلاؤهم عنها . زحف البياسى على إشبيلية . خروج أبو العلى إدريس في الموحدين لمداقته . هزيمة الموحدين وأهل إشبيلية . خضوع قرطبة وبلاد شرق إشبيلية للبياسى . ما سلمه البياسى لملك قشتالة من المواقع والحصون . عود البياسى إلى مهاجمة إشبيلية . خروج أبي العلى لقتاله . هزيمته وتمزيق جموعه . عود بلاد شرق إشبيلية إلى طاعة العادل . كتاب أبي العلى إلى أخيه الخليفة . ثورة أهل قرطبة ضد البياسى . مطاردته ومصرعه وانحياز ثورته . صفاته الذميمة . افتتاح ملك قشتالة لحصن قبالة . استنصار أهل ياسة بصاحب جيان . خروج أهلها منها واستيلاء النصارى عليها . استيلاء فرناندو الثالث على ثوذر ومواضع أخرى . مسير السيد أبي العلى إلى مرتش وعجزه عن مهاجمتها . يعقد الهدنة مع القشتاليين . اضطراب الأحوال في المغرب . عيث الخلط وهكورة في أحواز مراكش . خروج أبي العلى إدريس بالأندلس على أخيه . دعوته لنفسه بالخلافة . كيف مهد لنفسه طريق الدعوة . مبايعته واتخاذ لقب المأمون . سعى الوزير ابن يوجان لتأييده . اتفاق الموحدين على خلع العادل . رفض العادل التنازل ومصرعه . بيعة الأشياخ للعادل ثم عدولهم عنه إلى ابن أخيه يحيى الناصر . تلقب يحيى بالمعتصم . غضب المأمون واعتزاهم العبور إلى العدو .

لما توفي الخليفة يوسف المستنصر بالله دون عقب في يوم السبت الثاني عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، اجتمع رأى أشياخ الموحدين ، وفي مقدمتهم الوزير أبو سعيد بن جامع ، على أن يقدموا مكانه للخلافة السيد أبا محمد عبد الواحد

ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(١) ، وكان شيخاً قد جاوز الستين ، يعيش مغموراً في هلوء ودعة . ويقول لنا المراكشي ، فيما بلغه ، أنه لما توفي المستنصر ، اضطرب الأمر ، وتطلع الناس لنشوب الخلاف ، ولكن معظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبي محمد عبد العزيز (عبد الواحد)^(٢) . على أنه يبدو أن اختيار عبد الواحد ، كان أمراً تقرر بمنتهى السرعة ، إذ بيع في اليوم التالي لوفاة المستنصر ، أغنى في يوم الأحد الثالث عشر لذي الحجة ، ويبدو في نفس الوقت أن هذا الاختيار لشيخ جاوز الستين ، يرجع إلى حكمة مزدوجة ، أولاً لكي يكون أداة مطواعة للزعماء الذين يقبضون على ناصية الحكم ، وثانياً لكي تكون خلافته ، ومفروض أنها سوف تكون قصيرة الأمد ، فترة انتقال ، يتمكن الأشياخ فيها من حسم خلافاتهم ، والاتفاق على الخليفة الحقيقي .

ويقدم إلينا المراكشي ، وقد عرف السيد عبد الواحد شخصياً ، تفاصيل عديدة عنه ، وعن حميد صفاته . فهو من أصغر أولاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وأمه حرة اسمها مريم وهي صنهاجية من أهل قلعة بني حماد ، كانت قد سبيت هي وأُمها فيمن سبوا عند افتتاح عبد المؤمن للقلعة ، فأعتقهما عبد المؤمن ، وزوج مريم لابنه أبي يعقوب يوسف ، فرزق منها بثمانية من الولد ، أربعة ذكور ، وأربع إناث ، وكان الذكور هم إبراهيم وموسى وإدريس وعبد الواحد وهو أصغرهم . ولبت عبد الواحد طيلة شبابه مغموراً ، لم تسند إليه ولاية ما ، حتى تولى الخلافة ابن عمه الناصر لدين الله ، فأُسند إليه ولاية مالقة ، وذلك في سنة ٥٩٨ هـ ، ثم صرفه عنها في سنة ٦٠٣ هـ ، وولاه أمر قبيلة هسكورة ، وهي ولاية ضخممة ، فاستمر في ولايته هذه طوال عهد الناصر ، وشطراً من عهد ولده المستنصر . ثم اختاره المستنصر والياً لسجلماسة ، ثم والياً لإشبيلية ، وذلك حينما عزل عنها أخوه أبو العلاء إدريس ، ونقل إلى ولاية تونس ، ثم صرف عنها وعاد إلى مراكش .

وقد بيع السيد أبو محمد عبد الواحد بالخلافة على كره منه ، فلم يك راغباً فيها ، ولم يك يصلح لها^(٣) . وكان حسباً يصفه لنا المراكشي عن علم ومشاهدة ،

(١) وفي الحلل الموشية أن كنيته « أبو مالك » ص ١٢٣ .

(٢) المعجب ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ١٦٢ .

رجلا ورعا صالحاً ، بعيد النظر ، قوى العزم ، شديد الشكيمة ، حريصاً على اتباع الحق ، لاتأخذه فيه لومة لائم ، كثير التلاوة لكتاب الله ، دؤباً على تلاوة الأوراد ، لايمنعه عن ذلك مانع ، ولايترك وظيفة من الوظائف التي رتبها لنفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن والأذكار ، رتبها على أوقات الليل والنهار . يقول المراكشي : « شهدت هذا كله بنفسى ، لا أنقله عن أحد ، ولا أستند فيه إلى رواية . هذا مع دماثة خلق ، ولين جانب ، وخفض جناح لأصحابه ، ولين علم فيه خيراً للمسلمين » . وأما عن شخصه فيصفه المراكشي بأنه كان « أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جداً ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء » (١) .

وتمت بيعة السيد أبى محمد عبد الواحد فى جو من التفاهم والوفاق ، ولم يختلف أحد فى المغرب على بيعته ، ولم يبد عليها اعتراض من أحد ، ولم يتخذ الخليفة الحديد لقباً خلافاً كأسلافه ، ولكنه عرف فيما بعد « بالخلوع » لأنه كان أول من خلع بنى عبد المؤمن عن كرسى الخلافة . وكان فى مقدمة تصرفاته أن أمر بمحاسبة ابن أشرفى صاحب الخزن ، ومطالبته بالمال . وكتب لأخيه أبى العلاء الكبير بتجديد الولاية على إفريقية ، وكان المستنصر قد أوعز بعزله ، بيد أنه توفى قبل استئناف ولايته ، وأمر بإطلاق سراح الوزير السابق أبى زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، ولكن الوزير ابن جامع اعترض على تنفيذ هذا الأمر ، وبعث بابن يوجان مع الأسطول بقصد تغريبه إلى ميورقة (٢) . ولكنه لما وصل إلى الأندلس ، أخذ ويحى فى حصن جنجالة ، فبقى فيه حتى توفى ابن جامع ، وعندئذ أطلق سراحه (٣) . ثم كان ظهور الخلاف والمعارضة للخليفة الحديد ، لا فى المغرب ولكن فى جهة أخرى ، فيما وراء البحر ، أعنى فى شبه الجزيرة الأندلسية . وذلك أنه لم يمض شهران على بيعته بالمغرب ومعظم أنحاء الأندلس ، حتى ارتفع أول صوت ضد بيعته فى شرقى الأندلس ، وكان هو صوت ابن أخيه السيد أبى محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور . وكان أبو محمد عبد الله عندئذ ، والياً لمرسية . وكان إخوته أبو العلى (أبو العلاء) والياً على قرطبة ، وأبو الحسن والياً على غرناطة ، وأبو موسى والياً على مالقة . وكان قد استوزر أبى زيد بن يوجان بعد إطلاق سراحه :

(١) المعجب ص ١٨٨ .

(٢) ابن خلدون فى العبر ح ٦ ص ٢٥١ .

(٣) الروض المطار ص ٦٧ فى مقال جنجالة .

وكان ابن يوجان هذا داهية زمانه ، فلما وردت الأنباء بأخذ البيعة لأبي محمد عبد الواحد ، تقدم ابن يوجان إلى السيد أبي محمد عبد الله ، وحذره من المبايعة للخليفة الجديد ، وقال له إنهم بتنصيب عبد الواحد ، قد أخرجوا الإمامة عن عقب سيدنا المنصور ، وأنه يشهد بأن المنصور قال إن لم يصلح محمد (أعني الناصر) فعبد الله ، وأنه أى عبد الله أحق بالخلافة ، فهو ولد المنصور ، وأخو الناصر ، وعم المستنصر ، وأنه صاحب عقل وحزم وسياسة وبعد نظر ، ولن يختلف اثنان على استحقاقه للخلافة ، خصوصاً وأن الناس يكرهون بنى جامع الذين توارثوا الوزارة ، وجعلوا يقصون عن الحضرة كل ذى رأى ومقدرة ، وأخيراً فلن له من وجود أخوته الثلاثة فى رياسة قرطبة وغرناطة ومالقة أكبر عضد^(١) . وكان لتوجيه ابن يوجان وتحريضه أكبر الأثر ، فنهض السيد أبو محمد واستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرسية وأحوازها ، ودعاهم إلى مبايعته ، فلبوا دعوته ، وتسمى بالعدل ، وكان ذلك فى يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ وذلك لشهرين من بيعة أبى محمد عبد الواحد ، وبايعه إخوته ولاية قرطبة ، وغرناطة ومالقة . وكذلك بايعه السيد أبو محمد عبد الله بن أبى عبد الله محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، وهو الذى عرف فيما بعد بالبياسى ، لقيامه فيما بعد ضد العادل ببياسة . وكان سبب انضمامه للعادل ما قرره الخليفة عبد الواحد من عزله ، بعمه أبى الربيع بن أبى حنص ، فانتفض عليه وبايع للعادل^(٢) . وفى رواية أخرى أن عبد الله البياسى كان عند قيام العادل والياً على إشبيلية^(٣) . وعلى أى حال ، فقد استطاع العادل أن يحصل على تأييد سائر قواعد الأندلس ، خلا بالنسية ودانية وشاطبة ، حيث امتنع والها السيد أبو زيد بن أبى عبد الله محمد أخو البياسى عن مبايعته ، وبقيت هذه القواعد على طاعته . ثم خرج العادل من مرسية وبصحبه وزيره أبو زيد بن يوجان ، وسار إلى إشبيلية ، وأخذ فى تدبير الأمور ، ولم يلبث أن برم بطغيان ابن يوجان واستثاره بكل أمر ، فبعثه إلى سبتة ، ليكون هناك نائبه ، ولينظر فى شئون العودة . وهنا يحق الغموض بسير الحوادث سواء بالمغرب أو الأندلس.

(١) الروس المطار ص ٦٨ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) هذه رواية ابن عذارى فى البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٨ .

ففي رواية أن العادل حينما وصل إلى إشبيلية ، وصلته هنالك بيعة أهل مراکش وبلاد المغرب. وفي رواية أخرى أنه كتب إلى الأشياخ الموحدين بحضرة مراکش يدعواهم إلى بيعته ، وخلع عبد الواحد ووعدهم بجريال الصلات ، ورفع المناصب والولايات ، فصدعوا برغبته ودخلوا على الخليفة عبد الواحد ، وهددوه ، وأرغموه على أن يعلن خلع نفسه ، وأن يشهد بذلك على نفسه أمام القاضي والفقهاء والأشياخ ، وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢١ هـ . ولم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى دخلت عليه جماعة من الموحدين ، وخنفوه ، ونهبوا قصره ، وسبوا حريمه ، فكان بذلك أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن^(١) ومن جهة أخرى فإنه يبدو أن أشياخ الموحدين بمراكش ، لما بلغتهم بيعة العادل بالأندلس ، اختلفوا فيما بينهم أولاً ، وبأدروا بعزل الوزير ابن جامع ، واقتسموا السلطات فيما بينهم ، وأنفذوا أوامرهم إلى الأسطول بمنع جوار العادل إلى المغرب. ولكن الظاهر أنهم قرروا أمرهم فيما بعد ، وبعثوا ببيعتهم إلى العادل^(٢).

وفي أثناء ذلك اضطربت الحوادث بالأندلس ، واتخذت وجهة جديدة لم تكن في الحسبان . وكان لبيعة العادل أكبر أثر في تطورها على هذا النحو . وذلك أن السيد أبا محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، لما رأى من رفض أخيه السيد أبي زيد وإلى بالنسبة ودانية وشاطبة ، بيعة العادل ، واعتصامه بهذه القواعد الشرقية ، عاد بدوره ، فأعلن خلعه لطاعة ابن عمه العادل ودعا لنفسه وتلقب بالظافر ، وأطاعته جيان وأبدة وقيجاطة وبياسة ، وسائر أراضي تلك المنطقة . فبادر العادل ، وبعث من إشبيلية أخاه أبا العلاء لإدريس ابن المنصور ، في قوة كبيرة من الموحدين ، لقتال السيد أبي محمد عبد الله وإخماد ثورته ، فخرج السيد عندئذ من جيان ولجأ إلى بياسة وامتنع بها ، وسمى من ذلك التاريخ بالبياسي ، وبعث إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به . ونحن نعرف منذ أيام الطوائف ، ماذا كان الثمن الذي يتقاضاه الملوك النصارى نظير هذه المعونة ، فقد كان دائماً قطعة من أشلاء الأندلس ، تبذل دون تحفظ ، إلى

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٤٧ . وروض القرطاس ص ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

جانب الخضوع والطاعة . ولم يشذ البياسى عن هذه القاعدة المؤلمة ، بل سئى أنه ذهب فيها إلى أبعد حد .

وأشرف الجند الموحدون بقيادة أبى العلاء على بياسة فى أواخر سنة ١٢٢١ هـ (أواخر سنة ١٢٢٣ م) ، ونزلوا فى ظاهرها ، وكان الوقت شتاء ، وقد بلغ البرد ذروته ، واشتد هطل الأمطار ، وغمرت السيول كل صقع ، فحاصر أبو العلاء بياسة أياما قلائل ، ثم خشى أن يفيض النهر (الوادى الكبير) فيتعنر عليه العبور عند العودة ، وخشى كذلك أن يداهم القشتاليون حلفاء البياسى ، وبعث إليه البياسى من جهة أخرى بعوده إلى طاعة العادل ، وأرسل إليه ولده الأصغر رهينة لديه ، فاكفى أبو العلاء بذلك وارتد عائدا بقواته إلى إشبيلية ، دون أن يحقق شيئا من مهمته ، فقبول فى إشبيلية بمنتهى الاستهجان والسخط ، ورمى بالخور والجن^(١) . وعندئذ بادر العادل بتجهيز جيش موحدى آخر ، أسندت قيادته إلى أبى سعيد عثمان بن أبى حفص . فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال من جنوب المدينة ، على مقربة من شمال الوادى الكبير ، فخرج إلى قتاله نحو مائة فارس من أصحاب البياسى ، وقوة من حلفائه القشتاليين ، فسرى الرعب إلى الموحدين عند رؤيتهم ، وبادروا إلى الفرار دون قتال وارتدوا إلى إشبيلية ، وبقي البياسى فى بياسة دون منازع ، وقد احتل حلفاؤه القشتاليون قصبها^(٢) .

وهنا يحق الغموض بموقف البياسى وتحركاته ، ويبدو من مختلف الروايات أنه استطاع فى تلك الآونة أن يسطر سلطانه ، فضلا عن منطقة بياسة ، على مدينة قرطبة ، وذلك على خلاف فى طريق تملكها ، فابن عذارى يقول لنا إن العادل هو الذى أسند إليه ولايتها ، وقت أن كان مُقرراً بطاعته ، وصاحب روض القرطاس يقول إن أهل قرطبة هم الذين انضموا إليه . وأما صاحب الروض المعطار ، فيقول إن البياسى هو الذى تملك قرطبة ، بل يزيد على ذلك أنه تملك أيضا مالقة ، « وكاد يستولى على الأمر لو ساعده القدر »^(٣) . وعلى أى حال

(١) الروض المعطار فى مقاله عن بياسة ص ٥٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) الروض المعطار ص ٥٨ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ ، والروض

المعطار ص ٥٨ .

فقد كان من الواضح أن البياسى ، كان يحتل فى الأندلس الوسطى مركزاً له خطره ، وكان منافساً قوياً للعدل ، يكاد ينتزع الأمر منه .

وكان العدل قد غدا بإشبيلية على أثر فشل قواته فى إخضاع البياسى ، فى مأزق حرج . وزاد من حرج مركزه عندئذ ، غزوة قام بها النصارى فى أراضي الشرف غربى إشبيلية . وذلك أن قوة من الجند الليونيين يقودها مارتن سانشيز ، وهو ابن غير شرعى لملك البرتغال سانشو الثانى ، دخل فى خدمة ملك ليون ، عبرت جبال الأشارات ، وسارت جنوباً حتى وصلت إلى أراضي الشرف ، وعانت فى تلك المنطقة ، واستولت على كثير من الغنائم والسبى ، وأثنى العدل ، وأخوه أبو العلاء ، ووزيره ابن يوجان ، ومن معهم من أشياخ الموحدين ، أنفسهم عاجزين عن دفع النصارى ، وحماية المدينة مما قد يصيبها . ووقع المرح بين أهل المدينة ، واجتمع الناس خاصتهم وعامتهم بالمسجد الجامع ، وطلبوا العدل وأشياخ الموحدين بجمع الصفوف ، والخروج إلى لقاء العدو ، فاستنفر العدل الناس ، واحتشدت منهم جموع غفيرة ، ومعظمهم من غير سلاح ، واجتمع من الفرسان نحو مائة ، وسارت هذه الجموع إلى حيث نزل النصارى على مقربة من طلياطة^(١) وهى تقع غربى لإشبيلية على مقربة من لبله ، وكان النصارى فى قوة كبيرة حسنة الأهمية والسلاح ، فأراد العامة أن يدفعوا قوة الفرسان الصغيرة إلى لقاء العدو ، فامتنع قائدها عبد الله بن أبي بكر بن يزيد ، وحاول أن يقنع العامة بعبث هذه المحاولة ، وبأن التزام الدفاع أفضل وأولى ، فنتاولوا عليه وسبوه ، فانسحب مع فرسانه . وعندئذ انقض النصارى على هذه الجموع الهزيلة المفككة من المسلمين ، ففتكوا بها وأفتنوا الكثير منها قتلاً وأسراً ، وفر الكثير منهم فى مختلف الأنحاء . ويقدر من هلك من المسلمين فى الموقعة بعدة آلاف ، ويبالغ بعضهم فيقدرها بنحو عشرين ألفاً ، ووقعت موقعة طلياطة هذه فى شهر جادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ (مايو ١٢٢٤ م)^(٢) .

ولم يمض شهران على ذلك ، حتى وقعت فى شرقي الأندلس غزوة نصرانية مماثلة ، وهزيمة مماثلة للمسلمين . وذلك أن حكام قونقة ووبذة والأركون ومويا ،

(١) وهى بالإسبانية Tliata

(٢) ينفرد صاحب الروض المطار بما يقدمه إلينا عن هذه الموقعة من تفاصيل وافية

(ص ١٢٨ و ١٢٩) .

— ٣٥٥ —

جمعوا قواتهم ، وسارت منها حملة غازية بقيادة ألبرو تليس اخترقت وادي سُقر جنوباً حتى أراضي مرسية ، فخرج لردهم جند مرسية وأهلها بقيادة أبي علي ابن أشرقي ، وكانوا على مثل أهل إشبيلية من التفكك والقوضى ، فنشبت بينهم وبين النصاري ، في مكان يعرف بعفص Aspe يقع شرق مرسية ، معركة شديدة هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وأسر وقتل منهم فيها الكثير . وكان ذلك في شهر رجب سنة ٦٢٢ هـ (يولييه ١٢٢٤ م) ، وفي ذلك يقول شاعر مرسى ، مقارنا بين موقعي عفص وطلاطة :

موقعة عفص وطلاطة تكامل إقبال أياهما
فبالغرب تلك وبالشرق ذى أناخا على شم أعلامنا^(١)

— ٢ —

في ذلك الحين ، كانت بيعات الموحدين بمراكش والمغرب ، قد وصات إلى العادل بإشبيلية ، وكان الخليفة عبد الواحد ، قد خُلع ولقي مصرعه ، وأصبح عرش الخلافة الموحدية خاليا ، فرأى العادل أن الوقت قد حان لكي يعبر إلى المغرب ، خصوصاً وقد أخذت الحوادث تتجه في الأندلس ، على أثر فشله في التغلب على البياسي ، وفي رد النصاري عن أراضي إشبيلية ، فندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر على شئون الأندلس ، وغادر إشبيلية ، وعبر البحر إلى المغرب ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٦٢٢ هـ (أكتوبر سنة ١٢٢٤ م)^(٢) . والظاهر أنه لقي في طريقه إلى مراكش صعاباً من تعرض العربان وغيرهم إليه . ولما وصل العادل إلى مراكش ، واستقر بقصر الخلافة ، استوزر أبازيد

(١) راجع الروض المطار ص ١٣٦ .

(٢) ابن خلدون ح ٦ ص ٢٥٢ ، والروض المطار ص ١٢٩ . ونحن نرجح الأخذ بهذا التاريخ الذي يقدمه إلينا صاحب الروض المطار لمودة العادل ، ولكن يبدو من أقوال ابن عذاري أن العادل عاد إلى مراكش يوم السبت ٢٠ شعبان سنة ٦٢٢ ، وهو آخر يوم من حكم عبد الواحد ، وأنه دخل عليه القصر في هذا اليوم . وفي اليوم التالي أشهده على نفسه بالخلع ، وأن عبد الواحد خنق بعد ثلاثة أيام من خلع (اليان المغرب ص ٢٤٧ و ٢٤٨) ومعنى ذلك أن العادل هو الذي قام بخلع عبد الواحد ثم أوعز بقتله ، ونهب قصره وسبى حريمه . وهذه الرواية التي يتفرد بها ابن عذاري ، تبدو في نظرنا ضعيفة بعيدة الاحتمال . وبالعكس فإن الظروف والقرائن الزمنية تحمل كلها على الاعتقاد بأن عودة العادل كانت بعد خلع عبد الواحد ومصرعه . ويدفع ذلك فضلاً عن قول صاحب الروض المطار ، من قول ابن خلدون (ج ٢ ص ٤٣٤) ، وصاحب الحلال المشوية (ص ١٢٣) وصاحب روض القرباس (ص ١٦٣) وكذلك ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٤ التزيري) لوحة ١٥٤ .

ابن أبي محمد بن أبي حفص ، وأقر عماله سواء بالمغرب أو الأندلس على أعمالهم ، وأقر خاصته وحشمه كل في وظائفهم وطبقاتهم .

وقد تقدم نسب العادل ، فهو أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن بن علي ، وأمه أم ولد نصرانية برتغالية ، من سبي شترين اسمها سر الحسن أسرت فيما يلدو ، حين غزوة المنصور الأولى للبرتغال في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، وبذلك يمكن أن نضع تاريخ مولد العادل في نحو سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) فيكون عمره وقت أن تولى الخلافة ، نحواً من أربعة وثلاثين عاماً . ولقبه الكامل هو « العادل في أحكام الله تعالى » . وأما عن صفته ، فقد كان العادل نحيل القد ، أشهل العينين ، أفنى الأنف ، خفيف العارضين^(١) . وكان العادل من خيرة بني عبد المؤمن ، فاضلاً وقوراً ، كبير النفس ، عالى الهمة ، من أهل العلم والمعرفة^(٢) .

وتولى العادل حكم غرناطة في سنة ٦١٩ هـ ، أيام ابن أخيه يوسف المستنصر ، ثم نقل باختياره إلى ولاية مرسية . ولما تولى الخلافة عمه أبو محمد عبد الواحد ، خرج عليه بمرسية ، كما تقدم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وذلك في يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١ هـ ، ولم يتخلف عن بيعته بالأندلس سوى السيد أبي زيد وإلى بلنسية ، وأخوه السيد أبو عبد الله صاحب جيان ، وهو المعروف بالبياسي . وأما في المغرب فقد تلقى بيعة سائر الموحدين ، ما عدا بيعة بني حفص ولاية إفريقية ، وكان هؤلاء عندئذ يدبرون الخطة لانفصالهم عن الدولة الموحدية ، والاستقلال بحكم ما تحت أيديهم . وكان في مقدمة ما فعله العادل ، أن وجه إلى قواعد الأندلس ، كتاباً يؤكد فيه عناية الموحدين بشئون الجزيرة ، واجتماع كلمتهم على الجهاد . وقد أورد لنا ابن عذارى من الكتاب المذكور فقرة ننقل منها ما يلي :

« وما هم بحمد الله (أى الموحدين) قد انتظم شملهم ، واتصل حبلمهم ، واجتمعت أهواءهم ، وانفقت على إعزاز الحق آراؤهم ، وحلوا بدار الموحدين ، ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين ، حيث الجموع وافرة . والأعداد متكاثرة ، وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة ، وذلك حلول استدعاء واستنفار ، لا حلول إقامة واستقرار ، عازمين على الجهاد ، والله تعالى ممضى عزائمهم ، ويجبرهم

(١) روض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال المشار إليه) لوحة ١٤٤ ا .

— ٣٥٧ —

على جميل معتقداتهم ، على جهاد أعداء الله الكفار ، فاعملوا وفقكم الله على ذلك ، والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم^(١) .
والواقع أن شئون الأندلس ، كانت أهم ما يشغل العادل ، وقد تركها عند مغادرته لشبه الجزيرة ، في حالة اضطراب مروع ، تتجاذبها تيارات جارفة ، من الفتن الداخلية ، ومن عدوان النصارى .

— ٣ —

غادر العادل الأندلس ، وترك أخاه أبا العلى لإدريس في إشبيلية ليواجه العاصفة . وكانت الأندلس قد غدت كما قدمنا مرة أخرى ، مذ أعان العادل دعوته بالخلافة ، مسرحاً لصراع المتغلبين . وكانت حركة البياسى أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، في أواسط الأندلس ، قد اتسع نطاقها ، وكادت أن تمتد بعد الأندلس الوسطى ، إلى إشبيلية ، والأندلس الغربية . وكان البياسى ، قد لجأ حسباً تقدم ، إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به ، ويطلب عونه ضد خصومه ، وكان فرناندو ، وهو الذى قدر له أن يفتح فيما بعد معظم قواعد الأندلس الكبرى ، يقدر كأسلافه ، مزايا هذا التدخل في حيوات الأندلس ، وفي حروبها الأهلية ، وما يترتب عليه من مغامير سياسية ، وإقليمية جلية ، فلبى نداء البياسى ، وبعث إليه بالأمداد ، وامتنع البياسى بمدينة بياسة ، وصمد أمام الجيوش الموحدية ، التى بعثها العادل لإخضاعه . ولما اطمأن إلى حصانة مركزه ، خرج مع حليفه ملك قشتالة ، ليعاونه على افتتاح أول قاعدة أندلسية من قواعد هذه المنطقة ، وهى مدينة قيجاطة^(٢) الواقعة جنوب شرق بياسة . وكان فرناندو الثالث قد خرج بجيشه في خريف سنة ١٢٢٤م (أواخر سنة ٦٢٢هـ) ، واخترق أراضي أبدة قاصداً إلى قيجاطة ، وكانت تزخر بالأموال والثروات ، فاقتحمها القشتاليون ، وهدموا معظم أسوارها ، وقتلوا من أهلها الألوف ، وقتلوا وأسروا كذلك معظم حاميتها الموحدية (سبتمبر ١٢٢٤م) . واستولى القشتاليون في نفس الوقت على عدة أخرى من حصون هذه المنطقة . ثم ساروا بعد ذلك ، ومعهم حليفهم البياسى ، فعاثوا في أراضي جيان ، وقتلوا من أهلها نحو ألف وخمسمائة (أكتوبر ١٢٢٤م) . ثم ارتد ملك قشتالة

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٩ .

(٢) وهى بالإسبانية Quesada .

في قواته مثقلاً بالغنائم والأسرى ، عند اقتراب الشتاء ، وعبر نهر الوادي الكبير عائداً إلى بلاده^(١) .

وفي صيف العام التالي ، أعنى في سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، خرج فرناندو الثالث من قشتالة بجيش ضخم ، وعبر ممر مورادال بجبال سيرا مورينا (جبل الشارات) ونزل في سهل العقاب ، على مقربة من شمالي يباسة ، وبعث إلى الياسي يستدعيه ، فهرع الياسي إلى لقاء ملك قشتالة ، وقدم إليه خضوعه بصفة رسمية ، وعقد معه عهداً يعترف فيه بطاعته ، ويتعهد بأن يسلم إليه حصون مرتش ، وأندوجر ، وجيان ، متى حصلت في يده ، وكذلك سائر الحصون ، التي يطلب ملك قشتالة الاستيلاء عليها ، في أراضي المسلمين ، وسلم الياسي ولده الأصغر إلى ملك قشتالة كغالة بولائه وإخلاصه . وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يقدم إلى الياسي المعونة العسكرية الكافية ، لاسترداد أملاكه وتأمينها^(٢) .

وعلى أثر ذلك قصد ملك قشتالة ومعه حليفه أو تابعه الياسي إلى مدينة جيان وهو يخرب سائر الأراضي التي يمر بها ، خلا تلك التي يسيطر عليها الياسي . ولما وصل إلى جيان ، ضرب حولها الحصار ، وأخذ القشتاليون مدى أيام يهاجمونها دون جدوى . وكانت جيان أمتع قاعدة في تلك المنطقة ، ولها أسوار عالية ، وقصبة في منتهى المناعة ، مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم ، تشهد بسابق حصانتها . وكانت تدافع عنها حامية موحدة قوية بقيادة عمر بن عيسى بن أبي حفص بن يحيى ، ومعهم فرقة من الفرسان النصاري بقيادة ألبار بيريث دى كاسرو ، وكان مثل أبيه يعمل في خدمة الموحدين بغيرة وإخلاص ، ولما اشتدت هجمات النصاري ، خرج المسلمون لهم ، واشتبكوا معهم في معركة : قتل فيها من المسلمين مائة وثمانون ، وأسروا ألفين . ثم امتنع المسلمون بالمدينة ، ولبنوا صامدين ، وكرر القشتاليون هجماتهم على المدينة ، وهم في كل مرة يرتدون عنها خائبين . وأخيراً اضطر ملك قشتالة أن يرفع الحصار عن المدينة . وأن يرحل عنها^(٣) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٩ ، والروض المطار ص ٦١ وكذلك :

J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia (Madrid 1946) ;

. cit. Anales Toledanes; p. 36 & 37

. J. Gonzalez : ibid; p. 38 (٢)

. J. Gonzalez : ibid, cit. Crónica Latina; p. 40 (٣)

وسار ملك قشتالة بعد ذلك ومعه اليباسى إلى القبذاق^(١) ، فاستولى عليها وسلمها لحليفه ، إذ كانت من أملاكه ، ثم سار جنوباً نحو باغة^(٢) ، فقاومته حاميتها بشدة ، واضطر إلى محاصرتها مدة ، ثم سلمت حاميتها بالأمان نظير فدية كبيرة ، وقصد بعد ذلك إلى لوشة ، وهى جنوب باغة على ضفة نهر شنيل . فاقتحمها وفتك بأهلها . ولما وصل إلى مدينة الحامة فى جنوبها ، الفاها خالية ، إذ هجرها أهلها خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل لوشة .

ثم سار القشتاليون بعد ذلك شمالاً صوب غرناطة ، وكان أهلها قد استدعوا ألبار بيريث لمعاونتهم على الدفاع . فلما اقترب القشتاليون من المدينة ، وضربوا حولها الحصار ، وسط أهلها ألبار بيريث ليقاوض ملك قشتالة فى أن يرحل عنهم ، نظير تسليمهم إياه ألفاً وثلاثمائة أسير من النصارى كانوا لديهم ، فتم الاتفاق على ذلك ، وعفا ملك قشتالة عن ألبار بيريث ، فترك خدمة الموحدين ، وعاد إلى إلى خدمة مليكه ، وارتد ملك قشتالة فى قواته شمالاً ، حتى اقترب من يباسة ، وهناك قام اليباسى بتسليمه حصنى مرتش وأندوجر ، وفقاً لعهد الذى أخذه على نفسه^(٣) .

وكان اليباسى قد شعر عندئذ بتوطد مركزه ، وضخامة العون الذى يلقاه من حلفائه النصارى ، فأكاد فرناندو الثالث ينجتم غزوته فى أراضي المسلمين ، حتى سار اليباسى فى قواته ، ومعه جيش من النصارى ، تقدره الرواية بعشرين ألفاً^(٤) صوب إشبيلية ، وعبر نهر الوادى الكبير إلى الشرف ، وخرجت القوات الموحدية وأهل المدينة بقيادة السيد أبى العلاء لرد الغزاة ، وهناك أيضاً ، على مقربة من طلياطة ، فى فحصى القصر ، اشتبك الفريقان فهزم الموحدون وأهل إشبيلية ، هزيمة شديدة ، وقتل منهم نحو ألفين^(٥) وكان من نتيجة هذا النصر ، أن خضعت معظم البلاد والحصون الواقعة شرقاً بين إشبيلية وقرطبة لسلطان اليباسى ، بل إن أهل مدينة قرطبة ذاتها ، حيناً رأوا تفوق اليباسى على هذا النحو ، خلعوا طاعة حاكمهم الموحدى السيد أبى موسى أخى العادل ، وأعلنوا طاعتهم لليباسى . وكان فرناندو الثالث قد عاد فى تلك الأثناء ، فعبّر بقواته إلى أراضي

(١) وهى بالإسبانية Alcaudete . (٢) وهى بالإسبانية Priego .

(٣) راجع الروى المطار ص ٦١ و ١٦٥ و ١٧٤ . وكذلك :

J. Gonzalez, ibid; cit Crónica Latina p. 42

(٤) روى القرطاس ص ١٦٤ . (٥) الروى المطار ص ٥٨ .

الأندلس مرة أخرى ، واستدعى البياسى إلى حصن أندوجر ، وطلب إليه أن يسلم إليه طائفة من الحصون التى يرغب الاستيلاء عليها فى منطقة قرطبة ، فوعد البياسى بأن يسلمه حصون شلبطرة ، وقبالة ، وبرج الحمة^(١) ، وارتضى أن يسلمه قصبة بياسة كغالة بتنفيذ وعده ، واحتل استاذ فرسان قلعة رباح ورجاله بالفعل قصر بياسة ، وبقي المسلمون على حالهم بالمدينة . ثم بذل البياسى جهده فى تسليم حصن شلبطرة ، وندب لذلك رسولا من قبله استطاع بعد مشقة أن يقنع حاميته بتسليمه للنصارى ، وكذلك سلم النصارى حصن برج الحمة ، ولم يبق عليه إلا أن يسلمهم حصن قبالة ، الذى امتنع عليه^(٢) .

ولم يقنع البياسى بما تم من توطد مركزه ، واستقراره بعاصمة الخلافة القديمة ، وسيطرته على معظم نواحي الأندلس الوسطى ، ولكنه أراد أن يستولى على إشبيلية ذاتها ، وأن يقضى نهائياً على سلطان منافسه العادل وأخيه أبى العلاء ، فسار فى قواته مرة أخرى صوب إشبيلية ، وحاول أن يضرب حولها الحصار . وكان أبو العلاء قد استعد للقاءه فخرج إليه فى حشود الموحدتين وأهل المدينة ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها البياسى ، ومزقت جموعه ، وارتد فى فلوله صوب قرطبة . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة ، فى الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ ، وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة ، وهو ٢٥ فبراير سنة ١٢٢٦ م^(٣) .

وكان لهذا النصر الحاسم الذى أحرزته القوات الموحدية على البياسى ، نتائج هامة ، فقد ارتدت طلياطة وحصن القصر ، وبقية الحصون والبلاد الممتدة شرق إشبيلية عن طاعة البياسى ، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل^(٤) وكتب السيد أبو العلاء إلى أخيه العادل بمراكش ، كتاباً ينبئ فيه بهذا النصر ، ومما جاء فى الكتاب المذكور :

« إن المحنة بهذا البائس قد بلغت مداها ، وانقبضت بعد البسط يداها ،

(١) وهى بالإسبانية على التوالى Salvatierra و Banos de la Encina ، Capilla وتقع الأخيرة شمال اندوجر .

(٢) الروض المطار ص ٥٨ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 46 & 47

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٠ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 48

(٤) البيان المغرب ص ٢٥١ .

وانتهى إلى غاية لايتعداها ، والحمد لله الذى أذل للخلافة العادلة ، أحد عداتها وأنصفها من منازعها بأداتها ، فكافر النعم تستحيل عليه نقماً ، وحاجب الشمس ضوءها ، حافظاً بين ظلام وعما ، والموحدون عازمون على اتباع هذا العدو ، إلى أن يدعوه عقيراً ، أو يستثبته أسيراً إن شاء الله تعالى ، وكتب في ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وسمائة .

وهنا خرج فرناندو الثالث في قواته مرة أخرى ، وكان هدفه في هذه المرة الاستيلاء على حصن قبالة^(١) ، وهو من حصون الحدود الواقعة في شمالي قرطبة ، وشمالي جبل الشارات ، وكان قد تعذر على اليباسي ، أن يقوم بتسليمه وفقاً لتعهداته ، وكان اليباسي قد وصل في تلك الأثناء إلى قرطبة منهزماً مدحوراً ، وكان أهل قرطبة لما رأوا إفراطه في مخالفة النصارى ، وإسرافه في تسليم الحصون الإسلامية إليهم ، قد خشوا أن ينتهى الأمر بأن يغدر بهم ، ويسلم قرطبة ذاتها للنصارى ، فاعزموا الفتك به والتخلص منه ، فثاروا به ، وشعر اليباسي بخطر الأمر ، ففر من المدينة ، والتجأ إلى حصن المدور الواقع جنوبي النهر على مقربة من جنوب غربي قرطبة ، ولكن الثوار طاردوه بشدة ، وحاصروه في الحصن ، ثم اقتحموه ، وقتلوا اليباسي ، واحتزوا رأسه ، وبعثوا بها إلى السيد أبى العلى بإشبيلية ، فأرسلها بدوره مع كتاب إلى أخيه العادل بمرآكش ، فرد العادل بكتاب يتضمن تعيين أخيه أبى العلى واليا لقرطبة بالإضافة إلى إشبيلية^(٢) ، وكان اليباسي عند مصرعه شيخاً قد جاوز الستين .

وهكذا تحطمت ثورة أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، المسمى باليباسي ، بعد أن لبثت ثلاثة أعوام تبث الاضطراب والدمار إلى أواسط الأندلس ، وتمهد للنصارى اقتطاع القواعد والحصون الواقعة في شرقي قرطبة وفي شمالها ، وقد اقتطعوا منها بالفعل طائفة كبيرة ، كان ضياعها سبباً في إضعاف خطوط الدفاع عن قرطبة ، والتمهيد لسقوطها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، اليباسي ، في صور بغضبة قائمة^(٣) . ونستطيع أن نعتبر اليباسي بالفعل على ضوء ماتقدم ، من أعماله وخياناته المتوالية لقضية

(١) وبالإسبانية Capilla .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٢ ، والروض المطار ص ٥٩ .

(٣) راجع الروض المطار ص ٥٨ و ٦١ ، والبيان المغرب ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

— ٣٦٢ —

الإسلام ، وقضية الأندلس ، تحقيقاً لأطباعه الوضيعة ، شخصية بغضه مشيرة ، تستحق أن يدمغها التاريخ بأقسى الأحكام ، ويرميه ابن عذارى بالارتداد عن الإسلام ، واعتناق النصرانية ، بيد أننا لم نجد في الروايات النصرانية ما يؤيد هذا الاتهام ، ولو وقع لكانت الرواية النصرانية أول من يسجله ويشيد به .

— ٤ —

وكان فرناندو الثالث حينما وصلته أنباء هذه الحوادث أمام حصن قبالة المنيع ، وقد ضرب حوله الحصار (أوائل يونيو سنة ١٢٢٦) وأخذ يهاجمه باستمرار ، وحاميته الإسلامية ، صامدة ، بد أنه لما طال الحصار ، واشتدت هجمات النصارى ، اضطر المسلمون إلى مفاوضة ملك قشتالة ، وعرضوا أن يقدموا رهائنهم بالتسليم ، وأن يبعثوا رسلهم إلى السيد أبي العلاء ، وكان عندئذ بقرطبة ، يطلبون إليه الإنجاد ، فإذا لم تصل إليهم النجدة خلال ثمانية أيام ، سلموا الحصن بالأمان ، فقبل فرناندو هذا العرض . ولم تمض أيام قلائل حتى عاد الرسل من قرطبة خائبين ، فسلم المسلمون الحصن ، وسمح لهم وفقاً للاتفاق ، أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأن يسيروا محروسين حتى حصن « غافق » الواقع جنوب قبالة ، وهو أقرب الحصون الإسلامية إليهم ، ودخل فرناندو الحصن وفي الحال حول مسجده إلى كنيسة ، ووضع به حامية نصرانية ، وكان تسليم حصن قبالة في أوائل أغسطس سنة ١٢٢٦م (أواخر سنة ٦٢٣ هـ) .

وجاء بعدئذ دور بياسة ، وكان من الواضح ، بعد مصرع البياسى ، أن مصر بياسة غدا في كفة القدر ، وأن ملك قشتالة كان يتطلع إلى أخذها باعتبارها من أملاك تابعه . وكان فرسان قلعة رباح قد احتلوا قصبة بياسة كما قدمنا ، كفالة بتنفيذ البياسى اتعهداته ، فلما قتل البياسى ، أراد أهل بياسة أن يخرجوا النصارى من قصبتهم ، فبعثوا إلى صاحب جيان عمر بن عيسى بن أبي حفص بن يحيى ، يستنجدون به ، فقدم عليهم في بعض قواته ، ومعه القائد محمد بن يوسف المسكدالى ، ودخل المدينة ، وكاد بها سوى من بالقصبة ، طائفة كبيرة من النصارى ، فقتلوا جميعاً مدافعين عن أنفسهم ، ولكن صمد من كان منهم بالقصبة لخصائنها ، فطلب أهل بياسة إلى الوالى الموحدى ، أن يبقى يوماً أو يومين لحصار النصارى بالقصبة لإزعاجهم على التسليم ، لأنهم كانوا يتلقون مؤنهم من أهل المدينة يوماً بعد يوم ، فأبى وأصر على الخروج من فورهِ ، وذلك خوفاً من قدوم القشتاليين ،

وقال لأهل المدينة ، إني ذاهب ، فمن أحب أن يخرج معي فليخرج ، ومن أراد البقاء فليبق ، فاضطر أهل المدينة إلى مغادرتها خوفاً من الوقوع أسرى في أيدي النصارى ، وتفرقوا في مختلف الأنحاء . وهكذا استولى النصارى الذين بالقصبة وهم فرسان قلعة رباح على سائر المدينة ، وذلك في اليوم التاسع من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ (أول ديسمبر سنة ١٢٢٦ م) ووهب فرناندو الثالث القرسان من أجل ذلك كثيراً من دور المدينة ورياضها وضياعها^(١) .

وفي العام التالي استولى فرناندو الثالث على شوذر^(٢) الواقعة جنوبي بياسة ، وعلى عدة من الحصون المحاورة ، وأخرج من بقي من المسلمين في بياسة ومرتش وغيرهما من القواعد والحصون التي استولى عليها .

وهكذا استطاع القشتاليون أن يخرجوا من ثورة البياسى ، بأكبر غم ، وأن يضعوا أيديهم على طائفة كبيرة من القواعد والحصون الأندلسية الهامة في منطقة جيان وقرطبة ، وأن يتحكموا بذلك في خطوط الدفاع عن الأندلس الوسطى ، وأن يقتربوا من قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، التي كان الاستيلاء عليها من أعز أمانهم .

وكان السيد أبو العلى (أبو العلاء) إدريس ، مذحلي بقرطبة عقب مصرع البياسى ، يحاول أن يضع حداً لعدوان النصارى في تلك المنطقة ، فسار في بعض قواته إلى مرتش وحاصرها ، وحاول أن يستولى عليها ، ولكن الأمداد القشتالية جاءت أخيراً لتتقدمها من السقوط ، واضطر السيد أبو العلى أن يرفع الحصار وأن ينصرف بقواته ، وذلك في أوائل سنة ٦٢٤ هـ - ١٢٢٧ م . فلما شعر أبو العلى باشتداد وطأة القشتاليين على الأراضى الإسلامية ، سعى إلى عقد الهدنة معهم ، وبعث رسوله أبا القاسم للمفاوضة ، وتم الاتفاق على أن تعقد الهدنة بين الفريقين لمدة عام واحد ، وأن يدفع الموحدون لقاء عقدها ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، دفع بعضها عند توقيع التعاقد ودفع الباقي بعد ذلك^(٣) .

لم نجد بعد أن سجلنا أحداث الأندلس الألفية في عهد الخليفة العادل ، مانسجله

(١) انروض المطار ص ٥٨ و ٥٩ ، وكذلك : J. Gonzalez : *ibid*, p. 52 .

(٢) وهى بالإسبانية Jodar .

(٣) J. Gonzalez : *ibid*; cit. *Crónica Latina*, p. 65 .

من الأحداث في عهده بالمغرب ، وهو عهد لم يطل إلا نحو عامين ، إلا ما كان من تفاقم الأحوال ، واضطراب جبل الأمن ، وازدياد القوضى ، وتوالى عيش العرب ، وبعض القبائل البربرية ، ولاسيما هسكورة ، في الأنحاء القريبة من العاصمة وازدياد شأن بني مَرِين ، وتغلبهم على كثير من النواحي والقبائل ، وفرض المغارم عليها ، بل وفرضهم الإتاوات على بعض المدن القريبة من منازلهم ، مثل فاس وتازي ومكناسة ، وذلك لكي يكفوا الغارة عنهم (١) .

وكان أهم ما حدث في تلك الفترة القصيرة ، قيام عرب الحُلُط ، وشيخهم هلال بن مقدم ، وهسكورة ، وشيخها عمر بن وقاريط ، بالعيش في نواحي مراکش ، وتخريبهم بلاد دُكالة . وخرج إليهم في البداية ابن يوجان فلم يستطيع شيئا ، فوجه إليهم العادل عسكرياً من الموحدين بقيادة إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حفص ، فهزم وقتل ، واستمرت أعمال العدوان والعيش على حالها (٢) .

وبينما المغرب يجوز في ظل العادل ، هذه الفترة المدهمة ، إذ وقع بالأندلس حدث جديد ضخم ، هو خروج السيد أبي العلي والى إشبيلية وقرطبة على أخيه العادل ، وخلع طاعته ، وإعلانه الدعوة لنفسه ، ومبايعته بالخلافة في إشبيلية ، وذلك في الثاني من شهر شوال سنة ٥٦٢٤ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٢٢٧ م) . ولم يتخذ السيد أبو العلي قراره ارتجالاً ، بل مهد إليه بالسعي والاتصالات ، وكان معه بإشبيلية عدة من وجوه الموحدين وأشياخهم ، الذين يعتد برأيهم ، فأراد أن يسبر غورهم أولاً ، فاتفق مع قاضي المدينة ، أبي الوليد بن أبي الأصبغ ابن الحجاج ، وكان ذلك في أواخر شهر رمضان ، أن ينشئ خطبة بليغة يلقيها في يوم الفطر ، وأن يتعرض فيها لمسألة الخلافة ، وأن يشير بلباقة إلى مايجول بخاطره من القيام بالأمر ، فألقى القاضي خطبته حسبما اتفق ، وأطرب في ذكر السيد واستحقاقه للأمر ، وفي اليوم التالي ، اجتمع أشياخ الموحدين بمجلس السيد أبي العلي ، وقام الجميع بمبايعته ، واتخذ لقب المأمون ، وبإيعه على أثر ذلك بعض ولاية الأندلس ، وفي مقدمتهم السيد أبو زيد والى بلنسية ، وبعثوا ببيعاتهم إليه . وكذلك بايعته من أنحاء العدو سبتة وطنجة (٣) .

(١) روض القرطاس ص ١٦٦ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٦ .

ويقول لنا ابن الخطيب ، إن أبا العلى ، قام على أخيه العادل بمالأة أخيه السيد أبى زيد أمير بلنسية وتحريكه إياه ، وقد وهم ابن الخطيب فجعل من السيد أبى زيد وأخيه عبد الله البياسى ، أخوين للعادل وأبى العلى ، فى حين أنهما من أبناء عمومتهما ، إذ أن أبا زيد عبد الرحمن والى بلنسية ، وأخاه عبد الله البياسى ، هما ولدا محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومحمد هو أخ ليعقوب المنصور^(١).

وبعث أبو العلى المأمون إلى ابن يوجان ، يدعوهُ إلى مبايعته والعمل على نصرته ، وكان العادل قد تغير على ابن يوجان وأقصاه ، وخاطب ابن يوجان هلال بن مقدم أمير الخُلُط ، وعمر بن وقاريط شيخ هسكورة ، وأوعز إليهما بالاستمرار فى الإغارة على أحواز مراكش ، حتى يذعن الموحدون إلى خلع العادل ومبايعة المأمون^(٢). ويقول لنا صاحب روض القرطاس من جهة أخرى إن المأمون أرسل إلى الموحدين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ، وإلى الفتك بأخيه العادل ، وأنهم صدعوا بأمره ، وقتلوا العادل ، وكتبوا بيعتهم إليه^(٣). على أن الأمور اتخذت فى بلاط مراكش وجهة أخرى. وكان يسيطر على الدولة رجلان هما أبو زكريا بن الشهيد زعيم هتاتة ، ويوسف بن على شيخ تبنملن . فلما وردت الأنباء بقيام أبى العلى المأمون وبيعته ، ولما تفاقم أمر الخُلُط وهسكورة ، انفقا على خلع العادل وعقد البيعة لأبى زكريا يحيى بن محمد الناصر . فدخل الموحدون القصر على العادل ، وطلبوا إليه أن يخلع نفسه ، ولما أصر على الرفض قتلاه ، وذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن القتلة ، وضعوا رأس العادل فى خصة تفور بالماء ، وشقوه بعماته حتى مات . ويزيد على ذلك بأن الموحدين عقدوا البيعة أولا للمأمون ، وبعثوا بها إليه ، وخطب له بالفعل على منبر جامع المنصور ، ثم خشوا بعد ذلك بطشه وانتقامه ، فنكثوا البيعة ، وبايعوا إلى ابن أخيه يحيى بن الناصر^(٤).

ويؤيد ابن الخطيب هذه الرواية ، فيقول لنا إن الموحدين عقدوا البيعة للمأمون بمراكش والأندلس ، ثم إن الموحدين بمراكش بدا لهم فى أمره ، وعدلوا

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٧٣) ج ٤١١ ، ومخطوط الإسكوريال (١٦٧٤)

ديبرور (لوحه ٥٤ .

(٢) الروض المطار ص ٦٩ . (٣) روض القرطاس ص ١٦٦ و ١٦٧ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٥٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ و ١٦٧ .

عنه إلى ابن عمه (والصحيح ابن أخيه) ، أبي زكريا يحيى بن الناصر^(١) ثم يؤيدها بعد ذلك بصورة قاطعة ، ما حدث ، عقب استيلاء المأمون على العرش ، من قتله لأشياخ الموحدين ، جزاء لهم على نكث بيعته بعد عقدها^(٢) .

وعلى أى حال فقد انتهى الموحدون بمراكش ، إلى البيعة ليحيى بن الناصر . ويقول ابن عذارى إن هذه البيعة قد تمت في اليوم الثاني والعشرين من شهر شوال أعنى في نفس اليوم الذى قتل فيه العادل^(٣) ، وهذا ما لا يتفق مع سير الحوادث ، وعقد البيعة للمأمون ثم النكث بها ، ومن ثم فأننا نؤثر الأخذ برواية صاحب روض القرطاس وهو أن بيعة يحيى قد تمت في اليوم الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ^(٤) ، أعنى بعد مصرع العادل بأسبوع ، وهو أكثر اتفاقاً مع المنطق . وكان يحيى بن الناصر ، هو الذى اجتنب ثمره الجريمة ، وليس أخوه الخليفة المقتول ، وقبض بعد ذلك بأشهر قلائل على الوزير السابق أبي زيد بن يوجان ، وولده الأكبر بالرغم من اختفائهما وقتلا ، وذلك لما نسب إليهما من تحريض عرب الحُلُط وهسكورة على الاستمرار في عيئهما^(٥) .

وتلقب يحيى بن الناصر ، بالمعتصم ، وكان وقت تقلده الخلافة ، فتي حدثاً في السادسة عشرة من عمره ، وامتنع من بيعته عرب الحُلُط ، وقبيلة هسكورة ، وبقياً على ولائهما في بيعة المأمون .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى المأمون بالأندلس ، استشاط سخطاً وغضباً ، وكان قد أخذ بالفعل في الأبهة للمسير ، وقصد إلى الجزيرة الخضراء ليجوز منها إلى العدو ، فارتد إلى إشبيلية ، وقد آلى على نفسه أن يعمل بكل ما وسع لانتزاع عرش الخلافة ، والانتقام من أولئك الأشياخ المنافقين الذين غدروا به ونكثوا بيعته . بيد أنه يجب قبل أن تنتبع مصاير الخليفة المأمون ، وما اقترن بعهد من أحداث المغرب ، أن نقف لحظة لكي نستأنف الكلام على سير الحوادث بالأندلس .

(١) الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١١ . (٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٥ .
(٣) البيان المغرب ص ٢٥٣ . (٤) روض القرطاس ص ١٦٥ .
(٥) الروض المطار ص ٦٩ و ٧٠ .

الفصل الثالث

عصر الخليفة أبي المأمون

إلغاء رسوم المهدي ابن تومرت

وقيام الدولة الحفصية بإفريقية

المأمون يعقد حلفاً مع قشتالة . شروط هذا الحلف . معاونة فرناندو الثالث العسكرية للمأمون . عبور المأمون إلى المغرب . اللقاء بينه وبين يحيى المتصم . هزيمة يحيى وفراره . دخول المأمون مراكش . فتكه بأشياخ الموحدين . القتال ثانية بين يحيى والمأمون . هزيمة يحيى وفراره للمرة الثانية . مرسوم المأمون بإزالة رسوم المهدي وإعلانه بطلان دعوته . كتابه في ذلك . رواية أخرى عن إزالته للدعوة للمهدية . ما كان يحش به المنصور من ذلك . بناء النصارى لكنيتهم في مراكش . إفريقية تحت ولاية الشيخ أبي محمد عبد الواحد . وفاته وقيام ولده أبي محمد عبد الله مكانه . الخليفة الموحدى يعين أميراً لتونس . تحرك يحيى بن إسماعيل بن غانية . نهوض السيد أبي العلاء من تونس لقتاله . أطوار القتال بين الفريقين . هزيمة ابن غانية وفراره . ولاية السيد أبي زيد لإمارة تونس ثم إقالته . العادل يعين أبا محمد عبد الله لولاية إفريقية . دخوله تونس وتعيينه لأخيه أبي زكريا لحكم قابس ، وأخيه أبي إبراهيم لحكم توزر . تأثر هبة الشيخ أبي محمد عبد الواحد وبنيه بإفريقية . عود ابن غانية إلى شمال إفريقية . اقتحامه لقسنطينة ومليانة والجزائر . خروج الشيخ أبي محمد لمطاردته . مسيره صوب أحواز سجلماسة . استمرار لغامرات بني غانية . تدهور مثلهم الثورية . هزيمتهم وانهايار أحلامهم . الأعوام الأخيرة من حياة يحيى بن غانية . وفاته وتعليق ابن خلدون عليها . مصرع الخليفة العادل وقيام يحيى مكانه . اضطراب أمر الخلافة الموحدية . قيام الخليفة المأمون وماتلا ذلك . توقف أبي محمد عبد الله عن مبايعته . عزله وتعيين أخيه أبي زكريا لولاية إفريقية . محاولة أبي محمد مقاتلة أخيه ورده عن ذلك . استلعاء الأشياخ لأبي زكريا واعتقال أبي محمد . مسير أبي زكريا إلى تونس . تعيين المأمون لبعض العمال الجدد . غضب أبي زكريا لذلك . خلعه لطاعة المأمون . رواية أخرى عن نزاع الأخوين وقيام أبي زكريا في الحكم . خلعه طاعة بني عبد المؤمن واستقلال إفريقية . استيلاء أبي زكريا على قسنطينة وبجاية من الولاة الموحدين . قيام إفريقية المستقلة تحت حكم الدولة الحفصية . بنو حفص والشيخ أبو محمد عبد الواحد . انشغال بلاط مراكش وعجزه . كتاب المأمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . السيد أبو موسى والى سبتة يدعو لنفسه بالخلافة . الثورة في منطقة فازاز . مسير المأمون لمعاينة الثوار . تفرق الثوار ومسير المأمون إلى سبتة . فشل محاصرته لها . عبور أبي موسى إلى الأندلس . تنازله عن سبتة لابن هود . اقتحام يحيى لمراكش . إحراره لكنيتهم وقتله للنصارى . عود المأمون ووفاته في الطريق . اتفاق الأشياخ على مبايعة ولده الرشيد . مسير جيش المأمون إلى مراكش . امتناعها وابتعادها للقائمة خشية انتقام الخند النصارى . صدور ظهير الرشيد بتأييدها . دخوله المدينة . تعويض النصارى اقتداء المدينة . الخليفة أبي المل المأمون ونشأته وصفاته . براعته البيانية . نموذج من بلاغته . بعض شعره . ووزاؤه وكتابه . شخصه وأولاده .

لما عاد المأمون إلى إشبيلية ، بعد أن أخفق في التغلب على ابن هود ، كانت تشغله فكرة واحدة ، هي العبور إلى المغرب ، وانتزاع العرش من يد ابن أخيه يحيى ، ومعاقبة الناكثين لبيعته . وكان مما يشجعه على العبور ، أن وردت إليه من المغرب بيعات وإلى فاس ، ووالى تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان ، ووالى سبتة ، وهو أخوه أبو موسى بن المنصور ، ووالى بجاية ، وهو ابن أخته ، وكذلك وصلت إليه بيعة مقدم بن هلال أمير عرب الخلط ودعوته بالقدوم^(١) . على أن المأمون لم يرد العودة دون قوة عسكرية تكفل له النجاح ، ومن ثم فقد اتجه نحو ملك قشتالة ، وكان فرناندو الثالث ، قد عبر الحدود إلى الأندلس في أواخر سنة ١٢٢٨ م (أوائل سنة ٦٢٦ هـ) ، وهو يرقب حوادث الأندلس وما تجوزه من فتن ومعارك داخلية ، تمهد سبل الوثوب . فبعث إليه المأمون يعرض تجديد الهدنة السابقة إلى عام آخر بنفس الشروط ، أعنى مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، ويطلب إليه في نفس الوقت عقد حلف يحصل بمقتضاه على قوات عسكرية تعبر معه إلى المغرب . ويقدم لنا صاحب روض القرطاس خلاصة الشروط التي اشترطها ملك قشتالة لعقد هذا الحلف وقبلها المأمون ، وهي أن يسلمه المأمون عشرة من الحصون الإسلامية في منطقة الحدود يختارها بنفسه ، وأن تُبنى بمراكش كنيسة للتصاري يقيمون فيها شعائهم ، وأنه إذا أسلم أحد من النصاري فلا يقبل إسلامه ، ويرد إلى إخوانه يقضون في أمره ، وفق ما يرون ، وإن تنصر بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل . بيد أنه يبالغ في قيمة العون الذي قدمه ملك قشتالة للمأمون ، فيقول إنه بعث إليه ببش كثيف من إثني عشر ألف فارس من النصاري ، برسم الخدمة معه ، والجواز إلى العدو ، وأن هذا الجيش الضخم ، وصل إلى المأمون في شهر رمضان سنة ٦٢٦ هـ ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدو على هذا النحو^(٢) ، وفي هذا القول مبالغة ظاهرة ، وليس من المعقول أن يعبر ملك قشتالة مثل هذا العدد الضخم من فرسانه للخليفة الموحدى ، ولجيش القشتالي كله لم يكن يضم في كثير من المواقع الضخمة أكثر من هذا العدد من الفرسان . والحقيقة التي تقدمها إلينا الرواية النصرانية . هن أن ملك قشتالة لم يمد المأمون

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ ، والركن في تاريخ الدولتين ص ١٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٧ .

بأكثر من خمسمائة فارس^(١). وهذا هو بالذات ما يقرره ابن عذارى ، إذ يقول مشيراً إلى عزم المأمون على الجواز إلى العدو : « فحشد الحشود ، وزم الجنود ، وجمع نحو خمسمائة فارس من الروم ، لما كان ينبغي من الحركة ويروم^(٢) . ويمكنني ابن الخطيب بأن يصف هذه القوة التي أمد بها ملك قشتالة حليفه المأمون بأنها « جمع من فرسان الروم »^(٣) .

وعبر المأمون البحر في حشوده من الموحدين والعرب والقيساريين ، ولم يترك
بإشبيلية وياقي القواعد الأندلسية الباقية على طاعته ، سوى بعض الحاميات الضئيلة .
وكان جوازه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٦ هـ
(أكتوبر سنة ١٢٢٨ م) . فأقام في سبتة أياماً ، ينظم قواته ، ويستعد للسير إلى
غزواته المنشودة . ثم سار في قواته صوب الحاضرة الموحدية ، وكان ابن أخيه
الخليفة الملقب بـ"يحيى بن الناصر" وأشياخ الموحدين الموالين له ، حيناً باغهم عبور
المأمون إلى العدو ، قد استعدوا للقائه . وخرج يحيى في قواته من العرب ،
والموحدين ، لرد المأمون ، وكان اللقاء على جبل إيجاز ، على مقربة من مراکش ،
وذلك في اليوم الخامس والعشرين لربيع الأول سنة ٦٢٧ هـ (يناير ١٢٢٩ م) ،
فهاجم الفرسان النصارى على قبة يحيى الحمراء واقتحموها ، ومزقت حشوده
وقتل معظمهم ، وفر هو ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى جبل هنتانة . ودخل المأمون
حاضرة مراکش ، فبادر أشياخ الموحدين إلى بيعته ، واستقر في كرسي الخلافة^(١) .

وكان أول عمل قام به المأمون، هو تتبع خصومه والناكثين لبيعته، ولا سيما من أشياخ هتاتة، وتينمل، ولجأ في ذلك إلى حيلة لاجتذابهم فأعلن الأمان، فهرع معظمهم للسلام عليه، ولما تم اجتماعهم، استحضر خطوطهم وبيعاتهم، ثم أخذ يحاسبهم على تصرفاتهم وعلى خديعتهم، ونكثهم التكرار ببيعاتهم، وذلك بحضرة القاضي الفقيه المكيدي، وكان قد حضر معه من إشبيلية، ثم خاطب القاضي بقوله: « ما تقول يا فقيه في قوم بايعوا شخصاً، ثم نكثوا عليه وخلعوه، ثم قتلوه، ثم بايعوا شخصاً آخر فنكثوا عليه وقاتلوه، ثم بعثوا ببيعتهم هذه إلى ثم نكثوا

J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucía p. 69, Nota 14 (1)

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٤ .

(٣) الإحاطة (القاهرة ١٩٧٢) ج ١ ص ٤١١ .

(٤) البيان المنزب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٧ ، وابن خلدون ح ٦ ص ٢٥٢ ،

رواين الخطيب في الإحاطة ح ١ ص ٤١٩ .

أيضاً على ، فقال القاضي : « وجب عليهم القتل أجمعين » وتلا الآية : « ومن نكث فإني ينكث على نفسه » فأمر المأمون بإعدامهم جميعاً ، وكانوا نحو مائة من أعيان الموحدين ، ودفنوا على الأثر في حفرة كبيرة حفرت لهم خارج باب السادة ، ثم تتبع من بقي منهم مراكش ، حتى فني معظمهم ، وتضاءلت بذلك مشيخة الموحدين ، وضعف نفوذها القوي ، الذي لبث ، منذ أيام المهدي ، يأخذ بأكثر نصيب في توجيه مصاير الدولة الموحدية (١) .

وفي شهر رمضان من هذا العام (٦٢٧ هـ) خرج المأمون من مراكش ليرد هجوماً جديداً كان يدبره يحيى بن الناصر وأنصاره من الموحدين . فالتقى الفريقان بفحص واونزرت ، فوقعت الهزيمة للمرة الثانية على يحيى وأصحابه ، وقتل منهم عدد ضخم ، وفر يحيى في فلوله إلى بلاد درعة وسملماسة ، وعلق المأمون من رؤوسهم على أسوار مراكش نحو أربعة آلاف ، وكان الوقت قيظاً ، فانتشرت روائحها الكريهة في المدينة ، وضج الناس من ذلك ، ورفع الأمر إلى المأمون ، فكان جوابه أنه يوجد ثمة مجانين ، وتلك الرؤوس لهم أحراز لا يصلح حلهم إلا بها ، وإنها لعطرة عند المحبين ، كريهة عند المبغضين (٢) .

وكان المأمون يجيش بأفكار ومشاريع عظيمة ، نحو تجديد الدولة الموحدية ، وتجديد رسومها وتعاليمها ، بعد أن أصبحت في نظره حقيقة بالية . وقد تذرّع في تنفيذ خطته بمنهبي الشجاعة والجرأة ، وقد كان المأمون في الواقع شجاعاً صارماً ، مضطرب النفس ، فأصدر مرسومه إلى سائر بلاده بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة ، ومحو اسمه من الخطابات ، وقطع النداء عند الصلاة بالنداءات البربرية مثل « تاصيلت الإسلام » و « سودود » و « ناردى » وأصبح والله الحمد ، وغير ذلك مما كان العمل جارياً عليه منذ بداية الدولة الموحدية . وأذاع في كتابه الرسمي ، الذي أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت بالمهدي وبالإمام المعصوم « إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه » . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذا الكتاب الشهير ، الذي يعتبر صدوره حدثاً حاسماً في تاريخ العقيدة الموحدية ، ونحن ننقله هنا لبالغ أهميته :

« من عبد الله لإدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ،

(١) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ ، والإحاطة ج ١ ص ٤١١ .

(٢) البيان المغرب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ .

إلى الطلبة والأعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله
 شكر أنعمه الجسام ، ولا أعلمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام ، وإنا كتبناه إليكم ،
 كتب الله لكم عملاً منقاداً ، وسعداً وقادراً ، وخاطراً سليماً ، لا يزال على الطاعة
 قائماً مقيماً ، من مراکش كلأها الله تعالى ، ولحق لسان ساطع ، وحسام قاطع ،
 وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق نحو النفاق بعد ، والذي
 نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل ،
 وأظهرنا الحق ، وأن لامهدي إلا عيسى بن مريم ، وما سمي مهدياً إلا أنه تكلم
 في المهدي ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها . وقد
 أزلنا لفظة العصمة عن لا تثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه ، فنسقط
 وتبت ، وتمحى ولا تثبت . وقد كان سيدنا المنصور ، رضى الله عنه ، هم أن
 يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرفع للإمة الخرق الذي رقعنا ، فلم يساعده
 لذلك أمله ، ولا أجته إليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية ،
 وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأى يد يأخذ
 كتابه ، أفلم قد ضلوا وأضلوا ، ولذلك ولوا وذلوا ، ما تكون لهم الحجة
 على تلك المحجة ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد أننا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الحنة
 من أهل النار ، ونعوذ بك يا جبار من فعلهم الرثيث ، وأمرهم الخبيث ، إنهم
 في المعتقد من الكفار ، وإنا فيهم كما قال نبيكم عليه السلام « رب لا تنذر على
 الأرض من الكافرين دياراً » والسلام على من اتبع الهدى واستقام^(١) .

وفي رواية أخرى هي رواية صاحب روض القرطاس ، أن المأمون بعد
 أن دخل مراکش وباعه الموحدون ، صعد إلى المنبر بجامع المنصور ، وخطب
 الناس ، ولعن المهدي ، وقال أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم ، وادعوه بالغوى
 المذموم ، إنه لامهدي إلا عيسى ، وأنا قد نبذنا أمره النخيس به ، ثم أصدر
 مرسومه المتقدم ، بإزالة اسم المهدي من الخطبة والسكة ، وأن كل ما فعله المهدي ،
 وتابعه أسلافنا فهو بدعة ، ولا سبيل لإبقاء البدع . ثم دخل قصره فاحتجب
 ثلاثة أيام ، ثم خرج في اليوم الرابع ، فاستدعى أشياخ الموحدين بين يديه ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٧ و ٢٦٨ ، وابن الخطيب في الإحاطة ج (١٧٣) (١٩٧٣)

- ٣٧٢ -

وعاتبهم على نقض عهودهم ، ثم أمر بإعدامهم حسبما تقدم^(١). بيد أنه يبدو من المرجح أن المأمون ، قد عمد أولاً إلى التخلص من خصومه من أشياخ الموحدين ، ثم أقدم على تنفيذ خطته في إزالة رسوم المهدي وتعاليمه .

ولاريب أن عمل المأمون كان أعظم انقلاب ثوري حدث في أصول العقيدة الموحدية على يد بنى عبد المؤمن ، وقد أصاب الصميم من أسس هذه العقيدة وتعاليمها ، وقضى بصورة رسمية قاطعة ، ببطالان أحداث الأسطورة التي مثلت في جبل إيجليز قبل ذلك بمائة واثنى عشرة عاماً ، وأعلن فيها محمد بن تومرت أنه المهدي المنتظر ، والإمام المعصوم .

ونحن نعرف أن الخليفة يعقوب المنصور ، كانت تساوره نحو المهدي مثل هذه الأفكار ، وأنه لم يكن من الغلاة في تصوير إمامته ومهديته ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، فكان عمل المأمون في الواقع ، وحسباً يشير إليه كتابه ، تنفيذاً لما كان يجيش به والده المنصور ، ولم يكن يجرأ في وقته على المجاهرة به ، أو الإقدام على تنفيذه .

والظاهر أن عمل المأمون في إزالة رسوم المهدي وتعاليمه ، لم يكن له كبير صدى ، ولم تترتب عليه أية معارضة أو بوادر انتقاض ، وبالعكس فقد أشاد الشعراء بتصرفه ، وأزجوا إليه مدائحهم في قصائد عديدة ، يورد لنا ابن عذارى بعضها^(٢) .

وأذن المأمون في نفس الوقت لحلفائه النصاري القادمين معه ، في بناء الكنيسة بمراكش ، وهي التي اشترط ملك قشتالة إنشاءها ، وأخذت النواقيس منذ إتمامها ، تدق لأول مرة في العاصمة الموحدية^(٣) .

- ١ -

وكان من أعظم الحوادث الحاسمة في عصر المأمون ، إلى جانب محو أصول العقيدة الموحدية ، انفصال إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيامها دولة مستقلة تحت سلطان بنى حفص . ونحن نعرف أنه لما تفاقم أمر يحيى بن إسحاق بن غانية

(١) روص القرطاس ص ١٦٧ و ١٦٨ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٨ و ٢٦٩ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ .

المبورقي في إفريقية ، واشتد عيها ، واستولى على معظم قواعدها ، ثم استولى على تونس ذاتها ، وكاد سلطان الموحدين يحيى في ذلك الركن من إمبراطوريتهم الشاسعة ، سار إليه الخليفة الناصر لدين الله في الجيوش الموحدية ، ولبثت هذه الجيوش تطارده من مكان إلى مكان ، حتى ضربته ضربتها الحاسمة في موقعة جبل رأس تاجرا في سنة ٦٠٢ هـ ، وانزعت منه قواعد إفريقية واحدة بعد أخرى ، ورأى الناصر تأمينا لإفريقية ، وتوطيدا لسلطان الموحدين بها ، أن يسند ولايتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص بن عمر الهنتاتي ، وهو الظافر في معركة رأس تاجرا ، وكان الشيخ أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين وأشدهم نفوذاً لدى الخليفة ، وكان فوق ذلك صهر الخليفة متزوجاً بأخته ابنة الخليفة المنصور ، فقبل الشيخ الولاية ، على كره منه ، واشترط لتقلدها شروطاً تكفل له الاستقلال التام برأيه وتصرفاته ، وأبدى الشيخ في ولايته منتهى الحصافة والحزم ، ووقف بالمرصاد للمبورقي ، وقضى على كل محاولاته ، ومحاولات حلفائه من طوائف العرب ، وغيرهم من المغامرين المفسدين - وحقق لإفريقية عهداً من الاستقرار والطمأنينة والرخاء لم تعرفه منذ بعيد .

ولما توفي الخليفة الناصر ، بعد موقعة العقاب المشتومة بقليل ، في اليوم العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، وخلفه ولده يوسف المستنصر ، وبادر أشياخ الموحدين من سائر الأنحاء إلى بيعته ، تمهل الشيخ أبو محمد في تقديم بيعته بعض الوقت ، وأحيط تصرفه يومئذ بمختلف التعليقات ، ولكنه انتهى بسعي الوزير ابن جامع إلى تقديم البيعة المنشودة . ولكن حدث حيناً قام الخليفة المستنصر بتعيين عمال النواحي ، أن ندب عمه السيد أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ليكون أميراً على تونس ، وليستقر بقصبتها ، ليعنى بتدبير شئونها ، والسهر منها على حركات المبورقي ، إلى جانب الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، وأن يبقى الشيخ على ما هو من تقلد أعمال ولايته ، ولم يك ثمة شك في أن هذا التعيين لم يكن محلاً لرضى الشيخ ، وأنه رأى فيه مضايقة له ، وافتئاتاً على حقوقه وسلطانه^(١) .

وهناك قول آخر بأن تعيين السيد أبي العلاء لإمارة تونس لولاية إفريقية ، لم يقع إلا بعد وفاة الشيخ أبي محمد ببضعة أشهر ، في أواخر سنة ٦١٨ هـ ، وأنه عين خلفاً للشيخ . وبما يعزز هذا القول ، هو أن السيد أبا العلاء ما كاد يتولى

— ٣٧٤ —

منصبه ، حتى أمر بالقبض على كاتب الشيخ ، محمد بن أحمد بن النجيل ، وأخويه أبي بكر ويحيى ، واستصفاء أموالهم ، وذلك بتهمة تأمرهم على سلامة الدولة ، ثم أمر بعد ذلك بإعدام ابن النجيل وأخيه يحيى^(١) .

وتوفي الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس في مستهل شهر محرم سنة ٦١٨ هـ (٨ مارس سنة ١٢٢٠ م) ، بعد أن لبث نيافاً وأربعة عشر عاما يضطلع بأعباء منصبه الشاقة ، وكان الشيخ بلاربيب أقدر الحكام الذين ولوا حكم إفريقيا ، وأمضاهم عزمًا ، وأوفرهم شجاعة وجراً ، وكان لعزمه وشجاعته أكبر الأثر في تحطيم ثورة بني غانية ، وإنقاذ سلطان الموحدين بإفريقية ، وحماية جناح الدولة الموحدية الشمالى الشرقى من الانهيار مدى حين .

وهنا تختلف الرواية مرة أخرى في أمر من ولى حكم إفريقيا عقب وفاة الشيخ ، فيقول لنا ابن عذارى متفقاً مع روايته الأولى ، إن ابنه أبا محمد عبد الله هو الذى خلفه في منصبه ، وذلك تحت إشراف السيد أبي العلاء إدريس^(٢) ، وهناك قول آخر ، يتمشى مع الرواية الثانية ، وهو أن الذى خلفه في منصبه هو السيد أبو العلاء إدريس ، معيناً من قبل الخليفة يوسف المستنصر .

وعلى أى حال فإن وفاة الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، قد تمخضت عن نتيجتين في متبى الأهمية ، الأولى تحرك ابن غانية من جديد ، والثانية تحول مجزى الحكم في إفريقيا .

— ٢ —

وذلك أن يحيى بن إسماعيل بن غانية ، ماكاد يعلم بوفاة خصمه العتيد ، الشيخ أبي محمد ، حتى تنفس الصعداء ، وأخذ في التحرك من منقاه السحيق في الصحراء ، وكان قد لزم ودان وأحوازها ، منذ هزأه الفادحة على يد الشيخ أبي محمد ، ولبث هناك زهاء تسعة أعوام يرقب الفرص ، فلما لاحت الفرصة بوفاة الشيخ ، سار في الصحراء نحو الشمال ، وعاث في بلاد الجريد ، فهض السيد أبو العلاء في جيش من الموحدين ، وسار إلى قابس ، ونزل بها بقصر العرومين ، حتى لاتسقط في يد الناصر ، وبعث ولده السيد أبا زيد في قوة إلى درج وغدامس ، وبعث قوة أخرى إلى ودان لرد ابن غانية ، ومحاصرته . ولكن العرب من أنصار

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 164

(٢) البيان المغرب ص ٢٧٤ .

ابن غانية وحلفائه اعترضوا سبيل الموحدين ، وفر ابن غانية في جمعه من الملاحين والأعراب إلى جهة الزّاب ، فسار السيد أبو زيد في أثره ، ونجح ابن غانية في الوصول إلى الشمال والاستيلاء على بلدة بسكرة جنوبي قسنطينة ، وتخريبها ونهبها ، فهاجمه السيد أبو زيد ، وانتزعها منه ، وفر ابن غانية في حشوده من العرب والبربر وسار شرقاً حتى اقترب من أحواز تونس ، فأتبعه السيد أبو زيد في عسكر الموحدين والعرب الموالين ، ولاسيما عرب هواة ، ونشب بين الفريقين في مكان يسمى مجلول قتال مرير ، وهزم فيه ابن غانية ، وقتل كثير من جنده ، وامتثلت أيدي الموحدين من غنائمهم . وكان ذلك في أوائل سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٣ م) . وفر ابن غانية في فلوله نحو الجنوب مرة أخرى ، وأخذ يتجول بين الواحات ، وهو يحشد الأنصار ، وينهب الأموال أينما استطاع ، ويرقب القرص الساحة^(١) . وعلم السيد أبو زيد على أثر الواقعة بوفاة أبيه السيد أبي العلاء ، فارتد إلى تونس ليشغل منصبه في الإمارة ، ووفقاً لهذه الرواية يكون تعيين السيد أبي زيد لولاية إفريقية ، قد جاء من قبل الخليفة أبي محمد عبد الواحد المخزوم ، الذي قوّل الخلافة ، في أواخر ذي الحجة سنة ٦٢٠ هـ . على أن ابن عذارى ، يقول لنا متفقاً مع روايته أن ولاية السيد أبي زيد للإمارة ، كانت على نمط ولاية أبيه السيد أبي العلاء ، وأن الشيخ أبا محمد عبد الله بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بقي على حاله مكان أبيه في ولاية إفريقية ، ينظر بالأخص في تدبير الشؤون وجباية الأموال . واكن السيد أبا زيد أساء السيرة ، واشتد في معاملة الناس ، خلافاً لما كان عليه الشيخ أبي محمد عبد الواحد وولده عبد الله . فسخط عليه الناس وتمنوا زوال حكمه ، واستمر السيد في منصبه حتى توفي الخليفة أبو محمد عبد الواحد وتولى الخليفة العادل ، فأقال السيد أبا زيد من منصبه ، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٦٢٣ هـ ، وأرسل إلى إفريقية عمه السيد أبا عمران موسى بن إبراهيم بن اسماعيل الحفصي ليتولى الحكم بها حتى يصل إليها حاكمها الأصلي الذي اختاره الخليفة ، وهو أبو محمد عبد الله ابن الشيخ محمد عبد الواحد . وبعد ذلك ببضعة أشهر سار أبو محمد عبد الله وأخوه أبو زكريا يحيى إلى إفريقية ، وتوقف أبو محمد قليلاً في بجاية ، ومعه أخوه أبو عبد الله اللحياني^(٢) ، وبعث أخاه أبا زكريا إلى تونس

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ١٩٧ ، والزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٤ وكذلك :

A. Bel : ibid; p. 167.

(٢) وقد عرف بهذا الاسم لطول لحيته (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨١) .

يُعهد لاستقباله . ثم سار إلى تونس ، ودخلها في اليوم السابع عشر من ذي القعدة سنة ٦٢٣ هـ (نوفمبر سنة ١٢٢٥ م) في مواكب حافلة ، واستقر في منصبه دون منازع ، وندب الشيخ أبو محمد عبد الله ، أخاه الأمير أبا زكريا يحيى لحكم قابس والحمة ، وأخاه الأمير أبا إبراهيم لحكم توزر ونفطة ، وسائر بلاد قسطنطية^(١) ، وتمكن بذلك سلطان بني حفص بإفريقية . وكانت سيرة الشيخ أبي محمد ، وحكمه العادل ، وسياسته اللينة الرفيقة ، مما يسبغ على أسرته وبنيه من بعده ، حسن الذكرى ويحبوها بالحب والولاء من سائر الناس .

وفي تلك الأثناء ، كان يحيى بن غانية ، وهو في مثواه بالصحراء ، يجد في تحصيل الأموال ، وحشد الرجال ، ويرقب القرصة للقيام بضربة جديدة ، وفي أواخر سنة ٦٢٣ هـ ، سار نحو الشمال في اتجاه منطقة قسنطينة ، ثم اجتازها بسرعة ، واقتحم بجاية ، ثم غادرها لوقته صوب تدلس ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، ثم اتجه نحو الغرب ، وغزا متيجة ، وتوغل في منازل زناتة ، واكتسح أحياءها ، وانتهب ثرواتها ، وحاول شيخ مغراوة ، عبد الرحمن بن منديل ، وهو من أولياء الموحدين ، أن يقف في سبيله ، فهزمه ابن غانية وأسرته ثم قتله ، ثم اتجه ابن غانية بعد ذلك شمالا واقتحم مليانة ، ثم استولى على الجزائر وصلب جثة ابن منديل على سورها . وخرج الشيخ أبو محمد عبد الله من تونس على عجل لمطاردة ابن غانية ، ووضع حد لعبثه ، وذلك في أواسط سنة ٦٢٤ هـ ، فسار أولا إلى أبة ، وهاجم منازل هوارة ، وكانت ضالعه مع ابن غانية ، وقبض على زعمائها وأرسلهم مصفدين إلى المهديّة . ثم سار في أثر ابن غانية ، ودخل بجاية ، وأصلح شئونها ، وقصد بعد ذلك إلى مليانة ، وكان ابن غانية في تلك الأثناء ، قد غادر الجزائر بعد اقتحامها ، وسار نحو الجنوب الغربي ، واستمر في مسيره حتى وصل إلى أحواز بجلماسة ، فترك الشيخ أبو محمد مطاردته ، وعاد إلى تونس ، وذلك في شهر رمضان سنة ٦٢٤ هـ^(٢) .

ومن ذلك الحين ، تغيّس أخبار يحيى بن اسحاق بن غانية . وكان إلى ذلك الحين ، قد قطع أربعين عاما في متابعة ذلك الصراع المرير ، الذي بدأه أخوه على ضد الموحدين ، في إفريقية ، والذي اتخذت إفريقية ، لموقعها من الجزائر

(١) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٥ ، والبيان المغرب ص ٢٧٤ .

(٢) ابن سلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid; p. 174

الشرقية مثنوى بنى غانية ، ونأياها عن مركز الحكومة الموحدية ، وثر واثها الطائلة ، مسرحاً له ، والذي كانت تحذوه في البداية مثلُ سياسية وقومية ، ثم انحدر بعد طول النضال ، إلى غزوات خاطفة ، ومعارك ناهبة . وقد وصل ابن غانية إلى ذروة سلطانه ، بالاستيلاء على سائر قواعد إفريقية بما فيها العاصمة تونس ، خلا بجاية ، ثم قلب له الحظ ظهر المحجن ، فانزع الموحدون الجزائر الشرقية ، مثنوى أسرته وموئل سلطانه ، ومستودع مواردها ، وذلك في سنة ٦٠٠ هـ ، ثم لقي هزيمته الحاسمة في موقعة جبل تاجرا في سنة ٦٠٢ هـ . ومع ذلك ، وبالرغم من تمزق حشوده ، وتضائل موارده ، فإنه لم يخب له عزم ، ولم تضعف له إرادة ، فاستمر في نضاله اليائس أعواماً طويلة أخرى ، ولكنه كان نضال العصبة المغامرة ، والانتقام المضطرم . وكان من الواضح أن الحلم الذي كان يجيش به بنو غانية ، وهو العمل على إحياء الإمبراطورية المرابطية في إفريقية ، وفوق أنقاض سلطان الإمبراطورية الموحدية ، قد تحطم وتلاشى ، بيد أنه لم يك شك أيضاً في أن هذه الضربات المتوالية ، التي أنزلها على بن إسحاق بن غانية ، وأخوه يحيى ، مدى نصف قرن بسلطان الموحدين وجيوشهم في إفريقية ، قد هزت من أركان الدولة الموحدية وساعدت على تفككها ، وتبديد مواردها وقواها ، وكانت عاملاً من أهم العوامل التي اجتمعت في تلك الفترة ، تمهد إلى انهيارها وسقوطها .

وقد عاش يحيى بن غانية أعوامه الأخيرة بين قليل من الصاحب والجند ، حياة شريد لا يستقر له مقام ، بيد أنه لم ينقطع عن الإغارة على تخوم إفريقية كلما استطاع ، ولم ينقطع أمير إفريقية ، وكان عندئذ أبا زكريا يحيى عن مطاردته ورده عن أراضيه ، وأقام فوق ذلك في مختلف الحدود مراكز ثابتة ، مزودة بالجند للسهر على حركات الثائر ، وإخمادها في بدايتها ، ومع ذلك فإن ابن غانية كان دائم النشاط والحركة ، دائم الإغارة والعيث ، حتى أنه كان من وقت لآخر يصل في غاراته شمالاً حتى وادي شليف ، واستمرت هذه الغارات حتى سنة ٦٢٦ هـ . بيد أن هذه لم تكن سوى النفثات الأخيرة لثورة عاتية ، ولم يكن يلتف حوله عندئذ سوى القلائل من صحبه المخلصين ، ولم يكن له أهل ولا ولد ، بعد أن مات أخوته وولده في ساحة الحرب ، سوى عدد من البنات ، وكان في هذه الأعوام الأخيرة ، يشهد انحلال الدولة الموحدية التي نذر نفسه لكفاحها ، ولكنه كان يرى في نفس الوقت أنه لم يحن من صراعه وصراع أسرته

الذى استطال خسين عاما ، أية نتائج مادية ، وأن علم الدولة المرابطة الذى حاول أن يرفعه سوف يخبو بوفاته إلى الأبد . ثم كانت الخاتمة النهائية ، وتوفى يحيى ابن اسحاق بن غانية ، وهو فى محله على ضفاف نهر شليف على مقربة من مليانة ، وذلك فى سنة ٦٣١ هـ أو سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٤ م) ودفن هنالك ، ثم عفى أثر مدفنه . قال ابن خلدون معلقاً على موته : « وانقض أمر الملتزمين من مستوفة ولتونة من جميع بلاد إفريقية ، والمغرب والأندلس ، بمهلكه ، وذهب ملك صنهاجة ، من الأرض ، بذهاب ملكه وانقطاع أمره » . وقيل إن يحيى بعث قبيل وفاته بيناته إلى الأمير أبى زكريا لعيش فى كتفه ، فأكبر الأمير الحفصى حسن ظنه ، وأحسن كفالتهم ، وأبنتى لصونهن داراً خاصة بحضرة تونس ، عرفت بقصر البنات ، وأقمن بها فى عيش رغد ، محروسات مشمولات بأقصى رعاية ، حتى توفين عانسات معمرات ، ولم يقبان الزواج من أحد (١) .

وهنا نعطف على ذكر الحدث الثانى الذى ترتب على وفاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص وإلى إفريقية ، وذلك فى مستهل شهر المحرم سنة ٦١٨ هـ . وقد رأينا فيما تقدم أن الذى خلف الشيخ أبى محمد فى ولاية إفريقية ، هو ولده أبو محمد عبد الله ، وذلك على خلاف فى تاريخ هذه الولاية وكيفية وقوعها ، مما سبق لنا تفصيله ، وعلى أى فقد كان أبو محمد عبد الله قائماً فى ولاية إفريقية ، منذ حلّ بتونس فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ ، وكان الذى قلده ولايتها وفقاً لذلك ، هو الخليفة العادل .

ولم تمض عدة أشهر على ذلك ، حتى وقع مصرع الخليفة العادل ، بعد مصرع سلفه الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، وجلس الخليفة الفتي يحيى المعتصم على كرسى الخلافة : مكانه فى شوال سنة ٦٢٤ . ثم تفاقم اضطراب أمر الخلافة الموحدية ، بقيام السيد أبى العلى بن المنصور بالأندلس ، والدعوة لنفسه باسم المأمون ، وجوازه إلى العلوة ، واستيلائه على كرسى الخلافة من يد ابن أخيه يحيى المعتصم ، وقتله لأشياخ الموحدين ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ . وقد كان لذلك كله أعظم وقع فى إفريقية . ولما بعث المأمون إلى أبى محمد عبد الله وإلى إفريقية ليأخذ له البيعة ،

(١) نقلنا هذه التفاصيل الأخيرة عن وفاة يحيى وبناته عن ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ،

وكذلك : A. Bel : ibid; p. 186 .

توقف عن عقدها ، فكتب المأمون عندئذ إلى أبي زكريا يحيى أخى السيد أبى محمد ، وكان يومئذ حاكماً لقابس ، بالولاية على إفريقية ، وعزل أخيه السيد أبى محمد ، فبادر أبو زكريا بعقد البيعة للمأمون ، ووقعت الوحشة بذلك بين الأخوين .

ذلك أنه لما علم أبو محمد عبد الله ، بما كان من أخيه أبى زكريا ، خرج فى عسكره من تونس ، فلما وصل إلى القيروان جميع أشياخ الموحدين ونباهم بما اعزم من قتال أخيه ، فأنكر الأشياخ عليه ذلك ، واعتدلوا إليه عن تنفيذ فكرته ، وذلك لحبهم للأمير أبى زكريا وتقدير صفاته ، فأصر أبو محمد على رأيه ونهرهم ، فأغلظوا له القول ، وكادوا يعتدون عليه . وبعث الأشياخ إلى أبى زكريا ينبئونه بما حدث ، ويستدعونه إليهم ، فقدم أبو زكريا على الأثر ، وتسلم قيادة العسكر ، وأمر بالقض على أخيه أبى محمد ، وحمل محروساً إلى تونس ، وهناك اعتقل حيناً بقصر ابن فاخر . ودخل الأمير أبو زكريا تونس فى اليوم الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٢٥ هـ ، وأمر فى الحال بالقض على أبى عمر كاتب أخيه ، فقبض عليه وعذب وقتل ، ثم بعث بأخيه أبى محمد إلى المغرب عن طريق البحر . وتولى أبو زكريا حكم إفريقية باسم الخليفة المأمون . ولكن لم يمض قليل على ذلك حتى بعث المأمون من قبله بعض عمال (حكام) إلى تونس ، فثار لذلك أبو زكريا ، وصرهم ، وخلع طاعة المأمون ، وأمر بالخطبة ليحيى المعتصم . وكانت هذه أول خطوة فى استقلال إفريقية^(١).

بيد ابن عذارى يقدم إلينا عن نزاع الأخوين ، واستيلاء أبى زكريا على الحكم ، رواية أخرى ، خلاصتها أنه لما تفاقم اضطراب الأحوال فى البلاط الموحدى ، وتوالى قتل أشياخ الموحدين ، جمع الأمير أبو زكريا أشياخ الموحدين بتونس ، وشرح لهم الأحوال ، وفاوض أخاه أباً محمد عبد الله فى وجوب خلع طاعة الخلافة الموحدية ، والاستقلال بالحكم ، فأبى عبد الله كل الإباء ، واعتقل أخاه أباً زكريا بداره ، ففر أبو زكريا من معتقله ، وسار إلى قابس ، وهناك تفاوض مع شيخها ابن بكى ، فوافقه على مشروعه ، ثم خاطبه الموحدون من تونس ، باجتماع كلمتهم على اختياره ، واتفقوا معه على التنفيذ ، متى خرج أخوه عبد الله برسم الحركة إلى القيروان . فلما خرج عبد الله بقواته ، ونزل بظاهر تونس ، طالبه الجند ببركاتهم ، فتلكأ فى الإجابة ، وكان أبو زكريا قد قدم فى صحبه ، ونزل على مقربة من محلة أخيه ، فبادر الجند إلى خباء أخيه ، ورموه بالحجارة حتى

كاد يهلك ، فقرأ ما مهمم ، وعفّ الجند عن قتله لإكراماً لأخيه ، وقصد عبد الله إلى مراکش ، وفي الحال جلس الأمير أبوزكريا مجلس الأمراء ، وبايعه أشياخ الموحدين ، ثم دخل تونس وبويع بها بيعة الخلفاء ، واختار وزراؤه وكتابه . وأبقى أبوزكريا في البداية ذكر الإمام المهدي ، في الخطبة وغيرها من المراسيم^(١).

وتمت هذه الخطوة الأولى في استقلال إفريقية في أول سنة ٥٦٢٧ هـ (نوفمبر ١٢٢٩ م) وأعلن أبوزكريا يحيى خلع طاعة بني عبدالمؤمن ، وتسمى أولاً بالأمير وجعل ذلك اللقب في صدر كتبه . ولما كانت قسنطينة وبجاية ، مازالتا بيد الحكام الموحدين ، وكان أبوزكريا ، يرمى إلى تحقيق استقلال إفريقية بسائر جهاتها . وأراضها ، فقد بادر في العام التالي (٥٦٢٨ هـ) بالزحف على قسنطينة ، وحاصرها أياماً ، وانتهى الأمر بأن تمكن من دخولها ، فدخلها وقبض على واليها الموحدى ، وولى عليها عاملاً من قبله ، ثم سار إلى بجاية فافتتحها ، وقبض على واليها الموحدى أبي زكريا عمران ، وبعث بالوالين المقبوض عليهما إلى المهديّة ، وبعث بأهلها وأولادها في البحر إلى الأندلس ، وقبض كذلك على عدة من أشياخ الموحدين والعرب المواليين لهم ، وأرسلهم أيضاً إلى المهديّة ، فزجوا إلى مطبقها ، واستكملت بذلك سيادة بني حفص على سائر رقعة الوطن الإفريقي . وصحب الأمير أبا زكريا أخوه أبو عبد الله اللحياني ، وكان متولياً أشغال بجاية . أما أخوه أبو محمد عبد الله والى إفريقية السابق ، فقد لقي مصرعه بمراكش ، وكان قد لجأ إليها .

وفي يوم الجمعة السابع من صفر سنة ٦٣٣ هـ دعى في الخطبة للأمير أبي زكريا بعد ذكر الإمام ، وبويع للمرة الثانية بيعة تامة شاملة ، لم يتخلف فيها أحد ، ولكنه استمر مقتصرأ على لقب الأمير ، ولم يتسم بأمير المؤمنين^(٢).

وهكذا قامت بإفريقية ، أحد أقاليم الدولة الموحدية الكبرى ، دولة جديدة ، هي الدولة الحفصية ، نسبة للأسرة التي أنشأها وحكمها ، وهم بنو حفص ، أبناء الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاقي ، وقد كان أبو حفص عمر بن يحيى من أصحاب المهدي العشرة ، وكان زعيم هتاتة أقوى قبائل مصمودة ، وهو الذي مهد لخلافة عبد المؤمن عقب وفاة المهدي ، وكان له أعظم شأن وأقوى نفوذ لدى الخلافة الموحدية ، وكانت وفاته بعد حياة حافلة بجلال الأمور في سنة

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

(٢) الزركشى في تاريخ الدولتين ص ١٨ ، والبيان المغرب ص ٢٧٦ .

٥٧١ هـ^(١)، وكان لولده الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، وهو أحد أبناء عدة تولوا جميعاً رفيع المناصب بالمغرب والأندلس ، مثل مقامه ونفوذه لدى البلاط الموحدى ، وكان يعتبر كبير أشياخ الموحدين ، وقد رأينا ما كان من إخماده لحركة ابن غانية ، بعد أن كادت تقضى على سيادة الموحدين بإفريقية ، وما كان من اضطلاعه بولاية إفريقية ، فى أخرج الظروف وأدقها ، وما وفق إليه بعزمه وحزمه وقوة نفسه ، من إنقاذها من عيث ابن غانية وحلفائه العرب ، ومن توطيد أمنها وسلامها . وقد كان انفصال إفريقية واستقلالها على هذا النحو ، ضربة جديدة للدولة الموحدية . وكان عاملاً جديداً فى إضعاف قواها ومواردها . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى مراکش . وكان البلاط الموحدى فى هذا الوقت ذاته مشغولاً ، بما يلور حول كرمسى الخلافة ، من حروب ومنافسات ، وما يقوم به بنو مرين من استتالة ، وعيث مستمر ، فى أطراف المغرب ، وما يضطرم من ثورات محلية فى بعض القواعد الهامة مثل مكناسة وسبتة ، ولم تكن لديه أية قوة أو وسيلة يستطيع أن يحاول بها الوقوف فى سبيل هذا الحدث المحتوم .

- ٤ -

تركنا أخبار الخليفة المأمون ، وقد هزم منافسه وابن أخيه يحيى المعتصم مرة أخرى ، بفحص واونزرت على مقربة من مراکش ، فى شهر رمضان سنة ٦٢٧ هـ ، ثم أصدر مرسومه بعد ذلك بمحو اسم المهدي ابن تومرت ورسومه . وفى العام التالى ، سنة ٦٢٨ هـ ، وجه المأمون كتبه إلى سائر بلاد الموحدين بالمغرب ، والأندلس ، يدعو فيها إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحض على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والصدقات ، والنهى عن شرب الخمر والمسكرات ، والتحريض على الدعاية . وقد أورد لنا ابن الخطيب فصولاً من كتابه المشار إليه نقل منها الفقرة الآتية :

« وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونعنى بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهم وأولى ، والهمم بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها ، أحق أن يقدم وأحرى وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع ونلذع ، ونتبع السنن المشروعة ، ونلذع البدع . ولنا أن لاندخر عنها نصيحة ، ولا نغيبها أداة من الأدوات مريحة ، ولنا عابها أن تطيع وتسمع »^(٢).

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٣١١ .

(٢) الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١٣ ، و ٤١٤ .

وقد صدر مثل هذا الكتاب بالأمر المعروف والتهى عن المنكر ، والحث على اتباع أحكام الشريعة ، ونبد البدع ، عن معظم الخلفاء الموحدين ، حسبما أشرنا إليه في مواضعه .

هذا وبينما المأمون مشغول على هذا النحو ، بإصلاحاته المذهبية والدينية ، إذ وقع انفصام جديد في الخلافة الموحدية ، وظهر مدّع جديد للخلافة ، هو السيد أبو موسى بن يعقوب المنصور أخو المأمون . وذلك أن المأمون كان قد ولى أخاه السيد أبا موسى حكم نجر سبتة ، في سنة ٨٢٢٩ هـ ، دعا السيد أبو موسى لنفسه بالخلافة ، وتسمى بالمؤيد بالله ، وفي نفس الوقت كانت قبائل فازاز ومكلاثة ، قد جاهرت بالعصيان ، وعانت في منطقة مكناسة ، وحاصرت مكناسة ذاتها ، فحشد المأمون قواته ، وخرج من مراكش يريد تأديب القبائل الثائرة أولاً ، ثم يسير إلى سبتة ثانياً ، وكان عندئذ قد اطمأن إلى عجز ابن أخيه يحيى المعتصم عن القيام بأية محاولة جديدة ، بعد أن تركه الموحدون ، وعادوا إلى جبالهم ، وسار هو في صحبه القليل إلى منطقة درعة وبجلماسة .

ولما أشرف المأمون بقواته الكثيفة على مكناسة ، بادرت القبائل الثائرة بالتفرق والفرار ، وعندئذ استمر في سيره إلى سبتة ، فلما وصل إليها ضرب حولها الحصار من البر ، ولكن المدينة المحصورة لم تشعر بشيء من الضيق ، إذ كانت حرة مفتوحة من جهة البحر ، فلم تنقطع عنها الموارد . فضلاً عن ذلك فإن السيد أبا موسى ، بعث إلى ابن هود صاحب الأندلس يستنصر به ، فأمدّه ابن هود ببعض سفنه . ومن ثم فقد لبث المأمون على حصارها ثلاثة أشهر ، وهو يضربها بالمجانيق كل يوم ، دون أن يلحقها شيء من الضيق أو تقع ثلثة في أسوارها ، أو يهدم شيء من دورها ، وربما كان في عزم المأمون أن يتابع هذا الحصار الفاشل حيناً آخر ، لولا أن بلغه عندئذ خبر رُوع له ، وأرغمه في الحال على رفع الحصار ، هو وقوع مراكش في يد يحيى المعتصم .

وما كاد المأمون يبتعد عن سبتة حتى عبر أخوه ، السيد أبو موسى إلى الأندلس . وكان ابن هود قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ، وبايعت له معظم قواعد الأندلس ، فبايعه ، ونزل له عن سبتة ، فعوضه عنها بولاية ألمرية . وبعث ابن هود إلى سبتة بحليفه ، وقائده السابق الغشتي واليها ، فلبث بها بضعة أشهر إلى أن أخرجه أهلها وخلعوا طاعة ابن هود ، وبايعوا أبا العباس أحمد بن محمد

اليانشتى ، فاستبد بحكمها ، وتسمى بالموفق بالله ، وذلك في سنة ٦٣٠ هـ (١) .

وكان يحيى المعتصم قد انتهر غيبة المأمون عن الحضرة ، فجمع حشوده على عجل ، وانضم إليه عرب سفيان بقيادة شيخهم جرهون بن عيسى ، وأبوسعيد بن وانودين شيخ هتانة ، وسار إلى مراكش ، واقتحمها عنوة ، وكانت بلا دفاع ، ودخل القصر ، وجمع سائر مافيه من الأموال والذخائر ، وبعث بها إلى الجبل ، وقتل وسبي الكثيرين ولاسيما من اليهود ، وأحرق الكنيسة ، وقتل من بها من القسس والنصارى . وبلغت هذه الأنباء إلى المأمون وهو على حصار سبتة ، فرفع الحصار من فورهِ ، وارتد في قواته منصرفاً صوب مراكش ، وذلك في أوائل شهر ذى القعدة سنة ٦٢٩ هـ ، وهو يعتزم أن ينكل يحيى وصحبه ، وأقسم لحلفائه النصارى الذين معه ، وقد اضطرموا نكلاً لما حل بكنيستهم ومواطنهم ، أن يطلقهم على مراكش ثلاثة أيام ينتصفوا فيها لأنفسهم . ولما وصل المأمون إلى وادى العبيد ، الفرع الشمالى لوادى أم الربيع ، مرض وتوفي فجأة ، وذلك في آخر شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ ، فكنمت زوجه حباية الرومية ، وهى أم ولده الأكبر وولى عهده الرشيد ، وفاته ، ولم يقف عليها سوى القادة وأشياخ الخلط وبعض القرابة ، ولم يقف عليها أحد من عامة الجيش . وفي اليوم التالى وهو مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ (١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢ م) ، اجتمع الأشياخ والقادة واتفقوا على بيعه ولد المأمون أبى محمد عبد الواحد الرشيد بالخلافة ، مبايعة سرية خاصة ، وكان فتي في الرابعة عشرة من عمره . وأذيع في الحلة أن أمير المؤمنين مريض ، لا يستطيع الركوب ولا الظهور ، وحمل المأمون في تابوت وضع في هودج ، وسارت الجيوش أمامه وهى على أهبها للقاء يحيى المعتصم (٢) .

ولما وصلت حشود المأمون إلى مقربة من مراكش ، خرج إليها يحيى المعتصم في قواته من الموحدين وعرب سفيان وغيرهم ، فنشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيى ، وقتل معظم جنده ، وتفرق الباقون في مختلف الأنحاء . ولكن قوات المأمون ، حينما أشرفت على مراكش ، وعلى رأسها ولده الرشيد ، ألقت بالحاضرة وقد استعدت للدفاع . وكان والياها من قبل يحيى ، أبوسعيد بن وانودين قد تخلى عن

(١) البيان المغرب ص ٢٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٦٩ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٨٠ - ٢٨٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ و ٢٥٤ ،

وروض القرطاس ص ١٦٩ ، وابن الخطيب في الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١٧ .

— ٣٨٤ —

عن منصبه ، واختار الناس مكانه السيد أبا الفضل جعفر بن السيد أبي سعيد ، وكان أهل مراکش قد تراءى إليهم ما أعلنه المأمون قبل وفاته ، من أنه سوف يبيع المدينة للنصارى ، انتقاماً من أهلها ، لما أبدوه من استسلامهم ليحيى ، وتمكينه من دخولها ، ومن ثم فإنهم لما رأوا متقدم جيش المأمون ، ازدحموا فوق الأسوار ، واستعدوا للدفاع ، فعندئذ أصدر الرشيد لأهل المدينة ظهيراً بتأمينهم والعفو عنهم جميعاً ، وعمن كان معهم من الموحدين ، ورفع المغارم عنهم ، وضمن ظهيره كثيراً من الوعود الطيبة ، وحل هذا الظهير القاضي أبو محمد عبد الحق ، ومعه جملة من الناس ، واقتربوا من السور من جهة باب السادة . وأعلن للناس وفاة المأمون وولاية ابنه الرشيد ، وهزيمة يحيى ، وعرفهم بما يتضمنه الظهير من تأمينهم والإنعام عليهم ، فاطمأن الناس وسكنت نفوسهم ، وأذنوا له ولرفاقه بالدخول إلى المدينة ، ثم سار معه إليها السيد أبو الفضل والوجوه إلى القصر الخلقى ، وقرئ الظهير على الكافة ، فعم البشر والاطمئنان ، وكتب الأشياخ والوجوه إلى الخليفة بالسمع والطاعة ، وعاد القاضي وأصحابه معهم وفد من الكبراء للسلام على الخليفة واستقباله . وكانت حجابة أم الخليفة قد تفاهمت مع القواد النصارى ، ودفعت لهم مقابل فيء المدينة التي وعدوا باستباحتها ، واقتدائها من الاعتداء والنهب ، مبالغ طائلة ، ويقال إن الرشيد دفع لهم مقابل ذلك خمسمائة ألف دينار^(١) ، وهكذا أنقذ الموقف ، ومهد كل شئ لدخول الخليفة القتي إلى حاضرتة .

— ٥ —

بيد أنه يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام عن خلافة الرشيد ، أن نذكر كلمة عن الخليفة المأمون ، وعن صفاته وخلاله .

كان أبو العلى (أو أبو العلاء) من أنبه الخلفاء الموحدين وأقدرهم ، وكان يتسم بكثير من صفات أبيه العظيم الخليفة يعقوب منصور ، ولو أتاح له القدر فسحة من الوقت ، فربما كان من المرجح أن يعمل الكثير لإنقاذ الدولة الموحدية من محنتها ، ولتأخير انحلالها وسقوطها ، ولكنه أنفق أعوام خلافته الخمسة في منازعات وحروب متوالية ، لم يبق منها حتى أدركه الموت . وكانت سقطته الجوهرية ، هي التجاؤء إلى النصارى لتحقيق مشروعه في انتزاع الخلافة . ولكنها

(١) البيان المغرب ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٠ .

كانت سقطت العصر وظروفه المؤلمة ، وقد تردى فيها من قبله ومن بعده كثير من زعماء الأندلس .

وكان مولد المأمون بمدينة مالقة سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأمه حرة هي صفية ابنة أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش ، وكان المأمون صنو أبيه المنصور في صفاته العلمية . فقد كان فقيهاً حافظاً ، ضابطاً للرواية ، متمكناً من علوم الدين ، إماماً في اللغة ، أديباً واسع المعرفة بالأدب والسير ، كاتباً بليغاً ، متين البيان ، وشاعراً محسناً ، وكان يعنى عناية خاصة بتدريس كتاب البخارى ، وكتاب الموطأ ، وسنن أبي داود . وكان فوق ذلك حاكماً مقتدرأ ، بارعاً في الإدارة ومعالجة الشئون ، ذكياً وافر الهمة والعزم . ويحمل ابن الخطيب صفاته في قوله : « كان رحمه الله شهياً ، شجاعاً جريئاً ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوى الشكيمة ، ليلاً ، كاتباً أديباً ، فصيحاً ، بليغاً ، أياً ، جواداً ، حازماً » (١) . بيد أنه كان في نفس الوقت صارماً ، سفاكاً للدماء . وقد رأينا كيف أسرف في استباحة دماء خصومه وقضى عليهم جميعاً .

وكان المأمون كاتباً جزلاً ، يشغف بتسطير كتبه بنفسه ، بالرغم من وجود عدة من أئمة البلاغة بين كتابه . وقد نقل إلينا ابن عذارى وابن الخطيب كتابه ، الذى كتبه بخطه إلى أهل أندلوجر بالأندلس ، وفيه ينحى باللائمة عليهم ، ويتوعدهم بالنكال لخنوحهم إلى الاستسلام للنصارى ، وهو ينطق بروعة أسلوبه ، وإليك بعض ما جاء فيه :

« إلى الجماعة والكافة من أهل . . . وقاهم الله عثرات الألسنة ، وأرشدكم إلى محو السيئة بالحسنة . أما بعد فقد وصل من قباكم كتابكم الذى جدد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من السهاد ، بالداهية الساد ، أتعثرون من الحال ، بضعف الحال ، وقلة الرجال ، إذا نلحقتكم بريات الحجال ، كأننا لانعرف مناحى أقوالكم ، وسوء متقلبكم وأحوالكم ، لاجرم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده إلى ذلك الموضع عصمه الله ، فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدراً ، وشمتم ربح الموت ورداً وصدراً ، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل جانب ، وأن القضاء قد غص بالتفاف القنا ، واصطفاف المناكب ، ورأيتم غير شيء ، فتحيلتموه طلائع الكتائب ، تبا لهمتكم المنحطة ، وشيمتكم الراضية بأئون خطة . أحين

ندبتم إلى حباية إخوانكم ، والذب عن كلمة إيمانكم ، نسقتم الأقوال وهي مكذوبة ، ولققتم الأعذار وهي بالباطل مشوية ، لقد أن لكم أن تبدلوا جل الحرصان ، إلى مغازل النسوان ، وما لكم ولصهوات الخبول ، وإنما على الغانيات جر الذبول ، أنظفرون العناد تخريصاً ، بل تصريحاً وتلويحاً ، ونظن أن لا يجمع لكم شتاً ولا يندى منكم تزوحاً . أين المفر وأمر الله يدرككم ، وطلبنا الخبيث لا يترككم ، فأزبلوا هذه النزعة النفاقية من خواطركم ، قبل أن نمحوا بالسيف أقوالكم ، وأفعالكم ، ونستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ^(١) .

ومن نظمه قوله عند ظفركه بخصومه الناكثين بيعته ، وقتلهم وتعليق رؤوسهم :-
أهل الحراية والفساد من الورى يعزون في التشبيه بالذكار
ففساده فيه الصلاح لغيره بالقطع والتعليق في الأشجار
ذكارهم ذكرى إذا ما أبصرو فوق الخدوع وفي ذرى الأسوار
لو عم غفو الله سائر خلقه ما كان أكثرهم من أهل النار
ووزر للمأمون الشيخ أبو زكريا بن أبي الغمر ، وكتب له عدة من أعلام
البلاغة في ذلك العصر ، مهم أبو زكريا الفزازى ، وأبو المطرف بن عميرة
الخنزوى ، قطب البلاغة بالأندلس يومئذ ، وأبو الحسن الرعيني ، وأبو عبد الله
ابن عياش ، وأبو العباس بن عمران ، وغيرهم ^(٢) .

وأما عن شخصه فقد كان المأمون أبيض اللون ، معتدل القامة ، جميل الحياء ، أكحل العينين ، فصيح اللسان ، حسن الصوت والطلاوة ^(٣) .

وترك المأمون عدة من البنين هم ، أبو محمد عبد الواحد الرشيد ولى عهده
والخليقة من بعده ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وعثمان ، وأبو الحسن على ، الملقب
بالسعيد ، والوالى بعد أخيه الرشيد ، وترك كذلك عدة من البنات ، وأمهات
الجميع روميات وسريات مغربيات ^(٤) .

(١) وردت هذه الرسالة في البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٦ و ٢٦٧ ، وفي الإسطابة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١٤ ، و ٤١٩ .
(٢) البيان المغرب ص ٢٨٣ ، والإسطابة ج ١ ص ٤١٧ .
(٣) روض القرطاس ص ١٦٦ .
(٤) البيان المغرب ص ٢٨٢ و ٢٨٣ .

كتب أخرى بقلم مؤلف هذا الكتاب موسوعة الأندلس الكبرى

دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (العصر الأول)
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (العصر الثاني)
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (العصر الثالث)
نهاية الأندلس (العصر الرابع)
الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال

* * *

ابن خلدون - حياته وتراثه الفكري
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية
تاريخ الجامع الأزهر
مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري
لسان الدين بن الخطيب
تراجم إسلامية
الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب (٤ جزء)
ريحانة الكتاب ونجعة المتاب لسان الدين بن الخطيب (٢ جزء)
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف شباخ (٢ جزء)

* * *

وتطلب هذه الكتب كلها من مكتبة (الغنائمي بالقاهرة) (ص ب ١٣٧٥)
١٣ شارع عبير العزيز - القاهرة - تليفون : ٣٩٠٦١٤٨ فاكس : ٣٩١٥١٤٨

رقم الإيداع ٢٠٠١/١١٦٨٦

I.S.B.N. 977 - 01 - 7340 - 1



بين الحلم والواقع كانت مسابقة زمنية ربما بدت لي طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعاً ملموساً حياً يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تمتدح أن تنتشر في كل دول العالم النامي وأسعفت أجيالاً التجريبية ومجاولية قيميها في دول أخرى. كما أسعبت كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كياناً ثقافياً له مضمونه وشكله وهدفه النبيل، ورغم اهتمامي بالوطنية المتعددة في مجالات كثيرة أخرى إلا أنني اعتبر مهرجان للقراءة للجميع ومكتبة الأسرة هي الإبن البكر، وتجلج هذا المشروع كان سبباً قوياً لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التوزيع تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدراً أساسياً وخالدًا للثقافة. وتوالي «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالي، تضيف دائماً من جواهر الإبداع الفكري والعلمي والأدبي وترسيخ على مدى الأيام والسنوات زادا ثقافياً لأهلى وعشيرتى ومواطني أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

سعر رمزي أربعة جنيهات للجزء مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

Bibliotheca Alexandrina



0295843



مهرجان الكتب